العلاقات بين الخلافة الموحدية والمشرق الإسلامي

٥٢٤ - ٩٣٦هـ / ١١٣٠ - ١٥٢٩م

الدكتورة
ابتسام مرعي خلف الله
كلية التربية بدمنهور
جامعة الإسكندرية

١٤٠٥ هـ – ١٩٨٥



دار المعارف

الاهـــــداء

الى أمى الحبيبـــة

فى الكويت الشـــقيقة

العلاقات بين الخلافة الموحدية والمشرق الاسلامى

فيما بين عامى ٥٢٤—٩٣٦هـ / ١١٣٠—١٥٢٩م

تعتبر دراسة تاريخ العلاقات السياسية والحضارية بين مختلف دول العالم الاسلامى من القضايا الهامة فى التاريخ العام الاسلامى • ولكن أمثال هذه الدراسة يستلزم استعدادا خاصا من الباحث وجهودا مضنية سيما اذا كان الامر يتعلق بتاريخ العلاقات بين دول المغرب والمشرق الاسلاميين فى الفترة موضوع هذه الدراسة وأعنى بها العصر الموحدى ، الذى يواكب القرون الاربعة السادس والسابع والثامن والتاسع الهجرية (١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٥م) ويضم ذيولا للقرن العاشر الهجرى (١٦م) اذا أخذنا فى الاعتبار أن الدولة الحفصية امتداد طبيعى لدولة الموحدين ، ذلك أن تحصيل المادة العلمية لمثل هذه الدراسة ملىء بالاشواك ، فالمعلومات المتعلقة بهذه العلاقات قليلة للغاية ، ثم أنها متناثرة ومتفرقة فيما هو متوفر لدينا من المصادر القليلة عن تاريخ الموحدين ، كما أن هذه المعلومات تتعلق بأحداث لا تشف عن روابط ودية بقدر ما تسفر عن أكثر من وجه من وجوه التنافس والعداء القائمين بين دولة الموحدين ودول المشرق الاسلامى المعاصرة لها • ومع ذلك فان التاريخ العلمى الموضوعى هو الذى يعرض لكل وجوه الحركة التاريخية ودية كانت أم عدائية حسبما يعرض للنواحى السياسية والاجتماعية والاقتصادية التى تدخل فى نطاق أحداثها •

ودراسة تاريخ العلاقات من شأنها أن تحيط بجميع الوجوه وتعبر عن ذلك تعبيرا دقيقا فى مرحلة هامة من مراحل التاريخ الاسلامى عندما كان المشرق الاسلامى يجتاز فترة انتقالية خطيرة : فالخلافة العباسية لم يعد لها السيطرة الكاملة على المشرق الاسلامى كما كان العهد فى عز سطوتها ،

اذ شاركتها الخلافة الفاطمية الشيعية المسيطرة على مصر مركز الثقل فى منطقة الشرق الادنى الاسلامى وان كانت هذه الخلافة الفاطمية فى مرحلة الاحتضار . ومع ظاهرة التدهور المتناهى فى كل من خلافتى المشرق الاسلامى العباسية والفاطمية تعددت الدويلات الاسلامية المنقطعة داخل حدود كل منها مع الاكتفاء باعتراف اسمى بسيادة هاتين الخلافتين .

فى هذه المرحلة المضطربة من تاريخ الشرق الاسلامى قام محمد بن تومرت — مهدى الموحدين — برحلته الحجازية الى بلدانه . ومن أحداث المشرق فى زمن هذه الرحلة استمد مهدى الموحدين الاصول الفكرية لدعوته الموحدية ، وهى أصول صقلت من فكرة المهدية الموحدية التى كانت مكتنزة فى حصيلته الفكرية وميراث بيئته الثقافية المغربية . وهذه نقطة هامة من نقاط هذا البحث الذى اهتمت صاحبته بالدراسة المقارنة فيها لابراز طبيعة العلاقات القائمة بين تلك الاصول وأثر كل من الفكرين المشرقى والمغربى فى فكرة المهدية الموحدية التى استحدثها المهدى بن تومرت . ويدخل هذا الجانب من الدراسة فى نطاق العلاقات الفكرية بين المشرق والمغرب الاسلاميين حيث أن المغرب كانت له ثقافته الاسلامية المميزة منذ انتشار المذهب المالكى فى أنحائه واصطدامه بفكر الشيعة والمعتزلة وأفكار الخوارج الاباضية والصفرية من البربر ومن وفد عليهم من العرب .

ويتعارض ما نذهب اليه مع ما ورد فى معظم البحوث التاريخية الحديثة التى عرضت لتاريخ الدولة الموحدية ، وأرجعت فكر الموحدين الى أصول مشرقية دون الاهتمام بذكر أثر الفكر المغربى فى هذه الاصول . وهذا الجانب الهام فى تاريخ الموحدين وصلاتهم بالمشرق لقى اهتماما خاصا من الباحثة صاحبة هذا البحث التى عاشت فى المغرب ما يقرب من

ثمان سنوات كانت فى حد ذاتها كافية لكى تبرز أثر التفاعل والتواصل بين الفكر المشرقى والفكر المغربى فى العصر موضوع الدراسة .

وكان المغرب الاقصى فى زمن رحلة ابن تومرت المشرقية خاضعا لدولة الملثمين ، وهم المرابطون أصحاب اللثام ، وكانت دولتهم فى هذه الآونة ما تزال تعيش مرحلة استقرارها السياسى وازدهارها الحضارى ، ولكن هذه الدولة لم تلبث أن تعرضت منذ عودة ابن تومرت من رحلته لمشاكل داخلية وخارجية أثرت تأثيرا مباشرا فى استقرارها السياسى . وكان أكثر ما تعرضت له هذه الدولة من متاعب فى الاندلس ، فقد واجهت أخطارا متلاحقة من جانب الممالك المسيحية فى أسبانيا ، وكان على قواتها فى الاندلس أن تخوض معارك ضارية انتهت فى معظم الاحيان بانتصارات حاسمة فى افراغه وفى اقليش . ومع ذلك فقد كانت هذه المتاعب أقل بكثير مما تعرضوا له من مضايقات أهل الاندلس الذين ، رغم مواقف المرابطين البطولية المشرفة فى الجهاد ومدافعة القوى المسيحية فى أسبانيا ، ظلوا يتعصبون لاندلسيتهم كما كان العهد فى عصر العواطف وانتهى الامر بقيامهم بثورات متعددة فى مختلف مناطق الاندلس على حكم المرابطين . ومن الناحية الحضارية انحسرت ثقافة المرابطين عن أقاليمهم البوادى خارج الحاضرة مراكش ، وعاد الى مجتمعات تلك البوادى ميرات فكرها التاريخى وما فيه من مؤثرات شيعية واعتزالية وخارجية . وكان فكر ابن تومرت وخليفته عبد المؤمن يجسد جانبا كبيرا من هذا الميراث البيئى للبادية المغربية ، وهى نقطة بحث ركزت عليها الدراسة للاجابة على سؤال هام يتعلق بظاهرة نجاح ابن تومرت فى تفجير ثورته بين شعب المغرب مما أدى الى انهيار دولة المرابطين وهى فى أوج ازدهارها كما سبقت الاشارة ، وقامت على

أنقاضها امبراطورية الموحدين المغربية الكبرى التى ضمت اليها كل بلاد المغرب والاندلس وتطلعت فى عهد المنصور الموحدى الى ضم المشرق الاسلامى •

كانت مصر والشام قد شهدت فى نفس الفترة صفحة جديدة مشرقة فى التاريخ الاسلامى ترتبط بقيام الدولة الايوبية السنية وما اقترن بذلك من الجهاد ضد قوى الحركة الصليبية فى أوجها • وهنا اختلفت الظروف التى عاشتها بلدان المشرق والتى وقف عليها ابن تومرت فى رحلته المشرقية وكانت من الاسباب المباشرة التى دفعته الى تفجير ثورته المهدوية الموحدية • ومن ثم قدر للعلاقات القائمة بين المشرق والمغرب الاسلاميين أن تسطر صفحات من أحداث التنافس السياسى والحربى بين امبراطوية موحدية بلغت قمة عظمتها السياسية ووصلت بحدودها السياسية حتى طرابلس على مقربة من حدود مصر الغربية وبين الدولة الايوبية الفتية التى حلت فى الحكم محل الدولة الفاطمية البائدة وسيطرت على ممتلكات الدولة النورية فى الشام والاراضى الحجازية المتطلعة الى قوة تتولى حمايتها ، وهى دولة فى ذات الوقت سنية المذهب بما يتوافق مع مذهب الخلافة العباسية نفسها ولا يتفق مع المرشدية الموحدية •

ويشكل هذا التنافس طورا من أطوار العلاقات القائمة بين الدولتين منذ بدء قيام كل منهما • ومع ذلك فلم يكن الامر بينهما مجرد تحاسد وتنافس تحول الى مصادمات عسكرية اذ لم يخل من محاولات لفتح صفحة ودية فى تاريخ هذه العلاقات لا سيما وأن الاخطار المحدقة بالدولتين من جانب القوى الصليبية المتمركزة فى الشرق الادنى بالنسبة للدولة الايوبية وقوى الاسترداد الاسبانى البرتغالى المتحالف مع العناصر الصليبية

الوافدة فى طريقها الى المشرق كانت تتطلب بل تستلزم قيام تعـاون بين الدولتين •

عن هاتين الصفحتين السياسية والجهادية عرض البحث لموضـوع حملة قراقوش الايوبية على طرابلس « الموحدية » كما عـرض لموضـوع السفارة الصلاحية الى منصور الموحدين • وأفاض فى تفصـيلات تتعلـق بالموضوعين لاتصالهما الوثيق بأحداث أخرى شـاركت فى صنعها عناصر عربية وأخرى مملوكية وبربرية زناتية على وجه الخصوص كانت منتشرة فيما بين مصر وأرض المغرب •

ويمضى ما يقرب من نصف قرن تعرضت فيه الدولتان للضعف وعوامل الوهن والاضمحلال • ولكن الخلافة الموحدية تحولت بمقـر حكمهـا من مراكش الى افريقية وتولى احياءها فرع من خلفاء الموحدين من اعقاب الشيخ أبى حفص الهنتاتى عرفوا لذلك بالحفصيين • ويتفق هذا الحدث مع انتقال الحكم فى المشرق من الدولة الايوبية الى دولة المماليك ، ويؤكد ذلك الحدث تحول مقر الخلافة العباسية من بغداد الى القاهرة • تم ذلك كله فى فترة زمنية تصاعدت فيها الاخطار الخارجية فى المشرق والمغـرب الاسلاميين على السواء • ففى المشرق تعرضت دولة المماليك فى مصـر والشام لخطر الغزو المغولى ، كما تعرضت دولـة الموحدين فى المغـرب والاندلس لحملات قتالية برتغالية صليبية « برية وبحرية » عاتية •

ومع استقرار الخلافة الموحدية الحفصية فى افريقية وتحول الخلافة العباسية الى مجرد خلافة اسلامية فى مصر تحت حماية سلاطينها المماليك، قدر لنجم الخلافة الموحدية والحفصية أن يرتفع ويجد صدى له فى بلدان

المشرق الاسلامى • غير ان سلاطين المماليك عارضوا ذلك الاتجاه بكل السبل ؛ وكان احياء الخلافة العباسية فى القاهرة المملوكية على يد الظاهر ركن الدين بيبرس سندا ارتكز عليه بيبرس لاظهار شرعيته فى السلطنة المملوكية من جهة ووسيلة توسل بها لمواجهة سياسة الانسياح الحفصية ويشكل ذلك الحدث مظهرا من مظاهر التنافس بين دولتى المغرب والمشرق وسرعان ما تبدلت تلك العلاقات فى ظل استقرار الحكم فى كل من الدولتين من علاقات عدائية الى علاقات ودية سياسية واجتماعية وثقافية واقتصادية هذه العلاقات المتنوعة حرصت الباحثة على تتبع مظاهرها من خلال ما اتيح جمعه وتحصيله من اخبار هزيلة ومعلومات شحيحة متناثرة فى بطون المصادر والمراجع • وبالرغم من ندوة هذه الاخبار فقد امكن من خلالها اعداد فصول ثلاثة كاملة من فصول هذا البحث • وقد عانيت كباحثة كثيرا فى البحث والتنقيب عن مادة أعتمد عليها فى دراستها الى حد الاستناد الى الاشارات الواردة فى ثنايا المراسلات المتبادلة بين خلفاء الموحدين ومختلف الدول لا سيما دوقية بيزة الايطالية التى لمعت كدويلة أوربية ذات علاقات تجارية واسعة النطاق فى حوض البحر المتوسط وعقدت علاقات وثيقة فى هذا الشأن مع بلدان العالم الاسلامى مشرقه ومغربه •

وقد رأيت من المناسب ألا أتعرض فى المقدمة لتفاصيل هذه العلاقات وغيرها ، ولذلك اكتفى بذكر أقسام بحثها ومنهجها الذى انتهجته فى هذه الدراسة •

فالبحث ينقسم الى بابين رئيسيين :

الباب الاول : ويتعلق بالصلات السياسية بين الخلافة الموحدية والمشرق الاسلامى ، ويتضمن هذا الباب ثلاثة فصول :

أولها عن قيام دولة الموحدين وتوسعها نحو الشرق • ويعرض هـذا الفصل لاخبار رحلة ابن تومرت المشرقية من عام ٥٠٠هـ (١١٠٦م) ومقابلته للغزالى فى المشرق • كما يعرض لاوضاع المشرق الاسلامى وأحـواله فى الفترة التى كان ابن تومرت يتنقل خلالها بين بلدانه ، ثم عن الاحداث التى واكبت عودة ابن تومرت الى المغرب وظروف التقـائه بسراج الموحـدين خليفته عبد المؤمن بن على • كذلك تعرضت لعدد من القضايا التى تتعلـق بانتشار الدعوة الموحدية فى مصر وغيرها ، وأثبت رأيا يختلف عن الآراء التقليدية فيما يتعلق بصدى دعوة ابن تومرت فى المشرق الاسـلامى • ثم تحدثت عن الخطوات التى خطاها المهدى لارساء دعوته الموحدية باتخاذه تينملل مركزا أساسيا لهذه الدعوة ، وتتبعت مراحل قيام الدولة الموحدية بدءا بالصدام المسلح الذى وقع بين الموحدين والمـرابطين فى أغمـات ، وتسمية المرابطين بالكفرة المجسمين والزراجنة ، واتخاذ سياسة الاستئلاف الفكرى فى المواجهة الاولى مع المرابطين عن طريق المساجلات والمناظرات الى أن تم اعلان قيام الخلافة الموحدية فى سنة ٥١٥هـ (١١٢١م) وتطبيق النظام الادارى العشرى • والاهم فى هذه الخطوات التاريخيـة ما ذهبت اليه فى ابراز ارتباط أحداث هذه المرحلة بالهـدف الاشمل الذى أعلنتـه الدعوة الموحدية ، ويقضى بتجديد الدعوة للاسلام القوى واعادة وحـدته السياسية • وتتبعت عرض هذا الارتباط من خلال الاشارة الى الحـروب الاولى التى خاضها الموحدون حتى وقعـة البحيرة عام ٥٢٤هـ (١١٣١م) التى تسجل بداية تطبيق نظام متميز فى التاريخ العسكرى للموحدين وأعنى به نظام « التمييز » ، ولقد توقفت عند هذا النظام ، لاثبت كيف قدر له أن يصبح أداة هدم فى مستقبل الدولة الموحدية بعـد أن كان من الخطـوات الاولى للحفاظ على كيان هذه الدولة فى مرحلة نشأتها • وكانت الجهود التى

بذلها عبد المؤمن فى هذا الصدد تستهدف الى انقاذ الدولة الموحدية بعـد صدمة وفاة المهدى المبكرة الى اعلان نفسه أميرا للمؤمنين . فالاساس فى هذه العلاقة عند الموحدين هو ما يعرف بالجهادين : الجهاد الاكبر أى جهاد الاعداء من غير المسلمين دفاعا عن الاسلام ، والجهاد الاصغر أى جهاد فى العالم الاسلامى ذاته . وفيما يتعلق بهذا الجهاد الاصغر افترضت الفكرة الموحدية انجازه فى فترة زمنية قصيرة وذلك على عكس ما حدث فى الواقع، حيث طال به الزمن ، ومن ثم عرقل ذلك مهمة الموحدين فى ممارسة الجهاد الاكبر . وفى اطار هذين الهدفين تنوعت العلاقات الموحـدية فى الاراضى المحيطة بدولتهم سواء فى الاندلس شمالا أو فى بلدان المغرب العربى حتى مصر شرقا .

وعالجت فى الفصل الثانى موضوع العلاقات السياسية والحربية بين الموحدين والايوبيين . فتحدثت عن تدخل الدولة الايوبية فى شئون الموحدين الداخلية فى طرابلس عن طريق الحملة المملوكية التى أسند صـلاح الدين قيادتها الى تورانشاه وتولى قيادتها الفعلية بهاد الدين قراقوش الاسدى ، وقد تحدد الاطار السياسى لهذه الحملة منذ دخولها افريقية فى عام ٥٧٥ هـ (١١٨٠م) ، فظهرت بصورة تحالف يجمع بين ممـاليك قـراقوش الغز ، وعرب بنى هلال ، ثم أنصار دولة المرابطين البائدة ممثلين فى بنى غانيـة أصحاب البليار . وقد أوضحت فى هذا المجال دور الموحدين فى مـواجهة التحالف الثلاثى سالف الذكر . وعلى الرغم من عودة قراقوش الى مصر فى سنة ٥٨٣هـ (٦ — ١١٨٧م) الا أن آثار حملتـه على المغـرب الادنى (افريقية) تركت جروحا غائرة فى العلاقات المصرية المغربية كما أن دولة

الموحدين ظلت تنظر الى تلك الحملة نظرة الرافض لكل خارج عن تعاليم الخلافة الموحدية المرشدية ٠

واذا كانت حملة قراقوش تعكس صفحة قاتمة فى تاريخ العلاقات السياسية بين الخلافة الموحدية والمشرق الاسلامى ، الا أن ما تلاها من أحداث — أى ما يتعلق بأخبار السفارة التى بعث بها السلطان صلاح الدين على يد أسامة بن منقذ والتى طلب فيها من الخلافة الموحدية عونا بحريا لصد الهجوم الصليبى على عكا فى الشام — ينهض دليلا كافيا على مبادرة طيبة وودية من جانب الدولة الايوبية تجاه الخلافة الموحدية وفقا لاقوال صلاح الدين نفسه ، واعتذاره عما قام به قراقوش فى البلاد الافريقية ٠ ولقد تعرضت لتلك السفارة منذ دخول أسامة بن منقذ افريقية عام ٥٨٦هـ (١١٩٠م) ، ومقابلته لمنصور الموحدين عام ٥٨٨هـ (١١٩٢م) ، وعدم تلبية المنصور للطلب الايوبى ٠ وأوضحت السبب فى اعتذار المنصور عن عدم تلبيته للطلب الايوبى بانشغاله فى صد الهجوم الصليبى البحرى الذى وجهوه على غرب الاندلس ، وهذا الجهاد فى حد ذاته يعبر عن مشاركة فعالة من جانب المغرب الاسلامى فى مواجهة الحركة الصليبية وفى نفس الوقت مساندة يقدمها المغرب راضيا للايوبين ٠

ومن الجدير بالذكر أن أخبار حملة قراقوش سجلت فى المضمار سنة بعد سنة ، وقد عكفت على تحليل نصوص الوثائق التى يشتمل عليها هذا المضمار ، وتمكنت من خلال هذا التحليل ومقابلة النصوص فيما بينها من استنباط حقائق علمية جديدة ٠

وعالجت فى الفصل الثالث موضوع العلاقات السياسية بين الخلافة الموحدية الحفصية والمشرق الاسلامى ، وفيه أوضحت مكانة افريقية

(تونس) بالنسبة للمشرق ، ومدى امكانياتها فى مجال البحرية التجارية مع افتقارها للقوة الذاتية البشرية والاقتصادية ، وقد ساعدت هـذه العوامل على تأصل قيام الدولة الحفصية منذ عام ٦٠١هـ (١٢٠٦م) على يد محمد بن عبد الواحد بن أبى حفص • كذلك أوضحت كيف تم للحفصيين استغلال الخلاف الفكرى للموحدين فى مراكش خاصة فى عهد المأمون ، بأخذ البيعة لانفسهم من أشياخ الموحدين • وقد هيأ لهم ذلك حمل لقب الامارة مع الاستمرار فى ذكر اسم المهدى معتمدين فى ذلك على نفس الشرعية التى استند عليها الموحدون من قبل • ففى عام ٦٤٠هـ (١٢٤٢م) بويع لابى زكريا الحفصى البيعة الاولى من أهل المغرب وفى عام ٦٤٣هـ (١٢٤٤م) تمت البيعة له من الاندلس •

وقد عالجت فى هذا الفصل أيضا أهمية العلاقات الحفصية مع الدولة الايوبية من حيث تأثر هذه العلاقات بالمصالح المشتركه بين الدولتين نتيجة تنبهها لابعاد الخطر الصليبى المشترك الذى تجاوز القدرة الجهادية للدول الاسلامية •

ولم يفتنى فى هذا الفصل أن أبرز تطلع سلاطين بنى حفص الى التلقب بلقب « الخليفة أمير المؤمنين » منذ عام ٦٥٠هـ (١٢٥٢م) الذى يسجل سقوط بغداد فى أيدى المغول وانتقال الخلافة العباسية الى القاهرة• وقد ترتب على ذلك أن تعلق الحفصيون بتراث الخلافة الموحدية وبذلوا جهدهم فى احيائه الى حد أنهم طلبوا من المماليك فى مصر أو يتوجهوا بولائهم الروحى نحو الخلافة الموحدية الحفصية وانهاء حالة الثنائية فى الخلافة الاسلامية العامة • وقد تأكد مسعى الحفصيين هذا بوصول بيعة مكة اليهم فى عام ٦٥٧هـ (٨ — ١٢٥٩م) • وأثبتت المراسلات الحفصية أن

لقب الخلافة كان مما تلقب به سلاطينهم[1] .

ويتأكد هذا اللقب لمن يضفوا على حكام الحفصيين لقب السلطنة من الرجوع لنصوص الالقاب الحفصية فى المصادر الاصلية الوارد نماذجها فى الملاحق . وتبقى بعد ذلك مشكلة البحث فى وضعية الاسرة الموحـدية التى تألف منها مجلس العشرة فى تونس والتى استمد منها الحفصيون الحصانة الدينية الموحدية ، ومن ثم تلقبوا بلقب الخلافة وامرة المؤمنين . والواقع أن هذه الاسرة كانت تمثل طبقة اجتماعية دينية عليا فى المجتمع الحفصى . وفى عهود الحكام الحفصيين الضعفاء ظهر هؤلاء مجرد سلاطين يستندون الى المكانة الاجتماعيـة والدينية العليا للاسرة الموحـدية ، وهذا ما جعـل أعداءهم بالذات ينكرون عليهم لقب الخلافة وامارة المؤمنين ، ويفسر لقب الخليفة بمعنى المهدى بن تومرت لا سيما وأن اسم الاخير كان يتصـدر خطبة الجمعـة الحفصية الرسمية .

وقد أوضحت انتجاع كثير من أفراد البيت الحفصى الى الاسكندرية فى أوقات أزماتهم فضلا عن كثرة تردد المغاربة على اختـلاف مهنهم على هذه المدينة فى الوقت الذى كان فيـه الايوبيـون ومن بعـدهم المماليك يشتغلون بمدافعة القوى الصليبية . وفى نفس هـذا الوقت أيضـا بدأت الدولة الحفصية بعد عهد المستنصر تسير سيرا حثيثا نحو الاضمحلال الى حد اعلان اسم السلطان المملوكى المصرى فى خطبة الجمعـة بدلا من اسم المهدى . ثم سجل عام ٧٢٧هـ (٧ — ١٣٢٨م) بدء مرحلة الانهيار بالنسبة للدولة الحفصية وهى مرحـلة اسـتمرت حتى سنة ٧٧٢هـ (١٣٧٢م) فى

---

(١) أنظر الملحق رقم ١ ، ويضم نماذج لصورة هذا اللقب وردت فى بعض المراسلات الواردة ضمن مجموعة امارى عن الموحدين والحفصيين .

الوقت الذى تسجل فترة البعث المرينى (من عام ٧٤٨ حتى ٧٥٠هـ) على يد أبى الحسن المرينى وابنه أبى الفضل . غير أن الدولة الحفصية لم تلبث أن استعادت قوتها ، وأخذ سلاطينها يتلقبون من جـديد بلقب الخـلافة الموحدية فى الفترة ما بين عامى ٧٧٢ — ٨٩٣هـ فى عهـود ثلاثة من عظماء حكامها هم : أبو العباس أحمد ، وابنه أبو فارس عبـد العـزيز ومحمد المستنصر .

وفى اطار هذه النقلة الواقعة فى التاريخ الحفصى بين القوة والضعف، عرض نفس الفصل فى شقه الاخير وكخاتمة لفصول البـاب الاول لدور كل من العرب والترك والمغاربة فى تلك العلاقات الموحدية — الحفصية — المشرقية ، بدءا باحلال الترك محل العرب ، وبروز دورهم العسكرى ، مع بيان أهمية مكانتهم المدنية التى رفعت مكانة العرب فى النصف الاول من عصر دولة الموحدين لا سيما فى عهدى يعقوب المنصور والناصر .

وقد واصلت فى هذا الفصل توضيح مـدى التفـوق للدور التركى المملوكى الذى قابله انحسار للدور العربى سـواء فى مصر أو فى المغـرب وبالتالى كان سببا فى ثورات العـرب أو العربان المستمرة . ثم عـرضت للاراء المختلفة حول هؤلاء العربان عنـد كل من : ابن اياس والعبـدرى وعبد الوهاب بن منصور ، ثم أبرزت كيفية الاسـتفادة منهم فى الحـرب الدائرة بين الحفصيين أنفسهم . وأخيرا تعرضت لدور المغاربة العسكرى فى المشرق وعلى الاخص عند الاعتداء القبرصى على الاسـكندرية فى عام ٧٦٧هـ (١٣٦٥م) ، وكيف كانوا يشكلون أغلبية البحريين فى الاسـطول المصرى فى العصرين الايوبى والمملوكى .

أما الباب الثانى فيتناول عرضا لاهم مظاهر الصـــلات الحضـــارية القائمة على التبادل الحضارى بين الخلافة الموحدية والمشرق الاسلاميين، ويشتمل على ثلاثة فصول مكملة للفصول السابقة هى :

الفصل الرابع ويتعلق بالصلات الاجتماعية ، وفيه عرضت للرحلات المغربية الى المشرق والطريق الذى كان يسلكه الرحالة المغاربة اليه وأهمية الاسكندرية كباب المغرب وما أورده هـــؤلاء الرحالة المغاربة عنها ، بـــل تعرضت لوصف بعض المدن المصرية الاخـــرى التى كان لهـــا دور هام فى اجتذاب علماء المغاربة الى المشرق مثل قوص — بلبيس — عيذاب •• الخ • كذلك تعرضت لذكر ما كان يلاقيه تجار المغاربة من معاملات كريمة أو سيئة من أهل الاسكندرية ، ووضع طبقة التجار المغاربة الذين وصـــفوا بأنهم « من مياسير القوم » ومدى مشاركتهم فى الحياة المغربية • وانتقلت بعد ذلك الى الحديث عن وضع الجالية المغربية بوجه عام وما كانت تلاقيه من ترحيب الحكام والسلاطين ، وما أقامـــوه لهم من منشآت لايواء ضـــعفاء الحال منهم •

وأوضحت فى موضع آخر فى الفصل مدى التأثير المغـــربى فى الحياة المصرية من ظهور فن المديح ، وما قابله من تأثير مشرقى فى الحياة المغربية• وتناولت بالدراسة مدى الاثر المغربى فى المجتمع السكندرى فى العـــادات واللغة وبعض أنواع الزى والاطعمة التى ما زال بعضها معروفا لدى أهل الاسكندرية بوجه خاص حتى يومنا هذا ، كما عرضت لمؤثرات المشرق فى الحركة الادبية بظهور عدد من الكتاب والشعراء ، وظهور فن الملحون أو ما يعرف بالزجل المغربى • هذا وقد رأيت أن أبرز دور المرأة المغربية فى

الحياة الادبية والعلمية أسوة بأختها فى المشرق ، ثم دور المدرسة المغربية الصوفية على يد أبى العباس السبتى وعبد السلام بن مشيش •

وفى ختام هذا الفصل تعرضت لموقف الموحدين من اليهود عامة ، واعتبارهم من أهل الذمة ، وتحديد شكل ملابسهم وبيوتهم وركوبهم • وقد اعتبر الموحدون اليهود والنصارى أعداء للاسلام بحيث تعرضوا للاهانة فى عهد يعقوب المنصور الموحدى • ومع ذلك أبرزت مدى انتعاش حالتهم بعد وفاة الناصر الموحدى وفى ظل خلافة المأمون أثناء القدح فى العقيدة التومرتية الى حد الاستعانة بالنصارى على المسلمين وبشروط مجحفة بلغت حد اقامة كنيسة فى مراكش • وبينت كيف تلت مراحل انشاء هذه الكنيسة وهدمها صفحة من العلاقات المتنوعة الموحدية المسيحية تراوحت بين التباعد أو التنافر والالتقاء لا سيما فى عهد الخليفة المرتضى حسبما يظهر من الرسائل المتبادلة بينهما • وهناك نص وردت صورته فى ملحق البحث يتضمن رد هذا الخليفة الموحدى على احدى الرسائل المسيحية يتضح فيه حال أهل الذمة فى المغرب فى ظل الحكم الموحدى •

وفى الفصل الخامس ويتعلق بالعلاقات الاقتصادية تناولت أهمية كل من الاسكندرية وتونس وبجاية فى الحركة التجارية بحوض البحر المتوسط وما مثلته هى وغيرها من محاور رئيسية للتجارة بين الشرق والغرب شكلتها فروع ثلاثة من العلاقات : بين الشرق وأوربا ، الغرب الاسلامى وأوربا الغربية ، ثم الشرق والغرب الاسلاميين • ومن خلال ما تجمع لدى من مجموعة رسائل أمارى المنشورة نشرا محدودا والمحفوظة فى المكتبات الاوربية أوضحت ما فرض من اجراءات مشددة لتأمين الطريق التجارى ، وعلاقة ذلك بنشاط القرصنة وآثارها على تلك العلاقات وكيفية حل

مناكلها . ولم أشأ أن أعرض كل ما توفر لدى من مجموعة تلك الرسائل وانما اكتفيت بتسجيل نصوص عدد منها يخدم البحث فى ملاحق البحث .

وفى ضوء هذا الحديث عن العلاقات التجارية تعرضت لدراسة تجارة السودان عبر مسالكها الصحراوية وما كانت تمثله من أساس للقوافل التجارية البرية ، وكيف ربطت بما فيها — من الربط والحصون والقلاع ومراكز تجارية وأسواق — بين المشرق والمغرب . واستخلصت ما كان لهذه المسالك من ازدهار نوع هام من السلع مثل تجارة الذهب وبينت مواضع استخراجه وأهميته وكيفية تبادله (التجارة الصامتة) ، ومثل تجارة الملح وكيف كان الملح فى تعامله يوازى التعامل بالذهب ومثل تجارة الرقيق وأهميتها فى ذلك الوقت . وأظهرت أن هذه التجارة كانت تمضى فى اطار من العلاقات الودية بين المغرب والمشرق ، وأوضحت ما كانت تعكسه من مظاهر انتعاش فى الحياة الاقتصادية فى بلدان كل منهما ، فضلا عن الطرف الثالث أو الشريك الاوربى فى اكمال هذه الدورة التجارية .

وهنا يبرز دور الموحدين فى تنظيم هذه العلاقات التجارية من خلال كتب الامان التى كانوا يصدرونها ، وما تتضمنه من تنظيمات تتعلق بمصير أدوار كل من التجار والوكيل الثقة والعدول والتراجمة والوسطاء التجاريون والدلالة فى الحلقة التجارية . ويظهر فى اطار هذه العلاقة أدوار للمصرى والعراقى والشامى والتلمسانى والطنجى والتونسى والبجاوى والجنوى والبندقى والبيشانى .. الخ .

وفى اطار نفس هذه العلاقات التجارية ، واصلت الحديث عن انشاء الفنادق والاسواق ، وكيف أن فكرتها كانت مقتبسة من الشرق . كما عرضت لما يترتب على ذلك من تنظيم مالى واختلاف أوزان الدينار وصلة ذلك

باليهود ودورهم البارز آنذاك فى هذه الحـركة التجـارية ، فـكان منهم الوسطاء الدبلوماسيين الى الدول الاوربية ، والتراجمـة فى المعـاهدات وكتاب البلديات وملاك السفن التجارية المترددة بين المغرب والمشرق •

الفصل السادس والاخير ويتعلق بالصـلات الثقافية والفنيـة بين الخلافة الموحدية والمشرق الاسلامى • وفيه تعرضت لدراسـة الاصـول الفكرية التى قامت عليها الدعوة الموحدية ، وكيف أن المهدى اسـتقاها من الفكر المشرقى لا سيما الاشعرى وما يتصـل به من فكر اعتزالى وشيعى وخارجى ، فضلا عن الفكر المالكى السلفى • ولقد أوضحت فى هذه الدراسة مظاهر هذا الخليط الفكرى فى مجتمعات المغـرب والمـؤثرات البيئية التى ينطوى عليها ، وأثبت أن فكرة المهدية الموحدية عند ابن تومرت كانت نتاج هذا المزج وتلك المؤثرات لا سيما ما يتعلق بفكر قبيلته مصمودة ومجتمعها الجبلى النائى • لذلك كانت مؤلفاته : المرشدة الموحـدية ، وتآليفـه عن القواعد والامامة والتوحيد ، وتسميته للعارفين بها باسم الموحدين وتصنيف صفاتهم ، وأقوالهم عن الغيب وأنه مـوحى اليه من الله • بـل ان تعاليم مرشدته الموحدية بلغت حدا من التقديس تلت فيها مرتبة القرآن الكريم فى الاسـلام •

وعرضت فى هذا الفصل أيضـا لفقهاء المغـاربة القاطنين فى المشرق والتقاء ابن تومرت بهم ومشاركته لهم فى حلقات دروسهم • وهنـا تبرز مدرسة الاسكندرية السنية وعلى رأسها أعلام المغاربة أمثال : الطرطوشى (٤٥٠ — ٥٢٠هـ / ١٠٥٨ — ١١٢٦م) والشاذلى (٥٩٣ — ٦٥٦هـ / ١١٩٧ — ١٢٥٨م) وأبى العباس المرسى (٦١٦ — ٦٨٥هـ / ١٢١٩ — ١٨٢٧م) • ومع ذلك ، فقد اختلفت تعاليم المرشدية الموحدية عن تعاليم أئمـة هـذه

المدرسة مما ينهض دليلا جديدا على أن أصل فكر الموحدين انما استمده ابن تومرت أصلا من بيئته المغربية وصقلته الرحلة المشرقية صقلا جليا •

وفى اطار هذا العرض سجلت قائمة بمختلف المغاربة المقيمين فى المشرق ، والمشارقة الراحلين الى المغرب والمغاربة العائدين الى المغرب وآثارهم المختلفة فى جوانب الحياة بكل من المغرب والمشرق •

وختمت البحث بدراسة نماذج من المعاهدات التجارية الموقعة بين الدولة الموحدية الحفصية وأوربا من ناحية وبين الدول المشرقية وأوربا من ناحية ثانية • وهذه المعاهدات قد تضمنت موضوعات تتعلق بالمكس ومقداره وسبب اختلافه وكذلك مقدار الضريبة على كل جنسية وصور الاعفاء منها ونوع المواد المعفاة من الضرائب ، وأنواع التجارة المتبادلة ، وهى مظاهر من المعاملات الاقتصادية تقدم صورا شتى للعلاقات الاقتصادية بين المغرب والشرق الاسلاميين عبر الوساطة الاوربية •• وفى هذا الصدد ، برز أيضا دور تونس فى اطار الوساطة بين التجار الاوربيين وسلطات مصر لاعطاء حقوق تجارية لبيزة تماثل ما كان للبندقية •

وقد سبقت الاشارة الى ذكر الفترة الزمنية التى يشغلها البحث وهى: ٥٢٤ — ٩٣٦هـ / ١١٣٠ — ١٥٢٩م • وأن عام ٥٢٤هـ هو تاريخ وقعة البحيرة التى بها يتحدد تاريخ بداية الدولة الموحدية ورسوخ دعوتها للخلافة • كذلك حدد البحث عام ٩٣٦هـ / ١٥٢٩م نهاية لاحداث هذه الدولة فى فرعها الحفصى الممتد حتى سقوط المغربين الاوسط والادنى فى أيدى العثمانيين •وهناك أكثر من تاريخ يحدد نهاية الدولة الموحدية الحفصية • ففى عام ٩٣٥هـ (١٥٢٨م) كان دخول العثمانيين فى شخص خير الدين بربروسا الى الحضرة الحفصية • وفى العام التالى ٩٣٦هـ (١٥٢٩م) ، على حد قول ابن أبى الضياف ،مؤلف مخطوط « اتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك

تونس وعهد الامان » : « •• ودخل الحاضرة بغير دفاع ، واستولى على سرير ملكها ، ودعا للسلطان العثمانى على منابرها ورســم اسمــه على السكة . وذلك فى سنة ست وثلاثين وتسعمائة »[1] •

غير أن الاسبان استولوا من العثمانيين على الحضرة الحفصية فى عام ٩٤٣هـ (١٥٣٦م) وقاموا على حكمها باسم حماية الامارة الحفصية حتى وقوع وقعة حلق الوادى فى عام ٩٨١هـ / ١٥٧٣م • فى هــذه الوقعة كان انتصار العثمانيين الساحق على الاسبان وبها تأكد نهائيا دخول الحضرة التونسية فى أملاك الامبراطورية العثمانية • وبعدها كان انقضـــاء عهــد الاسرة الحفصية كلية •

وواضح أن التاريخ الاول ٩٣٥هـ (١٥٢٨م) يمثل النهاية الحقيقية للدولة الموحدية الحفصية ، اذ أن أحداثها بعد هذا التاريخ هــو ما دخــل أساسا فى علاقات النزاع الدولى بين العثمانيين والاسبان ووقوع الامراء الحفصيين فى براثن التنافس فيما بينهم والاستعانة بالطرفين الدوليين فى ضرب بعضهم البعض •

هذا وقد اعتمدت فى عرضى لهذه الدراسة على عــدد من المصـــادر الاساسية وأهمها الوثائق التاريخية لدولة الموحدين هذا بالاضافة الى عدد كبير من المراجع الحديثة المتخصصة فى موضوع البحث ، وفيما يلى عرض لاهم هذه المصـــادر •

---

(١) احمد بن ابى الضياف ، اتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الامان ، تونس ١٩٧٧ ، تحقيق لجنة من كتاب الدولة للشئون الثقافية والاخبار، النشرة الثانية ، ج٢ ، ص ١٢—١٣ .

١ ــ مخطوطة « أقوال المهدى بن تومــرت فى علم الكلام بــل شرح أعــــز ما يطلب » :

لابى بكر على الصنهاجى المعروف بالبيذق • وقــد تم العثور عليها حديثا فى مدينة مراكش فى عام ١٩٧٥ العاصمة الموحدية ، فى احدى الخزائن الخاصة بعد عناء كبير وهى مكتوبة بخط مغربى جيد ، ولكن لسوء الحــظ يوجد بها تلف فى أجزاء كثيرة بسبب قدمها ، كما أن الصفحات ٤٢٤ ، ٤٦٣، ٤٦٤ ، ٥٢٧ ، ٥٢٨ ناقصة • وقد تم تصـــويرها ميكروفيلميا ، وحفظت فى دار الوثائق بالرباط ــ المغرب ومسجلة برقم ١٠٥١ •

وتشتمل المخطوطة على ٥٦٦ صفحة ، مقاس ٢٠×١٣ سم وكل صفحة تشتمل على ٢١ سطرا • جمع فيها البيذق جميع أقوال المهدى بن تومرت فى علم الكلام ، وأورد كل الستشهادات المهدى فى تفسيراته كل على حدة فى فصول عدة منها : العلم والنقل والجــائز والواجب والمستحيل والقياس والشرع والضدين • كما أورد أقوال المهدى المأخوذة عن الاشاعرة وبصفة خاصة رأى الاشاعرة فى العلوم ، ويستشهد على كل تلك الاقوال بالحديث الشريف •

ورغم أن المخطوطة تخــوض بعمق فى النــواحى الفكرية والعلوم الفلسفية ، الا أن البحث استند اليها فى بعض التفاسير الخاصة بموقف المهدى بن تومرت وفى الاساس الفكرى للخلافة الموحدية •

٢ ــ مجموعة الوثائق الموحدية التى نشرها الاستاذ ليفى بروفنسال:

قدم الدكتور محمد حجى[١] فى تصديره لكتاب « مــؤرخو الشرفا » ترجمة مطولة للاستاذ بروفنسال مؤلف الكتاب أبرز فيها الخدمات الجليلة

---

(١) الاستاذ بكلية آداب الرباط ، جامعة محمد الخامس وعميد الكلية .

التى أسداها هذا المستشرق الفرنسى الكبير للدراسات المغربية الاندلسية وفضله فى احياء قسط لا يستهان به من التراث التاريخى والحضارى والادبى للمغرب الاسلامى بوجه خاص •

ومن أهم مآثره وأفضاله نشره لمجموعة الرسائل الموحدية وهى من انشاء كتاب الدولة الموحدية المؤمنية ، تصل الى سبعة وثلاثين رسالة رسمية موحدية نشرها بالرباط فى عام ١٩٤١م • ولهذه الرسائل أهمية قصوى فى ابراز الخطوط الرئيسية لسياسة الدولة تجاه المتمردين عليها مثل : ابن مردنيش فى الاندلس ، وابن غانية فى جزر البليار ثم فى افريقية، كما تتضمن اشارات ضافية عن حملة قراقوش ، وعن كيفية القضاء على الغز • وتسجل هذه الرسالة أيضا وصفا دقيقا لعرب المشرق وكيفية اصطناع الدولة لهم عن طريق سياسة التودد والتقريب ، واللين والترغيب، مع تذكيرهم بأمجاد العرب ونجدتهم الدائمة لاعانة اخوانهم عرب المغرب بل ومسلمى الاندلس • وقد استند البحث الى فقرات عديدة من تلك الرسائل للاستدلال على استقرار الدولة الموحدية ولعرض بعض مظاهر الحياة الادبية ممثلة فى شخص كتابها المبرزين أمثال : أبى جعفر بن عطية وأخيه أبى عقيل ، وأبى الحسن بن عياش ، وأبى الحكم بن المرخى ، وأبى القاسم القالمى ، وأبى الفضل بن محشرة ، وأبى عبد الله بن عياش •

٣ ـ مجموعة رسائل نشرها ميشيل أمارى تحت عنوان :

Documenti Degli Archivi
Toscani Pubblicati Par Cura Della R. Soprintendenza Generale Agli Archivi Medesimi.

هى مجموعة من الوثائق الهامة غير معروفة لدى الدارسين المشارقة

وتتركز أهميتها فى أنها تسلط الضوء على طبيعة العلاقات التجارية القائمة بين دولة الموحدين والدولة الحفصية وبين المدن التجارية فى ايطاليا وعلى رأسها جنوة والبندقية وبيشة • وتتضمن هذه الوثائق عقودا تجارية يعمل بها حسب القوانين الموضوعة ، وبعض رسائل موجهة من سلاطين المشرق خاصة من مصر المملوكية فى عهد كل من السلطان قلاوون والسلطان برسباى والسلطان قايتباى والسلطان قانصوه الغورى الى هذه المدن التجارية ، فهى تصور العلاقات التجارية القائمة بين المغرب الموحدى والمشرق الاسلامى سواء بالطريق غير المباشر عبر أوربا ، أو بالطريق المباشر من تونس الى الاسكندرية التى تعتبر أهم قواعد الحركة التجارية البحرية فى حوض البحر المتوسط •

ولاهمية تلك الرسائل عمدت الباحثة الى نشر بعضها رغم طوله كملاحق ذيلت بها الرسالة ، فهى تعتنى بالنظام الضريبى وذكر أنواع السلع التجارية وأوضاع التجار اجتماعيا ودينيا وما كان يسمح لهم به من بناء الفنادق وما يتبعها من كنائس ومدافن •• الخ وتحديد نوع القضاء بين الاوربيين بعضهم البعض وبينهم وبين المسلمين ، وعدم السماح بالقرصنة لسفن المسلمين وعقوبة ذلك • بل ان الرسائل توضح دور تونس كوسيط فى العلاقات التجارية بين أوربا ومصر المملوكية ومطالبتها سلاطين مصر بحكم العلاقات الودية السماح لتجار أوربا بالتجارة فى مصر وأن يكون لهم حقوق هى نفس حقوق اخوانهم البنادقة • وهذا الكتاب الذى يضم تلك الرسائل محفوظ فى دار الوثائق بالرباط بالمغرب تحت رقم $\frac{A4O\ \ 583}{1\ \ \ bis}$ ويشتمل على أكثر من أربعين رسالة •

٤ ـ كتاب أخبار المهدى بن تومرت وبداية دولة الموحدين :

لصاحبه أبى بكر على الصنهاجى المكنى بالبيذق : من المصادر الهامة فى موضوع البحث ، حيث أنه يبدأ « من عند وصوله الى تونس » • والكتاب لذلك قطعة مبتورة الاصل ، لا يتضمن فترة حياة المهدى السابقة لعودته من المشرق الى تونس • ولما كان البيذق صاحب المهدى وخادمه وتابعه ومن أشد المخلصين للدعوة الموحدية المهدوية ، ومن أكثر المعجبين بخليفته عبد المؤمن بن على الكومى ، فقد طغى على كتاباته بنوع من المبالغة الملحوظة ، بل وجنح الى الخيال فى سرد أخبار المهدى وخليفته وفى تتبع علاقاتهما مع الملثمين •

وتتجاوز أهمية الكتاب العلاقات الاولى بالمرابطين الى الغزوات المتسعة التى خاضها المهدى ، وفيها يروى البيذق بعض القصص التى تثبت مقدرة المهدى وبراعته فى استخدام اللغة العربية والبربرية فى حل مشاكله الخاصة الى أن ينتقل الى عهد عبد المؤمن فيذكر حملاته الشهيرة (منذ عام ٥٣٤هـ / ١١٣٩م) فى المغرب المراكشى ، ثم يشير الى ارتحاله تجاه الشرق، مستهدفا السيطرة على المغرب الاوسط ، ويعود من جديد الى سرد وقائع فتح فاس ومكناس حتى سقوط مراكش قاعدة الحكم المرابطى عام ٥٤١هـ (٦ ـ ١١٤٧م) •

٥ ـ وللبيذق كتاب آخر لا يقل فى أهميته عن كتاب المهدى وأعنى به كتاب المقتبس من كتاب الانساب فى معرفة الاصحاب • وفى هذا الكتاب يسرد البيذق النسب العربى القرشى للمهدى ، وكذلك يفعل مع خليفته عبد المؤمن ، ثم مع آل بيت المهدى • وينتقل الى القبائل وترتيبها حسب

أهميتها فى الدخول الى التوحيد ، والتعريف بفروعها وبطونها ومواضـــع نزول كل قبيلة منها وينتقل الى التعريف بأصحاب المهدى الاوائل ــ العشرة ــ السابقين الى اعتناق التوحيد ، أمثال : الوانشريسى وعبد الواحد الشرقى وعبد المؤمن وأبو حفص الهنتاتى .. الخ ، الذين كانوا أســاس الدعــوة الموحدية بالمغرب . ويزودنا بوصف لمـا كان يقوم به من تميــيز لهــذه القبائل . وتتمثل أهمية الكتاب وقيمته فى ذكر تفصــيل التنظيم السياسى الذى أعده المهدى من : العشرة والخمسين والسبعين الى أن يصــل الى العبيد والخدم ، كما هو مبين فى صلب البحث .

٦ ــ عبد الملك بن محمد بن صاحب الصلاة الباجى وتاريخ المن بالامامة على المستضعفين :

اعتمد البحث على الجزء الثانى من هذا الكتاب ، وهو القسم الذى نشره وحققه الدكتور عبد الهادى التازى . وقد سجل الناشر فى مقدمته أن مؤلف الكتاب توفى سنة ٥٩٤هـ (١١٩٨م) . ونستدل من هذا التاريخ على أن المؤلف عاصر قيام الدولة ، ويتمثل ذلك فى هالة التبجيل والتعظيم التى أحاط بها المهدى بن تومرت وخلفاءه ، ومن هذا المنطلق أيضا نستطيع أن نحكم على رواياته بأنها أولى بالثقة لمعاصرته لحوادث الدولة فى المغــرب والاندلس . ولهذا اعتمــدت على هــذه الروايات فى مواضــع كثيرة من الدراسة كدراسة الصلات التجارية القائمة وأســلوب التعــامل المــالى ونوعية السكة ، هذا بالاضافة الى وصــف الاحتفــالات التى كان يقيمها الموحدون فى المناسبات الخاصة والعامة ، كالاحتفال بخــروج الحمــلات وترتيبها ورفع الرايات الملونة عند السير للغزو .

ومن الجدير بالذكر أن مادة الكتاب تتشابه فى كثير من المواضع مع مادة كتاب البيان المغرب لابن عذارى المراكشى لا سيما فى الاجزاء المتعلقة بدولة الموحدين . ويغلب على الظن أن ابن عذارى الذى عاش بعد وفاة ابن صاحب الصلاة تأثر بكتابته بل اعتمد عليه فى الفترة المتعلقة بخلفاء الموحدين الاوائل .

٧ — كتاب الحلل الموشية فى ذكر الاخبار المراكشية :

لمؤلف مجهول الاسم ، عنى بتصحيحه ونشره علوش بالرباط عام ١٩٣٦م . والكتاب جامع لعصر الخلافة الموحدية وجاء مرتبا على أساس الفترات الزمنية لعصر كل خليفة على حدة ، مع التركيز على الحياة الثقافية وتتمثل فى الصور العديدة لمشايخ وعلماء المغرب ورحلاتهم الى المشرق ، بالاضافة الى مظاهر العمران والحياة الاقتصادية .

وقد صدر مؤخرا تحقيق جديد لكتاب الحلل الموشية فى عام ١٩٧٩ قام على تحقيقه د. سهيل زكار (أستاذ التاريخ الوسيط بجامعة دمشق والمعار سابقا بكلية آداب فاس) والاستاذ عبد القادر زمامة (محاضر مغربى بقسم اللغة العربية بكلية آداب فاس) . وخرجت النسخة المحققة الاخيرة ناسبة التأليف الى (مؤلف أندلسى من أهل القرن الثامن الهجرى)، وكرر المحققان ما سبق أن ذكره غيرهما عن مؤلف هذا الكتاب بذكر ما قاله الحوات عن مؤلفه « السماك » .

واذا كانت هذه النسخة قد أخفقت فى التوصل الى معرفة صاحب الحلل فلقد توصل الاستاذ الدكتور محمود على مكى الى ذلك فى مقدمته للمخطوطة التى نشرها فى مجلة « المعهد المصرى » للدراسات الاسلامية

بمدريد ، المجلد العشرون عام ١٩٧٩ — ١٩٨٠ مدريد بعنوان « الزهـرات المنثورة فى نكت الاخبار المأثورة » • وفى هذه الدراسة أثبت الدكتور مكى أن مصنف الكتاب هو « محمد بن أبى العلاء بن سماك العاملى »[1] •

وتنتمى أسرة بنى سماك الى قبيلة عاملة وهى احدى القبائل اليمنية التى نزلت الاندلس مع طالعة بلج بن بشر القشيرى سنة ١٢٥هـ (٧٤٣م) المعروفة بالطالعة الشامية • وقد استند د• مكى على عدة أسانيد لاثبـات أن صاحب كتاب الحلل هو نفسه صاحب الزهرات المنثورة المشار اليه •

٨ — المعجب فى تلخيص أخبار المغرب لصاحبه أبو محمد عبد الواحد على التميمى المراكشى :

ولد مؤلف هذا الكتاب بمدينة مراكش سنة ٥٨١هـ / ١١٨٥م فى عهد السلطان أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ثالث خلفاء الموحدين ، وتلقى دراساته ما بين فاس ومراكش حيث قابل الوزير الطبيب أبا بكر بن زهر وفيلسوف الاندلس يحيى بن أبى بكر بن الطفيل ، وانتقل من المغرب الى الاندلس وهناك أتيح له أن يطوف بمراكزها العلمية المتعددة بغرب الاندلس ووسطها وشرقها من قرطبة الى اشـبيلية فمـرسية ، ومن هناك جاز الى تونس عام ٦١٤هـ ثم خرج منها متوجها الى المشرق لاداء فريضـة الحج ولقاء العلماء ، ومكث بمصر عامين من ٦١٧ — ٦١٩هـ (١٢١٨—١٢٢٠م)•
وقد صنف مؤلفه هذا فى عام ٦٢١هـ (١٢٢٤م) حسبما يشير الى ذلك مرارا • ومما لا شك فيه أن الكتاب يضم أخبارا هامة من تاريخ المغـرب والاندلس فى عصر دولة الموحدين التى عاصرها المؤلف وعاين حـوادثها

---

(١) ارجع الى مجلة المعهد المصرى للدراسات الاسلامية ، المجلد ٢٠ ، مدريد ١٩٧٩ — ١٩٨٠ ، ص ٥—١٨ •

ووفاتها . وقد أخذ البحث منه فى عدة مواضع لا سيما ما يتعلق بمراحل نمو الدولة والصراع الذى خاضه عبد المؤمن وخلفاؤه فى القسم الشرقى من المغرب حتى افريقية ومع قوى القشتاليين والبرتغاليين فى الاندلس شمالا . هذا وقد التزم المراكشى بالاختصار والتخليص لبعض أخبار الدولة لتغيبه فترة كتابته عن وطنه . وترجع أهمية الكتاب أيضا الى كون المراكشى كان معاصرا لحوادث المغرب والاندلس عقب عودته الى مراكش فى سنة ٦١٠هـ (١٢١١م) لحضور حفل مبايعة أبى يعقوب يوسف بن أبى عبد الله محمد — خامس خلفاء الموحدين ، حيث يؤكد على ذلك بقوله : « حضرت ذلك بنفسى » وقوله : « رأيت فلانا لما كنت بتلك المدينة » وقوله : « هذا كله شهدته لا أنقله عن أحد من الناس » ، وقوله : «شهدت هذا كله بنفسى لا أنقله عن أحد ولا أستند فيه الى رواية » . وعلى هذا النحو فكتاب المعجب من المصادر الموثوق برواياتها التاريخية فيما يتعلق بعصر الموحدين وهو لذلك سند تاريخى لحوادث الدولة الموحدية وسجل هام للحياة الادبية والعلمية والعمرانية فى عصر هذه الدولة .

٩ — كتاب الانيس المطرب بروض القرطاس فى اخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس .

لابى الحسن على بن عبد الله بن أبى زرع . لم يصلنا شىء عن حياة المؤلف سوى أنه كان شاهدا بسماط العدول ، فهو من اسرة لها مكانتها فى فاس فى العصر الموحدى ثم المرينى . والكتاب يؤرخ للدول ابتداء من قيام الدولة الادريسية حتى عهد الخليفة السعيد عثمان بن يوسف يعقوب بن عبد الحق المرينى فهو سجل لما جرى فى المغرب من حوادث حتى عام ٧٣٦ هـ (١٣٢٧ م) . يبدأ المؤلف بذكر نسب كل دولة وتشعب قبائلها ،

ومراحل تأسيسها ثم يذكر سلاطينها واحدا تلو الآخر ويسجل اعمالهم ومنشئاتهم • وفى نهاية كل دولة يجمل ابن أبى زرع الاحداث الاقتصادية والاجتماعية وبعض الظواهر الطبيعية كالمجاعات وانتشار الاوبئة •والكتاب على هذا النحو مصدر هام بالنسبة لموضوع الرسالة لا سيما الجوانب الاقتصادية والعمرانية ، وان كان هناك بعض المؤرخين الحديثين يطعنون فى صحة ما أورده من أخبار فقد اتهموه بالكذب والاختلاق والتلفيق[١] •

١٠ — نفح الطيب فى غصن الاندلس الطيب ، لمؤلفه المقرى :

وهو أحمد بن محمد بن أحمد بن يحيى عبد الرحمن بن أبى العيش ابن أحمد المكنى بأبى العباس المقرى « بتشديد القاف » التلمسانى نزيل فاس ثم القاهرة (توفى بالقاهرة ١٠٤١ هـ) رغم عدم طيب مقامه بها • عكف المؤلف اولا على كتابة تاريخ لابن الخطيب يتناول حياته وانتاجه العلمى والادبى • وبعد أن أتم المقرى هذا الكتاب رأى أن يمهد له بتاريخ عام للاندلس ، فخرج الكتاب على شكل موسوعة كبيرة عن الاندلس • ويعتبر الكتاب مصدرا أساسيا لكل من يهتم بالبحث فى تاريخ المغرب والاندلس • وقد اعتمد البحث على هذا الكتاب فيما يتعلق بالحياة الثقافية فى المغرب الموحدى والمشرق الاسلامى • ويتمثل ذلك فى معرض الترجمة لعلماء المغرب والاندلس ورحلاتهم الى المشرق •

واهتم المؤرخون والمستشرقون بالكتاب ، فنشر دوزى القسم الاول منه الخاص بتاريخ الاندلس ، وألحق به فهارس دقيقة • كذلك قام المستشرق الاسبانى باسكوال دى جاينجوس — الذى كان سفيرا لبلاده

---

(١) د. مختار العبادى ، دراسات فى تاريخ المغرب والاندلس ، الاسكندرية ، ١٩٦٨ ، ص ٥٥٩ .

فى انجلترا — بترجمة المعلومات التاريخية التى تضمنها هذا الكتاب الى الانجليزية بعد ترتيبها زمنيا والتعليق عليها بحواشى مفيدة تحت عنـــوان

Pascual de Gayangos : History of the Mohammadan Dynasties in Spain. Vols. 2

أى تاريخ الدولة الاسلامية فى اسبانيا .

هذا وقد نشر كتاب نفح الطيب برمته فى مطبعة بولاق فى اربعـــة أجزاء سنة ١٨٦٢ م . ثم أعاد نشره حديثا الشيخ محيى الدين عبدالحميد فى عشرة أجزاء .

١١ — رسالة بعنوان : مضمار الحقائق وسر الخلائق لصاحب حماه :

وهو محمد بن تقى الدين عمر بن شاهنشاه الايوبى ، ابن أخ صلاح الدين ، قام بتحقيقها الدكتور حسن حبشى . وقد استفادت الباحثة كثيرا من هذه الرسالة ، فى تتبع العلاقات السياسية بين المغرب الموحدى والمشرق الايوبى ، التى سجلها المؤلف ضمن حديثه عن حملة قراقوش (على المغرب)، وفى معرض حديثه عن أحداث المغرب الواردة وفق المنهج الحولى وفيهـــا يذكر مساندة قراقوش لابن غانية من جهة وللعرب الهلالية من جهة ثانية . وقد اعتبر الخليفة يعقوب المنصورى هذا المسلك عملا عـــدائيا ، وترتبت عليه نتائج خطيرة على مستقبل العلاقات بين مصر الايوبيـــة والمغـــرب الموحدى ، وتمثل ذلك فى فشل السفارة التى سيرها صلاح الدين برئاسة أسامة بن منقذ الى مراكش لطلب مساعدة الموحدين بحريا لقوى الايوبين فى صراعها ضد الصليبيين . والرسالة المذكورة مبتورة فى الاول والاخر ، ولكنها مصدر هام لتاريخ العلاقات السياسية بين المغرب فى عصر المنصور والدولة الايوبية فى مصر والشام على عهد صلاح الدين .

١٢ — كتاب الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى :

لصاحبه السلاوى ، وهو الشيخ أحمد بن خالد الناصرى السلاوى . ينتسب مؤلف هذا الكتاب الى أسرة الشيخ أحمد بن ناصر العلوى الجعفرى

مؤسس الزاوية الناصرية بتامجروت فى وادى درعة جنوب المغرب • فهو مغربى قح نشأ فى قلب المغرب الاسلامى ، وطاف فى شبابه بأنحاء المغرب ما عدا أجزائه الجنوبية موطن أجداده ، ثم عمل موظفا فى المخزن ، واختص بالشئون المالية والاحباس ، وخدم فى الثغور المغربية مثل سلا والدار البيضاء ، وأتاح له هذا العمل فرصة الاتصال بالاوربيين والافادة من علمهم وكتبهم •

كان الشيخ أحمد من كبار فقهاء المالكية المتعصبين للسلف (توفى ١٣١٥هـ — ١٨٩٠م) ، ولسلفيته مقت الدعوة الموحدية صاحبة مبادىء التوحيد ، لكنه أرخ لاحداث تلك الدولة وتوسعاتها ، وقضائها على الثورات التى واجهتها • وقد احتلت الدولة الموحدية وقبلها دولة المرابطين الجزء الثانى من مؤلفه الذى يصل الى تسعة أجزاء فى طبعته الثانية بالمغرب • ولقد التزم المؤلف فى سرده للحوادث التاريخية منهجا تاريخيا أقرب مايكون الى المناهج العلمية ، فكان يعتمد على المصادر المعاصرة للحوادث ولا يأخذ الا بالروايات الموثوق بها ولهذا فان الكتاب رغم حداثته يعد مصدرا تاريخيا قيما •

١٣ — تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية لمؤلفه الزركشى :

وهو محمد بن ابراهيم بن اللؤلؤ الزركشى • ينتسب الى جده اللؤلؤ المجهول الاصل ، ولكنه تتونس ، وكانت ولادة حفيده المترجم له بتونس • وقد عاش المؤلف عصرا تمزقت فيه وحدة العالم الاسلامى وانكمشت فيه رقعة الاندلس بسقوط معظم قواعدها ومعاقلها ، كما شهد مرحلة تاريخية مؤلمة عانت فيها تونس من ويلات الحرب الاهلية مما كان له أثره العميق فى اضمحلال الحركة العلمية • ومع أن مؤلف الكتاب يوجز عرضه التاريخى

لاحداث المغرب من القرن ٦هـ حتى ٩هـ/١٢ — ١٥م ، ويمر مرا سريعا على الدولة التيقا مت بالمغرب فى : مراكش — تلمسان — وتونس ، الا أن قيمة الكتاب تتركز فى أن الزركشى كان شاهد عيان لاحـــداث الدولة الحفصية بتونس وأنه سجل كثيرا من وقائع عصره فى صدق وواقعية ، وعلى هـــذه الفترة التاريخية اعتمدنا فى الفصل الخاص بالحفصيين .

١٤ — نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان :

عن اسم مؤلفه ، فقد اختلف فيه المؤرخون ، فالترجمة التى تحمـــل اسم ابن القطان بكتاب التكملة لابن الابار (ت سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م) تذكر أنه هو : على بن محمد بن عبد الملك بن يحيى بن ابراهيم الكامى الحميرى الفاسى ، أبو الحسن ابن القطان . ويضيف ابن الايار قائلا : « وكان من أبصر الناس بصناعة الحديث وأحفظهم لاسماء رجاله ، وانه كان يشرف على طلبة العلم بمراكش ، واشتغل بالتدريس والقضاء . وتوفى قاضـــيا بسجلماسة سنة ٥٢٨هـ » .

والترجمة التى دونها ابن عبد الملك المراكشى (ت سنة ٦٦٩هـ) بكتابه « الذيل والتكملة لكتابى الموصول والصلة » تتضمن ما يشير الى أن ابن القطان فاسى الاصل وأنه مع ذلك سكن مراكش ، وكان ذاكرا للحـــديث متبحرا فى علومه معظما عند الخاصة من آل عبد المؤمن ، ومن الناس جميعا . وقد حظى ابن القطان عنـــد يعقـــوب المنصـــور ثم ابنه الناصر ثم ابنه المستنصر . وكان يعقوب المنصور يؤثره على غيره من أهل طبقته ، ويخصه بالرجوع اليه فى أمور شتى .

وقد قامت الادلة على أن الترجمتين المذكورتين ليستا لابن القطان صاحب كتاب نظم الجمان وانما هما لوالده . اذ ورد بكتاب نظم الجمان

نفسه عبارات تشير الى عهد الخليفة المرتضى الذى حكم المغرب من سنة ٦٤٦ — ٦٦٥هـ (١٢٤٨ — ١٢٦٦م) ، على حين يذكــر ابن الابار أن ابن القطان مات سنة ٦٢٨هـ (١٢٣٢م) • كما أورد ابن عــذارى أن الخليفة المرتضى كان محبا للعلوم ، مقبلا على القراءة فألف له « ابن القطان » جملة من الكتب الجليلة منها : « نظم الجمان وواضح البيان فيما سلف من أخبار الزمان » •

وكتاب نظم الجمان موسوعة كبرى فى تاريخ المغرب من بدء الفتــح الاسلامى حتى قبيل سقوط الدولة الموحدية سنة ٦٦٧هـ (١٢٦٩م) • ويوزد لنا مؤلف الكتاب تفاصيل هامة وقيمة عن دولة الموحدين مدعمة بالوثائــق للمهدى بن تومرت مكتوبة بخطه ، ورسائل من عهد عبــد المؤمن وخلفائه وقد ذكر طبقات حكومة المهدى بنظام دقيق ، وذكر أسماء مجلس العشرة ومجلسى الخمسين والسبعين كاملة • ولا يخــلو كتاب نظم الجمــان من عيوب ، هى بعينها تلك العيوب التى وقع فيها مؤرخــو البلاط الموحــدى ومنها : شدة التعصب للخلفاء الموحدين وعبارات الاجلال والتعظيم التى تصل إلى حد التملق التى يكررها فى كل فقرة من فقرات الكتاب واغفــاله لدولة المرابطين حقها • وقد نشر الاستاذ الدكتور محمود على مكى قطعة من كتاب نظم الجمان فى أخبار الزمان فى الرباط عام ١٩٦٤ •

١٥ — البيان المغرب لابن عذارى المراكشى :

وترجع أهمية هذا الكتاب الى كونه صدرا شاملا لتاريــخ المغــرب والاندلس من الفتح الاسلامى حتى عام ٦١٢هـ وذلك على الرغم من تأخره النسبى • وهو لذلك من أكثر مصادر تاريخ المغرب الاســلامى تفصيلا ، وأثرها مادة ، ويرجع ذلك بطبيعة الحال الى استفادته من تواريخ السابقين

كالرقيق وابن عبد البر وابن القطان والوراق وغيرهم ممن أشار اليهم فيما نقل عنهم • وما يهمنا من هذا التاريخ الجزء الثالث طبع تطوان سنة ١٩٦٠• فقد حفظ لنا ابن عذارى بجانب الحياة السياسية والاقتصادية للدولة الموحدية والحفصية جانبا هاما من الحياة الادبية متمثلة فى القصائد الشعرية التى امتدح بها القبائل العربية محاولا شحذ همم العرب سواء فى عهد يوسف بن عبد المؤمن ويعقوب المنصور الموحدى ، وتصويره لصورة وصول رسول صلاح الدين الايوبى والوصف الذى قوبل به لحين وصول الخليفة يعقوب المنصور الى فاس •

١٦ — الحسن الوزان أو يوحنا ليون الافريقى (١٤٨٨—١٥٣٢م) :

وهو الرحالة المغربى الحسن بن محمد الوزان الفاسى الغرناطى ، وهو نفسه ليون الافريقى Leon Africanus ، ولد فى غرناطة عام ١٤٨٨م ؛ ثم هاجرت أسرته الى مدينة فاس بالمغرب بعد سقوط غرناطة عام ١٤٩٢م • ومن هناك طاف الحسن الوزان بلاد المغرب والسودان الغربى ثم ارتحل الى الشرق فزار مصر والقسطنطينية وبعض أقاليم آسيا •

ولعل أدق المعلومات وأكثرها عمقا ووضوحا تلك التى أوردها الحسن الوزان فى وصف بلدان المغرب الاقصى التى قضى شبابه فى التجول بين ربوعها • أما بقية بلاد المغرب مثل الجزائر وتونس وطرابلس ، فانه جمع ما أمكنه جمعه من معلومات وبيانات عنها أثناء مروره فى رحلاته البرية والبحرية •

وقد وقع الحسن الوزان أسيرا فى أيدى القراصنة أثناء عودته من رحلته الثانية الى القسطنطينية ، فوجد طريقه الى روما وسلموه الى البابا ليو العاشر ، فاعتنق المسيحية وسمى نفسه ليون الافريقى ، وانقطع للبحث

والتأليف • وكان الحسن الوزان عند قدومه الى روما يحمل مسودة الكتاب الذى صنفه فى وصف افريقية وتاريخها باللغة العربية •

ومنهج الحسن الوزان يختلف عن منهج الجغرافيين والرحالة المغاربة الذين سبقوه فى التأليف عن افريقية مثل : البكرى والادريسى وابن بطوطة• فقد أعتمد كل من البكرى والادريسى فى جمع مادة كتابه على ما أخذه عن الرحالة والمسافرين والتجار وأهل البلاد الذين أتيح له الاتصال بهم • أما الحسن الوزان فان مصدره عن معظم المـادة العلمية الخاصة بافريقية هو ما شهده بعينه أو سمعه باذنه فى بيئته الاصلية ، فكتب وصفا لافريقية وأرخ لممالكها وشعوبها وقبائلها •

لذلك ركز الحسن الوزان بعد رحلاته العديدة فى شمال افريقيا على أهمية الدور الذى تلعبه التجارة الســودانية فى الحيــاة الاقتصــادية والاجتماعية لبلاد المغرب الممتدة من طرابلس شرقا حتى البحر المحيط غربا•

ومنهج الحسن الوزان فى التأليف والكتابة عن مصر لا يختلف كثيرا عن منهج الجغرافيين والرحالة الذين سبقوه ، فكان يردد بعض التقاليد الشعبية المختلطة بالاساطير والخرافات عن المجتمع المصرى ، لذلك فان ما كتبه عن مصر بصفة عامة لا يخلو من دقة فى وصف المعالم الطبيعية للبلاد والتعريف بطرقها ومسالكها ، ومواردها الزراعية ، ووصف معالم مدنها ، وأوجه نشاط أهلها الاقتصادى وحياتهم الاجتماعية •

والواضح من الصورة التى أراد الوزان رسمها لبلاد السودان من ناحية ومصر من ناحية أخرى ، أنها صورة منتزعة من واقعها • لذلك فقـد ترجم هذا الكتاب الى الايطاليـــة ســنة ١٥٢٦م ، ونشر Romusio

النص الايطالى سنة ١٥٥٠م • ثم نقل هذا الكتاب الى عدة لغات : لاتينية بمعرفة Temporal وانجليزية على يد John pory سنة ١٦٠٠م ونشرها روبرت براون Robert Brown مع تحقيق النص وكتابة حواشيه فى ثلاثه أجزاء عام ١٨٩٦م بلندن • أما الترجمة الاسبانية فصدرت فى معهد الجنرال فرانكو عام ١٩٥٢م الذى أصبح اليوم معهد مولاى الحسن بتطوان •

ولا يفوتنى فى معرض حديثى عن المصادر التى اعتمدت عليها فى بحثى أن أتحدث عن كتب الرحلات التى تعتبر من المصادر الهامة لدراسة الجوانب الاقتصادية والاجتماعية فى المغرب الاسلامى • ومن أهم كتب الرحلات تلك ما يلى :

١٧ — الرحلة المغربية للعبدرى :

وهو ، أبو عبد الله محمد بن محمد بن على بن أحمد بن مسعود العبدرى الحيحى ، نسبة الى بلاد حاحة أى منطقة السوس الاقصى • وواضح أن العبدرى من خلال رحلته ينتسب الى أسرة كان لها حظ وافر من العلم وأنه قام فى مقتبل عمره برحلته الى المشرق • بدأ الرحلة من تلمسان برا الى المشرق ، وأعرب فى مقدمتها عن أنه « سيستعمل الصراحة فى الرحلة والانصاف وأنه لا يعمد الى تقبيح حسن ولا تحسين قبيح » ، وهذا ما فعله فى الكلام عن القاهرة وأخلاقيات أهلها وعاداتهم وتقاليدهم القبيحة ، وكذلك فى كلامه عن الاسكندرية ووصف أبوابها ومنازلها ومنارتها وكرم أهلها ما عدا رجال الديوانة وتصرفاتهم الاثمة نحو الوافدين من سوء المعاملة والتشدد فى التفتيش وجباية الضرائب • ولكنه زودنا بصورة مشرقة عن الحياة العلمية فى مصر فى العصر الايوبى • فقد كانت مصر حينئذ قبلة العلماء ومحط رحال الفضلاء • وعلى حد قوله عن شرف الدين

الدمياطى : « لم أر بهذه المدينة على كثرة الخلق بها أمثل ولا أقــرب الى الانسانية وأجمل معاملة من الشيخ الفقيه فلان ••• » ، وذلك ما قاله عن نور الدين ابن المنير عالم الاسكندرية من كونه : « صــــدر البلغاء ورأس الكتاب والناظمين ، وحيد العلماء وبحر المصنفين » ، ثم أوصافه أيضا عن ابن دقيق العيد •

لذلك ، فالرحلة وثيقة هامة عن الحياة الاجتماعية والثقافية فى القرن السابع الهجرى للبلاد التى مر بها صاحبها وزارها ، وسجل عن أوضـــاع طائفة المغاربة المقيمين فى مصر • كما تتضمن الرحلة مقولات أدبية وشعرية من انتاج من لقيهم صاحبها من شعراء مصر ، ومثال ذلك قصيدتان لابن جبير . احداهما فى مدح صلاح الدين والاستغاثة به من الاعمال القبيحة التى كان يقوم بها أعوان الديوانة ضد حجاج بيت الله ، والثانية قصيدة فى مدح الرسول وقد رواها العبدرى عن ابن حباسة الاسكندرى •

ولا يعرف تاريخ وفاة العبدرى ، الا أن الاستاذ محمد الفاسى محقق الرحلة يرجح أنه توفى فى مدة قريبة من رجوعه من الحج ، وأن قبره لا زال الى الان معروفا عند مواطنيه من أهل حاحة حيث يطلق عليه اسم «سيدى أبى البركات » • ويقع هذا القبر بقرية ادا وعزة بقبيلة أدا ويســـارن فى جنوب الصويرة ، على بعد ٣٦ كيلو مترا من مدينة الصويرة •

١٨ ـــ رحلة ابن رشيد السبتى الفهرى (ت ٧٢١هـ/١٣٢١م) :

ويكنى أبا عبد الله ويعرف بابن رشيد • ولد هـــذا الرحالة المغربى بمدينة سبتة فى بيئة علمية وعايش فترة الاضطرابات بالمغــرب المعاصرة لنهاية الدولة الموحدية وقيام دولة بنى مرين • وعاصر ابن رشيد أيضـــا أحداث الدولة الحفصية بتونس ، وارتحل الى المشرق عبر أراضيها فى سنة

٦٨٣هـ / ١٢٨٤م ، لاداء فريضة الحج والاتصال بالمدارس العلمية فى الحجاز والشام ومصر[1] • فأبحر من ثغر المرية الى افريقية ومنها الى مصر والشام • وتعد رحلته من أهم الرحلات المغربية الى المشرق فقد سجل مشاهداته ومعايناته فى مدن افريقية ومصر والاندلس ، وما أورده عن مصر يمتاز بكثرة تفاصيله ودقتها لا سيما عن الاسكندرية والقاهرة والفسطاط وبلبيس • وقد اهتم ابن رشيد فى رحلته اهتماما خاصا بالادب وسجل مشاهداته عن انطباعاته بالنسبة للحياة العلمية عموما • ولشدة اعجابه بالحياة الثقافية فى الديار المصرية والتونسية ، التى قامت على نفس نمط المدارس المشرقية ، قام ابن رشيد بتدريس ما تعلمه من العلوم لطلبته المغاربة بفاس حيث توفى فى ٢٣ محرم سنة ٧٢١هـ/١٣٢١م[2] •

١٩ — تحفة النظار فى غرائب الامصار وعجائب الاسفار (المعروفة برحلة ابن بطوطة) :

هو أبو عبد الله محمد الطنجى اللواتى ، ويلقب بشمس الدين ويعرف بابن بطوطة (ت ٧٧٩هـ/١٣٧٨م) • ولد ابن بطوطة فى مدينة طنجة سنة ٧٠٤هـ/١٣٠٤م ، وقام برحلته بعد بلوغه سن العشرين التى شملت أرجاء العالم ، وهى فى حقيقتها تتألف من ثلاث رحلات :

الرحلة الاولى :

غادر فيها طنجة مسقط رأسه سنة ١٣٢٥م وطاف فى أنحاء المغرب الاقصى ، ثم اتجه نحو الشرق عبر الجزائر وتونس وليبيا ثم مصر • ومن

---

(١) د• عبد العزيز سالم ، التاريخ والمؤرخون العرب ، ص ٢٢٩ •

(٢) أنخل جنثالث بلنثيا ، تاريخ الفكر الاندلسى ، ترجمة د• حسين مؤنس ، القاهرة ، ١٩٥٥ ، ص ٣١٩ •

هناك سافر الى الصعيد (جنوب مصر) وسار فى طريق الحج الجنوبى الى ميناء عيذاب على ساحل البحر الاحمر كى يبحر من هناك الى ميناء جدة .

ولم يستطع الابحار من عيذاب بسبب الحرب التى قامت هناك بين أمراء المماليك حكام مصر وأهالى المنطقة . واضطر ابن بطوطة الى العودة الى القاهرة ومتابعة رحلته الى الحجاز عن طريق الشام . وبعد الحج اتجه الى العراق وايران وآسيا الصغرى ، ثم حج مرة ثانية وجاور فى مكة مدة سنتين . وفى عام ١٣٢٩م غادر الحجاز الى الجنوب فزار بلداته وعاد الى مكة وحج للمرة الثالثة ، وزار القسطنطينية ، ثم اتجه الى الشرق الاقصى . ولقد كانت هذه الرحلة هامة لوصفه الدقيق للنواحى الاجتماعية والاقتصادية . وعاد ابن بطوطة بعد تلك الرحلة الى مكة وحج للمرة الرابعة ، ثم قفل عائدا الى بلاده عبر مصر وتونس والجزائر فوصل فاس عام ١٣٤٩م .

الرحلة الثانية :

بعد اقامته فى بلاده مدة امتدت نحو العام ، قام ابن بطوطة برحلته الثانية الى مملكة غرناطة وذلك فى عام ١٣٥٠م .

الرحلة الثالثة :

بعد عودته الى فاس عام ١٣٥١م ، واقامته بها مدة عام آخر ، بدأ ابن بطوطة رحلته الثالثة الى بلاد السودان الغربى سنة ١٣٥٣م ، استغرقت هذه الرحلة ثلاث سنوات عاد بعدها ابن بطوطة الى فاس ، حيث استقر

فى بلاط السلطان أبى عنان المرينى يروى ما شاهده من العجائب والغرائب. وكان هناك شك فيما رواه ابن بطوطة ولكنه كان صادقا فى أقواله مصيبا فى أحكامه ، وقد أثبتت الحوادث وأقوال المؤرخين والرحالة الاوربيين صدق روايته . فمثلا لم يبالغ عندما ذكر بأن المراكب التى كانت تمر فى نيلها بين شطرى الوادى بلغ عددها ثلاثين ألفا وأن عدد السائقين على الجمال بلغ اثنا عشر ألفا ، فمثل هذه الارقام ذكرها الرحالة الايطالى فريسكوبا لدى Frescoboldi الذى زار مصر بعد ابن بطوطة بنحو خمسين سنة .

وقد غلبت على الجزء الخاص بوصف المغرب فى هذه الرحلة العاطفة الوطنية بحكم كونه مغربيا ، فجعل المغرب فى قمة البلاد التى زارها من حيث الرخاء ورخص الاسعار ، وكثيرا ما قارن بين المغرب والبلاد الاسلامية ولا سيما مصر فى هذه النواحى الاقتصادية والاجتماعية . وعلى هذا الجانب كان اعتمادنا فى البحث فى الفصلين الخامس والسادس .

وتوفى ابن بطوطة سنة ٧٧٩هـ / ١٣٧٨م وقبره يزار فى طنجة . وللرحلة ترجمة فرنسية فى أربعة أجزاء وجزء خامس للفهارس . وهناك طبعات عربية عديدة لها مثل : طبعة الازهر ، وادى النيل فى القاهرة ، سلسلة الروائع اللبنانية تحقيق فؤاد أفرم البستانى .

وبعد .. فاننى أجد على لزاما أن أتوجه بالشكر والعرفان والتقدير الى أستاذى المشرف ، الاستاذ الدكتور السيد عبد العزيز سالم أستاذ

التاريخ الاسلامى بجامعة الاسكندرية ، الذى شملنى برعايته ومنحنى من علمه الوفير ووقته الثمين وتوجيهاته القيمة وكتبه العديدة الشىء الكثير •

كما أقــدم شكرى الى كل من قدم لى يد المساعــدة لانجاز هــذا البحث •

والله ولى التوفيق ،،،

الاســكندرية

أكتوبر ١٩٨٤

ابتســـام مــرعى

الفصـــل الاول

قيام دولة الموحـــدين وتوسعها نحو الشرق

١ ـ ابن تومرت : مؤسس دولة الموحدين ٠

٢ ـ قيـــام دولة المـــوحـــدين ٠

٣ ـ الاجهاز على دولة المرابطين ٠

٤ ـ توسع دولة الموحدين نحو الشرق ٠

الفصـــــل الاول

قيام دولة الموحدين وتوسعها نحـــو الشرق

(١)

ابن تومرت : مـؤسس دولـة الموحــدين

أ — حول رحلة المهدى الى الشرق الاسلامى :

من عجيب المصادفات أن تبدأ الصفحة الاولى من تاريخ دولـــة الموحدين برحلة مشرقية يقوم بها مؤسس هذه الدولة الى المشرق الاسلامى طلبا للعلم على شيوخه فى المراكز العلمية المختلفة ، وأخبار هذه الرحلة لم يسجلها البيذق فى جملة ما سجله من أخبار المهدى ، فالاسف الشديد يبدأ البيدق أخباره عن المهدى منذ وصوله الى تونس فى طريق عودته الى بلده فى أقصى السويس .

والواقع أن الخيوط الاولى لحركة محمد بن تومرت [1] الثورية تبدأ

---

(١) للتعريف بالمهدى محمد بن تومرت ، راجع المصادر والمراجــــع التالية : البيدق ، أخبار المهدى بن تومرت وبداية دولة الموحدين ، الرباط ، ١٩٧١ ، ص ١١ وما بعدها . ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ج ٥ ، بيــروت ١٩٧٧ ، ص ٤٥ — ٥٥ . عبد الواحد المراكشى ، المعجب فى تلخيص أخبـــار المغرب ، القاهرة ، ١٩٤٩ ، ص ١٧٨—١٧٩ . ابن خلدون ، العبر وديوان المبتدأ والخبر ، بيروت ، ١٩٥٩ ، ج ٦ ، ص ٣٦٢ ، ٤٦٤—٤٦٥ . على ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، الرباط ١٩٧٣ ، ص ١٧٢—١٧٣ . ليفـــــى بروفنسال ، الاسلام فى المغرب والاندلس ، ترجمة د . السيد عبد العــزيــز سالم والاستاذ محمد صلاح الدين حلمى ، القاهرة ، ١٩٥٨ ، ص ٢٦٥ . د . السيد عبد العزيز سالم ، المغرب الكبير ، بيروت ، ١٩٨٠ ، ص ٧٧٠ . عبـــد الله جنون ، مدخل الى تاريخ المغرب ، تطوان ، ١٩٥٥ ، ص ٤٨ .

— Rachid Bourouiba, Ibn Tumart, S.N.E.D. Alger, 1974, p. 17—18.

مع بدء رحلته ثم بدأت تتخذ طابعها الثورى منذ وطئت قدماه فى طريـــق العودة الى وطنه أرض أفريقية • وفى هذه الاثناء يسجل البيذق الخطوط الاولية للمقولة الدينية المهدوية ، ويربط البيذق بين ذلك وبين أول ردود فعل فى المغرب الادنى لهذه الافكار ، ويركز على تكاثر طلاب العلم وعامة الناس حول مجالسه وهنا يظهر أسم الرجل الثانى فى تاريخ الدعـــوة الموحدية واعنى به عبد المؤمن بن على سراج الموحدين [٢] ، وباهتـــداء المهدى اليه تتخذ دعوة ابن تومرت مسارا جديدا •

ويجدر القول بأن أخبار رحلة ابن تومرت متناثرة فيما يشبـــه الاقاصيص فى بطون المصادر التاريخية لدولة الموحدين • ومع ذلك ، فان مجرد تتبعها ربما يلقى مزيدا من الاضواء حول تطور فكرة الدعوة الموحدية منذ بداية احتكاك ابن تومرت بعلماء المشرق الى أن تفجرت فى نهاية الرحلة باسم (المهدية الموحدية) فى ديار المرابطين بالمغرب الاقصى •

وكان محمد بن تومرت قد عرج قبل شروعه فى الرحلة الشرقية الى جزيرة الاندلس سنة ٥٠٠ هـ (١١٠٦ م) ربما ليأخذ نصيبه من علومهـــا المزدهرة ويسمع على شيوخها البارزين • وفى قرطبة التى كانت ما تـــزال تحتفظ بمكانتها العلمية السامية فى عصر دولة المرابطين [٣] ، قرأ ابن تومرت على يد القاضى ابن حمدين [٤] • ومن قرطبة انتقل فقيه السوس الى ثغر

---

(٢) التقى به المهدى فى بجاية وأخذ عبد المؤمن بنصيحته التى وجههـــا اليه بقوله : « ان العلم الذى يريد أقتباسه بالمشرق قد أتاه بالمغرب » . البيذق ص ١٦ .

(٣) د . عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم فى الانـــدلس ، الاسكندرية ، ١٩٨٢ ، ص ٢٩٢ — ٣١٨ .

(٤) عن القاضى أحمد بن محمد بن حمدين الذى ولى قضاء قرطبـــة : سنتى ٥٣٨ ، ٥٣٩ ، انظر : التكملة لابن الآبار ، ص ٣٨ ، ابن سعيد المغربى ،

المرية (٥) حيث أقام بعض الوقت ليبحرمنها الى المهدية ، ولا نشك فى أنه احتك أثناء مقامه فى هذا الثغر ببعض شيوخه فقد كانت المرية فى هـــذا العصر من مراكز العلم فى الاندلس • وفى المهدية أخذ عن الامام أبى عبد الله المازدى (٦) ، ومن المهدية انتقل بحرا الى مدينة الاسكندريـــة حيث درس على يد فقيه الاندلس أبى بكر الطرطوشى (٧) • ومن الاسكندريـــة خرج قاصدا الحجاز لاداء فريقضة الحج ، وعرج منها الى بغداد ـــحاضرة الخلافة العباسية ومركز العلم والثقافة الاسلامية لا سيما فى العلـــوم الكلامية التى كان يميل اليها ابن تومرت (٨) • وفى هذه الحاضرة العباسية

المعرب فى حلى المغرب ، تحقيق د . شوقى ضيف ، طبعة ثالثة ، ج ١ ، القاهرة ١٩٦٤ ، ص ٦١ •

(٥) راجع عن مدينة المريه : د . سالم ، المرية قاعدة الاسطـــول الاسلامى فى الاندلس ، مجلة الرابطه ، القاهرة ، ١٩٥٨ ، ص ٢١—٢٧ ،٧٨ • انظر أيضا عنها فى د . سالم ، د . أحمد مختار العبادى ، تاريخ البحريـــة الاسلامية فى حوض البحر الابيض المتوسط ، الاسكندرية ، ١٩٨١ ، ص ١٧٨، — ١٨١ •

(٦) هو أبو عبد الله محمد بن على بن عمر التميمى نسبة الى مــــازر بصقلية (٤٥٣—٥٣٦ هـ / ١٠٦١—١١٤١ م) وهو المعروف بالامام المازرى ، توفى بالمهدية ودفن بالمنسنير (أنظر : المقرى ، أزهار الرياض ، القاهرة ج٣ ، ص ١٦٥ -١٦٦ ، ابن فرحون . الديباج المذهب ، القاهرة ، ١٣٢٩ هـ ، ص ٢٧٩—٢٨١) •

(٧) هو الفقيه أبو بكر محمد بن الوليد بن محمد بن خلف ابن سليمان بن أيوب الفهرى الطرطوشى الاندلسى نزيل الاسكندرية المعروف بابن أبى رندقة ولد فى بلدة طرطوشة بالاندلس سنة ٤٥١ هـ حيث تلقى علومه ، ثم رحل الى المشرق سنة ٤٨٦ هـ فحج ، استقر به المقام فى الاسكندرية ، توفى سنة ٥٢٠ أو ٥٢٥ هـ . د . سالم ، تاريخ الاسكندرية وحضارتها فى العصر الاســـلامى ، الاسكندرية ، ١٩٨٢ ، ص ٢٢٢—٢٢٤ •

(٨) عن زيارته للاسكندرية فى رحلة الذهاب والاياب والآراء فيهــــا ، أنظر : لنفى بروفنسال ، الاسلام فى المغرب والاندلس ، ترجمة د . عبدالعزيز سالم ، ص ٢٧٤—٢٧٦ أنظر أيضا :

— Rachid Bourouiba, Op. Cit., pp. 13—23.

كانت تدور حلقات الامام ابى حامد الغزالى ومجالسه العلمية ، ولا نشك فى أن ابن تومرت شهد بعض هذه المجالس وأنه قابل الامام الغزالى ولازمه ويشك بعض المؤرخين فى حدوث هذا اللقاء [٩] . بينما يؤكده آخرون فابن ابى دينار يؤكد وقوع اللقاء فى قوله : « انه لازم الغزالى ثلاث سنين » [١٠] . كما يؤكده ابن خلكان ويوافقه السلاوى فى قوله : (اجتمع محمد بن تومرت بأبى حامد الغزالى والكيا الهراسى ، والطرطوشى وغيرهم) [١١] . بينما يلقى ابن خلدون ظلالا من الشك على حدوثه فى قوله : (لقى فيما زعموا أبا حامد الغزالى وفاوضه بذات صدره) [١٢] .

وفى رواية ابن أبى زرع تفصيل عن هذا اللقاء ، ويتمثل ذلك فى قوله: (.. فكان أبو حامد اذا دخل عليه المهدى يتأمله ويختبر أحواله الظاهرة والباطنة فاذا خرج عنه يقول لجلسائه : (لابد لهذا البربرى من دولة ..) [١٣] ونقل بعض الاصدقاء هذا الخبر لابن تومرت بأن ذلك مكتوب عند الشيخ ، فظل ابن تومرت فى خدمة الامام أبى حامد الغزالى حتى أطلعه عليه .

ويذكر المؤرخون [١٤] أن ابن تومرت اطلع على ذلك فى الكتاب

---

(٩) عبد الله عنان ، عصر المرابطين والموحدين ، ج ٢ ، ص ١٦١ حيث يروى قصة اللقاء ونقدها وبالتالى نفيها ، انظر ايضا : د . سالم ، المغرب الكبير ، ص ٧٧٠ .

(١٠) ابن أبى دينار ، المؤنس فى أخبار افريقية وتونس ، تحقيق : محمد شمام ؛ ص ١١١ .

(١١) ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، جـ ٥ ، ص ٤٦ . السلاوى ، الاستقصا ج ٢ ، ص ٧٨—٧٩ . ويضيف صاحب الحلل الموشية أن أهم شيوخ ابن تومرت فى مصر : الامام أبى الوليد الطرطوشى ، وفى الشام أبى عبد الله الحضرى ، وبغداد أبى حامد الغزالى ص ٨٥.

(١٢) ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ط بيروت ، ص ٤٦٦ .

(١٣) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ١٧٢ .

(١٤) ابن خلكان ، المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٤٨ ، السلاوى ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٩٧،٨١ .

المسمى « كتاب الجفر » ، وهو من علوم أهل البيت ورؤاهم المستقبلية ، وفيه ما يشير الى عودة الامامة للاسلام فى شخص الامام المهدى المنتظر وأن الامام يتمثل فى صفة رجل يظهر بالمغرب الاقصى بمكان يسمى السوس من ذرية رسول الله ﷺ ، يدعو الى الله ، يكون مقامه ومدفنه بموضع من المغرب يسمى باسم هجاء حروفه ت ى ن م ن ل وأن استقامة ذلك الامر واستيلاءه وتمكنه يكون على يد رجل من أصحابه هجاء اسمه ع ب د م و م ن ، ويجاوز وقته المائة الخامسة للهجرة . فأيقن ابن تومرت أنه القائم بهذا الامر وأن أوانه قد أزف . فما كان يمر بموضع الا ويسأل عن صاحبه ، ولا يرى أحدا الا أخذ اسمه وتفقد هيأته [١٥] .

ويتمثل فى الروايات المذكورة عن لقاء ابن تومرت بالغزالى وتذييل خاتمة هذا اللقاء بخبر الامام المنتظر الوارد فى كتاب الجفر ، الخيط الاول فى نشأة فكرة الخلافة الموحدية . ومثل هذا الخيط وخبره لا يحتاج الى تأكيد وقوعه من قبل فى الفكر الصوفى المغربى ، وفى كتابات سبق للمغاربة الوقوف عليها لا سيما فى كتاب « الفتوحات المكية » لمحيى الدين بن عربى وأهمية الخبر لا تقف عند حد اطلاع ابن تومرت على القصة الواردة فى كتاب الجفر وانما تتعداه الى لقائه مع الامام الغزالى نفسه والوصول بالرواية الى خاتمة مرسومة استهدفها ابن تومرت وهى انفراده بالاطلاع على الكتاب وروايته على يد الغزالى وفى حضوره فيكون قد حصل من

---

(١٥) الجفر هو مابلغ أربعة أشهر من أولاد الماعز وكان القدامى يكتبون على جلود أولاد الماعز ويسمونها جفورا ، وكان الروافض يكتبون فى الجلود لقلة الورق . انظر : محمد بن محمد الاندلسى الوزير السراج ، الحلل السندسية فى الاخبار التونسية ، تحقيق وتقديم : محمد الحبيب الهيلة ، ج ١ ، تونس ، ١٩٧٠ ، ص ٩٧٨. السلاوى ، المصدر السابق ، ص ٩٨.

أكبر أئمة الاسلام فى الشرق على التفويض اللازم لاعلان امامته ومهدويته فى المغرب الاسلامى (١٦) .

ب — أوضاع المشرق الاسلامى :

استمرت رحلة ابن تومرت فى المشرق الاسلامى زهاء عشر سنوات تنقل خلالها بين مراكزه العلمية وأفاد من احتكاكه بشيوخه المشارقه كثيرا من العلوم الدينية واللغوية لا سيما الدراسات الكلامية التى كانت محظورة فى المغرب والاندلس زمن المرابطين اذ كانوا يعتبرونها ضربا من الالحاد وطريقا تؤدى الى الكفر وهذا ماحدا بهم الى احراق كتب الغزالى وبالذات احياء علوم الدين لاحتوائه على كثير من المسائل الكلامية ، وعندما قرر العودة الى بلاده ، ترك المشرق فى صورة تكاد تنطق بالدعوة الى تجديد الخلافة العباسية التى وهنت وأنتهت والخلافة الفاطمية التى مزقتها الانقسامات المذهبية والتنازع الداخلى . فالخلافة الفاطمية فى مصر ، بعد وفاة الخليفة المستنصر بالله (١٠٣٦ — ١٠٩٤ م) ، تعرضت لهزات عنيفة نتيجة الانقسام السياسى والمذهبى الحاد داخل كيانها المصدع ، ولا شك أن ابن تومرت عايش هذه الفترة وعاين أحداثها ووقف على حالة الوهن والضعف والانحلال التى أصابت العالم الاسلامى المشرقى سواء فى الخلافة العباسية أم الفاطمية . ففى مصر الفاطمية تعددت الانقسامات المذهبية

---

(١٦) كان ابن تومرت يتقرب الى الغزالى واتفق أن بلغ الامام الغزالى فى احدى الجلسات العلمية التى كان يقيمها ماقام به الامير على بن يوسف ابن تاشفين من احراق كتبه والتهديد بالعقاب الشديد لمن يوجد لديه هذه الكتب فعلق على ذلك بقوله : « ليذهبن عن قليل ملكه ، وليقتلن ولده ، ما أحسب المتولى ذلك الا حاضرا مجلسنا » فقال له ابن تومرت « على يدى يا سيدى » فقال له : « على يديك » . أنظر : المراكشى ، المعجب ، ص ١٠٧ ، ابن القنفذ ، المصدر السابق ، ص ١٠٠ ، د . سالم ، المغرب الكبير ، ص ٧٧٠ .

الى نزارية ومستعلية والى طيبية وحافظيـــــة ، وانعكس ذلك كلـــه فى الاضطرابات العنيفة التى سادت البلاد (١٧) •

واذا كان ذلك هو حال الخلافة الفاطمية التى وقف ابن تومرت على أحداثها ، فان أحداث الخلافة العباسية التى عايشها فى بغداد لم تكـــن صورتها الكئيبة أقل من أحداث الخلافة الفاطمية مع ارهاصات احتضـــار الخلافة العباسية التى هوت بالفعل أمام الغزوة المغولية البربرية الغاشمة بعد ما يقرب من قرن ونصف من الزمان •

أما المغرب فالحالة الفكرية فيه لم تكن أفضـــــل منها فى المشرق ، فالمرابطون قد هبطوا فى نظره الى هوة التخلف الفكرى وجمدت أفكـــارهم عند طريقة السلف التى أصبحوا يسيرون عليها تقليدا دون أن يدركـــوا أغوارها وأعماقها ادراك السلف الصالح لها مما لا يحميهم من مظنـــــة التجسيم لذات الله سبحانه وتعالى ، فحرموا دراسة علم الكلام الـــذى ينصدى لتأويل المتشابه من الآيات القرآنية ، وهم على هذا الاساس فى نظر ابن تومرت الذى تأثر بأفكار المعتزلة كفرغ ملاحدة ومجسمـــة (١٨) ، وهكذا خرج ابن تومرت من رحلته آسفا ومتحسرا على ما أصاب الاسلام فى الشرق والمغرب من التخلف الفكرى العقائدى فى الغرب ومن التحلـــل السياسى والاجتماعى فى الشرق •

---

(١٧) جمال الدين الشيال ، مجموعة الوثائق الفاطمية ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٥ • ج ١ ، ص ٩٠ ، ٩٤—٩٥ ، ١٢٠—١٢٢ ، ١٥٢—١٥٤ • انظر ايضا : عبد المنعم ماجد ، السجلات المستنصرية ، القاهرة ، ١٩٥٤ ، ص ٤٣ ، ١٤٥—١٥١ • محمد جمال الدين سرور ، الدولة الفاطمية فى مصر، القاهرة ٦٥—١٩٦٦ ، ص ١١٨—١٢٠ ، ١٢٧—١٢٨ ، ١٣٠—١٣١ •

(١٨) عبد الله على علام ، الدولة الموحدية بالمغرب فى عهد عبد المؤمـــن بن على القاهرة ، ١٩٦٨ ، ص ٥١ وما بليها •

وتحتدم نفسه بالثورة على تلك الاوضاع السيئة وسرعان ما يفصح عما يعتمل بنفسه فى موسم الحج بمكة عندما يقف خطيبا ويعلن تجريحه للاوضاع الفاطمية الفاسدة التى أرهقت الاسلام وأذهبت هيبته ويحمل على الفاطميين حملة شعواء ويندد بالمناقشات اللجوفاء التى كانت تعقد بين السنة والشيعة .

جـ — رحلة العودة الى المغرب والتقائه بعبد المؤمن فى ملالة :

وفى أعقاب هذه الوقفة ، خرج ابن تومرت مطرودا من الحجاز فوصل الى مصر . وفى قاهرة الفاطميين ، بدأ دعوته الى « الامر بالمعروف والنهى عن المنكر » فتطارده السلطات الفاطمية فيمضى الى الاسكندرية تمهيدا لنفيه خارج البلاد . وفى رحلة العودة الى المغرب على ظهر سفينة بحرية أرست به فى تونس سنة ٥١٠ هـ (١١١٦ م) أو سنة ٥١٢ هـ (١١١٨ م) ويشير المؤرخون الى رحلته البحرية الى المغرب فيذكر ابن خلدون نزوله بطرابلس فى حين يجعلها ابن الاثير المهدية أما عبد الواحد المراكشى فيجعلها بجاية . وأيا ما كان الامر فقد نزل ابن تومرت فى تونس ، وواصل السفر منها الى المغرب . وكان فى كل مدينة يدخلها ينصب نفسه آمرا بالمعروف وناهيا عن المنكر حتى كان يسبب الضيق لولاتها ، فيضطرون الى نفيه أو يؤذونه بسبب ذلك . ويذكر المراكشى فى المعجب قصته مع ركاب السفينة من الاسكندرية فيقول : « .. وجرت له وقائع فى معنى الامر بالمعروف والنهى عن المنكر أفضت الى أن نفاه متولى الاسكندرية من البلاد ، فركب البحر ؛ فبلغنى أنه استمر على عادته فى السفينة من الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، الى أن ألقاه أهل السفينة فى البحر ، فأقام أكثر من نصف يوم يجرى فى ماء السفينة ولم يصبه شىء . فلما رأوا ذلك من

أمره ، أنزلوا اليه من أخذه من البحر ، وعظم فى صدورهم ، ولم يزالــوا مكرمين له الى أن نزل من بلاد المغرب بجاية » [١٩] .

ولم أقف على ما يفيد بشىء تفصيلى عن أخبار ابن تومرت فى زيارته المشار اليها الى طرابلس أو المهدية ذلك لانه لم يتبق من المصدر الرئيسى لاخبار رحلة ابن تومرت الى الشرق ، وهو الخاص بالبيذق ، غير القطعة التى نبدأ بذكر أخباره فى تونس . ومن هذه الاخبار القصة الخاصـــة بالصلاة على اليهودى بأعتبارها نموذجا للمناسبات التى كان يستثمرهــا ابن تومرت لترديد دعوته بالامر بالمعروف . ففى القصة أن الناس رفضوا الصلاة على الجنازة المارة ولما سأل قالوا له : « .. هو يهودى وكان يصلى فقال لهم : « رضى الله عنه أفيكم من يشهد له بالصلاة ؟ » فــرد النــاس بالايجاب من كل مكان ، فقال لهم : « قد شهدتم له بالايمان » ، ثم أمــر من يقيم الصفوف وصلى عليه والناس من ورائه . ولما انتهى من الصلاة دعا الفقهاء ووبخهم وعرفهم بالسنة ، فقالوا له بعد أن عرفوا الحق « جهلنا يافقيــه » [٢٠] .

ونلمح فى هذه القصة وغيرها من الاخبار القصصية المتعلقة بابــن تومرت فى المشرق وخبر تزايد طلبته فى تونس واقبالهم على دعوته وقوله بأن العلم بأنيه فى المغرب وليس فى المشرق ، الثمرة الاولى التى خرج بها من دروس رحلته المشرقية ، وهى أن « الامر بالمعروف والنهى عن المنكر»

---

(١٩) المراكشى ، المعجب ، ص ١٧٩ . راجع فى ذلك ، د . ســالم ، المهدى بن تومرت ، دائرة معارف الشعب ، عدد ٧٠ ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، ص ٤٦٦ .

(٢٠) البيذق ، أخبار المهدى ، ص ١٢ ، د . سعد زغلول ، محمــد بن تومرت ، ص ١٧ .

لم يعد بين مايهم رجال الحكم فى الخلافة الاسلامية فى الشرق الذين أنكروا أيضا على ابن تومرت أفكاره الثورية • بينما وجد فى تونس بشائر الاستجابة اليها ، فتوسم أن نعم هذه البشائر سائر المغرب • ومن ثم عقد انتقل بعد رحيله من تونس الى طور جديد من دعوته وهو ما تشهد عليه أخباره فى قسنطينة [٢١] حيث انكب على تعليم أهلها كيفية تطبيق الشرع فى الاحكام لا سيما فيما شاهده بنفسه من قضايا [٢٢] ، ومع استمراره فى تعليم تلاميذه الذين أخذوا يزدادون يوما بعد يوم وقدأعجبهم سعه علمه فى دائرة دعوته التوحيدية وسحر بيانه وعمق تأثيره فى الدرس وقدرته على الاقناع بالحجج وبراعته فى اجتذاب المريدين الذين تبين لهم أن فقهاء المغرب الجامدين دفعوهم الى التجسيم والكفر •

ثم رحل من قسنطينة ، الى بجاية [٢٣] حاضرة بنى حماد الصنهاجيين وفيها نهى الرجال عن التزى بزى النساء ، وحث على عدم اختلاط النساء بالرجال فى الصلاة • وفى هذا الصدد يروى أمير بجاية (العزيز بن المنصور بن الناصر بن علناس) لما رآه يفرقهم بعصاه قال له : « يا فقيه لا تأمر السوقة بالمعروف وهم لايعرفونه ، فانى أخاف أن يأمروا فيك وتهلكهم ، لا يستوى حر كريم مع نسيطان رجيم » ، فأغلظ له ابن تومرت ولاتباعه فى

(٢١) البيذق ، نفس المصدر ، تغرى بردى ، النجوم الزاهره ، ج ٥ ، ص ٢٥٤ .

(٢٢) يورد البيذق قصة ابن تومرت عند سماعه أهل قسنطينة ينادون على جزاء الحلال (الحلال فى لغة المغرب القديمة بمعنى السارق) فقال : ليس عليه سياط بل القتل . ومرة أخرى المنادى على جزاء أهل السرقة ، فقال : تركتم الشرع ، انما يجب عليه قطع اليد ، وقال أن هذا الضرب يقوم مقام قطع اليد بجهلكم ، لانه لا يجوز جمع حدين فى ذنب واحد . وطلب من السارق التوبة ، وعلمه شروطها (المصدر السابق) .

(٢٣) الوزير السراج ، الحلل السندسية ، ص ٧ — ٩٧٨ . ابن أبى زرع ، القرطاس ، ص ١٧٣ .

انفوق فأنكر عليه الامير ذلك . فخرج ابن تومرت من بجاية خائفا الى قرية ملالة من قرى بجاية ، وفيها بنى له الطلبة مسجدا ، وكان مجلسه فى هذا المسجد قريبا من دار يرزيجن بن عمر المعروف بأبى محمد والذى سماه ابن تومرت ، عبد الواحد (وهو معروف عند الموحدين بالشرقى من أصحاب المهدى والمقربين اليه) (٢٤) .

أخذ ابن تومرت يدرس دعوته أياما فى حماية بنى ورياكل الصنهاجية الذين أجاروه وكان يجلس تحت شجرة خروب قريبا من ديار ملالة ويلتف حوله تلاميذه ، وتمضى الروايه فى اظهار قرب اعلان مهدويته ، فقد سمعه تلاميذه تحت الشجرة يقول : « .. الحمد لله على كل حال ، قد بلغ وقت النصر ؛ وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم ، يصلكم غدا طالبا طوبا لمن عرفه وويل لمن أنكره » (٢٥) . فأخذتهم الدهشة فى أمره فمن يا ترى يكون هذا القادم ؟

ذلك هو عبد المؤمن بن على الكومى (٢٦) (خليفة المهدى) حسب رواية البيذق نفسه . وفى قصه هذا اللقاء الذى تم بين المهدى وخليفته ما يكمل خيوط أحداث رحلة ابن تومرت الى الشرق والعودة منه الى بلاد المغرب .

---

(٢٤) البيذق ، المصدر السابق ، ص ١٣ ، عنان ، دولة المرابطين والموحدين ، ج ٢ ، ص ١٦٥ .

(٢٥) البيدق ، نفس المصدر ، ص ١٤ . أنظر أيضا ، د . سالم ، المغرب الكبير ، ص ٣—٧٧٤ .

(٢٦) ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ص ٤٦٧ . ابن خلكان ، وفيات ، ج ٣ ، ص ٢٣٧— ٢٤١ . ابن صاحب الصلاة ، المن بالامامة ، تحقيق د . عبد الهادى التازى ، بيروت ، ١٩٦٤ ، ص ٤١١—٤١٣ . البيذق ، المصدر السابق ، ص ١٠—١٦ .

فقد ذكروا أن عبد المؤمن أقبل منذ صباه اقبالا شـديدا على تلقى العلم فلما شب كان يتردد على جامـع تلمسان للسماع وتلقى العلم على شيوخ عصره وفقهاء الحديث والتفسير ، فلما اتسع علمه تشوق الى الرحلة الى المشرق الاسلامى للتوسع فى الدراسات الدينية على نحو ماجرى عليه طلاب العلم فى بلاد المغرب فخرج بعد وفاة أبيه مع عم له يدعى يعلو الى بجاية ليركب من هناك سفينة الى الاسكندرية ، فوصل الى متيجة ومنهـا الى بنى زلدوى فلما وصل الى بجاية نزل بمسجد الريحانة ، وفى هـذا المسجد رأى الناس يتركون المسجد جماعات للاجتماع بالفقيه السوسى ، فسأل الناس عنه ، فذكروا له أنه عالم المشرق والمغرب وليس كمثله أحـد من الناس . فطلب من عمه قصده بملازمة ليسأله فى أحوال الديانـات والواجبات ويقص عليه مناماته [٢٧] . فما أن لمحه ابن تومرت حتى استدناه منه وسأله عن اسمه وبلده وعرف منه أنه يقصد المشرق التماسا للعلم فرد عليه : « العلم الذى تريد اقتباسه بالمشرق قـد وجـدته بالمغرب » ، ورد عليه القول : « لا يقوم الامر الذى فيـه حياة الدين الا بعبد المؤمن بن على سراج الموحدين » . فبكى عبد المؤمن لسماع ذلك ولشـدة تأثره قال : « يافقيه ماكنت فى شىء من هذا ، انما أنا رجل أريد مايطهرنى مـن ذنوبى » . فقال له المعصوم (ابن تومرت) : « انما تطهرك من ذنوبـك صلاح الدنيا على يديك » واستطرد فقال : « طوبى لاقوام كنت أنـت مقدمهم ، وويل لقوم خالفوك أولهم وآخرهم ، أكثر من ذكر الله يبارك الله لك فى عمرك ويهديك ويعصمك مما تخاف وتحذر » [٢٨] .

---

(٢٧) البيذق . نفسه ، ص ١٧ . راجع قول المهدى لعبد المؤمـن فى الاستقصا ، السلاوى ، ج ٢ ، ص ٨١ .

(٢٨) البيذق . نفسه ، ص ١٦—١٧ .

وعلى هذا النحو نجح ابن تومرت فى اثناء عزم عبد المؤمن عن الرحلة الى المشرق فى طلب العلم وعزم هذا على ملازمته فى السراء والضـــــراء وتفانى فى الاخلاص له •

وتدل قصة هذا اللقاء على أمر جديد يهمنا فى تتبع تطور دعوة ابـــن تومرت عبر رحلته ، لا يتعلق بخبر سبق اليه المهدى فى التأكيد على طلبته بأن العلم يأتى فى المغرب وليس فى المشرق ، بقدر ما يتعلق بأن طلبته من المغاربة فى رحلة العودة قد ألفوا الفوج الاول من صحابته المهاجرين معه على طريق اعلان مهدويته • وكان دخوله فاس بصحبة سبعه من أتباعــه أو صبيانه على حد قوله (٢٩) • وفى فاس أمر صبيانه أو تلاميذه باستخدام القوة فى النهى عن المنكر حيث طلب منهم قطع مقارع من شجر التيـــــن المغروس بأسفل الوادى لتكسير أدوات اللهو التى بالحوانيت (٣٠) • ولما شكا أربابها الى ابن معيشة قاضى المدينه لم ينصفهم على أساس أن ذلك وجده الفقيه فى السنة والا ما فعله • ومثل هذا العمل العنيف ، لم يسبق اليه ابن تومرت فيما ذكر من أخبار أطوار دعوته عبر رحلته الشرقيـــة ، ومنها تلك المتعلقة بأخبار انتقاله الى تلمسان ووجدة • وكان من أمـــره فى تلك الاخبار عزوفه عن مواجهة المخالفين بنظير مثلما حدث مع الجماعـــة التى صادفها فى دشر قلال (٣١) الى دخوله فاس عندما ردوا علـــى بعض

---

(٢٩) هم : عبد المؤمن بن على وعبد الواحد الونشريسى والحاج عبـــد الرحمن والحاج يوسف الدكالى والبيذق وعمر بن على ، وعبد الحق بن عبـــد الله . (راجع البيذق ، ص ٦٤) •

(٣٠) كانت الحوانيت فى فاس مليئة بالدفوف والقراقر والمزامير والعيدان وجميع أدوات اللهو (البيذق ، ص ٦٥) •

(٣١) دشر قلال هى اليوم المعروفة بعين بوقلال الواقعة بتراب قبيلـــة مكناسة على الطريق بين تازة الى أكنول . البيذق ، نفسه ، ص ٢٢ •

رجاله : « معروفنا ومعروفكم عندكم ، سيروا والا نمثل بكم وبفقيكم » ، فقال ابن تومرت : « سيروا عنهم لئلا يصيبهم بلاء فيصيبنا معهم » [٣٢]

د — صدى رحلته في المغرب :

على طريق العودة من المشرق الاسلامي ، اقتصر عدد الاصحـــاب الذين رافقوا ابن تومرت على سبعة نفر الذي جاء ذكر بعضهم على لسان البيذق في قوله : « .. فخرجنا من تونس ونحن أربعة نفر كما كنا أول القدوم : سيدنا المعصوم رضي الله عنه ، ويوسف الدكالي ، والحاج عبد الرحمان ، وعبدكم الفقير المؤلف لهاذا أبو بكر بن علي الصنهاجي المكنـــا بالبيذق » [٣٣] . وفي شوط الرحلة من تونس الى فاس ، زاد على صحبه الثلاثة الاوائل ثلاثة آخرون هم : عبد الواحـــد الونشريسي وابنه عبـــد المؤمن بن علي الكومي . وبالتالي تفسر هذه الاخبار واقتصار صحابتـــه على هذا العدد المحدود مادامت دعوته لم تلق الاستجابة المنشودة مـــن ابناء الخاصة كما أسلفنا القول خاصة قول أمير بجاية [٣٤]

ويستفاد من المقولة الاولى للبيذق عن الصحابة الثلاثة الاوائـــل أن رحلة ابن تومرت كانت يمكن أن نقف عند نتيجة واحدة هي تلك التي تتعلق بزيارة الشرق في اطار الزيارات التقليدية التي نهج عليها المغاربة عبـــر تاريخهم بهدف الحج أو الاستزادة من علوم الشرق والاتصال بمعارفـــه وأحواله . فعاد ابن تومرت من المشرق الاسلامي في صحبة اصحابـــه الثلاثة الذين بدأوا معه الرحلة ثم انضاف اليهم الثلاثة الجدد من المغاربة

---

(٣٢) البيذق ، نفسه ، ص ١٢ .
(٣٣) البيذق ، نفسه ، ص ٢٢ .
(٣٤) أنظر : البيذق ، أخبار المهدى ، ص ١٣ ، عنان ، دولة المرابطيـــن والموحدين ، ج ٢ ، ص ١٦٥—١٦٦ .

العائدين من رحلاتهم الى الشرق أو القاطعين لها أخذا بنصيحة ابن تومرت وعن طبيعة الدعوة التى وجهها المهدى للناس فى أثناء رحلته المذكورة ، لم يشر البيذق الى دعوة أبعد من مخاطبة السوقة بالامر بالمعروف والنهى عن المنكر — وهى الدعوة التى رددها البعض أيضا عن أخباره بالحواضر المشرقية والتى انحصر تأثيرها الاول الى مجرد اخراجه من الحاضرة حسبما أفاد البيذق نفسه فى مقولته الثانية المذكورة أعلاه .

ووضح من أخبار الرحلة أيضا أن طبيعة هذه الدعوة قد جعلت ترحال ابن تومرت بين الحواضر الاسلامية يتم فى سلام أو على حد قول البيذق « فى أمن من الله »[٣٥] ، بالرغم من عدم رضا الحكام أمثال « العزيز » صاحب بجاية على أسلوب ابن تومرت فى مخاطبة « السوقة » . ومع ذلك ، تبقى لمقولة « العلم الذى يريد اقتباسه بالمشرق قد أتاه بالمغرب » ذلك المعنى الذى يتعدى بالدعوة من الوعظ الدينى فى أمور حياة السوقة العادية الى تلك الثورة التى فجرها ضد المرابطين بعد عودته والتى من أجلها قطع صحبه الثلاثة الجدد رحلتهم الى الشرق وأجمعوا « على السير نحو المغرب فى صحبته »[٣٦] .

وأفادت أبحاث الدكتور أحمد مختار العبادى بوجود العديد من أنصار الدعوة التومرتية فى البلدان المشرقية — حسبما يرد بالتفصيل فيما بعد [٣٧] . وأعتقد أن أعداد هؤلاء قد تكاثرت فى كل مرحلة من مراحل

---

(٣٥) البيذق : نفسه ص ١٢ .
(٣٦) البيذق ، نفسه ، ص ١٧ .
(٣٧) أنظر : د . مختار العبادى ، دراسات فى تاريخ المغرب والاندلس ، الاسكندرية ، ١٩٦٨ ، ص ١١٢—١١٣ ، البيذق : نفسه ، ص ٢٨—٢٩ .

رحلة ابن تومرت فى طريق عودته الى المغرب نتيجة للاخبار التى ترددت أصداؤها فى أرض المغرب عن فتيه السوس "العالم المقنع ، الداعى الى الحق ، الذى تصدى للامراء والعلماء والحكام وفاقهم ببلاغة وسحر مقولته .

عن هذه الاخبار ، أفادت قصة دخول فاس أن قاضيها « عبد الحق بن عبد الله بن معيشة الغرناطى » لم يذهب كما ذهب غيره فى الحواضر المشرقية الى الاعتراض على طريقة ابن تومرت فى النهى عن المنكر . بل أفادت القصة أيضا بأن سكوت قاضى فاس عن أسلوب العنف الذى نزع اليه ابن تومرت فى حادث اللهو الحوانيت يعنى أن الفقيه القاضى قد مال الى آراء ابن تومرت أو تأثر بها . ومن الاخبار فى رحلته الى مراكش أن دعوته أخذت تؤتى ثمارها بالفعل فتكاثر أنصاره فى مكناس وخميس متزارذ (٣٨) ، ورحبت القبائل به وأنصاره (٣٩) .

وعندما حل بمراكش قاعدة دولة المرابطين ومقر أميرهم ومركز علمائهم أيقن بقرب الصدام المحتوم مع هؤلاء الفقهاء الذين يمثلون علم الكلام ويرمون أصحابه بالكفر ، فأقام وأصحابه فى مسجد صومعة الطوب وظل مقيما به قرابة أسبوع حتى كان يوم الجمعه التالية حيث دخل مسجد على بن يوسف ، فألفاه جالسا على غفارة ابن تيزمت والوزراء واقفون ،

(٣٨) هى مدينة الخميسات حاليا ، تقع فى منتصف الطريق بين فاس والرباط .

(٣٩) من الروايات فى هذا الصدد أن القبائل اعترضته أثناء عبوره وصحبه نهر أم الربيع حيث طلبت منه دفع الضرائب حسب عدد الرؤوس من أجل المرور . فخاطبها بالبربرية قائلا : « آو مورن ملو لينن ان سوس آداون نساك » أى أن السبيل للمسلمين وأنتم تقطعونها ، وهذا غير جائز فى الشرع ، فتركوهم لحال سبيلهم ، البيذق ، نفسه ، ص ٢٦ .

فقال له الوزراء ود الخلافة على الامير (٤٠) ، فقال لهم : « وأين الامير ؟ انى أرى جوارى منقبات » . فلما سمع ذلك على بن يوسف حط النقاب عن وجهه وقال لهم صدق (٤١) . فلما رآه ابن تومرت قال له : « الخلافة لله ولبست لك ياعلى بن يوسف » . ثم قال له : « ياعلى قم عن هذه الاميرة تكون أمام عدل ، ولا تقعد على هـــذه الغفارة المغـــيرة ، فأزالها وأعطاها لمولاها . وقال له : وما تغيرها؟قال له ابن تومرت «لأنها تقعد بالنجاسة»(٤٢) ثم خرج من المسجد ، ودخل مع الفقهاء للمذاكرة حتى قهرهم(٤٣) .

وتنتهى رحلة ابن تومرت المشرقية الى تلك القصة التى تقدمت أخبار صدامه المباشر بالامير المرابطى على بن يوسف وفقهاء المرابطين . وبهذا نكاد نتلمس عقدة علقت بفكر ابن تومرت من رحلته المشرقيه عن أوضاع « السوقة » من عموم المسلمين والمشارقة بوجه خاص ، أو انعقدت بفعل ماوقف عليه من الاحوال السيئة فى المشرق الاسلامى وفى امارتى بنى زيرى وبنى حماد بالمغربين الادنى والاوسط .

ويبقى من الرحلة المشرقية صـــداها الذى تناقلتـــه ألسنة الحجيج المغاربة بين حواضر المشرق ، وتنوقلت فى حواضر المغرب وبواديه . وتتمثل هذه الاصداء فى انتشار أتباع الموحدين فى مدن مصر حسبما سيرد الذكر.

---

(٤٠) المقصود بكلمة ود هى أداء الواجبات والتشريفات للامير ، وهـــى كلمة عامية لازالت مستعملة فى المغرب الى الان .

(٤١) سمى ابن تومرت المرابطين بالملثمين نظرا لخروج المرأة سافـــرة الوجه وبضع الرجال اللثام . راجع قصته مع أخت على بن يوسف وتقريعـــه لها . ابن خلكان ، وفيات ، ج ٥ ، ص ٤٩ . السلاوى ، الاستقصا ، ج ٢ ، ص ٨٢ .

(٤٢) البيذق ، نفسه ، ص ٢٧ .

(٤٣) البيذق ، نفسه ، ص ٦٧ .

ومثل هذا الاثر من البديهيات المفترضة فى سياق ما يردده الحجاج المغاربة عن أنباء من تخلف منهم فى المشرق • ولا جدال فى آن ما سبق من اخبار ابن تومرت الى المغرب تحمل فى طياتها التفسير المنطقى للقول السابق ذكره عن تكاثر أنصاره فى الشوط الاخير من رحلة عودته الى حد أن قاضى فاس أخذ بأرائه بل الى حد امتناع الامير المرابطى على بن يوسف عن الاقدام على اجراء تأديبى يردع ابن تومرت عن تكرار تهجمه على شرعية امارته • ويمكننا على هذا النحو تفسير استمرار ابن تومرت فى دعوته الموحدية) بين أوساط المرابطين دون أى عقاب والى حد رفض الامير المرابطى الاخذ بنصيحة فقهاء مجلسه بالزج به فى السجن — حسبما سيرد القول عن بقية أخبار ما تبقى من رحلته — والقبول بمقولة مثالية جاءت على لسان أحد قواده وليست من مآثر دروس الحكم القوى فى تاريخ الامارة الاسلامية عموما والامارة المغربية على الخصوص •

أثر حياة ابن تومرت الاولى فى فكره :

عن حياة ابن تومرت الاولى ومؤثراتها ، جاء عن نسبه على لسان البيذق : هو « محمد بن عبد الله بن وكليد بن يامصل ، بن حمزة بن عيسا ، بن عبيد الله بن ادريس ابن ادريس بن عبد الله ، بن حسن بن الحسن بن فاطمة بنت رسول الله ﷺ »[٤٤] • وذكر ابن أبى زرع ادعاءه لنسبه النبوى فى شجرة بها بعض الاختلاف ورسم الشجرة العائلية المذكورة ، فقال : هو « محمد بن عبد الله المعروف بتومرت ابن عبد الرحمان بن هود بن خالد بن تمام بن عدنان بن سفيان بن صفوان بن جابر ابن يحيا بن

---

(٤٤) البيذق : المقتبس من كتاب الانساب فى معرفة الاصحاب ، الرباط، ١٩٧١ ، ص ١٢ • انظر أيضا ابن خلكان ، وفيات ، ج ٥ ، ص ٤٦ .
— Rachid Bourouiba, Ibn Tumart, p. 17.

عطاء بن رباح بن يسار بن العباس بن حمد بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم » • وأضاف ابن أبي زرع ما ذكره ابن القيس في تاريخه بأنه : « هو رجل من هرغة من قبائل المساعدة يعرف بمحمد بن تومرت الهرغي وقيل أنه من كنفيسه »[٤٥] •

وينحمس ابن خلدون في اضافة النسب النبوي الى محمد بن تومرت، على أساس أرتفاعه الى علي بن ابي طالب عن طريق سليمان بن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن علي ، وسليمان هذا هو أخو ادريس الاكبر، الذي يقع نسب معظم بنيه في المصامدة وأهل السوس [٤٦] • ويؤكد المراكشي في المعجب هذا النسب النبوي الشريف بقوله : « •• له نسب متصل بالحسين بن علي بن ابي طالب •• »[٤٧] •

ويميل عدد من المؤرخين الحديثين الى تجريد المهدي من نسبه النبوي الشريف وتأكيد انتمائه الى قبيلة هرغة من بطون المصامدة [٤٨] • ويأتي الاستاذ عبد الحميد العبادي برأي آخر فهو يعتقد أنه كان في الاصل بن أحفاد العلويين الادارسة الذين اندمجوا في البربر ، وتخلقوا بأخلاقهم ، وتطبعوا بطباعهم ، فهو عربي الاصل ، بربري الطباع

---

(٤٥) ابن أبي زرع ، المصدر السابق ، ص ١٧٢ ، أنظر أيضا :

— Rachid Bourouiba, Op. Cit., p. 14.

(٤٦) ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، قسم ٢ ، ط دي سلان ، الجزائر ١٨٨١ ، ص ٦٥، ، علام ، الدولة الموحدية ، ص ٤٧ •

(٤٧) المراكشي ، المعجب ، ص ١٠٧ •

(٤٨) علام ، المرجع السابق ، ص ٤٧ • ليفي بروفنسال ، الاسلام في المغرب والاندلس ، ترجمة الدكتور عبد العزيز سالم ، سلسلة الالف كتاب رقم ٨٩ ، ص ٢٦٥ •

— Henri Terrase, Histoire du Maroc, Casablanca, 1949, p. 202.

وأنظر أيضا :

— Charles André Julien; Histoire du L'Afrique du Nord, Paris, 1955, p. 90—92.

والاخلاق [٤٩] • ومع التسليم بهذا الراى الذى يجمع بين الاصل العربى والخلق البربرى لابن تومرت يمكن أن نتبين غلبة البيئة البربرية على الاصل العربى • وهذا الرجحان واضح من الاشارات المتناثرة عن سيرته من حيث القول عن مولده فى سنة ٤٨٥ هـ (١٠٩١ م) أو ٤٩١ هـ (١٠٩٥م) [٥٠] وعن أبيه (أبو عبد الله محمد بن عبد الله) وعن قومه من قبيلة هرغة [٥١] ، المصامدة المعروفين باسم (السرغيين) [٥٢] أى الشرفاء فى لغة المصامدة•

وعلى الرغم من أن مصمودة كانت من أكبر القبائل البربرية عددا وأشدها بأسا الا أن والده كان فقيرا وكانت أمه من قوم يعرفون ببنى يوسف من مسكالة من عمالة السوس [٥٣] •

تلقب (أبو عبد الله محمد بن عبد الله) بلقب تومرت الذى كان

---

(٤٩) عبد الحميد العبادى ، المجمل فى تاريخ الاندلس ، القاهرة ، ١٩٥٨ ، ص ١٨٢ .

(٥٠) الزركشى ، تاريخ الدولتين ، ويذكرها فى ٤٩١ هـ وشبر حولها الخلاف ، ص ٤ ، أنظر ايضا آراء ابن الخطيب ، أعلام الاعلام ، قسم ٣ ، ص ٢٦٦ ، راجع فيها :

— Rachid Bourouiba, Op. Cit., p. 14.-

وغيها يناقش عملية تحديد مولد ابن تومرت عند ابن خلدون والزركشى وابن‌خلكان تفصيليا .

(٥١) هرغة قبيلة المهدى ، قبلية مصمودة أسمها البربرى أرغن ،مساكنها جنوبى وادى سوس الى الشرق من مدينة رودانة وتشمل فى الوقت الراهن على البطون التالية : بنى عثمان ، بنى تاموا دان ، آران والجرف (البيذق ، نفس المصدر ، ص ٣٣ .

(٥٢) المراكشى ، المصدر السابق ، ص ١٠٧ . أنظر ايضا ، د . سالم ، المغرب الكبير ، ص ٧٦٩ .

(٥٣) السلاوى ، الاستقصا ، راجع تقسيمه لعمالات المغرب ، ج ١ ،ص ٧٢– ٧٣ .

يتلقب به أبـوه[٥٤] ، كما تلقب بـ (امفـار) أى الشـيخ فى لغـة البربر[٥٥] . وحمل فى صغره لقب أسافو أو أسـافور بمعنى الضياء لكثرة ما كان يسرجه من قناديل فى المساجد التى لازمها للعلم[٥٦] .

ولم تكشف المراجع التى بين أيدينا عن حياة محمد بن تومرت الاولى وتخلوا القطعة الباقيه من أخبار المهدى للبيذق من هذا الجانب . وكل ما نعرفه عنه أنه ولد فى أقصى السوس فى قرية تومكران ، ويذكر عن هذا المكان أن « لا ماء فيه انما يشرب أهله من ماء المطر ، وأنه فى سفح جبل اجليز » [٥٧] . وكان أن انطبعت شخصيته بمعالم هذه البيئة فاتسمت بصفات منها أنه (كان رجلا ربعة ، أسمر عظيم الهامة ، غائر العينين ،حديد النظر ، ضعيف العارضين) [٥٨] . ومن أصول صفاته البيئية أن يتحدث

---

(٥٤) يعرف البيذق معنى تومرت بقوله : « .. أنه اسم لابيه عبد الله ، شهر فى صغره الى كبره بتومرت بن وجلبد . ذلك لما ولد فرحت به أمه وسرت فقالت باللسان الغربى « آتومرت آينو اسك آبيوى » ومعناها : « يا فرحتى بك يابنى » . وكانت اذا سئلت عن أبنها وهو صغير تقول أيضا بنفس اللسان « يك ترمرت » ومعناها صار فرحا مسرورا . فغلب عليه أسم تومرت ، وترك دعاؤه باسم عبد الله الذى سمى به أولا . أنظر ، المقتبس من الانساب ، ص ٢٧ . (والمقصود هنا باللسان الغربى هو لغة أهـل المغرب فى الغرب) . ويضيف رشيد بروبية Rachid Bourouiba

« أن والد ابن تومرت سمى عبد الله وتلقب هو بتومرت بواسطة أخته حسب ماذكره ابن القطان أو بواسطة أمه كما سبق أن ذكر ابيذق ويضيف ابن القطان أن « عبد الله عند مولده قد دنر فى تومارت أى معطف » ومن ثم تلقـب بهذا الاسم . المرجع السابق ، ص ١٧ .

(٥٥) ليفى بروفنسال ، الاسلام فى المغرب والاندلس ، ترجمة د . سالم ص ٢٦٥ . عبد الله عنان ، عصر المرابطون والموحدون ، ج ٢ ، ص ١٥٨—١٦٩

(٥٦) ابن أبى زرع ، القرطاس ، ص ١٧٢ . راجع أيضا ، د . سـعد زغلول ، محمد بن تومرت ، ص ١٣ .

(٥٧) Marcel Peyrouton; Histoire General du Maghreb, Paris, 1966. p. 94. —

(٥٨) السلاوى ، الاستقصا ، ج ٢ ، ص ٩٤ .

بالبربرية أو حسب الاشارة السابقة عن أمه بـ (اللسان الغربى) وقد ذكر البيذق فى هذا الصدد أن ابن تومرت فى نهاية رحلة العودة من الشرق فى الطريق من فاس الى مراكش كان يخاطب القبائل البربرية [٥٩] وان ذلك كان مفاجأة لاصحاب ابن تومرت • هذه اشارة تعنى أن ابن تومرت كـــان لا يستخدم البربرية فى أحاديث رحلته المشرقية الا نادرا لميل منـــه الى تفضيل الحديث فى هذه المرحلة من حياته بلغة القرآن ، وأن اقدامـــه فى المرحلة من رحلته على الحديث بالبربرية يعنى التسليم بالطابع الخاص لبيئة موطنه ومؤثراتها عليه •

ويردد السلاوى [٦٠] ما ذكره ابن عذارى عن أصول الثورة الفكرية فى بيئة ابن تومرت المغربية ، بقوله « كان له ناموس عظيم » • ويضيـــف أيضا ابن أبى زرع الى هذا القول أنه (كان عالما فقيها راويا للحديـــث عارفا بالاصول والجدل) [٦١] • وتؤكد مخطوطة « أقوال المهدى فى علم الكلام » [٦٢] ماسبق أن ذكره السلاوى •

وكان على ابن تومرت الذى ابتنى فكرة المهدية على أساس مـــــزج ما كان يحمله من فكر الطرقيين الصوفيين فى المغرب [٦٣] قبل رحيله الى

---

(٥٩) انظر ما قاله البيذق بالبربرية ، أخبار المهدى ، ص ٢٦ .
(٦٠) السلاوى ، نفس المصدر .
(٦١) ابن أبى زرع ، القرطاس ، ص ١٧٢ .
(٦٢) البيذق ، مخطوطة اقوال المهدى ابن تومرت فى علم الكلام ، دار الوثائق بالرباط ، ميكروفيلم رقم ١٠٥١ ، عن العلم وأهميته وسنده بالاحاديث والقرآن ، انظر ، ص ١—١٩ . وفى العقل والجائز والواجب والمستحيـــــل والآراء حول تفسيرها ، انظر ، ص ٤٨ . وعن الكلام فى المتواتر وما يتعلق به من فصول ، انظر ، ص ٧٦ ، ٨٢—٨٤ .
(٦٣) راى جورج مارسيه فى « الاعتقاد فى المهدى وفى عودة ظهوره مـــن تقاليد البلاد . فمن بين أقاليم الاسلام ، يبدو أن المغرب كان هو الاقليم الـــذى

المشرق مع ما تلقاه من فكر الغزالى وأفكار المعتزلة والمتكلمين أثناء رحلته المشرقية ، كان عليه أن يواجه الجمود الواضح فى أفكار فقهاء المالكيـــة فى المغرب المرابطى حيث يتصدى ابن تاشفين لمحو تعاليم مالك وتتبع كل من يشتغل بالعلوم الكلامية وقصر التعليم على الفقه وحفظ القرآن والاعتماد على الفروع •

وفى حياة ابن تومرت الأولى نراه يتلقب بلقب أمغار (الشيـــخ) ويسبقه بلقب (امسافو) بالاضافة الى ما أسبغه المؤرخون عليه من شرف الانتساب الى بيت الرسول ﷺ • ولم يخل الامر من الاشارة أيضـــا فى هذا الصدد الى الاصل العربى بالرغم من غلبة المؤثرات البربرية علـــى أصول أسرته ، وواقع التدنى المادى لهذه الاسرة ، فضلا عن انعـــزال موطنها فى قرية مجهولة من قرى جبل اجليز ، وهذا يعنى فى اجمال الحديث أن نظرية ما كانت قد تألفت عند ابن تومرت ومهدت له فكرته السياسيـــة التى تكونت لديه عن الدولة المهدوية الموحدية وذلك قبل أن يبدأ رحلتـــه المشرقية • كما يعنى نفس الحديث أن هذه النظرية كانت قد تأثرت أيضا بثورة الامير المرابطى على فقهاء علم الكلام وما صاحبها من ردود فعـــل مختلفة مست على نحو مباشر ماديه من أفكار فقهية ، هذا وقد تضمنت هذه النظرية التى تألفت لديه الاشارة الى خليفة ابن تومرت عبد المؤمـــن

سيطرت فيه على الاذهان فكره انتظار المهدى ولاسباب غامضة كانت منطقـــة السوس المكان الذى تبلورت حوله الآمال الملحة ، وحتى نهـــاية القـــرن ١٤م كان ما يزال ينتظر هناك » •

— Georges Maracis, La Barberie Musulmane et L'Orientan, M.Age 1946. pp. 259—60.

وقد راى د . عباس الجرارى فى هذا الرأى مبالغة ربما نجمت عن الآثار التى تخلفت عن العصر الموحدى وظلت تراود بعض النفوس (الموحدون ثورة مذهبية ، مجلة المناهل ، الرباط ، ١٩٧٥ ، العدد الاول ص ١١٢) •

بن على فتذكر أن أمه رأت فى منامها وهى حامل به النار تخرج منها وتحرق المشرق والمغرب والقبلة والجوف ، وأن تفسير ذلك حسبما قيل لهـا أن مولودها هذا سيصبح شخصية لها شأنها وأنه سيضم المشرق والمغـرب والقبلة والجوف [٦٤] • وأن هذه الشخصية ترتفع فى نسبها الى الرسول ﷺ ، فهو فى هذا النسب (عبد المؤمن بن على بن علوى بن يعلا بن الحسن بن كنونة بنت ادريس بن ادريس بن عبد الله بن القاسم بن محمـد بن الحسن بن على بن أبى طالب) [٦٥] •

ويلى ذلك الحديث عن رحلتى المهدى وخليفته الى المشرق [٦٦] • والارجح أن الفكرة من وراء الرحلة المشرقية عند الرجلين تدخل فى اطار نفس النظرية المذكورة وتستكمل خيوطها الاخيرة • ولكن تبقى الاشارة الخاصة ببقاء ابن تومرت فى رحلته المشرقية مدة عشر سنوات ، والاشارة بعدول عبد المؤمن عن اتمام رحلته المشرقية ، وهما اشارتان يفسرهمـا جزئيا القول بأن العلم يأتيه بالمغرب وليس من المشرق • ويكتمل هـذا

---

(٦٤) البيذق • أخبار المهدى ، ص ١٧ • راجع قول المهدى فى عبدالمؤمن فى السلاوى ، الاستقصا ، ج ٢ ، ص ٨١ •

(٦٥) أنكر ابن خلدون نسب عبد المؤمن العربى أصلا (العبر ، ج ٦ ، ص ٢٥٨) ويشاركه صاحب الحلل الموشية (ص ١١٧) وكذلك المراكشى (صاحب المعجب ، ص ١١٨) فى ذلك • والثابت أن عبد المؤمن ينتمى الى بطن من بطون قبيلة بنى عابد احدى قبائل كومية وهى قبيلة من جذم ضريسة من البربـر البتر ، كانوا يعرفون قديما بصطفورة لهم ثلاثة بطون ومنها تفرعت قبائلهم : ندرومة وصغاره وبنى يلول • وموطنهم الاصلى جبال ترارة على ساحل البحر المتوسط شمال غرب تلمسان • ولد بتاجرا القريبة من مرسى هنين بجبـال ترارة غربى وادى الفنا أو تافنا آخر عام ٤٨٧ هـ / ١٠٩٥ م (راجع فى ذلك : صالح باجية ، الاباضية بالجريد ، ص ١٦) • ولمزيد من التفاصيل عـن نسب عبد المؤمن وقرابته أرجع الى : البيذق ، الانساب ، ص ١٣—٢٢ •

(٦٦) نفذ المهدى رحلته وعاد عند شروع عبد المؤمن فى رحلته الى المشرق فأثناه عن القيام بها وأقنعه بصحبته فهو صاحب الامر من بعده •

التفصيل بالربط بين نظرية ابن تومرت والمدة التى استغرتها رحلته وتلك المقولة . ويستفاد من هذا الربط أن الفكرة السياسية للدولة الموحدية وجدت فى أحوال الخلافة الاسلامية بالمشرق ما يجسمها ويخرجها من اطارها النظرى فى فكر ابن تومرت ، وكان الاعتقاد أن هذه الاحوال خير ضمان للانتقال بالفكرة النظرية الى الثورة فى أرض المشرق ذاته ومنها الى المغرب ، وحيث أن ذلك لم يتحقق بين المشارقة بالرغم من سنوات اقامته الطويله بينهم ، فقد عاد ابن تومرت ليجد فى المغرب ضالته المنشودة وبعبارة أخرى موجزة ، فانه بالعودة الى المغرب يعود صاحب الرحلة الى اعلان ثورته العارمة على الافكار الفقهية عند المرابطين ، وهى ثورة أضاف اليها بعد العودة من رصيد رحلته المشرقية ثورة أستاذه الغزالى على الخلافة الاسلاميه عامة .

واستكمالا لنسج الخيوط الاولى لهذه الثورة ، يسجل المؤرخون ما وقع من مساجلة كلامية فى اللقاء بين الامير المرابطى (على بن يوسف) وابن تومرت بعد أن استفحل أمره . ومن هذه المساجلات رده على الامير المرابطى بأنه : « ... رجل طالب آخره وليس بطالب دنيا ، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، وواجبه احياء السنة واماتة البدع » . ومن مساجلات هذا اللقاء أيضا مخاطبة ابن تومرت للامير المرابطى بقوله : « .. وقد أمر الله بتغيرها واحياء السنة بها ، اذ لك القدرة على ذلك ، وأنت المأخوذ به والمسئول عنه ، وقد عاب الله تعالى على قوم تركوا النهى عن المنكر .. » [٦٧] . وكذلك من الاخبار فى هذا الصدد مادار من جدل

(٦٧) ابن ابى زرع ، القرطاس ، ص ١٧٤ ، المراكشى ، المعجب ، ص ١٨٤ — ١٨٥ .

بين ابن تومرت وفقهاء المالكية فى حضور الامير المرابطى . فقد حدث أن أستقر رأى الأمير المرابطى على جمع العلماء من كل صوب ليختبروا ابن تومرت ويقفوا على حقيقة أمره ، فان كان عالما حقا تبعوه وان كان جاهلا أدبوه على حد قول المراكشى صاحب المعجب [٦٨] . وكان على رأى المجتمعين من هؤلاء الفقهاء الفقيه مالك بن وهيب[٦٩] . وكان ان وجـــه ابن تومرت كلامه الى مالك قائلا : « أيها الفقيه أنت لسان الجماعة ، فأخبرنى هــل تنحصر طرق العلم أم لا تنحصر ؟ فأجاب : تنحصر فى الكتاب والسنـــة والمعانى التى بنيت عليها » . فقال له المهدى : سألتك عن طـــرق العلم هل تنحصر أم لا ، فلم تذكر الا واحدة .. ومن شروط الجواب أن يطابـــق السؤال [٧٠] . واستطرادا لهذا الجدل المبنى على الاصول فى علم الكلام، ومن منطق ادراك ابن تومرت أن الفقهاء المجتمعين لمجادلته هم أصحــاب حديث وفروع أساسا ، أستطرد فى مجادلة ابن وهيب فسأله عن أصول الحق والباطل ، وأظهر ابن وهيب عجزه عن الاجابة ، وأخذ ابن تومـــرت عندئذ فى توضيح أصول الحق والباطل مفيدا بأنها أربعة : العلم والجهل والشك والظن ، العلم للهداية والاخريات للضلال ، ثم كان استطراده فى بيان أسس وطرق العلم . وكان من الطبيعى أن يثور هؤلاء الفقهاء عليه ويوغروا عليه الامير على بن يوسف فيصفونه بأنه : « رجل خارجـــى

---

(٦٨) المراكشى ، نفس المصدر .

(٦٩) مالك بن وهيب الاشبيلى ، كان فقيها فيلسوفا مشاركا فى جميـــع العلوم ، الا أنه كان لايظهر الا ماينفق فى ذلك الزمان ، وهو الفقـــه والعلـــوم الدينية التى كانت لمعاطيها سلطان على نفوس ملوك الدولة المرابطية (البيذق اخبار المهدى ، ص ٢٧) .

(٧٠) ابن أبى زرع ، المصدر السابق ، ص ١٧٤ـــ١٧٥ . وعن فشـــل هذه المناظرة انظر : ابن خلدون ، المقدمة ، ج ٦ ، ص ٣٦٠ ، دائرة المعـــارف الاسلامية مجلد ٢ ، ص ٤٥١ـــ٤٥٣ . علام ، الدولة الموحدية ، ص ٧٤ـــ٧٥ .

مسعور ، أحمق صاحب جدل ولسان يضل جهال الناس ، وان بقى بالمدينة يفسد عقائد أهلها وينشر ذلك عند الناس حتى يرسخ ذلك فى قلوب أكثر العامة » [٧١] • ونصح بن وهيب، الامير على بن يوسف بان يقضى عليه لانه هذا هو صاحب الدرهم المركن ومذه صفته ، وقال له : « اجعل عليه كبلا كى لا تسمع له طبــلا »[٧٢] • فأمر على بن يوســف بسجنه ، ولكن اعترض على الامر القائد المرابطى بينتان بن عمر ، وأقام اعتراضه علـــى منطق السؤال عن (كيف يسجن رجل من رجال المسلمين وماذا يقال عـــن أمير المسلمين ؟) وتأثر على بن يوسف بهذا القول ، ومال الى الصفح عن ابن تومرت ولكنه أرجأ ذلك القرار حتى تتم المشاورة ، وفى هذه الاثنـــاء اصطحب هذا القائد معه ابن تومرت الى داره حتى تمت المشاورة من على بن يوسف الذى قرر أن يتركه يخرج من مراكش [٧٣] •

وخرج ابن تومرت من حاضرة المرابطين الى الجبانة الواقعـــة فى طرف المدينة حيث نصب خيمته فتكاثر عليه الطلبة ، ووصل خبره من جديد الى الامير فطلبه ، ولكنه لم يمتثل لكلام رسول الامير من منطلق أنـــه يقيم بين قبور الموتى وليس مع الاحياء • ومع ذلك فقد خاف ابن تومرت مـــن

---

(٧١) البيذق ، المصدر السابق ، ص ٢٧ •

(٧٢) الزركشى ، تاريخ الدولتين ، تحقيق ماضور ، ص ٥. البيذق ، نفس المصـــــدر •

(٧٣) هو قائد مرابطى كبير ، قاد غزوتهم الاولى ضد ابن تومرت وكانت له مواقف مشرفة مع الموحدين ، وراعوا ذلك بعفوهم عن بنتيه ميمونة وتامكونت مع نساء عديدات ، وعن ابنه عمر وسائر أبناء بينتان عند فتح فاس ومراكش بسبب توصية المهدى لهم ، حتى أن ابنته ميمونة زوجة القائد يحيى بن مـــريم قائد حصن زاكورة من قبل المرابطين أبقاها عبد المؤمن بعد أسرها عام ٥٢٦هـ فى الجبل حتى أفتدى بها كل من كان بتلمسان من أسرى الموحدين (البيـــذق ، المصدر السابق ، ص ٢٧) •

بطش الامير وآثر السلامة فخرج قاصدا أغمات (٧٤) . وفيها رسخت دعوته بين أهلها الى حد انقسامهم الى فرقتين (مؤمن وكافر) وبرز فيها عدد من طلبته (٧٥) الذين رافقوه فى رحلته الى منازل قبيلة هرغة وذلك فى سنة ٥١٤ هـ (١١٢١ م) .

وفى هذه الرحلة من أغمات الى هرغة ، مر ابن تومرت وصحبه بعدد كبير من القرى ولم يتوقف اثناء سيره عن وعظ أهلها وارشادهم ، وكان يحض قتال من لا يقتنع بدعوته من هذه القبائل البربرية .

ثم تأهب ابن تومرت للصدام المسلح مع المرابطين بعد أن تأكد من

---

(٧٤) تقع أغمات على بعد حوالى ٤٠ كلم جنوبى مراكش فى الطريق الذاهبة منها الى جبل وريكه . بها قريتان : أغمات هيلانة أو أغمات ن ايلان ، والثانية أغمات وريكه الواقعة جنوبها ، بنتها قبيلة هوارة قبل الاسلام ، وبها مسجد بنى عام ٧٠٤ م ، وكانت قاعدة المذهب الخارجى بالمغرب ، ثم عادت الى مذهب أهل السنة فى عهد الادارسة ، وكانت من حظ عبد الله بن ادريس الثانى ، فصارت قاعدة لناحية مراكش ومقصد العلماء والادباء من الاندلس والقيروان . وفى سنة ١٠٥٨ م استولى عليها المرابطون وطردوا أميرها لقوط الزناتى زوج زينب النفزاوية التى صارت فيما بعد زوجة لابى بكر بن عمر اللمتونى ثم ليوسف بن تاشفين والى أغمات نفى المعتمد بن عباد وفيها توفى . ومن المعروف أن أغمات فقدت أهميتها بعد تأسيس مدينة مراكش واتخاذها حاضرة لدولة المرابطين ، ولم تلبث أن أصبحت مجرد قرية ولكنها بدأت تنتعش الآن ببناء ضريح على قبر المعتمد بن عباد واتخاذها مقر جماعة قروية (البيذق ، المصدر السابق ، ص ٢٩ وعبد الوهاب بن منصور ، قبائل المغرب ، ج ١ ، الرباط ١٩٦٨ ، ص ١٢٣—١٢٤) .

(٧٥) على راس هؤلاء الطلبة : : سليمان بن البقال ومعروف بسليمان احضرى (من العشرة الذين بايعوا المهدى ، ومن الخمسين فى التنظيم الحربى للموحدين ، وكان كاتب رسائل المهدى الى مقتله فى معركة البحيرة سنة ٥٢٤هـ /١١٣٠م . واسماعيل آيكيك (معروف باسماعيل بن يسلالى الهزرجى من أهل العشرة ، قائد على هرغة ، تولى القضاء ، عقد البيعة لعبد المؤمن ، أنقذ المهدى من محاولة اغتياله ، فدى عبد المؤمن) البيذق ، كتاب الانساب ، ص ٣٠-٣١ .

القوة البشرية التى تؤيده وتسانده . وطلب من المجتمعين معه أن « يعملوا آساراك [٧٦] كبير لان الخيل بصلكم » وأمرهم ببناء المذوالد [٧٧] وقال : « من عمل مذوادا أخذ فرسا ومن عمل اثنين أخذ اثنين ، ومن كذبنـــا حسيبه الله » [٧٨] .

وواضح من مواصلة استعداداته القتالية وتنظيماتها أنها كـــانت تستهدف أبعد من مجرد قتال المرابطين والتصدى لمحاولاتهم القضاء على تنظيم الدعوة التومرتية وهى فى مراحل النشأة . فهل كانت تستهـــدف تحقيق الغاية الاساسية التى قامت عليها الدعوة الموحدية بعد نضوجهــا وأصبح ذلك ضرورة لازمة لتحقيق الثورة المهدوية الشاملة المرتقبـــة للنهوض بالاسلام ورفع الخلافة الاسلامية وانتشالها من واقع التردى فى مشكلات التنافس على الامارة الاسلامية والخلاف (المذهبى) بين رجالها وائمة فكرها ؟ واذا كان الامر كذلك ، فماذا عن النشأة السياسية والحربية لهذه الرئاسة الموحدية وتطورها الى خلافة اسلامية عامة تسعى الـــى التوسع شرقا ؟

---

(٧٦) آساراك هى مربط الخيل بالبربرية .

(٧٧) مذود هى مأكل الدواب وموضع علفها . راجع فى ذلك ، البيذق ، أخبار المهدى ، ص ٣٣ .

(٧٨) — C. Julien, Histoire de L'Afrique, p. 53. H. Terrassé, La Barberie, p. 261.

(٢)

قيام دولــة الموحديـــــن

أ ـــ المهدى والدعوة الموحدية :

كان هروب المهدى من مراكش الى أغمات مؤشرا لبداية هجومه على المرابطين ؛ فقد أخذ يحمس طلابه ويعلمهم بقصده كما أخذ يطعـــن فى المرابطين ويصفهم بالكفرة المجسمين والزراجنة (٧٩) وأحل قتالهم اذ أن كل من يعلم أن الله واحد وجب عليه « غــزو الروم والمجــوس » . فتبعه أكثر من ألف وخمسمائة من تلامذته وأتباعه ، وجاءه طالب ينادى قـــرب خيمته « يا موسى أن الملا يأتمرون بك ليقتلوك فأخرج انى لك من الناصحين» وكرر ذلك ثلاث مرات . ولما سمع محمد بن تومرت النداء فطن له ، وقرر الخروج متخفيا مع بعض الصحابة حتى وصل الى تينملل (٨٠) فى شهـــر شوال من عام ٥١٤ هـ / يناير ١١٢١ م ، وأقام حتى شهر رمضان من عام ٥١٥ هـ / نوفمبر ١١٢١ م عندما جهر بدعوته .

---

(٧٩) الزراجنه : جمع زرجان وهو طائر أسود البطن أبيض الــريش ، شبه المهدى بن تومرت المرابطين به لانه يرى أنهم بيض الثياب سود القلوب ، كما سماهم المجسمين لانه الزمهم فى المذاكرة أن يقول بالتجسيم والمكان ،وكذلك سماهم الحشم للثامهم كما تفعل النساء المحتشمات (أنظر : ابن القطان ، نظم الجمان ، تحقيق د . مكى ، ص ٣٢ ـــ البيذق ، كتاب الانساب ، ص ٢٥ ، علام الدولة الموحدية ، ص ٧١ وتفسيره للثــام) .

(٨٠) يذكر البيذق أن تينملل قرية واقعة بتراب قبيلة كدمة (كـــدمت) الكندافية بطن فرغوسة على بعد ١ كلم من الطريق الذاهب من مراكش الــى رودانة ، اختارها المهدى لاقامته وبث دعوته لمناعتها ، وسرح منها أنصـــاره لضرب المرابطين . وفيها دفن عام ٥٢٤ هـ وكذلك خليفته عبد المؤمن وابنـــه يوسف، وحفيده يعقوب المنصور قرب المسجد والضريح اللذين أسسهما عبـــد المؤمن ، وظلت المدينة أطلالا حتى قامت وزارة الاوقاف بترميم المسجـــد وإصلاحه . كتاب الانساب ، ص ٢٤ . السلاوى ، الاستقصا ، ج ٢ ، ص ٨٤ــ٨٥ .

رق تينملل لحق به صحابته العشرة وهم الاوائل الذين سارعوا الى قبول دعوته والذين صدقوا امامته ، وأيدوا رئاسته وهم : عبد المؤمن بن على ، أبو أبراهيم وهو أسماعيل بن يسلالى الهزرجى المعروف عند الموحدين باسماعيل أيكيك ، عمر أصناك أو عمر بن على الصنهاجى ، عبد الواحد الشرقى ، أبو محمد عبد الله بن محسن الوانشريشى المكنى بالبشير أبو موسى الصودى أو عيسى الخلاسى الصودى ، أبو بكر بن على الصنهاجى المكنى بالبيذق ، وأبو محمد وسنار بن عبد الله ، أبو عثمان بن يخلف . أبو يحيى بن يجيت [٨١] .

وبعد أن أطمأن ابن تومرت فى مقامه بتينملل أنشأ فى منتصف شهر رمضان من عام ٥١٥ هـ / نوفمبر ١١٢١ م ، رابطة للعبادة وزاد من عدد طلبته وأتباعه ، وبدأ يعلمهم مذهبه فى التوحيد الكلامى ، فطلب منهم عدم اتخاذ العنف من أجل نشر هذا التوحيد . وهذا التوحيد مؤلف باللغة البربرية [٨٢] ، ومن مؤلفاته أيضا القواعد والامانة وهى بالعربية والبربرية . ولفصاحته فى اللسانين ، سهل على ابن تومرت الشرح والتفسير واعطاء المواعظ وضرب الامثال ، فعجل ذلك اجتذاب قومه البربر اليه ، وتمهد أمامه السبيل لاعلان مهدويته وتفجير ثورة البربر على المالكية وأمارتها المرابطية .

---

(٨١) البيذق ، أخبار المهدى ، ص ٣٤—٣٥ .

(٨٢) يذكر صاحب الحلل الموشية أنه : « الف لهم كتاب أسماه بالتوحيد بلسان البربرية وهو سبعة أجزاء عدد أيام الجمعة وأمرهم بقراءة جزء واحد منه كل يوم اثر صلاة الصبح بعد الفراغ من جزء القرآن وهو يحتوى على معرفة الله تعالى وسائر العقائد كالعلم وتحقيقه والقضاء والقدر والايمان بمايجب لله تعالى ، ومايستحيل عليه وما يجوز وما يجب على المسلم من الامر بالمعروف والنهى عن المنكر وواخى بينهم فيه . وأضاف أنه ألف لهم كتابا سماه بالقواعد ، وآخر أسماه الامانة وهما مدونان بالعربية والبربرية » وذلك لسهولة مهمها ولجذب القبائل البربرية الى جانبه (المصدر السابق ص ٨٩).

وهكذا بدأ ابن تومرت قرب نهاية رحلته الشرقية وعند وصوله الى أغمات ، صدامه الفكرى بالمرابطين . فقد وضح من الاخبار الاولى لهذا الصدام أن الجانب الفكرى المذهبى قد شكل الاطار الظاهر لما وقع من أحداث بين الطرفين . وتجلى ذلك فى القالة النعتية التقليدية التى تنكر على المرابطين الايمان وتصفهم بالكدرة « المجسمين والزراجنة » .

ولم تلبث الخلاف المذهبى أن ازداد حدة وعمقا بسبب تأخر الصدام السياسى والعسكرى ، ومن ثم استمرار مجلسه العلمى فى الرابطة التى أنشأها فى تينملل وتكاثر الطلبة حول المجلس للاستماع الى آراء ابن تومرت فى المذهب المالكى وغيره من المذاهب وتلقى تعاليمه الاولى عن دعوة التوحيد .وكان من هذه التعاليم حسبما سبق الاشارة عدم اتخاذ العنف طريقا لنشر مبادىء هذه الدعوة ، وهو عامل هام من عوامل تأخير الصدام المذكور بينه وبين المرابطين ، بالاضافة الى أن سياسة هؤلاء المرابطين كانت تتعمد أغفال شأن الدعاة أمثال ابن تومرت لا سيما فى مناطقهم النائية

وتم الاعلان ابن تومرت المهدية فى رمضان عام ٥١٥ هـ / نوفمبر ١١٢١ م أى بعد نحو عام من استكمال رحلته الشرقية ، وذلك فى خطبته الشهيرة على طلبته فى تينملل حيث قال : « الحمد لله الفعال لما يريد ، القاضى بما يشاء ، لا راد لامره ، ولا معقب لحكمه ، وصلى الله على سيدنا محمد المبشر بالمهدى الذى يملا الارض قسطا وعدلا ، كما ملئت جورا وظلما . يبعثه الله اذا نسخ الحق بالباطل ، وأزيل العدل بالجور ، مكانه المغرب الاقصى ، وزمنه آخر الزمان ، وأسمه أسم للنبى عليه الصلاة والسلام ، ونسبه نسب النبى صلى الله تعالى وملائكته الكرام المقربون عليه وسلم ، وقد ظهر جور الامراء ، وامتلات الارض بالفساد ، وهذا

آخر الزمان ، والاسم الاسم ، والنسب النسب ، والفعل الفعل » [٨٣] .
وهكذا تلقب ابن تومرت بالمهدى وصرح بدعوى لعصمة لنفسه وانـــــه المهدى المعصوم .

وكان النسق الثانى من هذا الحدث الكبير مبايعة العشرة من أصحابه فى رحلته الشرقية [٨٤] حيث التفوا حوله بمجرد فراغه من خطبتـــــه وبايعوه « وهم جلوس تحت سجرة خروب » على حد قول صاحب الحلل الذى روى تفاصيل هذه المبايعة فيما نصه : « قال الامام أبى يحيى ابن اليسع ، سمعت الخليفة عبد المؤمن يقول لما فرغ الامام المهدى من خطبته لبرير مراكش سنة ٥١٥ هـ من كلامه هذا بادر اليه عشرة رجال من أتباعه والملازمين له كنت أنا واحد منهم ،قلنا : ياسيدى هذه الصفة لا توجـــد الا فيك فأنت المهدى ، فبايعناه فى أثناء ذلك على ما بايع به الصحابـــة ورسوله ﷺ وأن يكونوا يدا واحدة على القتال والدفاع فبايعه أصحابه العشرة تحت شجرة خروب وتتابع البربر بعد ذلك عليه بالمبايعة على أن يقاتلوا عنه ويبذلوا أنفسهم دونه فعرفهم بما فى ذلك من الارزاء والمحن والقتل والفتن فالتزموا بذلك » [٨٥] .

وجاء ابن تومرت بتنظيم العشره فى خلافته من صحابته ، وألحـــق بهذا التنظيم تنظيما عشريا آخر على المنحو التالى :

---

(٨٣) الوثائق . مجموعات دورية نصدرها مديرية الوثائق الملكيـــــة ، اشراف عبد الوهاب بن منصور ، الرباط ، ١٩٧٦ ، ج ١ ، وثيقة رقم ٧٧ ، ص ٢٢٥—٢٢٦ .

(٨٤) ويسميهم اهل العشرة ويسميهم أيضا بالجماعة .

(٨٥) الحلل الموشية ، ص ٨٨—٨٩ .

١ — أصحاب العشرة من أهل الجماعة من صحابته العشرة السابق ذكرهم ، وهم أول من امن به وبمهدويته .

٢ — أهل الخمسين وهم التابعون فى التأييد ، وكانوا من قبائل بربرية متعددة : هرغة ، وهنتاتة ، وجدميوة ، وكنفيسة ، وصنهاجة ، والقبائل وهسكورة (٨٦)

٣ — أهل السبعين .

٤ — الطلبة من العلماء والمفكرين .

٥ — الحفاظ من صغار الطلبة .

٦ — أهل الدار من أسرة المهدى .

٧ — أهل هرغة ، قبيلة المهدى وأفراد حرسه الخاص .

٨ — أهل تينملل من أعيان المدينة .

٩ — أهل جرمونة من الجند .

١٠— الرماة والغزاة وعامة عبيد المخزن من الجند .

---

(٨٦) المقصود بالقبائل فى التسمية الواردة بالمتن أشتات القبائل التى انحازت الى المهدى بن تومرت أنتصارا له دون أن يجمعها نسب . وقد تميزبين تلك القبائل المختلفة المذكورة أهل هرغة بدعوى أنهم السابقون من أنصار المهدى ، فضلا عما كانوا يمثلونه من أفخاذ وبطون عديدة بحكم أنهم أنفسهم هم قبيلة ابن تومرت . ويذكر عنهم أنهم كانوا اذا مااتجهوا الى المهدىوسألهم عن حاجتهم يقولون له ، على حد قدل البيذق : « جئنا نتبرك بك وتدعو لنا فيبايعونه ويمسح على رؤوسهم ويدعو لهم كذلك غير مامرة » (البيذق ، كتاب الانساب ، ص ٤٢) . أما هنتاتة فكانت لها أفخاذ تسعة وعرفت جدميوة بأفخاذها الستة والاربعين وما يتبع الافخار من المزوار (بكر الاولاد) كذلك عرفت جنفيسة بأفخاذها الاثنين والعشرين ، والقبائل المسماه بهذا الاسم بأفخاذ ثمانية . وعن كومية فأفخاذها كانت خمسة وعشرين . وكانت هسكورة القبلة (بربرا البرانس) وهسكورة الظل بأفخاذ احد عشر . اما صنهاجة القبلة أى الجنوبية الساكنة خلف جبال البرانس والمتعرضة للشمس وصنهاجة الظل أى الساكنة فى الجبل بعيدة عن وهج الشمس ، فأنهم كانوا للرأى والمشورة (البيذق ، كتاب الانساب ، ص ٥٢—٥٣) .

ويمثل هذا التقسيم العشرى أو الطبقى التنظيم الادارى والحربى الاساسى لحكومة الدولة الموحدية • وكان الترجمة العملية لوجه من وجوه الفكر النظرى للمهدية الموحدية المذكورة • وواضح من أن أصول هـذا التنظيم فى فكر ابن تومرت أم تبتعد عن ميراثه البيئى وعن اطار تاريخى سبقت اليه التنظيمات الصوفية وحملة الميراث الاجتماعى للقبائل المغربية وسيطرأ على التنظيم الحربى للموحدين ، بعد معاركهم الثلاثة الاولى ، تعديل كبير لم يكن بعيداً أيضا عن هذا الميراث نفسه ، وأن مس جانبا منه حسبما سيرد الذكر فيما بعد ، وكان من مظاهر هذا التعديل صفات التمييز التى جعلها المهدى لكل فئة فى تنظيمه لمعرفة الخبيث منهم والمحـــق فى بيعته • فيحتفظ أفراد كل فئة بميزته لا يتعـــداها فى ســـفر ولا فى حضر ولا ينزل كل منهم الا فى موضعه المخصص [٨٧] •

(ب) المعــارك الاولى :

ومن تنظيم العشرة أخذت الحركة الموحدية تشق طريقها نحـــو بناء دولتها فى المغرب • وفى هذا السبيل خاضت الحركة عدة معارك بلغت وقائعها فى حياة ابن تومرت تسعة وقائع • والى وفاة المهدى عام ٥٢٤هـ — ١١٣٠م، لم يكن أتباعه قد دخلوا بعد الحاضرة المـــرابطية مـــراكش ، ومن ثم فان الدولة الموحدية عاشت فى حياة مؤسسها طور المنشأة وظلت كذلك الى ما بعد وفاته بعدة سنوات وحتى سقوط مراكش نفسها حاضرة المـــرابطين فى عام ٥٤١هـ — ١١٤٧م • وكانت وفاة مهدى الموحدين فى أعقاب هزيمة فادحـــة كالها المرابطون فى نفس سنة وفاته (٥٢٤هـ) لجيش الموحدين وأعنى بها وقعـــة البحيرة •

---

(٨٧) البيذق • المصدر السابق ، أنظر أيضا ، ليفى بروفنسال ، رسائل موحدية ، رقم ١٢ ، ص ٤٧—٥٥ •

وكان من نتائج ما جرى فى هذه المعركة وما بعدها من اجراءات باسم « التمييز » يعنى انتقال الدولة الى طور متميز من علاقات السلطة بين الخلافة الموحدية وأتباعها •

ويمكننا أن نشهد مقدمات هذا التطور فى أحداث المعارك الموحدية السابقة لمعركة البحيرة ، وبهذه المناسبة أود أن أشير الى حقيقة هامة تتعلق بمعارك ابن تومرت التسعة المذكورة ، وهى أن فترة هذه المعارك تكاد تنقسم الى قسمين :

القسم الاول ، ويشتمل على أخبار المعارك الثلاث الاولى التى يغلب عليها القالب المثالى التقليدى فى تفسير الموحدين لاسباب صدامهم الحربى مع المرابطين الى حد أن صفة الملثمين تغدو سبة على لسان ابن تومرت ينعت بها المرابطين ويرد فيها بنفس التفسير •

والقسم الثانى ، فيبدأ بأخبار المعركة الرابعة التى تطلعنا على نمط هذه العلاقات ، وتتعلق أساسا بقبائل جيش الموحدين الى وقوع أحداث المعركة الاخيرة التاسعة التى وقع فيها انقسام قبلى حاد قاد الى تصفية « التمييز » والى مرض المهدى واعتكافه بداره حتى صدر نبأ موته فى رمضان سنة ٥٢٤هـ — أغسطس ١١٣١م •

عن القسم الاول ، يتمثل الرفض الموحدى للمرابطين فى أحداث هذه المرحلة فى نعتهم لهم بالثمين والفاسقين والفاسدين والفاجرين والمنافقين ومانعى الزكاة • وكان اللثام — كما هو معروف — من العادات المتوارثة عند المرابطين وما زال متداولا بين الطوارق الصحراويين الى اليوم • وقد عاب عليهم المهدى ذلك واعتبره من المحرمات التى تدخل فى اطار التشبه بالنساء فى الوقت الذى تسفر نساؤهم عن وجوههن • واستشهد المهدى فى

هذا التحريم بما روى عن الرسول ﷺ القـول : « لعن رسـول الله ﷺ المتشبهات من النساء بالرجال والمتشبهين من الرجال بالنساء »(٨٨) .

وفى الصفات والنعوت الاخرى التى أطلقها عليهم المهدى ما يحقـق الهدف الدينى السياسى للموحدين ويستهدف تجريد المـرابطين من ولاية الحكم استجابة لقول الله تعالى : « ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسـكم النار ، وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون »(٨٩) ، وقـوله تعالى أيضا : « لا تجد قوما يؤمنون بالله واليـوم الآخـر ، يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو اخوانهم أو عشيرتهم »(٩٠) .

واذا كانت هذه الصفات لا تحمل من معنى فى نظر صـاحبها أكثر من هذا الهدف المذكور ، فهناك الاشارة الخاصة بالزكاة وتشبيه قتالهم بحرب أبى بكر الصديق لمـانعى الزكاة فى عبارته الشهيرة : « والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، فان الزكاة حق المـال ، والله لو منعونى عقالا كانوا يؤدونه الى الرسول ﷺ لقاتلتهم على منعه »(٩١) . وعلق ابن تومرت بعبارة

---

(٨٨) يفسر الاستاذ عنان اتخاذ المرابطين اللثام فيقول : « .. أن أهـل لمتونة — وهى قبيلة المرابطين — كانوا يتخذون فى أعراسهم نوعا خاصا مـن الحجاب ، ومنها أنه حدث ذات مرة فى بعض حروبهم أن نساءهم كن يقاتلـن معهم محجبات ، حتى يحسبن بذلك فى عداد الرجال ، ومنها أنهم كانوا يلجأون الى اللثام تخفيا من طلبة ثأر الدم ، وأخيرا أن اللثام كان من ضروريات الحماية من لفح العواصف والرمال والحر والبرد . وما تزال عادة اللثام قائمة حتـى اليوم فى بعض قبائل موريتانيا والسودان وغيرهما . وأما عن سفور النسـاء ، فقد قيل أنه لكى يظهر انحطاطهن عن الرجال . عصر المرابطين والموحديـن ، العصر الثالث ، قسم ١ ، ص ٢١٢ .

(٨٩) سورة هود ١١ ، الآية رقم ١١٣ .

(٩٠) سورة المجادلة ، ٥٨ ، الآية رقم ٢٢ .

(٩١) عن سورة المجادلة ٥٨ ، الآية رقم ١٣ حيـث نفس المعنى « أن الشرك لظلم عظيم » .

خاصة به نصها: « كل من منع فريضة من فرائض الله حق على المسلمين جهاده حتى يأخذوا منه . فكيف بمن منع الايمان والدين والسنة ؟ »[٩٢] .

فهل كانت هذه النعوت ترجمة لتدهور كبير أصاب أخلاقيات مجتمع المرابطين قبيل اندلاع الثورة الموحدية ؟ اجابة ذلك نجـدها فيما ذكـره صاحب المعجب اذ يقول : « اختلت حال أمير المسلمين وظهرت فى بـلاده مناكر كثيرة ، وذلك لاستعلاء أكابر المـرابطين على البـلاد ودعـواهم الاستبداد ، وانتهوا فى ذلك الى التصريح فصار كل منهم يصرح بأنه خير من على أمير المسلمين وأحق بالامر منه ، واستولى النساء على الاحـوال وأسندت اليهن الامور فصارت كل امرأة من أكابر لمتونة ومسوفة مشتملة على كل مفسد وشرير وقاطع سبيل وصاحب خمر وماخور وأمير المسلمين فى ذلك يزيد من تغفله ويقوى من ضعفه وقنع باسم امرة المسلمين وبما يرفع اليه من الخراج وعـكف على العبادات والتبتل وأهمـل أمـور الرعيـة غاية الاهمـال »[٩٣] .

ومثل هذا القول قد عبر عنه ابن خلكان فى صورة أخرى حيث قال أن المهدى فى تينملل : « رأى بعض أولاد القوم شـقرا زرقا وألوان آبائهم السمرة والكحل .. فسألهم عن سبب ذلك ، فلم يجيبوه فألزمهم الاجابة ، فقالوا : نحن من رعية هذا الملك وله علينا خراج ، وفى كل سنة تصعد مماليكه الينا وينزلون فى بيوتنا ويخرجوننا عنها ، ويخلون بمن فيها من النسـاء ، فتأتى أولادنا على هذه الصفة .. وما لنا قدرة على دفع ذلك عنا » . فقال محمد : « والله ان الموت خير من هذه الحياة ، وكيف رضيتم بهـذا وأنتم أضرب خلق الله بالسيف وأطعنهم بالرمح ؟.. فقالوا : « بالرغم لا بارضا ،

---

(٩٢) علام ، الدولة الموحدية ، ص ٧٣—٧٤ وعن قائمة الاحاديث التى استند اليها ، أنظر ، عنان ، المرجع السابق ، ص ٢١٣ .

(٩٣) المراكشى ، المعجب ، ص ١١٧ ، الجراوى ، الموحدون ، ص ٨٤ .

فمان : أرأيتم لو أن ناصرا نصركم على أعدائكم ما كنتم تصنعون ؟ » قالوا: كنا نقدم نفسنا بين يديه للموت . قالوا : من هـو ، قال : ضيفكم — يعنى نفسه — فقالوا : السمع والطاعة »[٩٤] .

على أية حال ، ففى هذا الاطار العام من النعوت السبابة التى وصم بها ابن تومرت المرابطين وتقويض الاساس الاخلاقى الدينى والاجتماعى لحكمهم ، خاض الموحدون معاركهم الاولى . وعرفت المعركة الاولى بغزوة « تاودزت » ، وفيها تولى قيادة المرابطين القائد بينتان بن عمر الذى أن آوى المهدى فى أيام محنته الاولى مع على بن تاشفين . ووضح من تنظيم المرابطين فى المعركة أن راعوا الهدف السياسى ممثلا فى اختيار القيادة كما راعوا الهدف الحربى هو الآخر فيما جيشوه من قوة كبيرة أثارت الهلع بادىء ذى بدء فى قلوب الموحدين . ومع ذلك ، فان الحماس المهدوى للموحدين كان سببا فى ايقاع الهزيمة بالمرابطين الى حد أن المهدى أطلق عليهم صفة أخرى هى « الحشم » .

فى المعركة الثالثة مع المرابطين ، حفظ التاريخ رسالة خطها ابن تومرت وبعث بها الى شيوخ المرابطين قال فيها : « الى القوم الذين استزلهم الشيطان ، وغضب عليهم الرحمان ، الفئة الباغية والشرذمة الطاغية اللمتونية .

أما بعد فقد أمرناكم بما نأمر به أنفسنا من تقوى الله العظيم ، ولزوم طاعته ، وأن الدنيا مخلوقة للفناء ، والجنة لمن اتقى ، والعذاب لمن عصى ، وقد وجبت لنا عليكم حقوق بوجوب السنة ، فان أديتموها كنتم فى عافية ، والا فنستعين بالله على قتلكم حتى نحو آثاركم ، ونكدر دياركم ، ويرجع العامر خاليا ، والجديد باليا .

---

(٩٤) ابن خلكان ، وفيات ، ح ٥ ، ص ٥١—٥٢ .

وكتابنا هذا اليكم اعذار وانذار . وقد أعذر من أنذر .
والسلام عليكم سلام السنة ، لا سلام الرضى »[٩٥] .

والرسالة المذكورة كما هو موضح تخلو من سبب محدد للحرب الدائرة بين الطرفين . ومع ذلك ، فعندما نصل الى أخبار المعركة الرابعة فى تاريخ هذا الصدام الحربى بين المرابطين والموحدين ، نعثر على بداية الخيط الذى ينتهى بأحداث « التمييز » المذكور . ففى هذه المعركة أو الغزوة الرابعة للموحدين ، أقدم المهدى على ترتيب جيشه الى مجموعة من الفرق تبعا لأقسام القبائل الكبرى ، يتقدم كل منها قائدها وعلمها . فظهر عبد المؤمن حاملا أهم أعلام المهدى « العلم الابيض » وأخرج معه قبيلة كدميوة . وقام على قبيلة هرغة قائدها أبو ابراهيم يحمل العلم الاصفر . وتقدم القائد عبد الله بن علوية على قبيلة كنفيسة بعلم أصفر آخر . وقدم ليالتن عام على قبيلة تينملل ، ثم علم آخر لعمر آينتى وقدمه على هنتاتة . ثم رتب المهدى سائر القبائل على ذلك الترتيب . بينما تولى قيادة جيش المرابطين قائدان من أشهر قوادهم هما يانو ، وآكدى بن موسى . وكان النصر حليف الموحدين فى موقعة تيزى آن ماست[٩٦] .

كان التنظيم القبلى لجيش الموحدين بعد المعركة الثانية يعنى أن الخيط المذكور جاء ترجمة لوضع اجتماعى أضيفت أسبابه الى الاسباب الدينية فأدت جميعها الى انتصار مجموعات هذه القبائل للدعوة الموحدية ورفض الحكم المرابطى ويعبر ابن عذارى عن نتائج ذلك اقتصاديا بقوله : « .. اتصلت الحروب ببلاد أهل اللثام وغلت الاسعار بمراكش حتى وصل

---

(٩٦) وتلتها المعركة الخامسة فى آنا آن بماديدن وانتهت هى الاخرى

(٩٦) وتلتها المعركة الخامسة فى آنا آن بماديدن وانتهت هى الاخرى
بانتصار الموحدين ، أنظر ، البيذق ، أخبار المهدى ، ص ٣٦—٣٧ .

فيها الربع من الدقيق بمنقال حشمى ذهبى ، وتوالى هذا الجدب حتى جفت فى الارض مذابتها وأغبرت جوانبها وقلت المجابى بهذه الفتن .. »[٩٧] .

ويخرج من ذلك بالنتيجة الآتية : أن التقسيم الحربى المذكور أوضح أن الحركة الموحدية انتقلت الى طور جديد من تنظيمها كدولة . وفى هـذا الطور ، وقع اختلاف حـول مسألة الغنائم ، ونستدل على ذلك من قـول المهدى : « .. واجتنبوا المحارم ، وردوا المظالم ، وتحاللوا وتغافروا فيما بينكم يغفر الله لكم ، وأصـلحوا ذات بينـكم . ولا تفسـدوا فى الارض ولا تبذروا ولا تسرفوا ، ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ولا تخـونوا ولا تغدروا ، ولا تحسدوا ولا تغلوا ، ولا تمثلوا ، ولا تولوا الادبار عنـد لقاء العدو ، بمن فعـل ذلك فقـد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير . واياكم والغلول (فى الغنيمه) ، فان الغلول عار ونا وشنار على أهله يوم القيامة ، وأقسموها على موافقة الكتاب والسنة ولا تعيبوا قليلا ولا كثيرا ، للراجل سهم وللفارس ثلاثة أسهم بعد اخراج الخمس من رأس الغنيمة ، والغنيمة لمن شهد الوقيعة »[٩٨] .

ويشير البيذق الى نفس الموضوع بقوله : « فى أثناء عـودتهم الى تينملل جار ى طريقه على فدان من جلبان ، فقال : « اقلعوه » فقلعناه ، فلما تلع نخاطفوه فأخذ كل واحد قدر مقدرته فتبسم وقال : « هكذا تتخاطفون بعدنا على الدنيا »[٩٩] .

---

(٩٧) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ط تطوان ، ١٩٦٠ ، ج ٣ ، ص ١٢— ١٣ .

(٩٨) الونانى ، وثيقة رقم ٨٣ ، ص ٢٣٧ .

(٩٩) جلبان فى لغة المغاربة هى ماتعنى فى المشرق : البازلاء (أنظـر ، البيذق ،أخبار المهدى ، ص ٤١) .

ونستنتج مما سبق أن الامر يتعلق بضـــعف عام فى قـــدرة التعاليم الموحدية على احتواء النوازع المـــادية لدى القبائل عموما[١٠٠] • وفى هذا الصدد عرفت قبيلة هرغة (أهـــل ابن تومرت) وما فى مستواها ـــ ودون القبائل الاخرى ـــ السبيل الى ارضاء أفرادها لانهم على حد قول البيذق : « هم السابقون وأنهم أنصار المهدى •• »[١٠١] •

ومهما يكن من أمر التساؤل حول خصوصية معـــاملة قبيلة هـــرغة بالمقارنة بغيرها من القبائل الموحدية ، فان من الواضح أن الزعامة الموحدية قد ذهبت الى تغليب تعاليمها المرشدية حفاظا على الطابع الدينى المهدوى للثورة • وانعكس ذلك على تنظيم القبائل فى الجيش الموحدى ، فـــكانت اعادة ترتيب هذا التنظيم بعد الحملة الثالثة أشبه بمحاولة سامية أوليـــة للتنظيم المتطور الذى تم بعد المعركة التاسعة على أساس ما عرف بتصفية التمييز بين قبائل الجيش الموحدى •

وفى المعركة السادسة وهى معركة تيفنوت ، اشتد القتال بين المرابطين والموحدين بحيث لم ترجح كفة أحد الطرفين على الآخر وانتهى بعـــودة كليهما الى موضعه معولا على الغزو من جديد • أما الغـــزوة الموحـــدية السابعة فاستهدفت قبيلة هسكورة ودارت الموقعة فى موضع يعـــرف بـــ آزليم • وفيها خرج المهدى لاول مرة وكان القتال من الضراوة والعنـــف بحيث جرح فى أثناء القتال • وفى هذا يقول البيذق : « •• فقاتلناهم وشد الوطيس حتى تسج المعصوم ورفعه اسحاق بن عمر ووسنار »[١٠٢] • ثم كانت المعركة الثامنة التى سبقت هزيمة البحيرة • وحدث فى هـــذه المعركة

---

(١٠٠) انظر الفصل الرابع فى موضوع المرشدية الموحدية .

(١٠١) البيذق ، كتاب الانساب ، ص ٣٧ .

(١٠٢) البيذق ، أخبار المهدى ، ص ٣٨ .

وهى معركه تزاكورت أن خرج الموحدون بمغانم عـديدة منها أعـداد من العبيد كانوا من الكثرة الى حد أن سماهم المهدى عبيد المخزن(١٠٣) .

ولعل ما خطه المهدى فى رسالته الى المحاربين من رجاله فى معـركة البحيرة ، يعبر عن وجه من وجوه التطور الذى طـرأ على العـلاقات بين القبائل بعد المعركة الثامنة ، فهو يقـول : « .. واعـلموا وفقكم الله أن المجسمين والمكارين ، وكل من نسب الى العلم أشد فى الصد عن سبيل الله من ابليس اللعين ، فلا تلتفتوا الى ما يقولون ، فانه كذب وبهتان ، وافتراء على الله ورسوله ، وما نسبوكم اليه من الخـلاف لله والرسول فذلك خب وغش للمسلمين وخيانة لله ورسوله ، يأبى الله ورسوله أن يكون من تمسك بالحق واتبع سنة رسول الله ﷺ وأناب الى الله مخالفا لله ورسـوله ، بل المخالف لله ورسوله من اتبع الباطل وخطوات الشيطان ... واعلموا وفقكم الله أن الموحدين فى الامن والامان ، ونصر من الله وعافيـة وفضـل منـه واحسان ، تتابعت عليهم النعم وترادفت عليهم المنن ، لله الحمد على ذلك ، فاشتغلوا بتعليم ما يلزمهم والاهتمام بدينهم والقيام بفرائضهم والاستعداد للقاء ربهم ، فالله يتم علينا وعليهم ، ويوزعنا شكر أنعمـه ، أذل الله لهم عدوهم ، وقذف فى قلوبهم الرعب وزلزل أقدامهم .. »(١٠٤) .

ثم كان صدور الامر باجراء تصفية التمييز التى قام بتنفيذها القائد

---

(١٠٣) البيذق ، نفس المصدر ، وقد أرسل المهدى رسالة الى الاميـر على بن يوسف بن تاشفين قبل معركة البحيرة بتوعده فيها ، وقد أحل فيهـا دماء المرابطين، أنظر الملحق رقم ٣٦٢ .

(١٠٤) الوثائق ، وثيقة رقم ٨٣ ، ص ٢٣٦ ، ٢٣٨ . وراجع نفس النص فى : محمد بن تاويت ، الادب المغربى ، ص ١٦٥ .

الموحدى أبو محمد عبد الله بن محسن البشير الونشريسى[١٠٥] • وشملت تصفية التمييز الملقبين بـ « المنافقين والمخالفين والرافضين والخبثاء من الموحدين » • وقد استغرق التمييز بينهم مدة أربعين يوما أبيد فيها خلق كثير بلغ تعدادهم خمسة قبائل كاملة • واذا كانت تصفية التمييز هذه قد تمت مباشرة قبل اللقاء الاخير بالمرابطين فى هزيمة البحيرة ، فقد كان لها تكملة بعد الوقعة شملت قبيلة كنفيسة[١٠٦] •

ويصف البيذق هزيمة الموحدين فى البحيرة[١٠٧] فيقول : «••وهزمونا بالعشى ، ونجا الموحدون ، ومات من مات ، وافترق الناس »[١٠٨] • وأسرع البيذق يخبر المهدى بنتيجة المعركة • وبقدر اهتمام المهدى بالمعركة وتلهفه على سماع تفاصيلها كان اهتمامه بعبد المؤمن ويتمثل ذلك فى لهفته فى السؤال عنه : « عبد المؤمن فى الحياة ؟ قلت نعم •• قال : الحمد لله رب

---

(١٠٥) هو أبو محمد عبد الله بن محسن البشير الوانشريسى ، من أهل المغرب الاوسط ، لقى المهدى عند مروره بجبال ونشريسى أثناء عودته من الرحلة المشرقية ، وصار من تلاميذه ثم من جماعة العشرة ، وقد كلفه المهدى بمعظم المهام العسكرية ضد المرابطين ، ثم تولى تمييز الموحدين ، وفقد فى معركة البحيره عام ٥٢٤ هـ / ١١٣٠ م (البيذق ، أخبار المهدى ، ص ١٩) .

(١٠٦) البيذق ، كتاب الانساب ، ص ٣٧ . ويذكر السلاوى : « أنه غزا مراكش وحاصرها لمدة ٣ سنوات من سنة ٥١٦ هـ الى سنة ٥١٩ هـ ، وكان ينزل بجبل كيليز بقرب المدينة ، فبايعته كدميوه ، وغزا بلاد ركراكة ، وسار فى بلاد المصامدة ، ثم رجع الى تينملل وأقام بها شهرين ، وغزا مدينة أغمات وبلاد هزرجة وأهل درن وأطاعته هرغة وهنتاتة وكنفيسة بعد تمييزها،وانتدبهم لغزو مراكش وقد قدم عليهم عبد المؤمن وخصه بامامة الصلاة ، أما القيادة فلابى محمد البشير . (الاستقصا ، ج ٢ ، ص ٩٣—٩٤) . راجع أيضا فى ذلك الملحق رقم ٣ ، ٤ .

(١٠٧) البحيرة تعرف ببحيرة الرقائق ، بسيط كان أمام باب الدباغين وباب ايلان من مراكش حيث حدائق أكدال الحالية (البيذق ، أخبار المهدى ، حاشية رقم ٦٦ ، ص ٤٠) .

(١٠٨) البيذق ، نفس المصدر .

العالمين قد بقى أمركم ، هل جرح ؟ قلت : شج فى فخذه الايمن ، فقال : لاحول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ، الامر باق ، ثم قال : ارجع اليه وقل له الامر باق ولا تجزعوا »[١٠٩] .

وبهذا الحوار الذى جرى بين المهدى والبيذق عن عبد المؤمن ، بدت الدولة الموحدية وكأنها ما زالت فى طور نشأتها لم تنتقل بعد من اطار جماعة الصحابة الاولى للمهدى . والحقيقة أن القبائل الموحدية خاضت بالفعل غمار تجربة أحداثه وعلاقاتها . وفى أحداث هذه التجربة ، ظهر تمسك الزعامة المهدوية بمنظورها الدينى المهدوى فى ترتيب العلاقات القبلية بين أنصارها . ولكن وضح أيضا أن الاحداث المذكورة لم تخل من اتجاه مضاد يتمثل فى سلوك القبائل ويقترن بالاسباب المختلفة لثورتها على حكم المرابطين وترتب على ذلك اجراء بعض التوازن فى هذا الاتجاه الآخر مع الاتجاه المهدوى عن طريق اعادة تنظيم قوات الموحدين فى المعركة الرابعة .

ولكن يتبين لنا من خلال أحداث المعارك التالية حتى المعركة التاسعة أو هزيمة البحيرة (٥٢٤هـ — ١١٣٠م) أن الامر انتهى بانتصار الاتجاه المهدوى وتصفية الاتجاه الاخر وأصحابه فى اجراءات التمييز المذكور بالرغم من تشدد الزعامة المهدوية فى موضوع الغنائم ورفض ابن تومرت التكالب عليها أو التنازع حولها[١١٠] .

ومن الجدير بالذكر أن المهدى بعد وقعة البحيرة المذكورة ، استخدم براعته فى ابهام أتباعه الذين تسرب الشك الى قلوبهم ، بقدراته الخارقة ومعجزات مهدويته والتأثير عليهم مستغلا فى ذلك ميل البربر الى تصديق

---

(١٠٩) البيذق ، نفس المصدر والصفحة .
(١١٠) راجع ما سبق عن الغنائم والوضعية الممتازة لقبيلة هرغة .

ما يمليه عليهم المهدى فيذكرون أنه انتخب عددا من أتباعـــه ، ودفنهم فى موضع المعركة بعد أن جعل لكل واحد متنفســـا فى قبره ، وقال لهم : « اذا سئلتم عن حالكم فقولوا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا ، وأن ما دعا اليـــه الامام المهدى هو الحق ، فجدوا فى جهاد عـــدوكم » . وقال لهم أيضـــا : « اذا فعلتم ذلك أخرجتكم ولكم عندى المنزلة العالية » . وبعد ذلك جمـــع أصحابه وقام لهم : « أنتم يا معشر الموحدين حزب الله وأنصـــار دينـــه واعوانه الحق . فجدوا فى قتال عدوكم فانكم على بصيرة من أمركم ، وان كنتم ترتابون فيما أقوله لكم فأتوا موضع المعركة وسلوا من استشهد من اخوانكم يخبرونكم بما لقوا من الثواب عند الله . وأتى بهم الى موضـــع المعركة ونادى « يا معشر الشهداء ماذا لقيتم عند الله عز وجل ؟ قالوا : قد أعطانا من الثـــواب لا عـــين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطـــر على بال بشر »[١١١] . فذهلوا ، وافتتنوا ، واعتقدوا أن الموتى قد كلمتهم ، وقصوا هذا الحادث على بقية اخوانهم ، فزادهم بصيرة بأمره وثباتا على رأيه وزاد ايمانهم بمهـــدويته ، وتمسكهم بمـــذهبه وأصبحوا على أتم الاستعـــداد للتضحية من أجله .

ويتكرر مثل هذا المسلك الذى لا ينكره الميراث الفكرى للقبائل ، وفى اطاره أمكنه ايهامها بأنه موحى اليه . ففى ساعة احتضار المهدى وســـاعة دنو أجله ، أظهر علمه بميقات هذا الاجل فى حوار دار بينه وبين الهـــاتف الذى نادى به وأوحى اليه بخبر موته . وقد رأيت أن أسجل هذا الحوار لاهميته البالغة بالنسبة لمستقبل الدعوة الموحدية ، فقد مات ابن تومـــرت بالفعل بعد ستة أيام من اعلان الحوار المذكور . وفيما يلى نص ذلك الحوار كما ورد فى أخبار المهدى :

---

(١١١) السلاوى ، الاستقصا ، ج ٢ ، ص ٩٦ .

الهـاتف :

كأن بهـذا البيت بـاد أهـله

وقـد درست أعـلامه ومنـازله

المهـدى :

كذلك أمـور الناس يبلى جديدها

وكـل منـا حقـا ستبلى خصائله

الهـاتف :

تزود من الدنيـا فانـك راحـل

وانـك مسئول فمـا أنت قائله ؟

المهـدى :

أقـول بأن الله حـق شهـدته

وذلك قـول ليس تخـفى فضـائله

الهـاتف :

فخـذ عـدة للمـوت انـك ميت

وقـد أزف الامر الذى أنت نازله

المهـدى :

مـتى ذاك خـبرنى هديت فاننى

سـأفعل ما قـد قلت لى وأعاجله

الهـاتف :

تبيت ثـلاثا بعـد عشرين ليـلة

الى منتهى شهر فمـا أنت كامله(١١٢)

---

(١١٢) البيذق ، أخبار المهدى ، ص ٤٢—٤٣ ، ابن أبى زرع ، القرطـاس ص ١٨٠ .

وذهب البيذق الى أبعد من هذا الحوار الغيبى فى تأكيد خبر الايحاء الى المهدى بالموت فيما ذكـره عنه أنه (ابن تومـرت) قال لاصـحابه : « اسألونى عما بدا لكم من أمر دينكم ودنياكم فانى غدا ان شاء الله أجتمع مع ربى .. وأقول كما قال رسول الله ﷺ : لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تقاطعوا ، ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله اخوانا ، ألا قد بلغت ؟ ألا قـد بلغت ؟ ألا قد بلغت ؟؟ »[113] . وفى رواية أخرى يوردها البيذق أن المهدى عندما عاد من موقعة البحيرة ولحق بالموحدين فيها ما وقع من هزيمة كبرى، شعر بالغمة واعتلت صحته فرجع الى داره فى تينملل ، وبعدها خرج الى أتباعه وقال لهم : « أعرفونى وحققونى ، أنا مسافر عنكم سفرا بعيـدا ، فضج الناس بالبكاء فقالوا له : ان كنت تسير الى الشرق نسير معك ، فقال: ليس هذا سفر يسافره أحد معى ، انما لى وحدى »[114] .

وعلى هذا النحو انتهت حياة المهدى ابن تومرت فى هـذا الاطار من الحوار الفكرى الغيبى عن موته .

(جـ) عبد المؤمن بن على « أمير المؤمنين » :

يشبه ابن خلكان ما وقع فى البحيرة بالفجر يتقدمه الفجر الـكاذب وبعده ينبلج الصبح ويستعلى الضوء[115] . وهذا التشبيه يتضمن الكثير من الحقيقة ، فقد حدث بعد التمييز الثانى أن نزل الموحدون على مراكش وحاولوا اقتحامها من جديد فعجزوا عن ذلك وظلوا يحاضرونها ثلاثة أشهر

---

(١١٣) البيذق ، المصدر السابق ، ص ٤٣ .

(١١٤) البيذق، نفس المصدر ، ص ٤١ ، السلاوى ، الاستقصا ، ج ٢ ، ص ٩٧ .

(١١٥) ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ج ٣ ، ص ٢٣٨ ، السـلاوى ، الاستقصا ، ج ٢ ، ص ٨٩—٩٠ .

عادوا بعدها الى تينملل • وخلال هذه الفترة مرض المهـــدى غما وحسرة بسبب انكسار الموحدين فى موقعة البحيرة التى كبدته أخلـــص الاتبــاع وأعظم القواد •

ومما يذكر فى هذا الصدد أن المهدى لمـــا شعر بمرضه وأحس بدنو أجله ، لزم داره وظل فى غيبة عن الناس لمدة ثلاث سنوات يتناوب عليه : عبد المؤمن ، وأبو ابراهيم أو اسماعيل بن يسلالى الهزرجى ، وعمر أصناك ووسنار ، وأخته أم عبد العزيز بن عيسى • وكان أبو محمد وسنار يخرج الى الموحدين ويذكرهم أن المهدى يأمرهم أن يفعلوا كذا وكذا ، وكان أهل الجماعه يخرجون للغزو وظل الامر على هذا النحو حتى اشتد عليه المرض فترفى فى شهر رمضان من عام ٥٢٤هـ — أغسطس ١١٣٠م[(١١٦)] •

وكان المهدى قبل وفاته قد أقر عبد المؤمن بن على أمـــيرا للمؤمنين عندما خاطب الموحدين بقوله : « أنتم المؤمنون وهـــذا أمـــيركم »[(١١٧)] • وعندما حانت ساعة وفاته دعا عبد المؤمن وأوصاه بمن أحب وباخوته خيرا، وأعطاه كتاب الجفر ، وأمره أن يخفى أمر موته أياما اذا مات حتى تجتمع كلمـــة المـــوحدين •

كان عبد المؤمن قريبا الى قلب ابن تومرت ، فقد رفع منزلتـــه وأدناه الى نفسه اذ كان يجد فى طموحه صورته الشابة ، ووجد فيه ضالته ووضع فيه كل أمله فى تحقيق ما كان يستهدفه من دعوته ورســـالته ، ويعبر ابن تومرت عن اعجابه بسمات عبد المؤمن بن على فى قوله :

---

(١١٦) هناك اختلاف فى تاريخ وفاة المهدى بين أغلب المؤرخين • أنظـــر تلك الآراء واختلافها فى : ابن أبى زرع ، القرطاس ، ص ١٨٠—١٨١ • أنظـــر أيضا ذلك فى : البيذق ، أخبار المهدى ، ص ٤٢ •

(١١٧) المراكشى ، المعجب ، ص ١١٤ •

تجمعت فيك أشياء خصصت بها فكلنا بك مسرور ومغتبط
فالسن ضاحكة والكف مانحة والصدر متسع والوجه منبسط[(١١٨)]

فهل كانت منزلة عبد المؤمن عند القبائل الموحدية تماثل منزلته عند شيخه المهدى ؟[(١١٩)] .

كان عبد المؤمن بن على الكومى — حسبما سبق — من كومية . وبالرغم من أصله البربرى ، نراه يرفع نسبه الى بيت الرسول ﷺ عسى أن يسبغ ذلك شرعة لامامته الموصى عليها من المهدى . وكان ثابتا لدى أقرانه أنه زناتى الاصل جاء من تاجرة على بعد عدة أميال من مرسى هنين[(١٢٠)] .

على أن أصحاب المهدى أخفوا خبر وفاته ثلاث سنوات كاملة شغلوا خلالها بمصادقة المرابطون . وما كان خبر وفاة المهدى يعلن رسميا فى سنة ٥٢٧هـ — ١١٣٢م حتى تفجر النزاع بين أصحاب المهدى العشرة حول صاحب الحق منهم فى الخلافة . وازداد الخلاف حدة بعد أن دخل أهل الخمسين مع أهل العشرة فى نزاع حاد قبل أن يقرر شيوخ الموحدين حقنا للدماء مبايعة الشيخ أبو عمر بن على الصنهاجى المعروف بأزناج[(١٢١)] . ولم يلبث

---

(١١٨) ابن أبى زرع ، القرطاس ، ص ١٨٤ .

(١١٩) أنظر رأى المهدى فى عبد المؤمن عند ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٥ ، ص ٣٦٣ .

(١٢٠) تاجرا قرية على ساحل البحر بأرض قبيلة بنى عابد من حوز ندرومة لازالت تعرف بهذا الاسم الى الآن . ومرسى هنين قرية شهيرة تقع بجبال نرارة على ساحل البحر المتوسط بين مصب نهر تافنا ومرسى الغزوات ، كانت بالعصر الوسيط مرسى تلمسان ونواحيها وفيها آثار للموحدين ، ابن خلدون ، العبر ج ٦ ، ص ١٢١ .

(١٢١) عمر بن على الصنهاجى ، يعرف عند الموحدين بعمر أصناك (أزناج) اى الصنهاجى بالشلحة (البربرية) وأسمه الاول يملوك ، أحد السابقين الاولين الى نصرة المهدى بن تومرت ونشر دعوته ، وأحد العشرة الذين سارعوا الى بيعته ، فكان بذلك من أهل الجماعة العشرة ، استوزره المهدى ولما مات كان أحد الثلاثة الذين بايعوا عبد المؤمن بن على خلفا له ،

هذا الشيخ أن أشار على الموحدين بمبايعة عبد المؤمن بن على الكومى ، اقرارا بمنزلته عند الامام المهدى ، ولانه غريب عن قبائلهم ليس له أهل وعصبية يعتمد عليها فى منافسته لهم . فاجتمعت الآراء وشرعوا يبايعونه، فلما أقبل المصامدة بين يديه نهض قائما فحمد الله وصلى على محمد ﷺ ، ثم أنشأ يترضى عن الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم ويذكر ثباتهم فى الدين وصلابة عزيمتهم ، وتصميمهم على الحق ثم قال : « فانقرضت هذه العصابة نضر الله وجوهها وشكر لها سعيها وجزاها خيرا عن أمة بنيها ، وخبطت الناس فتنة تركت الحليم حيرانا والعالم جاهلا ، مداهنا ، فلم ينتفع العلماء بعلمهم ، بل قصدوا به الملوك واجتابوا به الدنيا وأمالوا وجوه الناس اليهم فى أشباه هذا القول الى هلم جرا . ثم ان الله سبحانه وله الحمد من عليكم أيتها الطائفة بتأييده وخصكم من بين أهل هذا العصر بحقيقة توحيده وقيض لكم من ألفاكم ضلالا لا تهتدون وعميا لا تبصرون لا تعرفون معروفا ولا تنكرون منكرا . قد فشت فيكم البدع واستهوتكم الاباطيل وزين لكم الشيطان أضاليل وترهات أنزه لسانى عن النطق بها . وأربأ بلفظى عن ذكرها ، فهداكم الله به بعد الضلالة وبصركم بعد العمى ، وجمعكم بعد الفرقة وأعزكم بعد الزلة ، ورفع عنكم سلطان هؤلاء المارقين وسيورثكم أرضهم وديارهم ذلك بما كسبت أيديهم وأضمرته قلوبهم « وما ربك بظلام للعبيد ، فجددوا لله سبحانه خالص نياتكم وأروه من الشكر قولا وفعلا ما يزكى به سعيكم ويتقبل أعمالكم وبنشر أمركم واحذروا الفرقة واختلاف الكلمة وشتات الآراء وكونوا يدا واحدة على

فنحاه عبد المؤمن عن الوزارة تشريفا له وتنويها بقدره لانه أرفع منها قدرا ، وتوفى عام ٥٣٦ هـ . وكان لاولاده مكانة عظيمة عند عبد المؤمن وكانوا أول من يمر فى العرض العام عند الموحدين (البيذق ، أخبار المهدى ، حاشية رقم ٥٣ ، ص ٣٤) .

عدوكم فانكم ان فعلتم ذلك هابكم الناس وأسرعوا الى طاعتكم وكثر أتباعكم وأظهر الله الحق على أيديكم ، وألا تفعلوا شملكم الذل وعمكم الصغار واحتقركم العامة فتخطفتكم الخاصة ، وعليكم فى جميع أموركم بمرج الرأفة بالغلظة واللين بالعنف ، واعلموا مع هذا أنه لا يصلح أمر آخر هذه الامة الا على الذى صلح عليه أمر أولها ، وقد اخترنا لكم رجلا منكم وجعلناه أميرا عليكم هذا بعد أن بلوناه فى جميع أحواله من ليله ونهاره ومدخله ومخرجه ، واختبرنا سريرته وعلانيته ، فرأيناه فى ذلك كله ثبتا فى دينه متبصرا فى أمره ، وانى لارجو ألا يخلف الظن به ، وهذا المشار اليه هو عبد المؤمن ، فاسمعوا له وأطيعوا ما دام سامعا مطيعا لربه ، فان بدل أو نكص على عقبه أو ارتاب فى أمره ففى الموحدين أعزهم الله بركة وخير كثير والامر أمر الله يقلده من شاء من عباده »[١٢٢] .

وجاءت هذه البيعة العامة بعد ما سماه ابن صاحب الصلاة ببيعة السر التى تمت بعد وفاة المهدى مباشرة وقبل ن يختلف الصحابة العشرة حولها . واستغرقت البيعة الاولى مدة ثلاث سنوات هى التى أعلن خلالها خبر اعتكاف المهدى لمرضه . ويسرد ابن خلدون أخبار هذه الفترة قائلا : « أن المهدى حين توفى خشى أصحابه من افتراق الكلمة ومما يتوقع من سخط المصامدة لولاية عبد المؤمن لكونه من غير جلدتهم ، فأرجأوا الامر الى أن تخالط محبه الدعوة قلوبهم ، وكتموا موته ثلاث سنوات يموهون فيها بمرضه ويقيمون سنته فى الصلاة والحرب ، ويدخل أصحابه بيته كأنه اختصهم بعيادته فيجلسون الى قبره . ويتفاوضون فى شئونهم ، ثم يخرجون لانفاذ

---

(١٢٢) المراكشى ، المعجب ، ص ١١٧—١١٨ . ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ . ص ٣٢٧ . وطالع أيضا نص هذا الخطاب على نحو غير كامل من منتصفه فى : محمد بن تاويت ، الادب المغربى ، ص ١٦٧ .

ما أبرموه ويتولى ذلك عبد المؤمن ، حتى تمكن أمر الدعوة فكشفوا القناع عن موت المهدى . واتفقوا على تقديم عبد المؤمن وتولى ذلك أبو حفص عمر بن يحيى الهنتاتى جد الملوك الحفصيين الموحدين أصحاب تونس ، عرض البيعة لعبد المؤمن ، فانقادوا له وأجمعوا على بيعته »[١٢٣] .

أما البيذق فيذكر البيعة الثانية على أنها مجرد اعلان أو اظهار للبيعة الاولى (السرية) فى قوله : « ... توفى رضى الله عنه (المهـــدى) يوم الاربعاء وقبل يوم الخميس ٢٥ رمضان سنة ٥٢٤هـ وبويـــع الخليفة يوم السبت لاقرب من هذا التاريخ .. ولمـــا عاد عبد المؤمن الى تينملل صاح بالقبائل وضم الموحدين وجعل المجلس فاستعمل ركائز وحال بين الرجال والنساء ، ثم وعظ الناس وقال لهم فى آخر كلامه : « بقى عندكم عهد بيعة المهدى رضى الله عنه ، قالوا :نعم . فقعد ثم وعظ عمر أصناك ثم ســـائر المشيخة رضى الله عنهم أجمعين ، ثم قال لهم : المهدى قـــد توفى رضى الله عنه ، فبكى الناس ، ثم قال لهم : اسكتوا ، فسكتوا . فقـــال أبو ابراهيم وعمر أصناك ، وعبد الرحمن بن زكو ومحمد بن محمد لعبد المؤمن : أمدد يدك نبايعك البيعة التى عقدناها مع الامام المهدى فمد يده ، وبايعوه ، ثم تبعهم سائر الناس . وكانت البيعة ثلاثة أيام متتالية »[١٢٤] .

ونخرج من الاحداث التى اقترنت البيعة بأن ولاية عبد المؤمن لخلافة الموحدين لم تخل من عقبات ومشاكل عويصة كانت دوافعها هى نفس دوافع مشكلات الحركة الموحدية فى طور نشأتها ابان حـــروبها الاولى . وكانت

---

(١٢٣) ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٣٢٧ ، ابن أبى دينار ، المؤنس فى اخبار أفريقيه وتونس ، تونس ١٢٨٦ ، تحقيق محمد شمام ، ص ١١٤ ، السلاوى ، الاستقصا ، ج ٢ ، ص ١٠١ . أنظر : عنان ، عصر المرابطيـــن ، حول الآراء المختلفه ، قسم ١ ، ص ٢١٩—٢٢١ .

(١٢٤) البيذق ، أخبار المهدى ، ص ٤٥ . الزركشى ، تاريخ الدولتيـــن الموحدية والحفصية ، تونس ، ١٩٦٦ ، تحقيق محمد ماضور ، ص ٧ .

تجربة البحيرة درسا قاسيا وعاه عبد المؤمن حيث شهد ارتداد كثير من الموحدين عن الدعوة اعتقادا منهم بأن امامهم المهدى المؤيد بالله لا يجوز أن يهزم فعمل على اخفاء موت المهدى حتى يلتئم الجرح ولا تكون هناك ثغرة على حد قول البعض[١٢٥] ينفذ منها المرابطون لتقويض دعائم حركة الموحدين .

وتؤكد الروايات الغيبية عن عبد المؤمن حرصه الشديد على ألا تفلت الخلافة من يده وذلك فى حياة المهدى حسبما ورد فى القصة التى أوردها صاحب « المعجب » وتتعلق بمنام لعبد المؤمن فيه ايماءة بضياع هذه الخلافة على يد ثائر من بجاية وأخرى بحصوله عليها حين أتى عليه من قال له : « أتعرف من هذا الذى اهتزت له هذه الارض ؟ قال : لا ، قالوا : هو فلان صاحبك الذى كان يعلمنا معك ، فقال : ان كانت حالة فلان انتهت الى هذا فلابد أن أكون غدا أنا أمير المؤمنين »[١٢٦] .

على أية حال فقد تلقب عبد المؤمن بن على بعد ظفره بالبيعة العامة « بالخليفة أمير المؤمنين » . ويعنى هذا اللقب التعلق بفكرة الخلافة

---

(١٢٥) عنان ، المرجع السابق ، ص ٢٢٧—٢٢٨ .

(١٢٦) هناك قصة أخرى لها صلة بتلك التى وردت بالمتن أوردها ابن أبى زرع ويذهب فيها عبد المؤمن مذهب أصحاب الكرامات الخارقة حين دبر للمجتمعين حوله من الموحدين مشهد هجوم أسد عليهم وتمسحه بعبد المؤمن دون أن يؤذيه (القرطاس ، ص ١٨٤—١٨٥) . هذا وقد صارت هذه القصة موضوع قصيدة شعرية لشاعر الموحدين أبى الحسن بن عبد الله ابن الاشيرى (من أهل تلمسان توفى عام ٥٦٩ هـ) الذى قال فيها :

أنس الشبل ابتهاجا بالاسد ورأى شبه أبيه فقصد

ودعا الطائر بالنصر لكم فقضى حقكم لما وفد

أنطق الخالق مخلوقاته بالشهادات فكل قد شهد

انك القائم بالامر له بعد ماطال على الناس الامد

ابن ابى زرع ، نفس المصدر ، ص ١٨٦ .

الاسلامية العامة وأن مشاعر الخوف على مصير هذه الخلافة فى المغرب والمشرق الاسلاميين عموما قد ظهر صداها قويا من جديد فى مطلع عهد عبد المؤمن . وما قصة ثائر بجاية المشار اليها سابقا الا اشارة على تعلق فكر عبد المؤمن من أيام مهديه بهذه المشاعر وتطلعه من ثم الى التوسع شرقا بعد استكمال الانتصار على الدولة المرابطية . ويدعم من هذا التطلع القول بأن أخبار نجاح الحركة الموحدية قد سبقت الى الشرق وشدت من أيدى من تواجد من رجالها فى المشرق من أيام رحلة ابن تومرت المشرقية .

وفى هذا الصدد يذكر د. مختار العبادى : « .. وكان لهذا النجاح صدى كبير بين المشارقة أيضا بدليل كتابات المعاصرين لهذه الفترة ..مثال ذلك شاعر جنوب الجزيرة العربية نجم الدين عمارة اليمنى الذى عاش بمصر فى أواخر العصر الفاطمى ، فقد أراد هذا الشاعر أن يضرب مثلا للاحداث الجارية فى عصره فلم يجد فيها أعظم من شخصية ابن تومرت الذى ارتفع فى رأيه الى أعلى درجات المجد والنفوذ فيقول :

هذا ابن تومرت قد كانت بدايته
كما يقول الورى لحما على عظم
وقد نرقى الى أن أمسكت يده
من الكواكب بالانفاس والكظم
وكان أول هذا الدين من رجل
سعى الى أن دعوه سيد الامم[١٢٧]

ومن الجدير بالذكر فى هذا المجال أن الدعوة الموحدية كانت قد عبأت

---

(١٢٧) ابن خلكان ، وفيات ، ج ٣ ، ص ٤١٥ د . مختار العبادى ، دراسات فى تاريخ المغرب والاندلس ، الاسكندرية ، ١٩٦٨ ، ص ١١٢—١١٣ أنظر أيضا :

— Hartwing Derenbourg; Omara du Yemen, Sa Vie et son Oeuvre, Tome; 1, Paris, 1909, p. 354.

بالفعل كل طاقاتها وجندت كل دعاتها وأنصارها للخلافة الموحدية فى ربوع العالم الاسلامى لا سيما فى مصر والشام • فالبيذق يذكر من أنصار المهدى فى المشرق ما جاء فى قوله : « أما رجاله واخواته فهم واحد وخمسون رجلا من أهل الديار المذكورة ، غير الرجال الذين آخوه فى الله تعالى وعظموه فى سائر البلاد المصرية وكانوا له مثل أعضائه وجسده سامعين لقوله محببين لامره مؤمنين به مختارين صحبته مؤثرين لحقه معظمين لحرمته »[١٢٨] •

وهذا يعنى أن المهدى ابن تومرت ترك فى مصر قبل عودته من رحلته المشرقيه جبهة قوية عملت على نشر دعوته فى العالم الاسلامى المشرقى • فانتشر أتباع هـذه الجبهـة على صـعيد مصر كلها فى الوجهين القبـلى والبحـرى[١٢٩] •

---

(١٢٨) البيذق ، كتاب الانساب ، ص ٢٨ •

(١٢٩) يذكرهم البيذق فيقول : أن اول من آمن به بالديار المصرية محمد بن عبد الظاهر الاحميمى ، وعرفه بن جابر ، يونس اللخمى ، شادى بن ثابت ، ثابت القيسى ، عمار بن كثير ، مطرف بن حسام المرشدى ، باشر ابن نويـر ، عبد القادر الافادى ، بصير القليوبى ، مدين بن شعيب ، تميم بن عـوف الاسكندرانى ، عمران بن معافى الانوى ، ظاهر بن يحيى ، نهيان بن شمس ، على بن عبد العظيم ، ياسين بن واثلة ، كامل بن سعد ، ماجد بن مهلب ، شجاع وهمام ربدر بن أولاد الجولى القناوى ، جبريل العابدى ، نجاح بن مقبل ، زيان بن مهيب المرشى ، ذو النون بن مبارك ، على بن نهيان اللخمى ، جابر ومنصور ابنا جرير ، عمارة بن ثابت اليمانى ، نجم بن هلال ، شرف الحجازى ، على بن الطفال ، هشام الاسناوى ، رجاء بن رجاء الدمياطى ، عبد العالم القهارى ، سراج بن نوير البجلى ، فخر بن يسار ، على بن مكى المصرى ، داوود بن عنان الدمشقى ، أدريس بن يوسف بن عيسى العاجى ، قاسم بن الرقام الزهرى ، محمد بن أبى المثنى الهروى ، صالح بن مؤيد ، وافد المنوى ، خالص بن منجى» المصدر السابق ص ٢٨، ٢٩ •

(٣)

الاجهاز على دولة المرابطين

ما كادت الهزائم تتوالى على المرابطين حتى شاع بين الناس قرب سيطرة الخلافة الموحدية على العالم الاسلامى ويؤكد ذلك ما ذكــره ابن فرحون فى كتاب الديباج المذهب فى ترجمة أبى الوليد القرطبى : « أنه لمــا قدم الى مصر هاربا من عبد المؤمن ودولته لمــا ظهر على المغرب ، ثم خاف من استيلائه على مصر فقدم الحجاز ، فخاف أن يحج فــدخل اليمن ، ثم خاف أن ينلير على اليمن فأراد أن يتوجه الى الهند ولكنه مات بزبيد »[١٣٠].

ولم يكن فى امكان عبد المؤمن بن على تحقيق مشروعه فى التوسع فى اتجاه الشرق ما لم ينته قبل كل شىء من مراكز المقاومة المرابطية ويقضى تماما على خلايا المرابطين فى شرق المغرب الاقصى ثم فى غربه ، فبدأ بتوجيه قوى الموحدين نحو شرق المغرب الاقصى فأوغل بهم حتى وهران[١٣١] ثم عرج منها الى وجدة[١٣٢] ثم فاس[١٣٣] فمكناس(١٣٤) . وبعد أن استزاد من هذه الجهات الشرقية أنصارا جددا ، أقدم على حصار مراكش بقصــد انهاء حكم المرابطين بها كلية . ولم يخل الامر ، فى رحلة الموحدين الحربية فى المغرب ، من تكرار تجربة التمييز بين صفوف قواته .

---

(١٣٠) ابن فرحون ، الديباج المذهب فى معرفة أعيان المذهب ، القاهرة ١٣٢٩ هـ ، ص ٣٢٢ . د . العبادى ، المرجع السابق ص ١١٤ .

(١٣١) ابن الابار ، الحلة السيراء ، تحقيق د . مؤنس ، القاهرة ١٩٦٣، ص ١٩٨ . ابن عذارى ، البيان ، ج ٣ ، ص ١٦ — ١٧ .

(١٣٢) ابن عذارى ، نفس المصدر ، ص ١٨ .

(١٣٣) مجهول ، الحلل ، ص ١١١ . أرجع الى رأى ابن عذارى فى سقوط فاس ، ج ٣ ، ص ٢٠ .

(١٣٤) محمد بن غازى العثمانى ، الروض الهنون فى أخبار مكناســـة الزيتون ، الرباط ، ١٩٥٢ ، ص ١٦ . الحلل ، نفس المصدر ، ص ١١٢ .

وان نوسعا حربيا من هذا القبيل قوامه تكرار سلسلة المعـارك(١٣٥) وتصفيات التمييز ، قد يستهدف استئصال كل أسباب التمـرد والارتداد أو تعبئة قلوب الموحدين بالايمان تماما بالدعوة الموحدية . ولم يكن تحقيق ذلك بالامر اليسير منذ بداية أحداث حصار المرابطين داخـل حاضرتهم مراكش وانقطاعهم عن أنصارهم فى الجهات المغربية الاخرى فى أملاكهم . ولهذا أصبح الوقوف على أحداث هذه المعارك الاولى فى حروب عبد المؤمن لازما للتصديق على هذا التعديل . ولكن يكفينا هنا من تفصـيلات هـذه الاحداث تسـجيل ما دار منها فى وقعـة سـقوط الحـاضرة المرابطية « مراكش » .

(أ) فتـح مـراكش :

فى سنة ٥٤١هـ / ٦–١١٤٧م نزل عبد المؤمن بجيشه على جبل الجليز المطل على مدينة مراكش العاصمة المنيعة لدولة المرابطين وأحكم الحصار عليها ، وقد استمر حصاره لها ما يزيد على تسعة أشهر حتى عدمت الاقوات، وانهارت المقاومة وساءت أحوال الاهالى ويذكر ابن عذارى نقلا عن ابن صاحب الصلاة أنه : « لمـا طال عليهم الحصار تسعة أشهر وثمانية عشر يوما هلكوا جوعا من طول هذه المـدة وضاقوا حتى أكلوا الجيـف ، وأكل أهل السجن بعضهم بعضا ، وعدمت الحيوانات وعـدمت الحنطة بأسرها وطلب اسحاق مخازن أبيه فلم يجد شيئا ، قال أبو عبد الله بن عبيدة كاتب

---

(١٣٥) فى تلك المعارك وما صاحبها من تمييز تقول الرسائل : « ..ابتدأنا بالنظر فى أحوال الموحدين واحضار الجمع منهم بهذه الحضرة — عمرها الله — وأستوفدناهم قبيلا قبيلا وشعبا شعبا ، وقد تأكد العزم على القيام بأمر اللـه وأعانته على ادلاله وأحيائه دراسة وأقامة عموده ونفى الخبيث من أرجائـه وتصفيته من الشرب وأنشائه خلقا جديدا .. اذ كان الفساد قد خالط النفوس ومازج القلوب والفته الاهواء .. ونسى كل ربه .. » ليفى بروفنسال ، رسائل موحدية ، الرباط ١٩٤١ ، رقم ١٢ ، ص ٤٧–٥٥ .

اسحاق : فعجزت عساكر اللمتونيين عن الدفاع والامتناع بضعف العدد والعدة وكثرة الضيق »[١٣٦] .

وكان بداخل مراكش عدد كبير من أعيانهم وكبارهم على رأسهم الامير اسحاق بن على بن يوسف وكان بعد صبيا صغيرا ، فأمرهم بالخروج لملاقاة لغزاة النازحين ، فبرزوا فى نحو ٥٥٠٠ من الفرسان ومن الرجالة مالا يحصى . وعندما اقتربوا من محلة الموحدين خرجت عليهم الكمائن التى أعدها عبد المؤمن فولوا الادبار ولاذوا بالفرار وتدافعوا الى باب دكالة والموحدون من خلفهم يحدقون بالمدينة من جميع جوانبها . ومات فى الكمائن من اهل مراكش مالا يحصى وأتبع السيف سائرهم الى الابواب فقتل بعضهم بعضا بالازدحام . فطال الحصار عليهم واشتد الجهد بهم ولكثرة خيلهم ورجلهم نفذ طعامهم وفنيت مخازنهم حتى أكلوا دوابهم ومات منهم بالجوع أعداد لا تحصى . ثم أمر عبد المؤمن برفع السلالم على السور وقسمها على القبائل فدخلت هنتاتة من جهة باب دكالة ، وصنهاجة وعبيد المخزن من باب الدباغين ، وهسكورة مع القبائل من باب ينتان ، فاقتحموا البلد بالسيف ، وتدافقوا داخل المدينة التعسة ، فتحصن الامير اسحاق مع بعض الانسياخ فى قصبتهم المعروفة بقصر الحجر . وأعمل عبد المؤمن ورجاله السيف فى رقابهم ، وكان الامير اسحاق متخفيا فى كيس الفحم ، فأخرج وسيق هو وخادمه طلحة الى عبد المؤمن ، فظل اسحاق يتضرع لعبد المؤمن ويقول : « مالى فى الرأى شىء » فيقول له غلامه طلحة: « اصمت أرأيت ملكا يتضرع للك غيره » . ومال عبد المؤمن الى العفو عنه وخادمه لصغر سنهما ، ولكن أغاظ ذلك القول ابن وجاج (أبو الحسن)

---

(١٣٦) ابن عذارى ، البيان ، ج ٣ ، ص ٢٢ .

الذى صاح بالموحدين : « ويوا ويوا الموحدين .. ارتد علينا عبد المــؤمن يريد أن يربى علينا فراخ السبوعة .. » . فغضب عبد المــؤمن وخرج من المجلس وتبعــه الموحـــدون ما عــدا أبـــو الحسن بن واجاج والشـــيخ أبو حفص[١٣٧] .

فأخذ أبو الحسن اسحاق وقتله ، ثم جذبوا طلحة ليقتلوه ، فقـــال : « يا عمى أبا الحسن سلاحى ما الذى نفعل به عسى أن أعطيه لك » . فأطلق من تكتيفه ليعطى السلاح ، وكان الخنجر فى وسطه فضرب أبا الحسن وقتله ومات ، ومات طلحه بعده على يد أعوان أبى الحسن . وبقى ثالثهم أبو بكر ابن تيزمت الذى حمل الى عبد المؤمن فقال له : « ألم تعلم أنى خصم لعلى بن يوسف ؟ فقال أعلم ذلك ولكن لأى شىء تقتلنى ، فقال : لانك رميت يدك فى الامام المهدى وحملته الى السجن فقتلتك السنة لاجل ذلك . فقال لهم : اذ عزمتهم على قتلى فأخبركم ان عندى برمتين بهما ذهبا أخاف أن أحاسب عليهما أن تركتهما » . فاختار له عبد المؤمن أمناء يمشون معه وذلك اثنان من كل قبيل الموحـــدين فســـار معهم الى داره فأدخلهم اليها وأغلقها على نفسه وعليهم ، بيده عكاز فيه سكين فغدرهم به وكانوا اثنى عشر رجل لم ينج منهم الا رجل واحد[١٣٨] تمكن من الدخـــول الى جبل احليز وعــرف الموحدون بالخبر ، فهدموا عليه الدار ، وقتلوه وجروه الى الدبل .

وورد فى الحللبرواية ابن صاحب الصلاة أنه لمـــا تحقق لعبد المؤمن فتح مراكش فى ١٨ شوال سنة ٥٤١هـ — ٢٤ مارس ١١٤٧م ودخلها ، رجع

---

(١٣٧) ابن عذارى ، المصدر السابق ، ص ٢٢—٢٤ . الحلل الموشية ، ص ١١٢ ، د . سالم ، المغرب الكبير ، ص ٧٨٦ . د . سالم ، تاريخ المغرب فى العصر الاسلامى ، ص ٦٩٩—٧٠١ .

(١٣٨) الحلل الموشية ، ص ١١٧—١١٨ . البيذق ، أخبار المهدى ، ص ٦٦ . ابن عذارى ، البيان ، ج ٣ ، ص ٢٤ . ابن أبى دينار ، المؤنس ، ص١١٤

فيها الى محلته وجعل الامناء على أبوابها مـدة شهرين فاجتمـع فيئهـا وأموالها ، ذقسمه على الموحدين ، وقسم عليهم ديارهم ، ثم ببـع سـبى مراكش بيع العبيد باستثناء زينب بنت يوسف ، فقد استثنوها من البيـع لكان زوجها الامير يحيى بن اسحاق المسوفى المعروف بونزمار « أنجمار » وكان قد ترك قبيلته ودخل فى دعوة عبد المؤمن ، فأعفيت داره من الفىء ، واستولى عبد المؤمن على خزائن على بن يوسف وذخائر لتوزء مما يقصر على وصفه اللسان . « وبقيت مراكش ثلاثة أيام لا يدخلها داخل ولا يخرج منها خارج.. ،وأبى الموحدون دخولها لان المهدى كان يقول لهم لا تدخلوها حتى تطهروها ، فسأل الموحدون الفقهاء عن ذلك فقـالوا لهم تبنون أنتم مسجدا آخر مكان ذلك . فبنى الخليفة عبد المؤمن بدار الحجر مسجدا آخر جمع فيه الجمعة ، وشرع فى بناء المسجد الجامع وهدم الجامع الذى كان أسفل المدينه الذى بناه على بن يوسف[١٣٩] .

وبسقوط مراكش تنتهى الدولة المرابطية فى المغـرب بصـفة رسمية ويبقى للموحدين السيطرة على بقية أملاك هذه الدولة ، فاذا ما فرغوا منها يمكنهم مواصلة توسعاتهم نحو الشرق ، نحو الخلافتين المتداعيتين فى مصر وبغداد . غير أن دولة الموحدين الفتية لم تلبث أن تشغلت باخماد حركات التمرد والثورة الامر الذى أدى الى تأخير دخول قوات عبد المؤمن بجاية الى سنة ٥٤٧هـ — ١٠٦٥م والمهدية الى سنة ٥٥٥هـ — ١١٦٠م .

(ب) الثورات ضـد المهدية :

ولم يقف خطر الثورات التى اشتعلت فى المغرب على تهـديد الكيان السياسى والعسكرى لدولة الموحدين ، بل امتد هذا الخطر الى المسـاس

(١٣٩) الحلل الموشية ، ص ١١٨ .

بفكرة المهدية ذاتها وصلاحية الموحدين لها ولحـروبها الجهـادية ومن ثم لخلافتها الاسلامية العامة . ويتضح ذلك من ثورة ابن هود السلاوى[١٤٠]، وهو محمد بن عبد الله بن هود الماسى مدعى المهدية ، فى رباط ماسـة عام ٥٤١هـ / ١١٤٦-١١٤٧م . وكان ابن هود فى البداية من أتباع عبد المؤمن وشهد معه فتح مراكش ثم ارتد عن الطاعة ودعا لنفسه بعد استخلاف عبد المؤمن. ويذكر ابن عذارى أن جموعا كثيفة من البربر ساندته ويعبر عن ذلك بقوله: « وفى غرة شوال من السنة المؤرخة » ويعنى سنة ٥٤١هـ « فأقبـل الناس المغترون به من كل مكان وقبيل اليه ، فاجتمعوا بشقاوتهم عليه اجتماعا طار له الذكر فى الافاق وتحدثت به الرفاق ، وكثروا عنده واستندوا له ، فقامت بدعواته جموع لا تحصى ... وأتته دعوته فى جميع المعدوة حتى لم يبق منها الا مراكش وفاس وارتدت سائر البلاد كلها »[١٤١] . وقد دخل فى طاعة المهدى الماسى أهل سبتة وطنجة وسجلماسة ودرعة وقبائل دكالة وحاحـة وهسكورة الوطاء ورجراجة وقبائل تامسنا وهوارة[١٤٢] .

ويمكننا تقدير حجم هذه الثورة وخطورتها عندما نقف على الارقام المغالى فيها عن عدد أنصارها المقاتلين فى الجهات المختلفة . ففى دكالة بلغ

---

(١٤٠) يذكره البيذق بأسم آخر هو عمر بن الخياط ، أخبار المهـدى ، ص ١٠٦ .

(١٤١) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ٣ ، ص ٢٦ . راجع أيضـا : ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٢٣٢ . مجهول ، الحلل الموشية ، ص ١٢١ ، السلاوى ، الاستقصا ، ج ٢ ، ص ٩٩ .

(١٤٢) البيذق ، أخبار المهدى ، ص ١٠٧ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٤٨٠ . السلاوى ، المصدر السابق ، ص ١١٠ .

عددهم عشرين ألف فارس ومائتي ألف راجل[١٤٣] . وللقضاء على الماسى أرسل اليه عبد المؤمن من قواده أبا زكريا يحيى بن أنكمار المسوفى فهزمه الماسى . فأرسل اليه الشيخ أبا حفص عمر بن يحيى الهنتاتى ، الملقب بسيف الله المسلول تشبها بخالد بن الوليد فى « جيش خشن من فرسان ورجاله »[١٤٤] حسب تعبير ابن الخطيب . فانهزم الماسى وبدد شمله وفرقت قوته فى شهر ذى الحجة سنة ٥٤١هـ ، ثم اتجه أبو حفص عمر وأشياخ الموحدين الى سائر نواحى المرتدين عن الطاعة فهزموا جزولة وهسكورة وبرغواطة ولم يلبث أهل سلا أن عادوا الى بذل الطاعة لعبد المؤمن[١٤٥] .

وتشبه هذه الثورة المهدوية فى ماسة ، ثورة قامت فى غرب الاندلس على المرابطين وأعنى بها ثورة المريدين أتباع ابن قسى[١٤٦] وفيها أدعى

(١٤٣) يقول صاحب الحلل : سار عبد المؤمن فى أمم لا تحصى من الخيل والرجل والرماة ، وكان أهل دكالة لا رامى عندهم ، ولما اصطفوا وتأهبوا للقتال جاءهم من ناحية أخرى غير الناحية التى اعتقدوها فانحل نظامهم وفل جمعهم وخرجوا عن وعر الموضع الذى كانوا به فألجأهم السيف الى البحر فقتل أكثرهم فى الماء وأخذ ت ابلهم وغنمهم وأحوالهم وسبى أولادهم وانتهى البيع فيهم الى بيع المرأة بدرهم والغلام بنصف درهم « الحلل » ، ص ١٢١—١٢٢ .

(١٤٤) ابن الخطيب ، الاحاطة ، تحقيق عنان ، ص ٢٧١ . أنظر أيضا الرسالة الخاصة بمقتله فى : كتاب الوثائق ، ونبذة رقم ٨٥ ، ص ٢٤٣—٢٤٥ .

(١٤٥) البيذق ، أخبار المهدى ، ص ١٠٧ . ابن خلدون ، العبر ، جـ٦ ، ص ٤٨٠ .

(١٤٦) هو أبو القاسم أحمد بن الحسين بن قسى ، ينتهى جده الى أصل نصرانى ، ولد فى مطلع القرن ٦ هـ بأحواز شلب ونشأ بها ثم اشتغل بالعمل الحكومى وسئمه فتركه وانكب على دراسة التصوف والتعمق فيه ومال الى الزهد فاخشوشن وتقشف ثم جال فى الاندلس والتقى بشيخ الصوفية أبى العباس بن العريف بالمرية ، ودرس عليه أصول التصوف حتى ألف فيه ثم عاد الى قرية جلة من أعمال شلب وبنى بها رابطة للعبادة ودراسة التصوف فكثر

ابن قسى المهدوية وتلقب بالامام تشبها بالامام المهدى بن تومرت تقليدا له ولمواقفه فى المغرب ضد المرابطين • ومن ثم كانت ثورته أصلا على المرابطين وحكمهم بالاندلس • وانضم الى ابن قسى فى ثورته عدد من زعماء غربى الاندلس أهمهم ابن القابلة وابن وزير وابن المنذر وابن الحجام فى بطليوس والبطروجى فى لبلة(١٤٧) •

وقد حاول ابن قسى ايجاد علاقة صداقة وقربى مع عبد المؤمن عندما لاح له عزم الموحدين على غزو الاندلس • وفشلت محاولته بسبب الرسالة التى بعث بها ابن قسى الى عبد المؤمن ناعتا نفسه فيها بالامام المهدى ، فأنكر عليه عبد المؤمن ذلك على أساس أن الامامة والمهدوية قاصرة على مهدى الموحدين • وكانت الرسالة فى حد ذاتها حافزا للموحدين على مبادرتهم بنقل ميدان المعركة الى الاندلس •

مريدوه . وكان عارفا بطرق التأثير على الجماهير فادعى الولاية والهداية وابتدع كثيرا من "خوارق والشعوذة التى افتتن الناس بها ، واعتمد عليها فى ثورته . (ابن الابار ، الحلة السيراء ، تحقيق د. مؤنس ، ج٢ ، ص ١٩٧ — ٢٠٢ . عنان ، عصر المرابطين ، القسم الاول ، ص ٣٠٧ ، علام ، الدولة الموحدية ، ص ١٤٧) .

(١٤٧) الاول هو محمد بن يحيى الشلطيشى ويعرف بابن القابلة ، وكان يلقب بالمصطفى ، والثانى أبو محمد سراى بن وزير عميد أهل يابرة . والثالث هو أبو الوليد محمد بن المنذر ، من اعيان شلب وفقهائها ، برز فى الادب وتولى خطة الشورى وتركها ثم انزوى وتزهد وانضم لطائفة المريدين أتباع ابن قسى وقام بالدعوة فى شلب . والرابع هو محمد بن على بن الحجام أحد زعماء المريدين فى بطليوس ، والخامس هو يوسف بن أحمد البطروجى أحد زعماء المريدين فى لبلة . (ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ص ٢٤٨ ، ٢٥٠—٢٥١ . د. سالم ، تاريخ المغرب فى العصر الاسلامى ، ص ٧٠٢ — ٧٠٣ . عنان ، المرجع السابق، ص ٣٠٨ ، علام ، نفس المرجع ، ص ١٤٧—١٥٣) .

وحدث بعد سوء طالع المريدين وفشلهم فى الاستيلاء على قرطبة ومن قبلها اشبيلية[١٤٨] أن نشأ نزاع بين مهدى المريدين ابن قسى وبين تابعه سدراى بن وزير (أمير باجة) مما حدى بابن قسى للتخلص منه على يد أخلص أتباعه ابن المنذر (أمير شلب الذى لقبه ابن قسى بالملك العزيز بالله) ، وانتهى النزاع بينهما بهزيمة ابن المنذر ، الامر الذى غرى من ساعد بن وزير واستولى على مدينة شلب وميرتلة[١٤٩] ، وأعلن خلع ابن قسى والدعوة لابن حمدين صاحب قرطبة[١٥٠] وكان هذا الخلاف السبب فى فرار ابن قسى الى المغرب ولجوئه الى عبد المؤمن فى عام ٥٤٠هـ أو ٥٤١هـ[١٥١] بعد أن شمله بعفوه عسى أن يستفيد منه بدوره فى القضاء على حكم عدوهما المشترك يحيى بن على بن غانية المسوفى فى قرطبة[١٥٢] .

قامت الثورة فى شرق الاندلس ، وكانت أشد عنفا ، وأصعب مراسا ، وأطول زمنا ، من قاعدتها بلنسية فى عهد واليها المرابطى عبد الله بن غانية ،

---

(١٤٨) ابن الابار ، الحلة السيراء ، ص ٢٠٣—٢٠٤ .

(١٤٩) ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ص ٢٥١ ، د. سالم ، تاريخ المغرب ص ٧٠٢—٧٠٣ .

(١٥٠) هو أبو جعفر حمدين بن محمد بن على بن حمدين ، ينتمى الى بيت عربى عريق ، تعلم بقرطبة ، عمل بالقضاء حتى تولى منصب قاضى قضاة قرطبة سنة ٥٢٩هـ . اختلف ابن حمدين مع المرابطين فعزل من القضاء سنة ٥٣٢هـ ، وبعد الفتنة فى قرطبة عين قاضيا للمرة الثانية سنة ٥٣٦هـ وظل بالقضاء حتى قيامه بالثورة فى عام ٥٣٩هـ . وتسمى بأمير المسلمين وناصر الدين .
ابن الآبار ، نفس المصدر ، ص ٥٢—٥٣ .

(١٥١) ابن الابار ، نفس المصدر ، ص ٢٠٠—٢٠١ . ابن خلدون ، العبر ، ج٦ ، ص ٢٣٥ . ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ص ٢٥١ .

(١٥٢) هو أبو زكريا يحيى بن على بن غانية المسوفى ، كان واليا على قرطبة ، مشرفا على شئون الاندلس وقائدا عاما للجيش المرابطى . دافع عن قرطبة ضد قوات قشتالة وحليفهم ابن حمدين عام ٥٤٠هـ ١١٤٥م حتى توقيع الهدنة معهم ، ثم نقضها وقرر اعلان طاعته للموحدين وتوفى فى ٢٤ شعبان ٥٤٣هـ — ٧ يناير ١١٤٩م . ابن خلدون ، العبر ، ج٦ ، ص ٢٣٥ .

الذى فر الى مدينة شاطبة عندما شعر بقرب الثورة • وتولى زعامة الثورة ابن عبد العزيز بالحاح من عبد الله بن مردنيش ، وعبد الله بن عياض (قائد الثغر) فى سنة ٥٣٩هـ (١١٤٤م)[١٥٣] • ومع تطور الاحداث ، خاصة بعد ثورة مرسيه تولى ابن عياض أمر شاطبة ثم مرسية ، وجعل صهره عبد الله بن مردنيش واليا على بلنسية ، وجعل الدعوة للامـير « سيف الدولة بن هود » ، وبعد مقتل ابن مردنيش وابن هود فى سنة ٥٤٠هـ عدا ابن عيـاض الحاكم فى شرق الاندلس حتى لقى مصرعه سنة ٥٤٢هـ — ١١٤٨م[١٥٤] ، وتولى الامر من بعده محمد بن سعد بن مردنيش[١٥٥] •

وحدث أن انتصرمحمد بن سعد بن مردنيش فى أوائل سنة ٥٥٦هـ — ١١٦١م على يد الموحدين قرب قرطبة حيث قتل القائد الموحدى ابن بكيت• وأعقب ابن مردنيش انتصاره بانتزاع مدينة قرمونة من الموحدين فجـرد عبد المؤمن فى أثر هذه الهزيمة جيشا لعبور الاندلس قاده الشيخ أبى محمد

---

(١٥٣) هو القاضى أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض بن عمـرو بن موسى بن عياض بن محمد بن موسى بن عيـاض اليحصبى السبتى ، كان امام وقته فى الحديث وعلومه والنحو واللغة . دخل الاندلس طالبا للعلم ، فأخـذ بقرطبة عن جماعة ، استقضى ببلده سبتة ثم نقل عنها الى قضاء غرناطة . ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ج٣ ، رقم ٥١١ ، ص ٤٨٣—٤٨٥ . أما عبد الله بن مردنيش فهو صهر القاضى ابن عياض ، وعم محمد بن سعد بن مردنيش بطل ثورة شرق الاندلس .

(١٥٤) ابن الابار ، الحلة السيراء ، ص ٢٢٠ . ابن خلكان ، المصـدر السابق ، ص ٤٨٥ .

(١٥٥) يذكر المراكشى أن ابن مردنيش كان خادما لابن عياض ، يحمل له السلاح • المعجب ، ص ١٣٥ . هو محمد بن سعد بن محمد بن سعد الجذامى التجيبى ، ولد فى أحواز طرطوشة سنة ٥١٨هـ كان والده سعد بن محمد حاكما لافراغه من قبل المرابطين ، كما كان عمه عبد الله بن مردنيش واليا على بلنسية من قبل ابن عياض • كنى بابن مردنيش . ابن الخطيب ، الاحاطة ، ج٢ ، ٨٥ .

عبد الله بن أبى حفص ، فاستعاد قرمونة فى المحـــرم من ســـنة ٥٥٧هـ — ديسمبر ١١٦٣م • غير أن ابن مردنيش وحلفاءه تمكنوا من ايقاع الهزيمة بقوات أبى سعيد عثمان بن عبد المؤمن فى أحواز غرناطة وأخذوا يضيقون الخناق على غرناطة ويهددون قلعتها الحمراء[١٥٦] •

وأمام هذه الانباء المزعجة بادر عبد المؤمن بتجهيز جيش متميز من خيار جنده عدته ما يقرب من ٢٠ ألف مقاتل منهم عـــدد كبير من أشياخ الموحدين • وأسند قيادة هذا الجيش الى ابنه أبى يعقوب يوسف ، والشيخ أبى يعقوب يوسف بن سليمان • فاتجه هذا الجيش صوب غرناطة ووصل قرب جبل السبيكة والحمراء فى شهر رجب سنة ٥٥٧هـ — يوليو ١١٦٣م ، حيث دارت المعركة المسماه بوقعه السبيكة وانتهت بهزيمة ساحقة منى بها ابن همشك صهر ابن مردنيش • وأعقبها دخول الموحـــدين غرناطة فى ٢٨ رجب من نفس السنة ١٣ يوليو ١١٦٣م • وفر ابن همشك الى نسقورة بينما هرب ابن مردنيش الى محلته بحدرة[١٥٧] •

---

(١٥٦) يعرض ابن الخطيب صوره واضحة لهزيمة الموحدين فيقـــول : « .. واعترضت الفل تخوم الغدادين وجداول المياه التى تتخلل المرج فاستولى عليهم القتل ؛ وقتل فيها السيد أبو محمد .. ودخل ابن همشك الى غرناطـــة بجملة من الاسرى أفحش بهم المثلة بمرأى من اخوانهم المحصـــورين » ، ص ٣٠٩ ، انظر أيضا :

— Marcel Peyrouton; Histoire Général du Maghreb, p. 98.

(١٥٧) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج٣ ، ص ٥٢—٥٣ . ابن صاحب الصلاة ، المن بالامامة ، ص ١٩٥——٢٠٠ . وابن همشك هو ابراهيم ابن محمد ابن مفرج بن همشك ، وهو مثل ابن مردنيش شخصية تتميز بصفاتها الخاصة ، وهو من أصل نصرانى ، فجده مفرج أو همشك نصرانى نزح الى سرقســـطة ، وأسلم على يد أحد ملوك بنى هود فى أواخـــر أيامهم ، وكان مقطوع احـــدى الاذنين ، فكان النصارى اذا رأوه فى القتال عرفوه وقالوا « **هامشك** » ، **ويقول** لنا ابن الخطيب أن معنى هذه العبارة تعنى « **ترى مقطوع الاذن** » **الاحاطة** ،

وبوصول أخبار هذا الانتصار الى مسامع عبد المؤمن ، سارع بارسال كتب الفتح والاعلام بالنصر والاحتفال به . وتطورت مسألة الاندلس فى حروب عبد المؤمن الى قضية جهاد عام فى أراضيها وعمل على تعبئة جيش كثيف لهذا الغرض لا سيما عندما بلغه قيام القشتاليين بالهجوم على مدينة باجة فكتب الى جميع بلاد المغرب والقبلة وافريقية والسوس وجميع القبائل يستنفرهم الى الجهاد ، فأجابه خلق كثير ، فاجتمع له من عسكر الموحدين والمرتزقة من قبائل المغرب وقبائل زناتة أزيد من ثلاثمائة فارس ، ومن جيوش المتطوعة ثمانون ألف فارس ومئة ألف راجل ، فضاقت بهم الارض ، وانتشرت المحلات والعساكر فى أرض سلا من عين غبولة الى عين خميس واستدارت راجعة الى حلق المعمورة ، فلما استوفت لديه الحشود وتكاملت لديه الجنود والوفود ، ابتدأه مرضه الذى توفى منه »(١٥٨) .

ولم يقدر لعبد المؤمن تنفيذ مشروعه الجهادى فى الاندلس بسبب مرضه الذى لازمه حتى وفاته فى ١٠ جمادى الآخرة سنة ٥٥٨هـ — ١٥ مايو ١١٦٣م . وكانت هذه الوفاة المبكرة عائقا حال دون تحقيق الخلافة الموحدية أهدافها التى ترمى الى التوسع نحو المشرق الاسلامى . بل ان انشغال عبد المؤمن بمحاربة بقايا المرابطين فى المغرب والاندلس ، أعاق

ج١ ص ٣٠٥—٣٠٧ . وتحول ابن همشك الى قشتالة ، وخدم ملكها ثم ترك خدمة النصارى ، ونزح الى الاندلس ، وخدم المرابطين ، والتحق بخدمة ابن غانية . ومع توالى الاحداث فى شرق الاندلس اتصل ابن همشك بابن عياض ، ولما آلت بلنسية ومرسية الى ابن مردنيش اتصل به وصاهره . الاحاطة ، نفس الصفحة . المراكشى ، المعجب ، ص ١٣٥ .

(١٥٨) ابن ابى زرع ، القرطاس ، ص ٢٠٢ . انظر أيضا ، ابن أبى دينار ، المؤنس ، ص ١١٧ . السلاوى ، الاستقصا ، ج٢ ، ص ١٤٣ . وعن وفاته وأقوال المهدى فيه وامتداد ملكه راجع ابن خلكان ، ج٣ ، ص ٢٣٩ . وابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج٥ ، ص ٣٦٣ .

التوسع الموحدى فى المغرب ذاته وهو ما يهم أساسا موضوع العلاقات مع المشرق الاسلامى •

والواقع أن الدعوة الموحدية التى نادى بها المهدى محمد بن تومرت كانت تستهدف أمرين الاول تحقيق الهدف البعيد وهو بسط سيادتها على العالم الاسلامى المختل ، والثانى الجهاد ضد المتمردين والمارقين تمهيدا للجهاد الاعظم ضد أعداء الاسلام •

غير أن الجهاد ضد المارقين والثوار أيام المهدى وخليفته استغرق جانبا كبيرا من وقت الموحدين وجهودهم واستنفذ قدرا كبيرا من قوتهم على حساب الجهاد الاعظم • ومن المعروف أن حروب المهدى وخليفته عبد المؤمن استمرت نحو أربعين سنة(١٥٩) وهى فترة طويلة اذا قيست بعهود الحكام وأعمال البشر •

(٤)

توسع دولة الموحدين نحو الشرق

بدأ الخيط الاول فى حروب عبد المؤمن باتجاه الشرق منذ أن اتخذ بقايا المرابطين بالاندلس وحلفاؤهم الهلالية من بجاية قاعدة لمقاومة الموحدين • ولكن رحلة عبد المؤمن الحربية نحو الشرق حتى حدود مصر الغربية كان لها أن تكرر رحلة ابن تومرت الدراسية التى بدأها بالاندلس وانتقل منها الى الشرق الاسلامى • وقد شرع عبد المؤمن نفسه فى القيام بها فى شبابه ولكن لم يقدر له أن ينفذها بسبب اثناء المهدى له عن ذلك لقاء

---

(١٥٩) استغرقت تلك الحروب على وجه الدقة ثلاثا وثلاثين سنة وثمانية اشهر وخمسة وعشرين يوما من حين وفاة المهدى حتى وفاة عبد المؤمن •

الامل فى اتخاذه خليفة له • ولا مجال هنا لتكرار الاسانيد التاريخية الدالة على جاذبية الشرق الاسلامى فى الفكر المغربى وأحداثه • فمن بداهة القول تكرار الاشارة الى سحر الشرق ومغناطيسه الجاذب فى أحداث المغرب منذ دخول المغرب فى فلك الدولة الاسلامية • فقد سبق للمرابطين أن ولوا وجوههم شطر المغربين الاوسط والادنى لولا صلة القرابة التى تربطهم بالزيريين الصنهاجة • كما سبق أيضا للفاطميين أن تطلعوا نحو الشرق الاسلامى ونجحوا فى محاولتهم الرابعة ، وكان ذلك الاصل فى ظهور القاهرة التى لعبت وما تزال بأوتار السياسة العالمية • وقد سبق الاشارة الى آثار رحلة ابن تومرت ومدى نجاح دعوته فى الشرق •

(أ) الحملة على بجاية :

فى رسالة أوردها ليفى بروفنسال من انشاء الكاتب أبى جعفر بن عطية موجهةمن الخليفة عبد المؤمن الى الشيخ أبى زكريا يحيى بن على بن غانية يدعوه فيها الى التوحيد بتاريخ ٩ ربيع الثانى سنة ٥٤٣هـ • يحاول عبد المؤمن عن طريق اللين والترغيب والاستمالة ايقاف حملة ابن غانية العدائية ضد الموحدين والانخراط تحت راية الموحدين كما فعل أسلافه من قبيلة مسوفة ، الذين اعترفوا بالمهدى وأقروا رياسته فيقول : « وهذا الامر هو أمر المهدى حق فتأمل ، ومع معالمه الجلاء فلا ظن ولا تخيل ، والمهدى قد بشر به النبى فى غير ما حديث ، وظهرت علاماته ، وآياته فى قديم مزاره وحديث ، ودل على اسمه وزمانه وفعله ومكانه •• وما خص الله به مسوفة الذين هم من قبيلتكم وفصيلتكم قام ودهم له فى مواطن الصفا وقبلته ،

وهاجروا اليه وهجروا سواه • فهو آلفهم بفضل الله عليهم وهم ألافه »[١٦٠] •

غير أن بنى حماد الصنهاجيين[١٦١] رفضوا الدعوة وظلوا يتمسكون باستقلالهم منذ أن أعادوا تأسيس بجاية عام ٤٥٧هـ — ١٠٦٥م على يد أميرهم الناصر بن علناس بن جهاد[١٦٢] (٤٥٤ — ٤٨١هـ/١٠٦٢—١٠٨٨م) وهم فى كفاح من أجل الحفاظ عليها ، سواء فى مراحل هجوم العرب الهلاليين أو أثناء رفضهم التبعية للمرابطين •

ومع قيام دولة الموحدين ، لحق بدولة بنى حماد أكثر من خطر كاسح: فالنورمان يوجهون هجومهم على افريقية مقر بنى باديس الزيريين (أبناء عمومة الحماديين) ويستولون على مدينة المهدية وسفاقس وسوسة فى سنة ٥٤٣هـ — ١١٤٨م ويعيثون فسادا على طول الساحل التونسى حتى يقاربوا مملكة بنى حماد • والمرابطون اللاجئون اليها يستهدفون تحويلها الى قاعدة

---

(١٦٠) لبفى بروفنسال ، رسائل موحدية ، الرباط ، ١٩٤١ ، رسالة ، رقم ٤ ص ٦—١٠ •

(١٦١) هى نائبة اماره نظاميه نشأ بالمغرب الاوسط على يد حماد بن بلكين بن زيرى الصنهاجى ، كان عاملا من قبل أخيه باديس بن المنصور بن بلكين أمير المغرب الادنى على مدينة أشير . استقل بجهته وبنى القلعة المنسوبة الى أسرته (قلعة بنى حماد) عام ٣٩٨هـ — ١٠٠٧م • وبعد منازعات بينه وبين السلطة الشرعية فى القيروان أعلن حماد انفصالها عنها فى (٤٠٥هـ — ١٠١٤م) فانقسم بنو زيرى الى : بنى باديس بالقيروان وبنى حماد بالقلعة ، قامت بينهما حروب تلتها المصالحة والمهادنة . أنظر : عبد الوهاب بن منصور ، قبائل المغرب ، ج١ ، ص ١٤٤ •

(١٦٢) ولهذا سميت بجاية الناصرية نسبة الى الناصر بن علناس (د. سالم ، تاريخ المغرب فى العصر الاسلامى ، ص ٧٠٦ ، د. سالم ، المغرب الكبير ، طبعة ١٩٦٦ ، ص ٦٨٣—٦٨٥ •

لعملياتهم العسكرية ضد الموحدين فى مشروع حلف يضمهم مع بنى غانية المسوفين أصحاب البيسار[١٦٣] .

كان الامير يحيى بن عبد العزيز بن المنصور بن الناصر بن علناس منهمكا فى ملذاته مستغرقا فى لهوه غير عابىء بأمور دولته ، كان وزيره ميمون بن حمدون متنبها الى الاخطار المحيطة ببجاية ورأى فى الاستجابة للدعوة الموحدية سبيلا لانقاذ هذه المدينة من تلك الأخطار فكاتب الخليفة الموحدى عبد المؤمن فى السر يرغبه فى بجاية باسم انقاذ المسلمين فيها[١٦٤] .

وجاءت دعوة ابن حمدون لفتح بجاية فى وقت اشتغل فيه عبد المؤمن بتصفية تمييز جديدة فى صفوف قواته ، وهى الحادثة المعروفة بعملية الاعتراف[١٦٥] . فقدمت دعوة بجاية ، لسياسة التمييز الموحدى فى حادثتها الجديدة ، السند الجهادى المنشود للتخفيف من آثارها . ومن قبل ، كان شخص المهدى وحده يجب أى سند مطلوب لتبرير سياسة التمييز فى أحداثها التى وقعت بحروب الموحدين الاولى . ولكن الامر يتعلق هذه المرة بخليفة المهدى ومدى الاعتراف بخلافته[١٦٦] . وعندما ينهض بحملة فتح

---

(١٦٣) ليفى بروفنسال ، رسائل موحدية ، رقم ٤ ، ص ٨—١٠ .

(١٦٤) عبد الوهاب بن منصور ، قبائل المغرب ، ج١ ، ص ١٤٥ .

(١٦٥) ليست هذه العملية التى أقدم عليها عبد المؤمن الا تصفية همجية تمت فى عام ٥٤٤هـ — ١١٤٩م كما يذكرها ابن عذارى (البيان ، ج٣ ، ص ٢٨). ولا يشبهه فى شناعته وفظاعته الا التمييز الذى نفذه المهدى محمد بن تومرت على يد عبد الله بن محسن الونشريسى المعروف بالبشير بهدف ازالة ما حاق بالموحدين من التخليط ، ويذكر البيذق تفصيلات عن ذلك الاعتراف وعدد من قتل من كل قبيلة فيه بسبب قتل مكناسة الفحامين فى جبلهم (أخبار المهدى ، ص ٦٩ — ٧٢) .

(١٦٦) ارجع الى الصفحات السابقة (ص ٩١—٩٣) .

بجاية . فهو يحقق أملا كبيرا فى الفكر الموحدى يتعلق بالشرق والاتجـاه بالفتوح الموحدية نحو بلدانه يوحدها داخل بوتقة فلسفته وبضم أشتات دولها فى نطاق دولة الموحدين الكبرى .

وواضح من تكتم الموحدين لوجهة حملة بجاية أن حروبهم فى الاندلس لم تكن قد حسمت بعد ، وأن عبد المؤمن آثر الانتقال بحروب الموحدين الى الشرق بمجرد وصول دعوة بجاية . وفى سبيل تحقيق حملة بجاية ، عمـد الى التمويه فى خططه العسكريه . فعندما فرغ من اعترافه السابق اتجـه ناحية سلا وأمر ببناء أساس مدينة الرباط ، وكان يعول على الخروج منها الى بجاية عن طريق المعمورة الى الهبط ــ ناحية جبالة الواقعة بين الريف والمحيط الاطلسى ــ موهما فى اعلانه أنه متجه الى الاندلس . وبلـغ من تكتمه أنه أمر بقطع الطريق عن المارة فى جميع الاتجاهات التى تؤدى الى جهة الشرق وعين عليها مراقبين أو أمناء لمراقبة الطريق ، بل وصل به الامر الى حد معاقبة كل من يتفوه ولو باشارة عن هدف تلك المحلة(١٦٧) .

ويصف ابن أبى زرع الطريق الذى سلكه عبـد المؤمن فى حملته على بجاية(١٦٨) ، بدءا من فاس الى نهر ملوية ثم تلمسان التى أقام بهـا يوما واحدا ، ومنها الى الجزائر التى دخلها على حين غفـلة ، فخـرج الامير الحسن بن على بن يحيى بن تميم وكان قد انتقل اليها بعد سقوط المهدية فى

---

(١٦٧) يقول البيذق : « وعندما نزل الى شـبريط . . كان أمامـه عبيد يلعبون ، منهم ميمون أغزاف ، فأنطق الله على لسانه بحلول أجله ، فقال كذا نفعل يا أمير المؤمنين فى بجاية ان شاء الله . فقال له الخليفة تكتف ، فأمـر به فقتل » (أخبار المهدى ، ص ٧٤) وورد فى الحلل الموشيه ، أن مناديا نادى : « أيها الناس من تكلم منكم بكلام معناه الى أين هذا السفر فجـزاؤه السيف » ص ١٢٣ .

(١٦٨) ابن أبى زرع ، القرطاس ، ص ١٩٣ .

أيدى النورمان • فتلقاه عبد المؤمن بحفاوة بالغة[١٦٩] وفر عاملها الى بجاية ، وأخبر حاكمها يحيى بن العزيز بمقدم عبد المؤمن واستيلائه على الجزائر • ولم يمض عهد قصير حتى وصلت جيوش عبد المؤمن الى بجاية ودخلها بعد الفتح أبو محمدميمون بن على المعروفبابن حمدينوفتح أبوابها للموحدين، وتم توحيده وأصحابه • وفر الامير يحيى بن العزيز الى قسنطينة ، فدخل عبد المؤمن بجاية وتم تطهيرها وتوحيد أهلها[١٧٠] •

وما أن تم لعبد المؤمن السيطرة على بجاية حتى واصل زحفه الى قلعة بنى حماد معقل الحماديين الاعظم وحصنهم الامنع ، فاقتحمتها قوات الموحدين عنوة ، ودمرت عمائرها وضربت عمرانها وأضرمت فيها النيران وسقط واليها جوشن عبد العزيز وابن الدحامس من الاثبج ، وبلغ عدد القتلى بها نحو ١٨ ألفا[١٧١] • ثم ان عبد المؤمن قلد على الجزائر وبجاية والقلعة وأعمالها ابنه عبد الله بن عبد المؤمن ورتب معه من سيتولى الدفاع عنها من قوات الموحدين ثم قفل عائدا الى مراكش[١٧٢] وبصحبته الحسن بن على •

(ب) حملة سطيف :

بينما كان عبد المؤمن فى متيجة فى طريق عودته من الحملة الاولى الى

---

(١٦٩) البيذق ، المصدر السابق ، ص ١٤٥ . ابن أبى زرع ، المصدر السابق ، انظر أيضا ، د. سالم ، المغرب الكبير ، ص ٧٩٢—٧٩٣ .

(١٧٠) د. سالم ، المغرب الكبير (١٩٦٦) ص ٧٩٣ .

(١٧١) ابن خلدون ، العبر ج٦ ، ص ٤٩١ . د. سالم ، المغرب الكبير ، ص ٧٩٣ .

(١٧٢) د. سالم ، المغرب الكبير ص ٧٩٣—٧٩٤ . د. سالم ، تاريخ المغرب ، ص ٧٠٧—٧٠٨ .

مراكش . وصلته الانباء بقيام عرب الانبج ورياح وزغبة فى سطيف[١٧٣] بالثورة على عبد الله ، ومحاولتهم اعادة دولة بنى حماد ، فسير الى ولده مددا بقيادة يصلاسن بن المعز وعبد الله بن وانودين صهر عبد المؤمن ، ولكن لاختلاف وقع بينهما تمكن العرب من قتل عبد الله وأرغموا يصلاسن على الهرب فاقدم عبد المؤمن على اجراء تمييز أعقبه بدفع جميع جيش الموحدين الى العرب . ونهاهم عن الانشتغال بالمغانم والمكاسب حتى لا تهزمهم العرب ، بل أوصاهم اذا سمعوا العرب تقول الرواح الرواح ، بضرورة اتباعهم وتتبعهم الى القضاء عليهم . وكان ما كان من هزيمة العرب وأسر بعض شيوخهم من بينهم ديفل بن ميمون ، وحباس بن الرومية ، وابن زيان ، وأبو قطران ، وأبو عرفة ، والقائد بن معروف فسيقوا الى مراكش ، ثم ردت اليهم نساؤهم وأطفالهم وأموالهم بعد أن أعلنوا طاعتهم له فى سنة ٥٤٧هـ — ١١٥٣م . وأعادهم الى افريقية معززين بعد أن أكرمهم وبالغ فى الحفاوة بهم[١٧٤] .

وقد وجه عبد المؤمن رسالة الى الشيخ أبى محمد وسنار وأهل مراكش يعلمهم بعروته فى البلاد الشرقية وانتصاره على العرب بناحية سطيف . ويرى أن هذا الفتح التناسق والتتابع وتذليل الصعب وتقريب الشاسع . ويصور حال العرب فى تعبير يقول : « .. وقد قذفتهم الغلبة الى صحرائها، ونبذتهم الروعة بعرائها ، وحدثتهم حال الكثرة المهدية عن كماتها وضرائها،

---

(١٧٣) يظهر لنا قصة سطيف عن شدة تأثره بالمهدى فى حب سفك الدماء بل والقضاء على المعارضة بجميع أشكالها من دفع خيله وخيل الموحدين قبر سطيح فوق الطريق فى ربوه ، وحك خيله هذا القبر ، وقال لهم : « اتعرفون ما قال صاحب هذا القبر ؟ قالوا : أنت العارف بذلك ، فقال لهم : قال أزيلونى عن هذا القبر لئلا تدرسنى خيل عبد المؤمن بن على الكومى » . اخبار المهدى ، ص ٧٤ . (القبر السطيح هو القبر المرتفع وأعلاه مسطحا) .

(١٧٤) البيذق ، أخبار المهدى ، ص ٧٦ .

فصاروا بين ندافع الحيرة والتيه ، وتراجع التخييل والتموبه ، مظهرين الانابة الى المتاب ، متكررين فى أكثر الاحيان على مراتب الشك والارتياب »(١٧٥) .

كما وصفهم بالجهال مرة والاشقياء مرة أخرى فهم « .. الذين يخاطبون جميع من ببلاد افريقية وما يتصل بها الى جهة الاسكندرية من العرب المغررين بغوامر الجهالة ، المغمورين بأوامر الضلالة ، فخاطبه الاستصراخ والاستنجاد ويراسلونهم مراسلة الاستعانة والاستمداد ، ويستدعونهم لمعنى الانتصار على الموحدين والاعتضاد .. وأقبل جميع من ذكرناه لكم من أعراب تلك البلاد النازحة قبائل هلال بنى عامر من عرب اليمن ، وشعوب الحروب والفتن ، بقضهم وقضيضهم ، عاملين على اغواء اخوانهم الضالين وتحريضهم ، نافرين أفواجا بعد أفواج بغاية عزمهم ونهاية نهوضهم .. فلم تزل جيوشهم على جهات قسنطينة تتوارد وكتائبهم تتعاقد على الاعتزام وتتقاعد .. والموحدون مقبلون على ما أمروا به من ارتحالهم الى العرب .. وقتالهم بوادى الاقواس بجهات سطيف ، وكذلك فى متيجة .. وأكلتهم والتقمتهم الحرب الزبون ، وكابد الهون الكبار جميع فرسانهم وأعيانهم ومن يدعى البطالة والحماسة من أمرائهم وكبرائهم . وأختلطوا بمواشيهم اختلاط الانعام بالانعام .. وحاق الويل بهلال بن عامر . ويصف تتبع الجيش الموحدى لهم حتى أوائل بلاد افريقية وما يجاورها ، ولم يروا لبقية المارقين أثرا »(١٧٦) .

---

(١٧٥) لفنى بروفنسال ، رسائل موحدية ، رقم ٩ ، ص ٢٦—٢٧ .
(١٧٦) ليفى بروفنسال ، رسائل موحدية ، رقم ٩ ، وهى رسالة طويلة مؤرخة فى سنة ٥٤٨هـ ، ص ٢٧—٣٤ .

على أن هزيمة العرب ، المعلنة بهذا الاسلوب التشهيرى الوارد فى رسالة عبد المؤمن ، لم يعقبها تسليم قبيلة صنهاجة الحمادية بهزيمتها • فحاولت الثأر باتفاقها مع حلفائها من قبائل لواتة وكتامة تحت قيادة أبى قصبة من بنى زلدوى ، وكان من أشد الثوار مناهضة لعبد المؤمن • وتلاقت هذه الجموع مع جيش عبد المؤمن [١٧٧] ، وفيها انكسرت صنهاجة وحلفاؤها ومنهم أبو قصبة ، وأستتب الامر للموحدين فى بجاية ونستبعد أن يكون عبد المؤمن قد قدم على رأس قوات الموحدين اذ أنه لم يعاود الخروج الى افريقية الا فى سنة ٥٥٣ هـ / ١١٥٨ م • وقد تكون هذه المعركة قد وقعت أثناء قفوله من حركته الاولى سنة ٥٧٤/١١٥٣م وهو الارجح •

فقد أوصى قبل عودته الى مراكش أهل بجاية فى رسالة وجهها اليهم باقامه الحدود وحفظ الشرائع واظهار الحق بلزوم الواجبات • وتعرف هذه الرسالة برسالة الفصول وفيها يركز على التقيد بالشرع والعمل فى أمر الدين والدنيا باللازم الواجب ويشمل هذا الالزام الرجال والنساء والاحرار والعبيد •

وتتصف الرسالتان المذكورتان بطولهما والتفصيل فى موضوع كل منهما مع قصر ماده الرسالة الاولى على أخبار انتصاره على العرب وصفات التحقير التى أنزلها بهم ، وحصر الرسالة الثانية على وصينه لاهل بجاية

---

(١٧٧) اختلفت الروايات حول الشخص الذى قام على قيادة جيش الموحدين فى هذه المعركة . فيذكرها ابن الاثير تحت قيادة سعيد يخلف من أهل خمسين ، بينما يؤكد البيذق أن الخليفة عبد المؤمن هو الذى قاد تلك الحملة . وفى هذا الصدد ، يذكر البيذق أن الجيش بأجمعه كان قد خرج لملاقاة العرب ، ولم يبق مع عبد المؤمن الا الخاصة من أهل الدار مع السوقة ، ومسك القناة التى يمسكها من عام البحيرة (ابن الاثير ، الكامل فى التاريخ ، ج ١١ ، ص ٦٠ . البيذق ، المصدر السابق ، ص ٧٥) .

وتعاليمه لهم المستمدة من تعاليم المهدى الدينية (١٧٨) . وبالربط بين موضوعى الرسالتين وما وقع فى تاريخ حملة بجاية من تصفيات للتمييز بين صفوف الموحدين ، يظهر بوضوح أن الاعتقاد الخالص فى الاهداف الموحدية لم تأخذ به أطراف مختلفة فى مقدمتها عرب البوادى . وأقتضى الامر ، مع تصفيات التمييز التى كانت تجرى للانصار القدامى ، العمل على كسب مزيد من الانصار الجدد ومن ثم الاقدام على فتوح جديدة . وواضح فى حرب بجاية أن أحداثها انتهت بانتصار حاسم بالرغم من مقاومة العرب . وواضح أيضا أن هذه الاحداث قد قدمت لعبد المؤمن حديثا يسهل استهلاكه فى بلاده لصالح الدعوة الموحدية ، الامر الذى يسر له طريق العودة على رأس حملة ثانية فى اتجاه الشرق .

ج — الحملة على المهدية وبرقة :

فى ١٠ شوال عام ٥٥٣ هـ / أكتوبر — نوفمبر ١١٥٨ م خرج عبد

---

(١٧٨) أوصت الرسالة بـ : يأخذ الناس بعلم التوحيد الذى هو أساس الدين وتوجيههم الى قراءة العقيدة التى أولها « اعلم أرشدنا الله واياك » وحفظها وتفهمها . وتشمل هذا الالزام النساء والرجال والاحرار والعبيد .

— اقامة الصلاه ، لان لاحظ فى الاسلام لمن ترك الصلاة ، فهو غير مثبت بديوان المؤمنين ، وتاركها ميت فى عداد الاحياء .

— ايتاء الزكاة ، ومن ثبت منعه للزكاة فهو لاحق بمن ثبت تركه للصلاة ، ومن منع فريضة واحدة كمن منع الفرائض كلها .

— النظر فى الربوب ونمييزها ، والهجوم على بائعها ، ومدمن شربها ، فبراق سكرها ، ويقطع منكرها ، فالخمر أم الكبائر ، وهى رجس من أعمال الشيطان .

— الكشوف عن اللصص والجرابة ، كالاجتماع على سيرة الجاهلية ، الضلالة من الرجال المفسدين ، النساء المفسدات .

وبوصى أهل بجاية باتباع تلك الفصول والضرب على أيدى هؤلاء المفسدين . (ليفى بروفنسال ، المصدر السابق ، رقم ٢٣ ، سنة ٥٥٦هـ ، ص ١٢٦ — ١٣٨) .

المؤمن بن على من جديد فى جيوش ضخمة تلبية لطلب ولده عبد الله الذى انهزم فى تونس على أيدى بنى خراسان وعرب رباح ولاذ ببجاية . وأراد عبد المؤمن أن يحقق من هذه الحملة أمرين ، الاول الاستيلاء على تونس والمناطق الخارجة على سلطانه من قابس وقفصة وشط الجريد والاربس والتوسع شرقا الى طرابلس والثانى تحرير المهدية من سيطرة النورمان وكانت الثورة على الاحتلال النورماندى قد شملت مناطق عديدة من المغرب الادنى ابتداء من جربة ، وصفاقص على يد عمر بن أبى الحسن الذى أمر بقتل جميع النصارى فيها عام ٥٥١ هـ / ١١٥٦ م [١٧٩] الى طرابلس على يد الشيخ ابو يحيى بن مطروح الذى أسر جميع الجالية النصرانية فيها فى عام ٥٥٣ هـ / ١١٥٨ م ، ثم مدينة قابس . وكان الموحدون قد استولوا على بجاية وبونة (عنابة الحالية) ، ولم يبق بأيدى النورمان غير مدينة المهدية [١٨٠] .

خرج عبد المؤمن من مراكش فى أوائل شوال ٥٥٣ هـ (نوفمبر ١١٥٨ م) قاصدا افريقية فى قوة كبيرة من أجناد الموحدين بالاضافة الى الاسطول . وكان قد أمن من بلاده أثناء غيبته فاستخلف ابنه أبا الحسن على على مراكش ، والشيخ أبا حفص عمر بن يحيى الهنتاتى على المهدية أو

---

(١٧٩) يذكر التجانى فى رحلته أن « الملك روجار الثانى ملك صقلية قد ولى عمر بن الحسن على صفاقص وأخذ والده الشيخ أبا الحسن الفريانى رهينة عنده لكى لا يحيد عمر عن طاعته ، ولكن الشيخ أبا الحسن قد أرسل سرا الى ابنه بأن ينتهز أول فرصة لتحطيم قوة النصارى ، ولا يهتم بمصير أبيه . وبخروج عمر بن الحسن على النصارى عمدوا الى شنق أبيه الشيخ وهو يتلو القرآن الكريم » ص ٧٥ . د. علام ، الدولة الموحدية ، ص ٢٠٨ .

(١٨٠) الحلل الموشية ، ص ١١٧ . ابن الاثير ، الكامل فى التاريخ ، ج١١ ص ٧٦—٧٧ ، ٩١ ، ٩٩ . أنظر ايضا : أبو على أحمد بن عمر بن رسته ، الاعلاق النفسية ، ليدن ١٨٩١ ، ص ٣٣٨ — ٣٣٩ .

رباط الفتح ، ويوسف بن سليمان على مدينة فاس ، أما فى الاندلس ، أقام عبد المؤمن ابنه أبا يعقوب على اشبيلية وترك معه فى حكمها عبد الله بن أبى حفص . كذلك قلد ابنه السيد أبا عثمان واليا على غرناطة ، وابن يخيت على قرطبة [١٨١] .

وواضح من حجم هذه الاستعدادات أن عبد المؤمن كان ينوى التغيب لفترة طويلة فى حملته الثانية فى اتجاه الشرق ، وان هدفها لم يكن مجرد السيطرة على تونس أو تحرير المهدية من السيطرة النورمندية وانما كان يعمل على ضم كل حواضر افريقية التى لم تتبع بعد الحكم الموحدى . وبدأ الحملة أحداثها بالوقوف أمام مدينة تونس ، فحاصرتها قواته البرية وأحاط بها الاسطول الموحدى بقيادة أبو عبد الله بن ميمون ثلاثة أيام . وطلب الموحدون من أهل تونس الدخول صلحا فى طاعتهم ولكن واليها أحمد بن خراسان الذى أستقل بها لم يرضخ لطلبه . فبدأ الموحدون يهاجمون المدينة ، وعندما أقبل الليل أقبلت فئة من أعيانها تطلب الامان ، فأجيبوا الى طلبهم على أساس الامان فى أنفسهم ، وأهليهم فقط ، أما الاموال والاملاك فبالنصف بينهم وبين الموحدين [١٨٢] . أما النصارى واليهود فقد خيروا بين الدخول فى الاسلام أو القتل ، فدخلوا فى الاسلام . وهكذا دخل الموحدون المدينة فى جمادى الاولى من سنة ٥٥٤ هـ (١١٥٩ م) وترك عبد المؤمن عليها جيشا من الموحدين .

ثم زحفت جيوش عبد المؤمن الى المهدية ، وأستعدت لمواجهة

---

(١٨١) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج٣ ، ص ٣٨ . انظر ، د. سالم ، المغرب الكبير ، ص ٧٩٠ — ٧٩١ .

(١٨٢) علام ، المرجع السابق ، ص ٢٠٨—٢٠٩ .

النورمان وكان عبد المؤمن موقنا بطول أمد الحصار بسبب مناعـــــــة المهدية (١٨٣) . وكانت المدينة تتلقى الامدادات من صقلية عن طريق البحر وعلى هذا النحو امتد الحصار برا وبحرا مدة سبعة شهور تخللتها هجمات بالمجانيق والعدد وأنقطعت المدادات صقلية عنها لوجود أسطول الموحدين حتى استسلمت المدينة بعد أن آمن حاميتها على أن يخرجوا الى صقليـــة وتم دخول المهدية فى سنة ٥٥٤ هـ (١١٥٩ م) (١٨٤) .

وفى أثناء حصاره للمهدية جاءته الاخبار بأن عرب سليم تعـــــدوا بشدة على مدينة قابس ، فخاطبهم بشعر من قول القاضى بن عمـــــران يقول فيـــه :

أسليم دعـــــوة ذى أخـــا مرشـــد
هـــاد الى الحـــق المبيـــن المسعـــد
ومـــــذكر ما كـــان أســـــلاف لكم
فضلوا بـــه أفعـــال كـــــل مســـدد
بجهـــــاد أعـــــداء الالـــــه ونصرهم
لرســــــول ربهم النبى محمـــــــد
وتعرفـــــوا أنـــا عليكم صــــــبر
حتى يعـــود جواب هذا المنشد (١٨٥)

---

(١٨٣) المراكشى ، المعجب ، ص ١٤٨ . مجهول ، الحلل ، تحقيق ، د. سهيل زكار ، والاستاذ عبد القادر زمامة ، الرباط ، ١٩٧٩ ، ص ١٥٤ .

(١٨٤) المراكشى ، المعجب ، ص ١٤٨—١٤٩ . الحلل المـــوشية ، ص ١١٧—١١٨ . ابن عذارى ، البيان ، ج٣ ، ص ٣٩ . ولم يقتل من الموحدين فى استرجاع المهدية سوى ابن بكيت (البيذق ، أخبار المهدى ، ص ٨٠) .

(١٨٥) ابن عذارى ، المصدر السابق ، ص ٣٩ . ابن صاحب الصلاة ، المن بالامامة ، ص ١٧٥—١٧٦ .

وأردف الرسالة التى لم يصل رد لها بتجريد عساكره على قابس بقيادة ولده عبد الله ، وتمكن من الانتصار عليهم وكتب الى الموحدين بفاس يبشرهم بالانتصار والفتح وجاء فى رسالته : « .. وببلاد افريقية للقبيل الرياحى المستولى على أقطارها ، المستعجل فى اضرارها . لا ذكر يسمع ولا حديث يرفع ، ولا أثر يتقصى ويتتبع ، ألحقوا بقبيل العدم ، وقلعوا قلع الصمغة وعصبوا عصب السلم ، وأصبحوا كهشيم التهبته نفحة ضرم ، حيزت عليهم الثنايا والانقاب ، وتبسط فيهم كيف شاء العقاب .. حقت عليهم الصيحة فأثارتهم هبا منثورا وضربت عليهم الذلة بكل مضطرب وملتمس » . وفى موضع آخر تقول الرسالة عن عرب بنى سليم : « وكان فى هذا القبيل الرياحى فخذ منهم يعرف ببنى دحمد لاحظتهم السعادة بطرف غير حض وأحتضنتهم فى حجر الوقاية حض ، وكان لهم من القدر السابق بمغازتهم جد كفيل كفى ، فألقوا بمقاليد الانقياد ، وأنخرطوا فى سلك أهل التوحيد بجميع الانف والاموال والاولاد ، وربطوا أنفسهم مدى أعمارهم على مصافرة الغزو ومصابرة الجهاد . وأن عماد بيتها وزعيم أمرها أبا يعقوب يوسف بن مالك » (١٨٦)

وعن عرب جسم تستطرد الرسالة : « وهم عدد لا يحمله الا البساط الفياح والفضاء المنداح . وكل من هذين الحيين الجشمي والفخذ المحمدى من الرياحى فقد عزم وأعزم به على أن تحتط ان شاء الله بالمغرب دارهم ، ويبوأ هنا لكم قرارهم ، ويقصر على خدمة هذا الامر العزيز جوارهم » .

---

(١٨٦) ليفى بروفنسال ، رسائل موحدية ، رقم ٢١ ، وهى من انشاء الكاتب أبى القاسم القالمى ، كتبت فى متيجة فى ٢٤ ربيع الثانى سنة ٥٥٥هـ يعلمهم بهزيمة عرب افريقية ودخولهم تحت طاعة الموحدين ، ص ١١٣—١٢١ . أنظر أيضا : ابن صاحب الصلاه ، المصدر السابق ، ص ١٧٢ .

وعن قبائل الاثيج وزغبة ، فقد وصل اليه أيضا أعيانهم « يمدون يد الاستتابة ، ويطلقون ألسنة الانابة » (١٨٧) .

وهكذا أسفرت معارك عبد المؤمن فى افريقية عن تحرير المهدية من قبضة النورمان وأنتزاع تونس والقيروان وقفصة وطبرق والاربس وطرابلس وسوسة وصفاقص (١٨٨) .

وواضح مما ورد فى احداث فتح المهدية أنه تم صلحا مع أستئمان النصارى ودخل عبد المؤمن مدينة المهدية فى يوم عاشوراء من محرم سنة ٥٥٥ هـ / ٢١ يناير ١١٦٠ م ، وهى المعروفة بسنة الاخماس . وتوالت عليه التهانى بذلك الفتح ، وقيل فيها قصائد المديح التى جاء من بينها ما يلى من الابيات :

وأشرقت الشمس المنيرة فوقنا
وأصبح وجه الحق غير محجب
وطهر هذا الصقع من كل كافر
وعاد به الاسلام بعد تغلب
وكسرت الصلبان فى كل بيعة
ونادى منادى الحق فى كل مرقب

---

(١٨٧) ليمى بروفنسال ، نفس المصدر .

(١٨٨) ابن أبى زرع ، القرطاس ، ص ١٩٨ . ابن خلدون ، العبر ، ج٦ ، ص ٤٩٤ ، أنظر أيضا عن الوفود التى وفدت على عبد المؤمن من تلك البلاد : وفد صفاقس : عمر بن أبى الحسن الفريانى ، طرابلس : ابن مطروح شيخ طرابلس ، قفصة : يحيى بن تميم ابن المعتز ابن الرند ، بنزرت : عيسى بن مقرب بن مراد بن الورد اللخمى . الزركشى ، تاريخ الدولتين ، ص ١٢ .

فأبنــــر أبــا حفص بنصر مـــؤزر
كفيــل بما تبغيه فى كـــل مــــذهب
ولابـــد مـن يـوم أعـــز محجـــل
يسيل دمـــاء الكفر فى كـــل مـــذنب
ويغـــرو بـــلاد الـــروم جيش عرمـــرم
بخيل مـــن قبس وأبناء يعـــرب (١٨٩)

وبخضوع افريقيه وطرابلس امتد سلطان الموحدين من برقة حتـــى المغرب الاقصى ، وعمل عبد المؤمن على ضبط ثغورها واصلاح أقطارهـــا وتعيين عماله وقضاته عليها ، بل عمل على تكسير أراضيها حتى بلاد نول فى السوس الاقصى بالفراسخ والاميال طولا وعرضا وأسقط منه الثلث فى الجبال والانهار والسباخ والطرقات والحرمون والشعراء وما بقى قسطعليه الخراج وألزم كل قبيلة قسطها من الزرع والورق (١٩٠) .

وبعد أن أقام بالمهدية مدة ٢٠ يوم ، عاد الى مراكش (١٩١) مـــع سادة العرب وأولادهم ، لمتابعة اخضاعه لابن مردنيش فى شرق الاندلس حيث أقام مدة عامين خرج بعدها الى بلاد الاندلس .

---

(١٨٩) ابن عذارى ، البيان ، ج٣ ، ص ٤١ . ارجع الى القصائد الاخرى التى قيلت فى مدح عبد المؤمن لفتح المهدية وبلاد افريقية ص ٤٥ ، قول أبو بكر بن منحل ، قول ابن صاحب الصلاة ، وقـــول أبو العباس الجـــراوى ، ص ٤٦ — ٤٨ .

(٦) د . سالم : المغرب الكبير ، طبعة ١٩٦٦ ، ص ٧٩٤ .

(١٩٠) ابن أبى زرع ، القرطاس ، ص ٩٩ .

(١٩١) مجهول ، الحلل ، ص ١٢٥ .

الفصـــــل الثـــانى

العلاقـــات السياسية والحربيـــة بين الموحديـــن والايـــوبيين

١ ــ العلاقات الموحدية العربية حتى سقوط الدولة الفاطمية فى مصر

٢ ــ التحالف الثلاثى العربى المسوفى الغزى ضد الموحدين •

٣ ــ سفارة صلاح الدين الايوبى الى يعقوب المنصور الموحدى •

الفصـــل الثـانى

العلاقـات السياسيــة والحربيــة بين الموحدين والايــوبيين

كانت معارك الموحدين مع عرب برقة وأفريقية تعنى الصدام بشكل غير مباشر بالدولة الفاطمية فى مصر • غير أن هذه الدولة كانت تلفـظ آنذاك أنفاسها الاخيرة • ومن ثم فان استمرار معارك الموحدين مـع القبائل المشرقية كان يعنى أن هذه المعارك قد غدت ذات طرف سياسى واحد يتمثل فى الدولة الموحدية وخلافتها ، الامر الذى طرح على القبائل العربية القبول بأحد الخيارين : الانخراط فى صفوف الموحدين وقبـول سيادتهم السياسية والمذهبية أو عدم القبول بذلك فى اطار من التمرد القبلى المجرد من أى سند سياسى • ولم يكن أمام عرب افريقية بعد تجارب مريرة مـع الموحدين سوى الاخذ بالمبدأ الاول ، ولم يلبثوا أن دخلوا فى خدمة الموحدين غير أن طورا آخر من تاريخ العلاقات الموحدية بالمشرق قد استجد بقيـام الدولة الايوبية فى مصر محل الدولة الفاطمية • وظهرت الدولة الايوبية منذ نشأتها دولة فتية قوية ، سرعان ما اتسعت حدودها خارج مصر باسـم الخلافة العباسية • وأنعكست علاقات الموحدين بهذه الدولة بادىء ذى بدء على عرب برقة وأفريقية الذين ظهروا على رأس حملة قراقـوش ضـد الموحدين بالمشرق من محاولات لرأب الصدع بين الدولة الموحدية العتيدة والدولة الايوبية الناشئة فيما قام من اتصالات دبلوماسية بين يعقـوب المنصور الموحدى والناصر صلاح الدين •

(١)

العلاقات الموحدية العربية الى سقوط الدولة الفاطميـــة فى مصر

كانت بلاد المغرب هدفا لموجات من الهجرات العربية القادمة مـــن المشرق الاسلامى من بلاد الحجاز أو بادية الشام والعراق اما رغبـــة فى الجهاد ونشر الاسلام أو الاستقرار فى مناخ هادىء بعيدا عن أنظـــار العباسيين أو فرارا من الاضطهاد المذهبى الذى كانوا يتعرضون له على أيدى السلطات العباسية • وعلى هذا النحو قامت فى المغرب قوى سنيـــة مالكية وأخرى شيعية حسنية واسماعيلية هذا بالاضافة الى القـــــوى الاباضية والصفرية الخارجية الذين ساندوا الدعوة الاسماعيليـــــة فى المغرب ودعموا كيان الدولة الفاطمية فى مصر وحكموا باسمها فى افريقيـــة والمغرب الاوسط •

ولكن أكثر الهجرات العربية فعالية وقوة وأثرا فى الاحوال السياسية والاجتماعية فى المغرب هجرة القبائل الهلالية من بنى هـــلال وبنى سليم ورياح والاثبج وزغبة وهى وأن كانت مدفوعة بدوافع سياسية من حكومة موتورة عاجزة وهى الحكومة الفاطمية فى مصر وسببت كثيرا مـــــن الاضطرابات السياسية والاقتصادية فى المغرب طوال ما يزيد على قـــرن من الزمان الا أنها كانت خيرا على المغرب الاسلامى اذ ساعدت علـــى تعريبه وتخفيف حدة اللهجات المحلية •

أ — اتصال الموحدين بقبائل العرب فى افريقية فى عصر عبد المؤمـــن وولـــده يوسف :

وتم أول اتصال موحدى بالقبائل العربية أثناء عبور المهدى بـــــن تومرت بافريقية والمغرب الاوسط فى طريق عودته الى السوس فقد اتصل

بالثعالبة عرب الجزائر [١] ، فكانوا أول من ناصر الدعوة الموحدية [٢] .
ثم كانت حملة عبد المؤمن الاولى على أفريقية فى سنة ٥٤٦ هـ واستيلائه على الجزائر وبجاية وقلعة بنى حماد وعودته بصحبة الحسن بن على بن يحيى الصنهاجى الى مراكش (توفى الامير الحسن فى تامسنا سنه ٥٦٩هـ) على النحو الذى أوضحناه . وتجدر الاشارة الى أن القبائل العربية من الاثبج وجشم توافدت على عبد المؤمن أثناء تحركه بجيوشه نحو افريقية وبايعته فى نفس سنة ٥٤٦ هـ ، فعقد لابى الجليل بن شاكر أمير عرب الاثبج ، ولحباس بن مشيغر على عرب جشم ، وبعونهم استولى عبد المؤمن على بجاية وقلعة بنى حماد وقسنطينة ، وطرقت جيوش الموحدين أبواب افريقية بعنف [٣] . غير أن القبائل العربية من الاثبج وزغبة ورياح بنو قرة (من قبائل بنى هلال) قد راعها عظم نفوذ الموحدين بادرت بالاجتماع بزعامة يحيى بن العزيز بظاهر بجاية وتناست ما بين العرب والحماديين من أحقاد وثأرات ، وتحالفوا لمحاربة عبد المؤمن وانقاذ ملك بنى حماد وأنتهز صاحب صقلية هذه الفرصة ليدلو بدلوه ويدخل فى هذا الحلف ، فعرض عليهم نصرته وحاول مساعدتهم بخمسة آلاف فارس

---

(١) هم من بطون بنى معقل ، كانوا يسكنون أولا بجبل تطرى حيث مدينة اشير . ثم غلبهم عليه بنو توجين فانتقلوا الى فحص متيجة المجاور لمدينة الجزائر فسكنوه تحت حماية قبيلة ملكيش ، وقد تتبع ملوك بنى عبد الواحد هذه القبيلة بالقتل والسبى والنهب الى أن دثرت فى نهاية القرن الثامن الهجرى ، ولم يبق لها منذ ذلك التاريخ وجود . واليها ينسب العلامة الجزائرى سيدى عبد الرحمن الثعالبى (ت بالجزائر ١٤٧٠م) . عبد الوهاب بن منصور ، قبائل المغرب ، ج١ ، ص ٤٢٤ .

(٢) مما يذكر هذا الصدد أنهم أدوه حمارا فارها ليركبه وقد أهدى الحمار بدوره الى عبد المؤمن . السلاوى ، الاستقصا ، ج٢ ، ص ٩٠ .

(٣) ابن خلدون ، العبر ، ج٦ ، بولاق ١٢٨٤هـ ، ص ٢٠ .

من النصارى ولكنهم أندوا من الاستعانه بالنصارى ورفضوا عرضه [٤] .

ودارت المعركه بين العرب والحماديين وبين الموحدس بناحية سطيف عام ٥٤٧ هـ / ١١٥٣ م وأنتهت بهزيمة العرب لاول مرة منذ مائة عام بعد دخولهم الى أفريقية . فقسم عبد الله بن عبد المؤمن جميع أموالهم على عسكره ، ولكثرتها وزعها حين عودته فى فاس ومكناس وسلا [٥] . وبعيف صدمة هذه الهزيمة على العرب ، أخذوا فى مراجعة أنفسهم وقبلوا الدخول فى طاعة الموحدين ، وأذعنوا لحكمهم بل أن شيوخهم توجهوا الى الخليفة عبد المؤمن فى مراكش لاعلان ولائهم له فوصلهم وأكرمهم وأعادهم الى افريقيه معززين . وكان لذلك أعظم الاثر فى دخول العرب فى طاعته ، فاتخذ منهم جندا وأقطع رؤساءهم بعض تلك البلاد ثم أنه استنفرهم بعد ذلك للغزو بالاندلس فأجابه عدد كبير من العرب جاز بهم الاندلس سنة ٥٥٥ هـ [٦] .

وظل عبد المؤمن على وفاق مع العرب الى تاريخ عودته (٥٥٤ هـ / ١١٥٩ م) الى أفريقية لتحرير المهدية من سيطرة النورمان وضغطهم المستمر برا وبحرا على المسلمين . وأثناء حصاره للمهدية جاءته الانباء بعيث قبائل بنى سليم ، فعمل على استمالتها تارة بحثها على الجهاد وأخرى بالامداح والقصائد [٧] . ولما لم يستجب شيوخها وتمادوا فى

(٤) البيدق : أخبار المهدى ، ص ٧٦ .

(٥) ليفى بروفنسال ، رسائل موحدية ، رقم ٩ ، ص ٢٦—٣٢ . وهذه الرسالة موجهة الى أهل مراكش فى أول ربيع الثانى سنة ٥٤٨هـ يخبرهم فيها بغزوته فى البلاد الشرقية وظفر الموحدين على الاعراب بناحية سطيف . (البيذق ، المصدر السابق) .

(٦) د. سالم ، المغرب الكبير ، طبعة ١٩٦٦ ، ص ٧٩٤ .

(٧) من القصائد البليغة التى ألقاها القاضى أبو عمران التينملى صهر عبد المؤمن قوله :

عنادهم ، جرد عليهم جيشا بقيادة وزيره عبد السلام الكومي ، الــــذى استأصل شأفتهم من الجنوب التونسى ، فكانت هزيمة نائبة كبرى لهم .

وفى أعقاب انتصار الموحدين على النصارى فى المهدية سنة ٥٥٥هـ — ١١٥٩ م المعروفة بعام الاخماس ، بلغت عبد المؤمن قيام العرب من جديد بالثورة عليه بعد أن حالفوا على مصحب عثمان بالتزام الطاعة ، فسرح اليهم جيشا جرارا بقيادة ابنه عبد الله أوقع بهم بالقــرب من القيروان وقتــل زعيمهم محرز بن زياد الفارغى من بنى على احدى بطون رياح [٨] . كما استولى عبد الله على قابس وكان قد تغلب عليها بنو كامل من رياح ، وعلى قفصة أنتزعها من بنى الورد وطبرقة من مدافع بن علال وجبن زعوان مــن بنى حماد بن خليفة والاربس من بنى قناتة العرب [٩] .

ومنذ ذلك الحين انضوى العرب تحت لواء الموحدين وأصبحــــوا أعوانا لهم فاستغل عبد المؤمن الطبيعة القتالية عندهم للجهاد ضد الاعداء داخليا وخارجيا . فعاد من افريقية هذه المرة وبصحبته أعداد كبيرة منهم وصلت الى ألف من كل قبيلة [١٠] بعيالهم من بنى رياح وجشم وبنى عدى، حتى أن ابن صاحب الصلاة يصفهم لكثرتهم بالذباب والحصى [١١] ومن

أسليم دعـــوة ذى أخاء مرشــــد	هاد الى الحق المبين المسعد
وبـــذكر ما كان أســـلاف لــكم	فضـــلوا به أفعال كل مســـدد
بجهـــاد اعــــداء الاله ونصرهم	لرســـول ربهم النبى محمـــد

(ابن عذارى ، البيان ، ج٣ ، ص ٣٩ ، راجع أيضا قــول ابن المنخــل ص ٤٥) .

(٨) المراكشى ، المعجب ، ص ١٤٥—١٤٦ ، ١٤٨ .

(٩) ابن خلدون ، العبر ، ج٦ ، ص ٤٩٤ . د. سالم ، المغرب الكبير ، نفس الصفحة .

(١٠) ابن أبى زرع ، القرطاس ، ص ١٩٩ . حيث يقــول : « بعيـــالهم وأبنائهم ، وهم عرب جشم » .

(١١) ابن صاحب الصلاة ، المن بالامامة ، تحقيق التازى ، ص ١٤٤ .

الاشعار التى نظمت فى انتصار الموحدين على العرب ، خاصة عرب رياح قــول عبد الملك بن عيــاش :

ولمــا بعثت مــن جيشهــا نفــلا
ألقــى بنفســه فى كنــف منتهــب
صــدر بالعــرب العربــاء وانقلبت
عــن الحسام رياح شر منقلــب [١٣] .

الحق عبد المؤمن العرب الجندية لتوجيههم الى الاندلس ، وأمــر بتدريبهم على الفنون الحربية واعدادهم لجولاته المقبلة ، وأرســل بذلك الى عماله فى بلاد الاندلس يعلمهم بما سيقدمه هؤلاء العــرب ، وقسمهم الى كتائب وزعها على مختلف أنحاء المغرب ، وأخرى على الاندلس للرباط بالثغور . فنزلت بعض القبائل بقرطبة ، وأخرى باشبيلية ، وأبلى أبناؤها بلاءا حسنا بهرت انتصاراتهم الالسن ، فذكر أبو العباس الجراوى شاعر الموحدين فى دور العرب :

لــو راء مــوسى ما فعلت وطــارق
زريــا بمــا لهمــا مــن الاثــار
أتممت ما قــد أملــوه وفــاتهم
مــن نصر ديــن الواحــد القهــار
بعــراب خيــل عرقهــن أعــارب
مــن كــل مقتحم على الاخطــار

---

(١٣) ابن صاحب الصلاة ، نفس المصدر ، ص ١٦٢ . وهناك قصيدة اخرى مماثلة فى المعنى للشاعر أحمد بن سعيد الاشبيلى المعروف باللص (عبد الوهاب بن منصور ، قبائل المغرب ، ج١ ، ص ٣٩٨) .

أكـــرم بهـن قبائـــل اقلالهـــا
في الحـــرب يغنيهـا عـــن الاكثـــار
أنظـــر اذا اصطفت كتائبهـــا الـى
ماتحمـــد الكتـــاب في الاسطـــار
لـــو أنهـا نصرت عليـا لم تـــــرد
خيل ابن حرب ساحـة الانبـــار (١٣)

ولم تنته علاقة العرب الهلالية بدولة الموحدين بوفاة عبد المؤمـن في ١٠ جمادى الآخرة ٥٥٨ هـ / ١٧ مايو ١١٦٣ م ، بل ظلت تلك العلاقـات قائمة في عهد خلفه أبي يعقوب الذي سار على نفس سياسة أبيـــه في استجلاب العرب واستئلافهم والحاقهم بالجندية وتسخير طاقاتهم الحربية من أجل الحفاظ على الامن في الداخل والجهاد في الاندلس . فكان يرسل لهم مخاطباته شعرا ونثرا (١٤) فتسرى فيهم مسرى السحر في الجسد ، فيقبلون أزرافا وجماعات . وتشهد لهؤلاء العرب حين دخولهم الى المغرب الاقصى وبلاد الاندلس خلوص السريرة وصدق العزيمة ، وحسن النيـة على خدمة الدولة ومجاهدة الاعداء (١٥) . ومن ألطف ماكتب لاستدراجهم

---

(١٣) يعتبر المؤمن أول من جلب العرب من افريقية الى المغرب . ويذكرنا استخدام عبد المؤمن لهم قول الشاعر أبو العباس الجراوى مهنئا بالانتصـار الذى أحرزه العرب فى وقعة فحص بلقون سنة ٥٥٦هـ .

أعليت دين الواحـد القهـار بالمشرقيـة والقنـا الخطار

(ابن صاحب الصلاة ، المن بالامامة ، ص ١٧٢) .

(١٤) ابن عذارى ، المصدر السابق ، ص ٧٦ .

(١٥) لا يقصد بالاعداء المسيحيين فقط بل خصوم الدولة أيضا ومنهم ابن مردنيش فى ثورته عام ٥٦٠هـ ، فاستعد له أبو حفص أخ الخليفة فى قوة عظيمة وأمر بالنفير اليه والاسراع بالموحدين من الصابرين ونخبة الفرسان الابطال من العرب الرياحيين والاثبجيين . أنظر : ابن صاحب الصـلاة ، المن بالامامة ، ص ٢٧٠ .

الى الدخول الى المغرب تلك القصيدة التى أنشدها أبو بكر بن الطفيل فى عام ٥٦٦ هـ / ١١٧٠ م يشحذ هممهم الى الغزوة الكبرى فى الاندلس [١٦]

ولما لم يستجب العرب للدعوة سريعا ألحقهم بقصيدة أروع من السابقة فصاحة وبلاغة يستحثهم على سرعة الوصول ، وفيها يقول عبد الله بن عياش :

أقيموا الى العلياء هوج الرواحل
وقودوا الى الهيجاء جرد الصواهل
بنى العم من عليا هلال بن عامر
وما جمعت من باسل وابن باسل
فطيروا اليها يا هلال بن عامر
ثقالا خفافا بين حاف وناعل [١٧] .

وبوصول تلك القصائد التى هزت الهمم العربيه أقبلوا من كل فج يتزاحمون على التجمع للجهاد الاكبر فى الاندلس فتجمع فى بجاية مايقرب من ٤ آلاف فارس حاشا المشاه وقد حملوا معهم الميرة والسلاح والدواب ما يعجز حصره ، بالاضافة الى من انضم اليهم من عرب تامسان وعدتهم الف فارس من العسكر النظامية مشاة وركبانا . وبعد وصولهم الى مراكش وما تم من حفلات الضيافة وتوزيع المنح والصلات ، تم تمييز

---

(١٦) هى قصيدة طويلة من ٤٤ بيتا ، تمتلىء بالالفاظ الحماسية ، فأسرعوا الى تلبية الدعوة وفيها يستحثهم على النهوض فهم لا يخيبون رجاء المسلمين ولا يخلفون وعدا . (ابن صاحب الصلاة ، المصدر السابق ، ص ٤١١—٤١٢ . ابن عذارى ، البيان ، ج٣ ، ص ٨٨—٨٩ . عبد الوهاب بن منصور ، المرجع السابق ، ص ٤٠٣—٤٠٤) .

(١٧) ابن صاحب الصلاة ، نفس المصدر ، ص ٤١٥ ، ومدى تقربه لهم ص ٤١١ . ابن عذارى ، نفس المصدر ، ص ٩٠ .

العرب بمعرفة وضبط أنسابهم ، وكان عدد الفرسان العرب الذين عبروا البحر الى الاندلس فى أول رمضان ٥٦٦ هـ / ٨ مايو ١١٧١ م عشرة آلاف فارس شاركوا فى عدد كبير من المعارك كما أسهموا فى عملية البناء والتشييد (١٨) .

هذا وقد نعم عرب المغرب الاقصى والاندلس بحياة الاستقرار بينما ظل اخوانهم فى افريقية على عادتهم من الفوضى والاضطراب يظهرون مالا يبطنون ، دعة وأمانا وسكونا فى ظل قوة الدولة ، وفوضى وفتنا واضطرابا حين يشعرون بضعف قبضة الدولة . وهذا ما حدث بعد وفاة الخليفة يوسف بن عبد المؤمن وخلافة ابنه يعقوب المنصور عام ٥٨٠ هـ / ١١٨٤ م .

ب — سياسة المنصور مع عرب افريقية :

تجدد عبث العرب بعد وفاة ابى يوسف يعقوب ويتمثل ذلك فى تحالفهم مع على بن اسحاق بن غانية (١٩) الذى قصد بجاية حين راسله

---

(١٨) ابن صاحب الصلاة ، نفس المصدر ، ص ٤١٧ ، والوصف الكامل للاستقبال والمبايعة والاحتفال باطعامهم وتمييزهم ص ٤٣٠—٤٣٤ . ويذكر ابن عذارى عدد ما وصل من افريقية من الخيل ٤ آلاف فرس ، و ١٥٠ جملا من المال الصامت ، وعند التمييز بدأ بقبيلة زغبة على أساس أنها أقدم القبائل وصولا الى المغرب . وبعد ضبط أنسابهم اجتمع للموحدين ١٠ آلاف فارس وللعرب ١٠ آلاف فارس المتطوعة (نفس المصدر ، ص ٩٢) .

(١٩) ينتمى بنو غانية الى قبيلة مسوفة ، وهم أبناء عمومة قبيلة لمتونة ، وهم من بطون صنهاجة الكبرى ، وهم أبناء على بن يوسف المسوفى . وقد أنجب على هذا ولديه هما يحيى ومحمد ، وكان يحيى من قواد المرابطين ، ويقول المراكشى فى يحيى بن غانية « كان حسنة من حسنات الدهر .. وكان مع هذا شجاعا فارسا .. اذا ركب عد وحده بخمسمائة فارس .. » واستقر محمد فى جزر البليار ، حتى أنه كان يغزو بلاد الروم مرتين فى كل سنة فقوى أمره ،

جماعة من أهلها ونمكن دفضل أسطوله من التغلب عليها فى عام ٥٨١ هـ / ١١٨٥ م . وعلى أثر دخول الميروقيين بجاية فر منها أبو الربيع أخو أبى موسى (هما عما الخليفة يوسف يعقوب) الى تلمسان بعد أن خذلته العرب وانضمت الى ابن غانية الذى تتبع أبا الربيع ، فاستولى على الجزائر وأقام عليها ابن أخيه يحيى بن طلحة ثم ضم مليانة وأسند ولايتها الى قائده يدر بن عائشة ثم عاد الى بجاية [٢٠] .

هذا وقد شنع الموحدون بابن غانية وأتهموه بالكفر ووصموه بالغدر والغى لاقدامه على السيطرة على كل افريقية والقسم الشرقى من المغرب الاوسط من ذلك قولهم ... : « .. احزاب الشيطان وجموعه ، وبدرجماعة الخبيث وجموعه ، والكفر البائد » ، ويذكر عنه فى موضع آخر : « .. وقد علمتم ما كانت عليه حالة الكافر الغادر ، اللعين الخائن الخاسر ، بقية الحثالة الغاوية وسؤر الكفر الدائر ، شقى ميورقة — لعنه الله — من الانكماش فى جزيرته » [٢١]

ولم يكد على بن اسحاق يستقر ببجاية حتى أقبل عليه الناس يبايعونه بالامارة ودخلوا فى طاعته ولم يلبث أن دعا للخليفة العباسى الناصر فى

وهابه ملوك أوربا ، وتوفى سنة ٥٧٩هـ . ولم تخضع شوكة بنى غانية الا فى عهد الناصر الموحدى خاصة بحيى بن غانية . المعجب ، ص ١٧٦—١٧٧ .

راجع فى ذلك الحميرى ، الروض المعطار فى اخبار الاقطار ، ترجمة ونشر ليفي بروفنسال ، القاهرة ، ١٩٣٧ ، ص ١٨٨—١٨٩ .

— Alfred Bel; Les Banou Ghanya, Paris, 1903, p. 71.

د. سالم ، المغرب الكبير ، (طبعة ١٩٦٦) ص ٨٠٢—٨٠٣ .

(٢٠) ابن عذارى ، البيان ، ج٣ ، ص ١٤٦—١٤٨ .

(٢١) لبفى بروفنسال ، رسائل موحدية ، رقم ٢٩ ، مؤرخه فى ٥ ربيع الثانى سنة ٥٨١ هـ الى طلبة اشبلية بعلمهم بغزوة الموحدين على ابن غانية ، وفتح مدبنة بجاية ، وهى طوبلة ، ص ١٦٨ —١٨٠ .

الخطبة وسير ولده مع كاتبه عبد البر بن فرسان للخليفة العباسى (الناصر لدين الله) طلبا للخلع والاعلام السوداء فارسلت اليه • وجاءت تفاصيل حركة ابن غانية فى رسالة موحدية نذكر منها ما يلى : « •• ولما عنـــت للفاسق الفرصة ، اغتنم بزعمه انتهازها •• فداخل أوباشا ممن كان ببجاية ممن رق دينه ، وضعف ايمانه ويقينه ، وزان على قلبه شيطانه المضـــل وقرينه ، فيسروا له تمهد صهوتها ، وأعانوه على تسنم ذروتها ؛ ووصلوا بسببه الضعيف أسباب قهرها وغلبتها • ولما قر فيها قراره ، وانتشر بهـــا فساقه وفجاره ، واجتمع له من أشباهه فى الجهالة ، وأعوانه فى الضلالة ، وغطى على بصيرته العمياء جهله وضلاله فتطوف على الجزائر ومليانـــة وأشير والقلعة وكر منها الى بجاية » [٢٢] •

وعندما بلغت أبا يعقوب يوسف هذه الاخبار المزعجة وبلغه خـــذلان العرب للموحدين وانضمامهم الى على بن اسحاق بن غانية وسيطرة هذا الاخير على معظم افريقية وقسم من المغـــرب الاوســـط حتى قسنطينة استعد لمنازلتهم • فسير السيد أبا حفص بن السيد أبى زيد لمحاربة ابن غانية كما عقد لمحمد بن أبى اسحاق بن جامع على الاسطول الذى تحرك من سبتة [٢٣] بقيادة أبى محمد بن عطوش وأحمد الصقلى [٢٤] • وبينما خرجت قوات السيد أبى زيد ابن عم الخليفة أبى يوسف يعقوب المنصور الى تلمسان لتفقد حصونها ومن هناك تقدمت الى مليانة ، كانت أساطيل الموحدين تستولى على ثغر الجزائر ، ووقع يحيى بن طلحة بن غانية ويدر

---

(٢٢) ليفى بروفنسال ، المصدر السابق ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ١٩٢ ، المقرى ، نفح الطيب ، ج٢ ، ص ٦٤٢—٦٤٣ •
(٢٣) ليفى بروفنسال ، نفس المصـــدر •
(٢٤) د• سالم ، المغرب الكبير ، ص ٨٠٣ •

بن عائشة أسيرين فى يد ابن جامع ثم تقدم أحمد الصقلى الى بجاية وافتتحها وفر يحيى بن غانية الى أخيه اسحاق وكان يحاصر قسنطينة ، فرفع الحصار وولى الادبار الى قلب الصحراء والموحدون وراءه . أما الموحدون فقد قبضوا على أنصار على بن اسحاق وقتلوا البعض ووزع الباقون مع الاماء على الموحدين . ويأتى وصف هذا الحدث كما يلى :

« ... وكان طلبة الاسطول اجتمعوا بالموحدين بتلمسان ورسموا لهم أن يكون اجتماعهم بالجزائر .. فتيسر لهم مرامها ، وبادر أهلها الى فتح أبوابها ، والقبض على من أمكنهم ممن كان عندهم من أوباش الضلالة وأوشابها ، وبان للشرذمة اللعينة سوء مصيرها ومآبها . وكان ممن حصل فى ثقاف القهر وتمكنت من عنقه الذليلة ربقة الاسر ، ابن عم الشقى الغوى وجماعة من أعيان شياطينه الرجماء ، وجملة من كبار أصحابه الزعماء .. فسارع الاسطول بالتوجه ، فهو أمر الله المنجد على كل محارب ، المظهر على كل مطالب ومغالب ، الموعود بالاستيلاء على ماروى من المشارق والمغارب .. ولما سهل الله لهم استعادة بجاية وفتحها ، حتى انتهوا الى أوائل متيجة .. وبقى الخائن الخاسر بجهة قسنطينة مسلوبا محروبا مغلولا منكوبا » (٢٥) .

ولقد هنأ الشعراء الخليفة المنصور بذلك الفتح المبين ؛ فقال الشاعر أبو العباس بن عبد السلام :

لواؤك منصور وسعدك غالب

وحزبك للاعداء عنك محارب

---

(٢٥) ليفى بروفنسال ، المصدر السابق ، والصفحة .

لقد نكلت أم المنـــادى وغـــــررت
مبـادى مــن أحوالــه وعـــواقب
سمــــاء ستراق السمع مــن وهداتــه
ودون سمـــاء الملك شـــهب ثــواقب
تــلاقى عليــه البــر والبحــر تـــرتمى
سفينــا الى استيصالـــه وكتائب (٢٦)

أما ابن غانية فقد زحف الى قفصة واستولى عليها ثم حاصر توزر فلما استعصت عليه تركها ومضى الى طرابلس حيث التقى بقراقوش الغزى المظفرى واتفق معه على التحالف ضد الموحدين كما نجح فى استمالة قبائل من بنى سليم من العرب النازلين ببرقة وتجمع لديه المنحرفون علـــى الموحدين من رياح وجشم والاثبج ثم عاد ابن غانية فى السنة التاليـــة (٥٨٣ ه) ونزل بأطراف طرابلس يؤلف فيها العرب • ووصلت الكتب الى المنصور بذلك فأستعد فى سنة ٥٨٢ ه / ١١٨٦ م ورفض استصحــــاب عرب المغرب معه هذه المره وأكتفى منهم ببعض أشياخ رياح كبنى زيــان لقدم هجرتهم الى المغرب وصدق نصيحتهم (٢٧) •

وكان ابن غانية قد سيطر بفضل حلفائه من العرب والغز على قفصة وكثير من بلاد الجريد وحصونها وأقام الدعوة العباسية فيها كما أفتتـــح تـــوزر •

وعندما وصل المنصور الى تونس سير جيشا بقيادة يوسف بن أبــى حفص عمر وعمر بن أبى زيد لمحاربة ابن غانية ووقع الاشتباك فى موضع

---

(٢٦) ابن عذارى ، البيان ، ج٣ ، ص ١٥١ •
(٢٧) السلاوى ، الاستقصا ، ج٢ ، ص ١٥٨ •

يقال له عمرة . فانتصر ابن غانيــه وحلفائه الاعــزاز والعرب انتصـــارا حاسما وفيها قتل جملة من أعيان الموحدين من بينهم عمر بن أبى زيد نفسه وعلى بن يغمور وفرت فلال الموحدين الى قفصة ولاذ معظمهم بتـــونس . وقرر المنصور الاقامة فترة بتونس لاعادة ترتيب الجيوش وتمييزهـــا بسبب ما وصلته من أنباء مخالفة مدينة قفصة من بلاد افريقية عليــه ، فخرج بنفسه لمحاربة ابن غانية والتقى معه فى حامة دقيوس فى شوال من نفس السنة ٥٨٢ هـ / ١١٨٦ م فانهزم على بن غانية وتمكن المنصور مـــن فتح قفصه وقابس وتوزر [٢٨] ثم أوقع بعرب افريقية وهزمهم هزيمـــة نكراء استباح جلهم وأموالهم فأتوه طائعين صاغرين ونقل عددا منهم الى المغرب [٢٩] .

أما على بن غانية فقد قتل فى بعض حروبه مع نفزاوة فى سنة ٥٨٤ هـ وخلفه أخوه يحيى بن اسحاق [٣٠] فواصل مضايقة الموحدين .

وهكذا تراوحت العلاقات الموحديه العربية بين التطويع الجبـــرى والاستئلاف الودى . كذلك تراوحت مواقف العرب بين القبول بالانخراط

---

(٢٨) د. سالم ، المغرب الكبير ، ص ٨٠٥ .

(٢٩) ترك المنصور عرب بنى سليم فى أماكن سكناها بأرض افريقية ولكنه نقل من بنى هلال وبنى جشم أعدادا كبيرة الى المغرب الاقصى حين أتوه طائعين فى سنة ٥٨٤ هـ . فأنزل قبيلة رياح من بنى هلال ببلاد الهبط — وهى ما بين قصر كتامة المعروف بالقصر الكبير وتسمى البـــوم بسهل الغـــرب .. ، والى أزغار البسيط وهى السهول الممتدة من طنجة شمالا الى سلا على ساحل البحر المحيط، واستقروا بها وطاب لهم المقام . وأنزل قبائل جشم بلاد تامسنا البسيط ما بين سلا ومراكش جنوبا ، وهى أوسط بلاد المغرب الاقصى وتضم السهول الممتدة من نهر أبو رقراق الى نهر أم الربيع . الســـلاوى ، الاستقصـــا ، ج ٢ ، ص ١٦٨—١٧٠ . بن عبود ، تاريخ المغرب ، ص ١٥٢ .

(٣٠) ابن خلدون ، العبر ، ج٦ ، ص ٣٩٦ وما يليها . د. سالم ، المغرب الكبير .

فى الجندية الموحدية وحياتها الاقطاعية العسكرية فى أراضى الثغـــور الموحدية وبين العودة للحياة القبلية والقبــول باغــراءات معــارك الكر والفر الصحراوية تأييدا للقوى الخارجة على الموحدين ممثلة فى الميورقيين وبقايا أسرة المرابطين .

ومع ذلك فقد كانت قوة الخلافه المـــوحدين تمثل قطب الجـــاذبية السياسة الاقوى والمتحكم فى تحديد الولاء النهائى للقبائل العربية أثناء أحداث تلك المـــرحلة التاريخيـــة التى بلغت خــــلالها الدولتان الفاطمية والعباسية أدنى درجات الاعياء والضعف . ولكن الامر يتبدل عندما تحل الدولة الايوبية محل الدولة الفاطمية وتدين فى ولائها السياسى للخلافـــة العباسيه وتجدد دماء القوة العسكرية للمشرق الاسلامى وتوحد خلافته ، ويظهر نشاط هذه القوة الفتية وتدخلها فى التراب المغربى بالفعل ممثلا فى تلك الحملة التى قام عليها القائد المعروف ببهاء الدين قراقوش الاسدى الغزى وأمكنه أن ينشىء حلفا ثلاثيا (أيوبيا — عربيا — ميورقيا) بأسم الخلافة العباسية .

(٢)

التحالف الثلاثى : العربى المسوقى الغزى ضد الموحديـــن

كان بهاء الدين قراقوش [٣١] المظفرى التقوى مولى تقى الديـــن عمر [٣٢] ، ابن أخ صلاح الدين ونائبه على مصر قد خرج عام ٥٧٥ هـ / ١١٧٩ م غازيا الى بلاد المغرب ومن هناك كتب الى مولاه تقى الدين عمر

---

(٣١) راجع فى ذلك ، ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ج٤ ، ص ٩١—٩٢ .

يقول : « ان البلاد سايبة » [٣٣] . ووجدت هذه الدعوة صدى طيبا لـدى تقى الدين الذى كتب بدوره يستأذن السلطان صلاح الدين فى الخـروج ويسأله : « ألا يمنعه من سلوك مسلكها » . ويزودنا صاحب المضمـار (المنصور محمد بن تقى الدين عمر) بحوادث هذه الحملة وفقـا لترتيب السنين ففى سنة ٥٧٥ ﻫ (١١٧٩ م) يذكر أنه خرج قاصدا طرابلس حتى وصل الى حد نفوسه وفيها تلاقى مع أشياخ وأعيان قبائل دباب الذين وصل عددهم حوالى ٥ آلاف وهى جموع غفيرة من عرب بنى هلال بالاضافة الى ما كان معه من الفرسان والاجناد من الاجناس التركية والكرديـة والاكادشبة وصل عددهم الى ٤٠٠ فارس [٣٤] .

وقام بهاء الدين قراقوش بافساد العرب على أهليهم ، فأخذ هـو جانب دباب وزعامتهم فى حميد بن جارية ضد زغب وزعيمهم ناصر الدين ابراهيم ، ويتضح ذلك فى قول قراقوش لصاحبه حميد : « يا أمير ، انمـا قصدى أن أستفسد جماعه من الاتراك الذين عند ابراهيم ويقل أصحابه وتقوى عليهم » [٣٥] .

وأراد بهاء الدين قراقوش القضاء على ابراهيم زعيم زغب بواسطة دباب غير أن الجانبين العربيين (دباب وزغب) أقدما على نهب خبـاء

---

(٣٢) عينه صلاح الدين نائبا عنه فى مصر ، وفى رجب من سـنة ٥٧٩ﻫ طلبه فى القدوم الى الشام فغضب وأعلن عن عزمه على المسير الى برقة وديار المغرب ليلحق بفتاة بهاء الدين قراقوش . انظر : ابن خلكان ، نفس المصدر ، ج٣ ، ص ٤٥٦—٤٥٨ . ابن خلدون ، العبر ، ج٦ ، ص ١٩١—١٩٢ .

(٣٣) أبو شامة ، كتاب الروضتين ، تحقيق محمـد حلمى محمـد أحمد ، القاهرة ، ١٩٦٢ ، ج٢ ، ص ٧٠ . ابن واصل ، مفرج الكروب فى أخبـار بنى أيوب ، نشر د. الشيال ، القاهرة ، ١٩٥٣ ، ج٢ ، ص ١٨٠ .

(٣٤) ابن الاثير ، الكامل فى التاريـخ ، ج١١ ، ص ١٤٦ . ابن خلدون ، العبر ، ج٦ ، ص ١٩١—١٩٢ . التجانى ، الرحلة ، ص ١١١—١١٣ .

(٣٥) حسن حبشى ، مضمار الحقائق ، ص ٣٥ .

قراقوش وابراهيم على حد سواء • ولما شاهد جند قراقوش الاتــــراك هذا الموقف الذى تضامن فيه عرب دباب وزغبة خافــوا أن يفتكوا بهم ، فهرب بعضهم وبالتالى دارت الدائرة على بهاء الدين قراقوش الــذى لم يجد شيئا فى خبائه رغم أنه كان يملك من الاثقال الشىء الكثير • ويحصى صاحب المضمار ما كان لديه من الجمال فيذكر : « أن الذى كان تحت ثقله لنفسه ألفا وثلاثمائة جمل ، وأما الاتراك فللواحد أربعون جملا ، وثلاثون جملا وأقل وأكثر » [٣٦] • ولم يبق له ولا لجنده ملبس ولا مأدل حتى أنه شكا الى حميد بن جارية يومه وما فعلوه به ، فتواعدهم حميد بماينظرهم، وأمد قراقوش بحاجته . ووصل قراقوش الى طرابلس فى ٤٠ فارسا ونزل على مدينة ناجرة قرب طرابلس • ولما رأته زغبة خافت وحاولت الصلــح بين أبراهيم وقراقوش ، وفعلا تم الصلح على حد فاصل معلوم بيــــن قراقوش وبين زغبة هو نفوسة ، فما كان شرقها لبهاء الدين قراقــــوش وما كان غربها فلابراهيم • وظل قراقوش بقية السنة (٥٧٥ هـ) فى طرابلس أمنت فيها دباب من غارات زغب ، الا أنها استغلت هذه الهدنة وغــدرت بالاتراك من غوات قراقوش • فكانت تسرقهم وتقتل من تلقاه من الاتراك منفردا • وازاء ذلك قرر قراقوش الانتقال الى قابس من أرض افــريقية فى سنة ٥٧٦ هـ (١١٨٠ م) •

والواقع أن القرار الذى اتخذه قراقوش بالانتقال نحو قابس انما تم بعد أن أمن جانب ابراهيم زعيم زغب فقد أخذ عليه المواثيق والعهــود بعد أن غدر الواحد منهما بالآخر ، وقبل أن يرحل قراقوش خاطب ابراهيم

---

(٣٦) د. حبشى ، المضمار ، ص ٣٧ .

بقوله : « تركت هذه البلاد وأهلى بقلعة أم العز (هذه القلعة تطل على شرق جبل نفوسة) فى وديعتك وأنا متوجه ، فان فتح الله تعالى على واستغنيت عنها أعطيتك الجميع »(٣٧) •

ثم مضى قراقوش غربا نحو بلاد افريقية وأوغل فيها وأخــذ يفتتح الحصون والقلاع مستغلا ثورات العرب على بنى عبد المؤمن وتمــردهم عليهم ، فيؤلب القبائل بعضها على بعض كما حــدث بين عثمان وفــروخ صاحبى قلعتين بمدينة دمر فطلب فروخ مساعدة قراقــوش ضــد عثمان الذى استنفز بدوره البربر بقوله : « ان هؤلاء الغز قافلة » لكثرة من انحاز الى جانب قراقوش وخوفا منه بسبب قوته وبطشه بأعدائه • وحــدث أن دخل قراقوش قلعة عثمان وأعمل السيف فى رقاب أهلها من البربر كما بطش بأهل المناطق المحيطه بجبل نفوسة ومطماطــة وملاقة بحجة أنهم قــوم خوارج • وطلب عندان الامان ، فأمنه قراقوش بشرط أن يظفــر بالجبل وقسمه اقطاعات للاجناد • وأمن من بقى من أهل القلعة مقابل مبلغ معين من المــال ، ثم رحل قراقوش الى قلعة أخرى تسمى « أم لامة » يبلــغ عدد سكانها البربر ما يزيد على ٣٠ ألف راجل ، فقاتلهم فى سنة ٥٧٦هـ — ١١٨٠م وغنم غنائم كثيرة •

وفى سنة ٥٧٧هـ — ١١٨١م ارتحل قراقوش الى افــريقية(٣٨) فنزل على الاربس(٣٩) واجتمع معه عدد من العرب من مرداس والرجالة (وهم من أكبر بطون رياح) ، وجال البلاد ثم عاد الى قفصة بعد أن كاتبه بعض

---

(٣٧) د. حسن حبشى ، المضمار ، ص ٥٣ •
(٣٨) أبو شامة ، الروضتين ، ج٢ ، ص ٢٧ • ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص ٣٠ •
(٣٩) ابن خلدون ، العبر ، ج٦ ، ص ٤٩٤ •

شيوخها ووعدوه على ليلة معينة لدخولها انتقاما من الموحدين الذين كانوا قد انتزعوها عنوة من يد أصحابها بنى الرند فى سنة ٥٧٥هـ • ولكن فى تلك الليلة الموعودة لم يستطع قراقوس ومن معه من الشيوخ والاعراب اقتحام أسوار المدينه ، فقد شعر بهم الموحدون فنازلوهم وأوقعوا بهم الهزيمة •

وفى أواخر سنة ٥٧٧هـ — ١١٨١م نزل قراقوش موضعا قريبا من القيروان يسمى سكة وبصحبته من العرب سليم الشريد فى حوالى ألف فارس كما وصل اليه حميد بن جاريه زعيم دباب فى ٢٠٠ فارس • وما أن تقابل القائدان العربيان حتى نشب بينهما القتال لخصومة قديمة بينهما • وانحاز قراقوش فى هذا القتال الى حميد ، بينما انسحبت مشايخ الشريد وتركوه وحيدا يلاقى مصيره أمام قوات الموحدين الذين ظهروا آنذاك بقيادة أبى موسى بن عبد المؤمن فى نحو عسره آلاف فارس وعشرة آلاف راجل • فصالح قراقوش قوات الشريد وساعت هذه القوات الى الاجتماع معه وهجموا على الموحدين هجمة واحدة انكسر فيها الجيش الموحدى • وفى هذه المعركة غنم قراقوش وأسر عددا كبيرا من قواد الموحدين منهم ابن مثنى صاحب ديوان افريقية والقاضى ابن ماسكة قاضى افريقية وجماعة كبيرة غيرهما حاولوا فداء أنفسهم بمبالغ من الاموال[٤٠] • وقسم قراقوش الغنائم على جنده الاتراك والاكراد • وفى أثناء تقسيم الغنائم وصلته الانباء بنكث ابراهيم بأهله فى قلعة أم العز ، فقرر العودة • وفى طريقه الى طرابلس تلقى طاعة كل من دباب وزغب • أما ابراهيم فلم يسعه بعد سلسلة من المحاولات للوقوف ضد قراقوش الا أن يطلب العفو ، فشرط

---

(٤٠) د. حبشى ، المضمار ، ص ٧٠ .

عليه قراقـوش أن يتوجـه الى طـرابلس ومنها فى مـركب الى الديار المصرية[٤١] .

وفى طرابلس تمت الحيلة لمنع سـفر ابراهيم الى مصر عنـدما حثه والى طرابلس (ابن مطروح عبد المجيد) ، الذى كان على ولائه للخليفـة الموحدى يوسف بن عبد المؤمن ، على التوجه الى المغرب . وفعـلا انتقل ابراهيم فى مركب الى تونس حيث تلقاه واليها عبد الواحد وسـيره الى مـراكش .

ثم حاول قراقوش الاستيلاء على قابس ، فاشتبك مع أهلها البربر وأوقع بهم الهزيمة . وغنم منها الكثير من الامـوال والاقوات وزعها على أصحابه وأجناده . ثم التقى قراقوش بعدها مع على بن اسحاق بن غانية وتحالف معه ضد الموحدين وقد تم هذا التحالف على أسس قـوية قوامها الرابطة السياسية المنبثقة من الولاء للخلافة العباسـية ، والاتفـاق على تقسيم المغرب بين الغز المماليك والميورقيين[٤٢] . ويعبر رسول ابن غانية الى قراقوش عن ذلك بقوله : « اننا قوم من بنى العباس ونريد دولتهم ، ونحن نريد أن نكون واياك مجتمعين »[٤٣] .

وبعد هذا النجاح المستمر لحملة قراقوش ، استدعاه المنصور أخ سيد

---

(٤١) د. حبشى ، نفسه ، ص ٧١ .

(٤٢) قام اتفاق التقسيم المذكور على أساس أن يكون لقراقوش البـلاد من بونة شرقا ولابن غانية من بونة غربا . د. حبشى ، المضمار ، ص ٢٢٩ .

(٤٣) ومن أجل تحقيق ذلك الاجتماع أرسل اليهم قراقوش بهاء الديـن ساروج ومعه سبعون فارسا من أجناده الاتراك الذين وصـلوا اليهم سريعا . وكان أعوان ابن غانية قد أخفقوا فى الاستيلاء على توزر وما حولها ، الا أن استبسال الجند الاتراك أدى الى الاستيلاء عليها (د . حبشى ، نفس المرجع ، ص ٢٢٩) .

الناس (مقدم ورئيس نفزاوة) ، وأطاعه بنو يتسترى أعداء المنصور فولى عليهم مملوكا يدعى حراج وبدلك قوى مركز قراقوش • وزاد من قــوته أيضا ما كان يصـــل اليه من امــدادات متواصـــلة من مصر من ممـــاليك وأكـــراد[٤٤] •

وكان على ابن اسحاق بن غانية قد سيطر على كل افريقية عدا تونس والمهدية بالاضافة الى القسم الشرقى من المغرب الاوسط حتى قسنطينة • وأصبح التحالف الثلاثى العربى الغزى الميورقى يشكل خطرا جاثما على دولة الموحدين ، فقرر المنصور التصدى لهذا الحلف والقضاء على بنى غانية قضاء مبرما فخـــرج على رأس حمـــلة كبرى فى عام ٥٨٢هـ ــ ١١٨٦م الى افريقية واشتبك مع ابن غانية وحلفائه فى حامة دقيوس فانهزم ابن غانية وفر الى صحراء افريقية وتمكن المنصور بدلك من توجيه ضربة قاصمة الى رباط التحالف بينه وبين قراقوش[٤٥] •

ونستدل من نص رسالة يعقوب المنصور الى طلبـــه مـــراكش عام ٥٨٣هـ ــ ١١٨٧م[٤٦] أن الحملة الموحدية قد بلغت القيروان وقفصة وقابس

---

(٤٤) وصل الى قراقوش من مصر جماعة من أتباعـــه يرأسهم شـــجاع الدين بن شكل وبالتالى زاد عدد جنده الى ٨٠٠ فارس من الاتراك والاكراد ، وقد بذل لابن شكل ومماليكه الخبر الكثير حتى أنه وعده بقوله : « اذا فتح الله البلاد وملكناها أعطيك ما هو أكثر من هذا وأعظم » بعد أن خلع عليه وأعطاه ٥٠ جملا ، ١٠ من الخيل ، ٨ آلاف دينار . أنظر : د . حبشى نفس المرجع ، ص ١٦٧ــ١٦٨ . ابن عبد الحق ، مراصد الاطلاع ، تحقيق البجاوى ، القاهرة ، ١٩٥٤ ، ج ١ ، ص ١٩٩ ، ج ٣ ، ص ١٣٨٢ .

(٤٥) د . سالم ، تاريخ المغرب فى العصر الاسلامى ، ص ٧١٨ــ٧١٩ . أنظر الملحق ، رقم ٥

(٤٦) ليفى بروفنسال ، رسائل موحدية ، رقم ٣٠ ص ١٨٠ــ١٩٠

لمنع « الاشقياء الغربيين .. واخوانهم فى الضلالة الميورقيين .. وصعاليك سليم وذؤبانهم وكل من وافقهم على الضـــلالة من الاعـــــراب » من أن « يستقلوا » بالجهات الافريقية . أما « بنو النسقى قراقوش وأهله » فى قابس وقدسبتهم الحصينة بها ، فقد « حصل .. وبنوه وماله غنما لاولياء الله تعالى ونفلا وملكها لطائفة الحق وخولا » . وهذه الاوصاف فى حد ذاتها توجز فى وضوح بيـــان أسباب الحملة الموحـــديه ونتائجها على افـــريقية والوجود الايوبى فيها فى شخص رجال حملة قراقوش .

وبعد عام ٥٨٢هـ — ١١٨٦م تكاد أخبار قراقوش التى نشرها المضمار تتوقف على الرغم من الحقيقه باستمرار احتفاظه بالمناطق الممتدة من جبل نفوسة ومطماطه وبلاد نفزاوة بما تبقى له من أعراب وما كان ينضاف اليه من أتراك وأكراد يفدون من مصر[٤٧] .

واذا تتبعنا بقية أخبار على ابن اسحاق بن غانية ، بعد قفول المنصور عائدا الى المغرب وجدنا أنه نزل فى بلاد الجريد ، وهناك سقط صريعـــا فى بعض حروبه مع نفزاوة فى سنة ٥٨٤هـ — ١١٨٨م ، وخلفه أخوه يحيى بن اسحـــاق[٤٨] . ولم يتردد يحيى فى مضايقة الموحدين كما كان يفعل أخوه على من قبل ، ونجح فى الاستيلاء على بسكرة عنوة وكثر عيثه فى البـــلاد وفى هذه الاثناء أعاد قراقوش الحلف القديم بينه وبين بنى غانية الى حيز التنفيذ ، وترتب على ذلك أن خرجت منطقة الجريد وطرابلس من قبضـــة الموحدين للمرة الثانية . وعزم المنصور على القضاء على هذا الحلف الثلاثى

---

(٤٧) الزركشى ، تاريخ الدولتين ص ١٥

(٤٨) د . سالم ، المغرب الكبير ص ٨٠٥ (طبعة ١٩٦٦) .

من جديد لكنه عدل عن ذلك ريثما ينتهى من حربه من قشتالة فى الاندلس . واستغل يحيى بن غانية انشغال الموحدين بحروبهم فى الاندلس فى الفترة من ٥٩١هـ (٤–١١٩٥م) الى وفاة المنصور فى ٥٩٥هـ (١١٩٨م) وتمكنوا من السيطرة على افريقية[٤٩] .

ولم يتم القضاء على الحلف الغزى الميورقى الا فى عهد محمد الناصر عندما ركز جهوده للقضاء على بنى غانية وأمكنه التغلب على قوات يحيى فى عده مواقع . ومع ذلك ظل بنو غانية شوكة فى جنب دولة الموحـــدين حتى استقل بنو حفص بتونس[٥٠] .

وفى هذه المرحلة ذاتها ، كانت ســفارة صـــلاح الدين الايوبى الى المنصور الموحدى التى استهدف منها الاستعانة بأسطول الموحدين ضـــد الصليبيين . وكانت أحداث حملة قراقوش من النقط السوداء التى عرقلت جهود ابن منقذ رسول صلاح الدين وقـــد عبر المنصـــور عن استيائه من تصرفات قراقوش فى رسالة وجهها الى طلبة مراكش . وتكرر ذلك فى رسالة أخرى تستكمل هدا التفسير وترد على كل تساؤل حول تلك النقطة ، وفيها يبلغ الموحدين بافتتاحه قفصة ، وما تم من قمع المعتـــدين الماردين ودمار أعداء الدين واراحه تلك الاصقاع من هؤلاء الاوباش . ثم تشرح الرسالة كيف توغل الجيش الموحدى فى طرق لا عهد لرجاله بها الى حـــد وصـــفها « بأن سلوكها لمن العجائب العجاب » ، وكيف استسلمت بلاد تلك المناطق بمجرد وصول عساكر الموحدين مثلما وقع فى واحة توزر تخلى ســـكانها

---

(٤٩) د . سالم ، نفسه ، نفس الصفحة .
(٥٠) ابن عذارى ، البيان ، ج ٣ ، ص ١٦٩–١٧٠ . ابن أبى زرع ، القرطاس ص ٢١٨–٢١٩ .

عن أموالهم وأثاثهم حتى نقل الموحدين أسـلابهم وأصبح أهلها وبنـوها ونسبابها رقيقا • ونظهر الرسالة بوجه عام مدى الاستعـدادات الجهادية التى أعدها الموحدون فى اطار حملاتهم على افريقية وطرابلس للقضاء على حملة قراقوش ومن تبعه من العرب ، وكيف وصل رسل قراقوش خاضعين يطلبون اليه التوبة راغبين فى التوحيد ويعلنون أنهم سوف يصـلون الى الموحدين طائعين سامعين اذا ما قبلت نوبتهم[٥١] •

(٣)

سفارة صلاح الدين الايوبى الى يعقوب المنصور الموحدى

كان من أمر أحداث حملة قراقوش وما خلفته فى نفوس الموحـدين نحو صلاح الدين مؤسس الدولة الايوبيـة الفتية فى مصر ، ومن خـلال أحداث هذه الحملة . وقف الخليفة الموحدى يعقوب المنصور على قوة الدولة المشرقية الجديدة الناشئة وسرعة اتساعها باسم الخلافة العباسية المنافسة• ومن ثم ؛ فان العلاقات السياسية بين الدولة المغـربية العتيـدة والدولة المشرقية الناشئة لم يكن لها أن تصفو لصالح العالم الاسلامى الا بعـد أن تبلغ الدولتان الحد الاقصى من جهودها الحربية كالجهاد ضد الحـركة الصليبية • ولسنا بصدد عـرض الجهـود العسـكرية التى بذلها كل من الموحدين والايوبيين فى هذا المجال وتتويج ذلك بالنسبة للموحدين بانتصار الارك (٥٩١هـ — ١١٩٥م) وبالنسبة للايوبيين بانتصار حطين (٥٨٣هـ — ١١٨٧م) ؛ أو على حد قول د• سعد زغلول عبد المجيد : فبينما يقوم صلاح الدين بالحرب فى الشام باسم الخلافة العباسية أى الخلافة السنية ، التى

---

(٥١) ليفى بروفنسال ، رسائل موحدية ، رقم ٣١ ،ص ١٩٨ ، ورقم ٣٢ ص ٢٠٤—٢٠٨

لها السلطان الشرعى — اسميا على الاقل — على جميع المسلمين ،نجد أن المجاهد المغربى يقوم بالحرب فى الاندلس باسم خلافته الخاصة أى خلافة الموحدين »[٥٢] . والاهم فى موضوعنا أن صلاح الدين بعث أثناء تأهبه لخوض معركته هذه بالسفارات الى حكام المسلمين يطلب تأييدهم ، وكان من بين سفاراته سفارة وجهها الى يعقوب المنصور الموحدى .

وجاء فى خطبة صلاح الدين فى جنوده قبيل معركة حطين : « باسم الله ، والحمد لله ، والصلاة على رسول الله ، اعلموا أن هذا عدو الله وعدونا ، قد نزل فى بلدنا ، وقد وطىء أرض الاسلام ، وقد لاحت لوائح النصر عليه ان شاء الله . وقد بقى فى هذا الجمع اليسير ، ولابد من الاهتمام بقلعه ، والله قد أوجب علينا ذلك ، وأنتم تعلمون أن هذه عساكرنا، ليس وراءنا نجده ننتظرها سوى الملك العادل (أخ صلاح الدين) وهو واصل ، وهذا العدو ، ان بقى وطال أمره الى أن يفتح البحر جاءه مدد عظيم ، والرأى كل الرأى عندى مناجزتهم ، فليخبرنا كل منكم بما عنده فى ذلك »[٥٣] .

ونستخلص من هذا النص أن صلاح الدين كان قد أرسل رسله الى الملوك وتلقى من الردود العملية ردا واحدا فحسب هو رد الملك العادل وان كنا لا نستطيع أن نجزم بذلك . ومهما يكن الامر بالنسبة لمعنى هذا النص،

---

(٥٢) د . سعد زغلول عبد الحميد ، العلاقة بين صلاح الدين وأبى يوسف يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن الموحدى ، مجلة كلية الآداب،الاسكندريه ١٩٥٣ ص ٨٦

(٥٣) المقريزى ، السلوك ج ١ ص ٩٣ ابن الاثير ، الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٨٣ هـ . أحمد أحمد بدوى ، صلاح الدين الايوبى بين شعراء عصره وكتابه ، القاهرة ١٩٦٣ ، ص ١٨—١٩

فمن المؤكد فيه أن ديوان الانشاء بمصر قد حرر رسالة حملها عبد الرحمن بن منقذ رسول صلاح الدين الى بلاد المغرب[٥٤] • فهل لنا من وقفة أمام أخبار هـذه السفارة ؟ •

خرج ابن منقذ من الاسكندرية متجها الى المغرب فوصل الى افريقية فى عام ٥٨٦هـ — ١١٩٠م[٥٥] ، ثم واصل ابن منقذ مسيرته حتى وصل الى بجاية • وفى رجب من نفس السنة وصلت كتب أبى زيد والى افريقية وأبى الحسن والى بجاية الى المنصور الموحدى تتضمن ما يشير الى وصول ابن منقذ الى ديارهم ومبالغته فى الحرص على كتمان خبر وصوله اليهم والهدف من هذه الزيارة • وأفادت هذه الكتب أيضا بمدى الترحاب الذى قوبل به هذا الرسول من . « •• الميرة وتوطئة المهاد » • ومن هذه الافادات أيضا أن عمال هذه الاقاليم قد نفذوا كل ما أوصى به الخليفة يعقوب المنصور من حسن استقباله واحسان وفادته وتكريمه لحين وصول الخليفة •

ولا يمكننا أن نفسر هذا الاهتمام باستقبال سـفير صـلاح الدين ورسوله الى يعقوب المنصور بأكثر من حرص هذا الخليفة على الفصل فى قضايا الحكم وموضوعاته بنفسه ، وعلى حد قول ابن عذارى : « كان حاضر الجواب مشرفا على أجزاء مملكته من القرب والبعد •• لا يغيب عنه شىء من أحوال رعيته »[٥٦] • كان المنصور يفضل الجلوس للاحكام بنفسـه ، لذلك طلب من عماله استضافة السفير بفاس الى حين عودته من افـريقية

---

(٥٤) أبو شامة ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ص ١٧٠ . راجع ايضا : ابن واصل ، مفرج الكروب ، نشر د . الشيال ج ٢ ص ٣٦١—٣٦٢
(٥٥) ابن عذارى ، البيان ج ٣ ص ١٨٣
(٥٦) ابن عذارى ، البيان ، ج ٣ ، ص ١٤٠

بعد أن يضع حدا لعبث ابن غانية وحلفائه المماليك الغز ، ثم عاد الى تلمسان فى شوال سنة ٥٨٧هـ — ١١٩١م حيث استقر بها الى آخر السنة . وفى أول المحرم من سنة ٥٨٨هـ — ١١٩٢م خرج المنصور من تلمسان وهو مريض وكان يركب فى محفته أو كما يسمونها أكروا'وا ، فدخل فاسا وهو مريض . وقد أقعده هذا المرض بفاس مدة سبعة أشهر ، لم يرد فى المصادر(٥٧) عن أخبارها أى اشارة عن مقابلة المنصور لابن منقذ .

ويرد خبر هده المقابلة بعد فترة النقاهة حيث استدعى المنصور ابن منقذ على انفراد ، فقدم له السفير هدايا صلاح الدين وتتكون من مصحفين كريمين بالخط المنسوب مخيشة بمسك ، ومائة درهم من دهن البلسان ، وعشرين رطلا من العود ، وستمائة مثقال من المسك والعنبر ، وخمسين قوسا عربية بأوتارها ، وعشرين نشابا هندية ، وعدد من السروج المذهبة »(٥٨) . وأوضح ابن منقذ للخليفة الموحدى الغرض من سفارته وعرض له طلب صلاح الدين الاستعانة بالبحرية المغربية لعرقلة المسيحيين الكفار فى المغرب وعدم تمكينهم بارسال المدد الى اخوانهم فى الشام ، مما يمكن مسلمى الشرق من فك الحصار المضروب على مدينة عكا ، مع بيان أهمية عكا بالنسبة للمسلمين(٥٩) .

ومما لا شك فيه أن صلاح الدين كان مطلعا على تفوق الموحدين

---

(٥٧) ابن عذارى ، نفس المصدر ، ص ١٨٣ ، ابن ابى زرع ، القرطاس، ص ٢١٩ . السلاوى ، الاستقصا ، ج ١ ص ١٧٦

(٥٨) أبو شامة ، المصدر السابق ج ٢ ص ١٧٣ . د . سعد زغلول ، العلاقة بين صلاح الدين ص ٩١

(٥٩) أبو شامة ، نفس المصدر ص ١٧٠ ، ابن خلدون ، العبر ج ٦ ص ٢٤٦ . القلقشندى ، صبح الاعشى ح ٦ ص ٥٣٠

العربى فى حوض البحر المتوسط الغربى ، وقد وقف على قوة أساطيل الموحدين ودورها فى انتصارات دولة الموحدين فى الاندلس على قوى النصرانية مجتمعة . والمعروف أن عبد المؤمن بن على اهتم باعداد قوة بحرية موحدية ضاربة ولهذا أمر فى عام ٥٥٧هـ — ١١٦١م بانشاء الاساطيل فى جميع سواحل المغرب فأنشأ أربعمائة قطعة : « منها فى حلق المعمورة[٦٠] ومرساها مائة وعشرون قطعة ، ومنها فى طنجة وسبتة وباديس[٦١] ومراسى الريف مائة قطعة ، ومنها ببلاد افريقية ووهران ومرسى هتين مائة قطعة ، ومنها ببلاد الاندلس ثمانون قطعة .. ونظر فى استجلاب الخيل للجهاد والاكثار من أنوا السلاح والعدد ، وأمر بضرب السهام فى جميع عمله ، فكان يضرب كل يوم منها عشرة قناطير ، فجمع من ذلك مالا يحصى »[٦٢] .

ومن مظاهر عناية خلفاء الموحدين بانشاء هذا الاسطول وحرصهم على دعم قوتهم البحرية أكثروا من انشاء دور لصناعة القطائع فمن أهمها : دار صناعة قصر مصمودة (القصر الصغير بين سبتة وطنجة) للسفن المخصصة لنقل المحاربين والمعدات ، ودار صناعة الحبالات (شرقى فاس عند ملتقى وادى فاس بوادى سبو) . كما انتشرت القلاع الساحلية حول المراسى لتمكين الدفاع البحرى عن القواعد وفى ذلك يقول ابن

---

(٦٠) تعرف اليوم باسم المهدية ، تقع على مصب نهر سبو ، والغابة المجاورة لها مازالت تحمل اسم غابة المعمورة .

(٦١) مدينة على ساحل البحر المتوسط غربى مدينة الحسيمة ، خربت ولم يبق منها الا الاطلال ، وتقع بازائها جزيرة صغيرة تسمى جزيرة بادس احتلها القائد الاسبانى بيدرو نافارو سنة ١٥٠٨ ثم استردها المغاربة سنة ١٥٢٢م ، واحتلها الاسبان للمرة الثانية ولازالت تحت الاحتلال الاسبانى .

(٦٢) ابن صاحب الصلاة ، المن بالامامة ، ص ٢١٣—٢١٥ . ابن أبى زرع القرطاس ، ص ٢٠١

خلدون : « ولما استفحلت دولة الموحدين فى المائة السادسة ، وملكوا العدوتين ، أقاموا خطة هذا الاسطول على أتم ما عرف وأعظم ما عهد ، وكان قائدهم أحمد الصقلى .. وكانت له آثار ومقامات مذكورة فى دولة الموحدين ، وأنتهت أساطيل المسلمين على عهده فى الكثرة والاستجادة مالم تبلغه من قبل ولا بعد فيما عهدناه » (٦٣) . ولقد كان على أسطول الموحدين الدفاع عن سواحل المغرب والاندلس والتصدى لاى غزو قد تقوم به قوى النصرانية فى اسبانيا والبرتغال (٦٤) .

وفى عهد أبى يوسف يعقوب المنصور بلغت دولة الموحدين أوج قوتها السياسية الدفاعية برا وبحرا (٦٥) . وليس أدل على عظم الاساطيل الموحدية وتفوقها على القوى البحرية الاخرى فى عصر يعقوب المنصور من نص الرسالة التى أرسلها ألفونسو الثامن ملك قشتالة الى الخليفة يعقوب المنصور يطالبه بارسال أسطول من المراكب والشوانى والطرائد والمسطحات (٦٦) ، كى يجوز اليه بجيوشه ويقاتله فى بلده . هذا فضلا عما رواه ابن سعيد المغربى (ق ٧ هـ) عن تجنيد المغاربة المقيمين فى مصر

---

(٦٢) ابن خلدون ، المقدمة ، القاهرة ١٩٥١ ص ٢٥٥

(٦٤) يضيف د . العبادى الى مهام الاسطول مهمة قمع حركات القرصنة التى كانت منتشرة فى حوض البحر المتوسط بين المسلمين والمسيحيين على السواء (دراسات فى تاريخ المغرب والاندلس ص ٣٤٧) .

(٦٥) يذكر السلاوى أن جميع انتصارات القوات البرية للموحدين دليل على مدى القوة البحرية التى كانت تواكب القوة البرية وتزودها بالمعدات والامدادات العسكرية أو نقل الجنود أو حماية الثغور والمضايق ونقل الرقاصين (عمال البريد) بسرعة (الاستقصا ج ٢ ص ١٨٤ . ابن زيدان ، العز والصولة ، نشر عبد الوهاب بن منصور ، الرباط ، ١٩٦١ ج ١ ص ٤٠٧)

(٦٦) الشوانى أو الشينى السفينة الحربية الضخمة التى كانت تتكون من عدة طبقات كالقلعة . الطرائد أو الطريدة ، سفينة صغيرة السير والجرى والمسطحات هى المراكب الكبيرة الحجم ، كانوا يجرونها فى البحار خلف المراكب

للعمل فى الاسطول المصرى استنادا الى الفكرة التى كانت شائعة فى المشرق عن اختصاصهم بهذا العمل لمعرفتهم بمعاناة الحرب والبحر (٦٧) .

ومع ذلك ، وبالرغم من مظاهر الحفاوة والتكريم التى تلقاهــا ابن منقذ أثناء مقامه بفاس وما صاحبه فى طريق عودته من ضروب الاعــزاز والتعظيم فقد «قوبلت هداياه من العوض فى نفاسة الاشخاص والاثمان» (٦٨) وتعــددت تفسيرات المــؤرخين للموقف السلبى الذى وقفــه المنصــور من طلب صلاح الدين . وفى اطار هذه التفسيرات العديدة أقتصر هنا على ما يمس الواقع التاريخى من ذلك ما يتعلق باعتذار صــلاح الدين الايوبى على لسان رسوله ابن منقذ عن أعمال القرصنة التى قام بها الملـــوك قراقوش وقد صفه بأنه : « من نفايات الرجال وليس من وجــوه المماليك والامراء » . وأنهما ليسا من أولئك الرجال الذين « اذا غاب أحضر ولا ممن اذا فقد أفتقد » ؛ فهو يستعيذ بالله من أن يأمر مفسدا يفسد فى الارض (٦٩) وهناك المشكلة التى أثارها لقب أمير المسلمين الوارد فى رسالة صلاح الدين فى الوقت الذى خاطب فيه ابن منقذ المنصور بلقب أمير المؤمنين مع أنــه يمثل صلاح الدين (٧٠) . هذا بالاضافه الى ماورد من أقوال حول احتجاز

الاخرى من الاسطول خشية أن نغرق ، ولها سطحا كبيرا ، وهى من أكبــر سفن الاسطول د . سعاد ماهر ، البحرية فى مصر الاسلامية وآثارها الباقية ، القاهرة ، ١٩٦٧ ، ص ٣٥٢—٣٥٣ ، ٣٦٨

(٦٧) المقرى ، النفح ح ٣ ص ١١١—١١٢ . العبادى ، المرجع السابق ، ص ٣٦٥

(٦٨) ابن عذارى ، البيان ج ٣ ص ١٨٤ راجع أيضا :

— George Marçais;'La Bérberie Musulmane, Paris, 1946, p 269.

(٦٩) ابن خلكان ، وفيات ج ٥٤ ص ٣٨١ ، سعد زغلول ، المرجــــع السابق ، ص ٩٦

(٧٠) يذكر ابن عبود : « أن المنصور أخذته العزة لانه لم يخاطب بالقاب العظمة والخلافة حيث كانت عنده أعز من ضياع المسلمين وزوال ملكهم » تاريخ المغرب ص ١٤٤

المنصور لابن منقذ فى فاس الى حين عودته من حملته على افريقية وأنتهاء مهمته فى تلمسان •

وقد فسر البعض (٧١) هدايا يعقوب المنصور للسفير الايوبى بأنها كانت لشخصه فقط دون السلطان وأنها قدمت لابن منقد شخصيا فى مقابل هداياه • ومن ثم ، فان الرعاية التى كفل بها الخليفة الموحدى هذا الرسول فى رحلة عودته يمكن أن تفسر فى نفس الاطار •

وأعتقد أن تفسير الموقف السلبى الذى اتخذه المنصور من رسالة صلاح الدين لا ينبغى أن يتجاوز الحدود الطبيعية للحوادث المعاصرة لهذه السفارة ، فلا يجب أن نذهب بعيدا فى تحليل هذا الموقف فنؤول مسلكه تاويلا يجانب الواقع • لقد جاءت سفارة صلاح الدين فى ظروف صعبة شغل الخليفة الموحدى أثناءها بمشاكل مصيرية كان عليه أن يواجهها : « فالاخطار كانت تهدد أملاكه الاندلسية والافريقية لم تكن أقل من الخطر الصليبى على عكا • وما عدا ذلك ، فان التفسير يجب أن يأخذ فى الاعتبار ما دار من معارك فى افريقية والمغرب الادنى كان محورها تذبذب ولاء القبائل العربية بين الموحدين والايوبيين ، وما يترتب عليه من نتائج

---

(٧١) خاطب ابن منقذ الخليفة الموحدى (يعقوب المنصور) بأمير المؤمنين حسبما كان رأيه فى البداية قبل ارسال السفارة ، ومدحه بقصيدة يقول فيها :

سأشكو بحرا ذا عباب قطعته	الى بحر وجود ما لاخراه ساحل
اليك أمير المؤمنين ولم نزل	الى بابك المأمول تزجى الرواحل
قطعت اليك البر والبحر مؤمنا	بأن نداك الغمر بالنجح كافل
وحرت بقصديك العلى فبلغتها	وادنى عطاياك العلى والنواضل
فلا زلت للعلياء والجود بانيا	تبلغك الآمال ما أنت آمل .

فأعطاه لكل بيت الف دينار وقال له : « انما أعطيناك لفضلك ولبيتك»
ابن عذارى ، البيان ج ٣ ص ١٨٤ . السلاوى ، الاستقصا ، ج ٢ ص١٨١

أبرزها موقع القسم الشرقى من بلاد المغرب من الخلافتين الموحديـــة والعباسية ، ثم موقف دولتين متنافرتين سياسيا ومذهبيا : الدولة الايوبية الناشئة التى تدين حسبما وضح من رسالة صلاح الدين بالتبعية لخلافــة مشرقية متهالكة والدولة الموحدية العتيدة التى لا تقر الا خلافتها الخاصة، ويدين سلطانها بالمذهب الشافعى (٧٢) الذى تلقاه الموحدون عن طريـــق رحلة ابن تومرت ويدين الايوبيون الذين يحكمون الشرق الادنـــى بنفس المـــذهب .

ومهما كان الامر فان الموحدين لم يتقاعسوا قط عن الجهـــاد ضـــد القوى الصليبية فى الشرق الاسلامى ، ولكن بأسلوبهم الحربى الخـــاص الذى يواغق سيطرتهم البحرية على الملاحة فى غرب البحر المتوسط (٧٣) ، وفى الوقت الذى يتناسب مع ظروف دولتهم . ومثل هذا الترقب انما يتفق ومنطق التفكير الحربى عند المغاربة بوجه عام .

---

(٧٢) يذكر هنرى لاوست فى كتابه عن فرق الاسلام أن المنصور الموحدى بعد « أن كان مالكيا انتقل الى الظاهرية ، ثم اعتنق المذهب الشافعى واختار كثيرا من القضاة من بين المنتمين لهذا المذهب »

Henary Laoust; Les Shismes Dans L'islam, Op. Cit., p 235

ويقول الجرارى : « أن ابن حزم كان شافعيا فى بداية حياته وربما تأثر به المنصور . فكان معجبا به ويعتبره علما بارزا من أعلام الاسلام » . الموحدون ص ١١٠—١١١

(٧٣) يذكر المراكشي : أن المنصور أرسل أسطوله فى البحر « ليمنـــع الصليبيين من الوصول بكثرة الى بلاد الشام ، ولم يرد أن يشتبك معهم فى المعركة لغرض حربى » (المعجب ص ٢٥١) وهذا الغرض الحربى كان ذا شقيـــن : الاول انشغال المنصور بمحاربة ابن غانية صاحب جزائر ميورقة ومنورقـــة ويابسة الذى اعانه صلاح الدين بطريق غير مباشر وعن طريق حملة قراقوش أنظر : لبفى بروفنسال ، رسائل موحدية ، رقم ٣١ ص ١٩١—١٩٩ . والثانى مواجهه حركة الركونكستا

— G. Marçais; Les Arabes en Berberie du XI' au XIV' Siècles, Paris, 1913, p. 198—199.

وليس أدل على الهموم التى كان يواجهها المنصور عند قدوم سفير صلاح الدين الى المغرب من اعداده لمعركة الارك التى خاضها المنصور الموحدى في أعقاب سقوط مدينة شلب فى أيدى البرتغاليين سنة ٥٨٥ هـ / ١١٨٦ م وأنتصر فيها انتصارا يماثل انتصار المرابطين فى الزلاقة على النحو الذى سنوضحه بعد قليل . وحدث أيضا أن المنصور اعتل علة أقعدته فى مراكش ، وأطمعت فيه ملوك النصرانية خاصة ملك قشتالة الذى أنتهز فرصة انقضاء مدة الهدنة (٥ سنوات) [٧٤] فعاث فى بلاد الاندلس عيثا شديدا . بل حدث أن بعث ملك قشتالة رسولا الى الخليفة يعقوب يتوعده ويطلب منه التخلى عن بعض الحصون المتاخمة لبلاده [٧٥]

وواضح أن أسلوب ألفونسو الثامن فى هذه الرسالة لا يختلف عن أسلوب ألفونسو السادس فى رسالته التى وجهها الى يوسف بن تاشفين ويتحداه فيها أن ينقل المعركة الى أرض المغرب [٧٦] .

ويورد د . سالم تفاصيل دقيقة لمعركة الارك التى أصابت قلب الجيش الصليبى وبالتالى منعت التحرك الصليبى الى المشرق حيث يقول : « .. وكان ألفونسو واثقا من النصر حتى أنه دخل المعركة دون أن ينتظر وصول جيش ملك ليون وجيش ملك نبرة .. وحملوا على القشتالين حملة عنيفة ، وأخذت فرقة القواسين ترمى العدو بالسهام ، فانهزم القشتاليون

---

(٧٤) قدم يوسف بن الفخار اليهودى رسولا من الملك القشتالى من أجل تثبيت الهدنة (ابن عذارى ، البيان ، ج٣ ص ١٨٧ ، ١٩٢ . المقرى ، نفح الطيب ج ٦ ص ١١٤) .

(٧٥) ابن أبى دينار ، المؤنس ، ص ١٢٠ . ابن ابى زرع ، القرطاس ، ص ٢٢٠—٢٢١

(٧٦) كتاب الوثائق ، وثيقة رقم ٦٠ ص ١٧٨ وأنظر أيضا جواب يوسف بن تاشفين على تلك الرسالة فى كتاب الوثائق ، وثيقة رقم ٦١ ص ١٧٩

وولوا الادبار ، وتحكمت فيهم سيوف الموحدين ، فقتل من فرسان نظام سانتياجو ثلاثة أساقفة ونحو ١٧ قسا ، كما قتل عدد كبير من فرسان قلعة رباح ، وقتل رئيس فرسان نظام يابرة ، واسمه جنثالوفيجاس ومن معه من مطوعة البرتغاليين ، ونهب المسلمون معسكر النصارى ، وأفلت الفونسو الثامن بنفسه الى طليطلة ، وتحصن فل جيشه بحصن الارك»(٧٧)

وترجع هزيمة القشتاليين الى أن المنصور قد نجح فى اختيار الوقت المناسب للمعركة ، فقد كان الفونسو الثامن فى عداء مستحكم مع ملك ليون وملك نبرة . ولم تنجح جهود الكاردينال جريجوريوس لمحو هذا العداء ، وكان الفونسو معتادا على شن الغارات على أراضى المسلمين دون أن تقابل مقاومة من جانبهم ، فظن أن من السهل التغلب على جيش الموحدين ، ولم يفكر فى مدى قوة جيش الموحدين ولم يعمل حساب حسن قيادة المنصور وشجاعته (٧٨) .

شبه المؤرخون معركة الارك بمعركة الزلاقة (٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م) ان لم تكن أعظم منها . وبدت علاقات الموحدين الحربية بالاندلس فى حينها أشبه بعلاقة الام الرؤوم بطفلها اليتيم وهذا ما أفصح عنه المنصور صراحة فى وصيته للموحدين عندما شعر بدنو أجله حيث قال : « أيها الناس أوصيكم بتقوى الله وأوصيكم بالايتام واليتيمة ، فقال له الشيخ أبو محمد عبد الواحد ابن الشيخ أبى حفص محمد بن يحيى الهنتاتى : يا سيدنا ومولانا وما الايتام واليتيمة ؟ فقال : الايتام أهل جزيرة الاندلس وهى اليتيمة فاياكم والغفلة عما يصلحها من تشييد الاسوار وحماية الثغور

(٧٧) د . سالم ، المغرب الكبير (١٩٦٦ م) ص ٧٠٧ — ٧١٠
(٧٨) د . سالم ، المغرب الكبير ، ص ٧١١

وتربية أجنادها وتوفير رعايتها ولتعلموا أعزكم الله أنه ليس فى نفوسنا شىء أعظم من همها ولو مد الله لنا فى الخلافة الحياة لم نتوان فى جهاد كفارها حتى نعيدها دار اسلام ، ونحن الآن قد استودعناها الله تعالى وحسن نظركم فيها فانظروا للمسلمين وأجروا الشرائع على منهاجها » [٧٩]

وهذا النص وحده كفيل بتفسير اعتذار المنصور الموحدى عن عدم تلبية طلب صلاح الدين . فالحرب المغربية هنا على مشارف العالى الاوربى (الصليبى) ان لم تكن فى قلبه ، وهدفها الرئيسى دفع الخطر الجاثم على دولة الاسلام وأسترداد ما أقتطع من أرض الاجداد فى الاندلس وحماية ما تبقى بأيدى المسلمين من هذه الاراضى . أما الاختيار فى الجهاد الاسلامى بين ميدان وآخر ، فان السبيل اليه يدخل فى مقتضيات ظروف الدولة الاسلامية وأهدافها . وقد سبقت الاشارة الى هذه المقتضيات والاهداف التى أفترضها سبيل الاختيار أمام المنصور الموحدى فى موقفه من سفارة صلاح الدين الايوبى . ومع ذلك ، لم يخل الامر فى التفكير الموحدى آنداك من اصرار على التعلق بالشرق حيث شاع عند وفاة المنصور فى عام ٥٩٥ هـ / ١١٩٩ م [٨٠] من أنه « ساح فى الارض وتخلى عن الملك ووصل الى الشام ، ودفن هناك بالبقاع » [٨١] .

---

(٧٩) مجهول ، الحلل ، تحقيق علوشى ، ص ١٣٣ ، ابن عذارى ، البيان ج ٣ ص ٢٠٨ . المقرى ، نفح الطيب ج ٦ ص ١١٤ . ابن عبود ، تاريخ المغرب ص ١٤١ .وعن اطلاق المنصور أسارى معازكه، وهى من أعظم اخطائه أنظر :

— Marçel Peyrouton ; Histoire du Maghreb, p. 99.

(٨٠) توفى بمراكش من ربيع الاول سنة ٥٩٥ هـ ودفن بتينملل بجوار أبيه وجده . راجع فى ذلك ابن خلكان ، وفيات ج ٧ ص ١٨—١٩ . المراكشى ،المعجب ص ٢٢٤ . مجهول ، الحلل ، ص ١٣٤

(٨١) يذكر الشريف الغرناطى فى شرح مقصوره حازم : « أن ذلك من هذيان السامة لولوعهم بالسلطان » أنظر ، المقرى ، المصدر السابق ج ٦ ص

وعندما يقف القارىء على مظاهر الفخامة والابهة فى دولة يعقوب المنصور ، يسهل عليه تصور ما كان يختلج فى فكر الموحدين من شعور بالسيادة يتضاءل فى اطاره كل دور سياسى وحربى تقوم عليه دولة مشرقية ناشئة مثل الدولة الايوبية . وأن النص التالى المأخوذ عن ابن صاحب الصلاة يطلعنا على جانب هام من هذه المظاهر ترتبط بالصورة التى حرص الموحدون على أظهارها فى فتوحاتهم . فها هو الخليفه يعقوب المنصور عندما تأهب لدخول المهديه يوم الاثنين ٢٠ رجب سنة ٥٦٦ ه قصد : « .. نزل فى موضع فصيح (يقصد فسيح) من الارض مع الوزراء والاشياخ من الموحدين والطلبة الكبراء ، وأمر باحضار أربع رايات صغار . فى أربعة رماح صغار ، وفى أعلى كل رمح تفاحة من ذهب تتلالا ضياء وشعاعا ، والرايات ملونات بالخلدى [٨٢] الاحمر والاصفر والابيض [٨٣] وجعل تلك الرايات الاربع فى أركان تابوت المصحف المكرم

١١٦ . ويمكن تفسير هذا التعلق بأنه تصوف وتنسك فكان يلبس الصوف ناهجا مناح الصحابة والتابعين متبعا فى ذلك قول الله : « رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا » ابن أبى دينار ، المؤنس ، ص ١٢٠ الزركشى ، تاريخ الدولتين ، ص ١١

(٨٢) أسم معروف فى بعض الكتب الاندلسية ومعناه النسيج الحريرى الدقيق ، وهكذا تكون الصفات الثلاثة الاتية كلها نعتا للخلدى ، أى أن الراية الموحدية تتألف من نسيج احمر واصفر وابيض . المن بالامامة ، ص ٤٤٥

(٨٣) هذا وصف دقيق للرايات حيث أن العلم الابيض الخالص كان علم المهدى وعبد المؤمن أو بالحرى هو علم الامبراطورية الموحدية ، كما أن اللون الاحمر كان محببا عند أشراف العرب ، هذا الى أن اللون الاصفر يرمز عند الذين يهتمون بخصائص الالوان الى الارض وثروتها .. فهل يشير هذا العلم الموحدى الاضافى الى وحدة البربر — ولون رايتهم بيضاء — مع العرب ولونهم هو الحمرة ، كما يشير اللون الثالث الى ثروة الارض ؟ المهم أن معظم هذه الالوان ظل معروفا الى الان فى جل بلاد المغرب .

— Debreuil; Les Pavillons des etats Musulmans. Hespéris Tamuda, 1960. T.I., p. 548.

مصحف عثمان رضى الله عنه ، ثم استوى على صهـوة فرسه ، ومشى على الهيئة المتقدمة . والعساكر وراءه من الموحدين والعرب قد ملاوا بسيط الارض ، واتسعوا فيها بالطول والعرض ، فلما قرب من المدينة أمر بتقديم الطبول والرايات الكبار أمامه مع المصحفين المذكورين (المصحف الثانى هو مصحف المهدى) مع الساقة ، على خلاف العادة فى المشى (٨٤) تنويهـا وتعظيما للتبرير والترتيب وهو رضى الله عنه متقدم والاشياخ من الموحدين والوزير والكتاب والطلبه وراءه ، حتى وصل باب مدينة المهدية فرد وجهه الى الناس وأستقبلهم وهو راكب على فرسه وعالهم ، وأمرهم بالنزول فى تلك الارض العريضة ودخل داره (٨٥) بالمهدية المذكورة . وكان هـذا التبريز للنظارة من احـدى العجائب وأفخم الظهـور والدنور للعساكر والكتائب » (٨٦) .

---

(٨٤) جرت العادة بأن تدق الطبول وراءه فى الوقت الذى يتقدم فيـه الراية البيضاء وحدها الموكب .

(٨٥) هذه الدار لا تزال آثارها — فيما نعتقد — داخل القصبة ولها صلة بالمنزل الذى يوجد فى اقصى طريق الجامع فى الزاوية التى تؤدى الى الساحة المشرفة على المحيط ، ويحمل المنزل اسم دار البركة ، وهى مستوحاه من لفظ البركة التى استعملها الموحدون . ابن صاحب الصلاة ، المن بالامامة ص ٤٤٤

(٨٦) انظر ، ابن صاحب الصلاة ، المن بالامامة ، ص ٤٤٥

الفصـــل الثـالث

العلاقات السياسية بين الخلافة الموحدية الحفصية والمشرق الاسـلامى

١ ـ نشأة الخلافة الحفصية •

٢ ـ تطور العلاقات الخارجية للحفصية مع المشرق الاسلامى •

٣ ـ تطور العلاقات بين العناصر العربية والتركية المملوكية وبيـن الحفصيين •

٤ ـ دور الجند المغاربة فى العلاقات المشرقية •

العلاقات السياسية بين الخلافة الموحدية الحفصية والمشرق الاسلامى

بموت يعقوب المنصور الموحدى سنة ٥٩٥ هـ / ١١٩٩ م ينتهى عهد الازدهار فى خلافة الموحدين ، وتبدأ مرحلة جديدة من عهود خلفائه [١] هى مرحلة الانهيار فى تاريخ هذه الدولة الى أن تجددت ممثلة فى الدولة الحفصية التونسية نذ عام ٦٠٢ هـ / ١٢٠٥ م .

والواقع ان افريقية (تونس) كانت تتميز خلال القرنين ٧ ، ٨ من تاريخها الاسلامى على المغرب الاقصى بموقعها الادنى الى الشرق الاسلامى وقرب اتصالها باحداث الحركة الصليبية فى المشرق الاسلامى وأرتباطها الوثيق بالخلافة العباسية . كما تميزت بموقعها الاقرب أيضا من حركة التجارة البحرية فى البحر المتوسط وقنواتها البرية المشرقية الموصلة اليها . غير أن افريقية من ناحية أخرى كانت تفتقر الى الامكانيات الذاتية البشرية والاقتصادية التى سبق للخلافة الموحدية أن أقامت عليها صرح دولتها المغربية ونهضت بها من مرحلة السقوط المرابطى الى مرحلة الازدهار الموحدى . ومن ثم فان العنصر البشرى الخارجى وأن كان قد شكل رصيدا هاما فى التنظيم العسكرى الموحدى أيام خلافتها المراكشية ، فأن هذا العنصر — عربيا وتركيا وأوربيا — سيشكل جوهر هذاالتنظيم وسيصبح له دور فعال ومؤثر على مسيرة أحداث الدولة آنذاك ويطبع سياستها الخارجية بطابعه ، ومع الافتقار أيضا الى الامكانات الاقتصادية الذاتية ، فان الحركة التجارية البحرية ستطبع العلاقات التونسية الخارجية ببصمات واضحة أثرت الى حد كبير على دورها بين المشرق والمغرب الاسلاميين .

---

(١) انظر شجرة الدولة ، ملحق رقم (٦) .

نشـــأة الخلافــة الحفصيـــــــة

أ ــ أولوية الدولة الحفصية بالخلافة :

يقول ابن الشماع عن تونس الحفصية « هى اليوم قاعدة البـــلاد الافريقية وأم بلادها وحضرة السلاطين من الخلفاء الحفصيين ومهاجــر أهل الاقطار من الاندلس والمغرب وغيرهما • فكثر خلقها واتسع بشرها ورغب الناس فى سكناها وأحدثوا بها المبانى والكروم » (٢) •

ترجع بداية نشأة الخلافة الحفصية فى افريقية الى تاريخ تنصيب ابى محمد عبد الواحد بن أبى حفص واليا عليها سنة ٦٠١ هـ / ١٢٠٤ م • ففى هذا العام ، عاد ابن غانية يواصل من جديد عبثه بافريقية وطرابلس وكان قد جرى بينه وبين الخليفة العباسى (الناصر لدين الله) اتصالات وصلته بموجبها خلع عباسية سوداء ، ومما يذكر فى ذلك أن الخليفـــة العباسى أرسل الى ابن غانية الشاعر الفقيه أبى الفضل عبد المنعم بن عبد العزيز الاسكندرانى رسولا من قبله يحمل اليه التقليد والخلع واللواء • وقد وصل هذا الرسول العباسى بالفعل الى افريقية وأدى رسالته ثم عاد الى بغداد وهو يحمل مبلغا من المال قدره عشرة آلاف دينار وزعهــا على معارفه فى بغداد (٣) • ولما بلغ الخليفة الموحدى الناصر بن المنصـــور معاودة ابن غانية العبث وبث الاضطراب جهز حملة الى افريقية فى العام المذكور للنظر فى أمورها ورافقه فى حملته أبو محمد عبد الواحد بن أبــى حفص • وبعد ان استقصى الناصر الاوضاع والامور فى افريقية وسمــع من أهل تونس شكاياتهم المريرة وما كانوا يقاسونه من عبث الثــوار فى

---

(٢) ابن أبى دينار ، المؤنس ، تحقيق شمام ، ص ٧

(٣) د • بدرى محمد فهد ، تاريخ العراق فى العصر العباسى الاخيــر ، بغداد ، ١٩٧٣ ص ١٤

طرابلس وما كان يرتكبه ابن غانية من تعذيب أهلها ، وأمتهان البيوت ، وسلب الاموال ، رأى الناصر ضرورة اسناد هذه الولاية الى رجل قوى خبير بشئونها يقوم فى افريقية مقام الخليفة وتفوض اليه السلطات اللازمة لوضع الامور فى نصابها ووضع حد للفتن والاضطرابات وبذلك يضمن الناصر استمرار ربط افريقية بدار خلافته مراكش • ووقع اختيار الخليفة الموحدى على أبى محمد عبد الواحد بن أبى حفص لما كان يتميز به من حكمة وعزيمة ومضاء فى كل الامور فخاطبه بقوله : « هذه البلاد (افريقية) من أول هذا الامر العزيز ، ونحن مع هؤلاء الثوار فى أمر عظيم ، وتحت ليل بهيم ، وقد وصل اليها سيدنا عبد المؤمن وسيدنا أبو يعقوب وسيدنا المنصور ، وما منهم الا أنفق عليها أموالا ، وأفنى فى الحركة اليها رجالا ، والمشقة شديدة ، والشقة بعيدة ، وما عاد واحد منهم الى حضرته الا وعاد لها الويل • وهذه الدعوة كما يجب علينا القيام بها والذب عنها ، كذلك يجب عليك ، وقد طلبنا من جميع أخوانك وأعيان هذا الجمع من ينوب عنا فى هذه البلاد ، فلم نجد عنك معدلا ، فانحصر الامر فينا وفيك ، فاما أن تطلع الى حضرة مراكش فتقوم هنالك مقامنا ، ونقيم نحن بهذه البلاد أو نطلع نحن الى حضرتنا » [٤] •

وينتسب بنو حفص الى الشيخ أبى حفص عمر بن يحيى الهنتاتى جد السلاطين الحفصيين بتونس وكان يتمتع بمكانة كبيرة فى الدولة المهدية منذ بدء قيامها فى عهد المهدى بن تومرت ثم فى عهد خلفائها الاوائل

(٤) ابن عذارى ، البيان ج ٣ ص ٢٢٥ . الحلل السندسية ، الوزير السراج ، ح ١ ص ١٠٢٠—١٠٢١ . الزركشى ، تاريخ الدولتين ، تحقيق ماضور ، ص ١٨ . محمد عبد الهادى العامرى ، تاريخ المغرب فى سبعة قرون بين الازدهار والذبول ، تونس ، ١٩٧٤ ص ١

حتى الناصر بن يعقوب المنصور • فهو كبير قبيلة هنتاتة البربرية وأحد العشرة الاوائل السابقين الى الاستجابة لدعوة ابن تومرت • أبلى البلاء الحسن في تثبيت دعوتهم ، وفى حروبهم بالمغرب والاندلس ، وتوفى سنة ٥٧١ هـ / ١١٨١ م • وقد شغل هو وأبناؤه مكانة سامية عند خلفاء الموحدين وكانوا موضع ثقتهم لما قدمه هو وأبناؤه فى سبيل نشر الدعوة الموحدية ولذلك حظى بنو حفص بمنزلة رفيعة من حيث القيادة العسكرية (٥) •

وقد تمنع الشيخ أبو محمد عبد الواحد بن أبى حفص بادىء ذى بدء عن قبول ولاية افريقية ولكنه أعلن قبولها فيما بعد على أسس وشروط قبلها الخليفة الناصر منها :

١ — أن يقيم فى افريقية فترة حددها بثلاث سنوات ، وبعودة النظام والهدوء الى البلاد ، وعلى الخليفة الناصر أن ينصب مكانه من بخلفه ويرجع هو الى وطنه مراكش •

٢ — اطلاق حرية التصرف له فى الجيش والوظائف الادارية ، فمن شاء أبقاه ومن شاء أعفاه •

وقد قبل الناصر كل شروطه وتأهب للعودة الى مراكش ، حيث ودعه الشيخ أبو محمد عبد الواحد حتى بجاية • وقبل أن يغادر الناصر افريقية

---

(٥) ولد الشيخ أبو حفص فيما يقرب من ٤٨٥ هـ (١٠٩٢ م) وكان اسمه بالبربرية « فسكات أو مزال » وعندما اتصل بالمهدى فى سنة ٥١٤ هـ (١١٢٠م) وعد من أخلص أصحابه فسماه ابن تومرت عمر وكناه أبا حفص تيمنا بعمر بن الخطاب وصحابته للرسول ، ولهذا عرف فى بعض المصادر بأبى حفص عمر بن الخطاب ، وكان المهدى يقول لاصحابه : « فاصكة المبارك لا يزالون بخير مابقى فيهم هذا الرجل أو أحد من ولده » . وهو الذى اخذ البيعة لعبد المؤمن بعد وفاة المهدى •

(أنظر : البيذق ، أخبار المهدى ، هامش رقم ٦٢ ص ٣٧ . البيذق ، كتاب الانساب ، هامش رقم ٣٩ ص ٣٢ . ابن أبى دينار ، المؤنس ص ١٣٠)

جمع أعيان تونس وخطب فيهم قائلا : « انا قد اخترنا لكم من يقوم مقامنا فيكم ، وآثرناكم به على شدة حاجتنا اليه ، وهو الشيخ أبو محمد » وكان وصول الخليفة الناصر الى مراكش فى ١٠ شوال سنة ٦٠٣ هـ / ١٠ مايو ١٢٠٧ (٦) .

ومنذ أن تولى الشيخ أبو محمد عبد الواحد الحفصى أمور افريقيـــة وهو يؤدى عمله على أكمل وجه . وتصدت قواته بشدة لابن غانية الذى جمع عرب الدواودة من بنى عوف وسليم بنواحى تبيسه سنة ٦٠٤ هـ ، ويسخرها لتعكير صفو الامارة الحفصية . لهذا فقد ركز الشيخ أبو محمد جهوده القضاء على حركة ابن غانية فعمل على تشتت جموعه ومطاردة فلوله الى الجبال والصحارى (٧) . كذلك اهتم الشيخ الحفصى بتنظيم دواوين

---

(٦) ابن الخطيب ، الاحاطة ، تحقيق عنان ، ص ٣١٨—٣١٩ . التجانى (أبو محمد عبد الله بن محمد) الرحلة ، نشر حسن حسنى عبد الوهاب ، تونس ١٩٥٨ ، ص ٣٦٢ . أبن القنفذ ، الفارسية فى مبادىء الدولة الحفصية ، تقديم وتحقيق محمد الشاذلى النيفر ، عبد المجيد التركى ، تونس ، ١٩٦٨ ، ص ١٠٥. وعن أهتمامه بشئون الولاية والنظر فى مسائلها مدحه الشاعر أبو اسحـــاق ابراهيم الغسانى بقصيدة تدل على فضله فيها :

وماذا عن المداح أن يمدحوا بـــه ... وفيه خصال ليس تحصر بالعدد
نهـــارك فى تدبير ما يصلح الورى ... ولبلك مقسوم على الذكر والورد

(ابن أبى دينار ، نفسه ص ١٣٠) . وبعد وصول الخليفة الناصر الـــى مراكش توافدت عليه الوفود مهنئة ، وفيه يقول ابن مرج الكحل مشيرا الـــى علامته الاميريـــة :

ولما توالى الفتح من كل جهة ... ولم تبلغ الاوهام فى الوصف حـــده
تركنـــا أمير المـــؤمنين لشكره ... بما أودع السر الالاهى عنـــده
فلا نعمـــة ألا تـــؤدى حقوقهـــا ... علامتـــه بالحمد لله وحـــده

(السلاوى ، الاستقصا ، جـ ٢ ص ٢١٦) . أنظر أيضا :

— Jamil, M.Abun-Nasir; A History of the Maghrib; Cambridge, 1971, p. 117—137.

(٧) الزركشى ، تاريخ الدولتين ، ص ١٨

الامارة ، واستحدث منها زمام التضييف لاستقبال الضيوفت الوافدين على الدولة [٨] • ولما استكمل الشيخ المدة التى كان قد اشترطها على الخليفة استأذنه فى أن يسمح بالعودة الى مراكش حيث الاهل والبلد • ولكن الخليفة لم يستجب لطلبه ، فظل الشيخ الحفصى فى تونس حتى توفى فى سنة ٦١٨ هـ (١٢٢١ م) •

ثم حدث بعد وفاته نزاع شديد فى افريقية بسبب التنافس على الامارة ، فانقسم الناس الى فرقتين : مالت الاولى الى ابنه الشيخ أبى زيد ، ومالت الاخرى الى ابن اخيه ابراهيم بن اسماعيل بن أبى حفص • ورجحت كفة الفريق الاول وأنتهى الامر بالاتفاق على استخلاف ابنه أبى زيد فى امارة افريقية • وفى هذه الاثناء ، وصلت من مراكش كتب الخليفة الموحدى المنتصر بالله (تولى ٦١٠ هـ) بتولية عمه أبى العلاء ادريس بن يوسف بن عبد المؤمن الذى كان يتصدى آنذاك لمحاربة ابن غانية ، وطلب الخليفة من أبناء الشيخ عبد الواحد العودة الى مراكش • ولكن عهد أبى العلاء كان قصيرا فلم يلبث أن توفى بتونس سنة ٦٢٠ هـ (١٢٢٣ م) أى بعد عامين فقط من توليه امارة افريقية • وقدم ابنه من القيروان بعد أن وصله كتاب الخليفة (عبد الواحد المعروف بالمخلوع) بولاية افريقية مكان أبيه [٩] •

ب — تطور نظام الخلافة الموحدية فى عهد بنى عبد المؤمن :

ولنقف قليلا لنسترجع ما وقع فى نظام الخلافة الموحدية وتعاليم المهدية التومرتية فى عهود بنى عبد المؤمن •

---

(٨) الوزير السراج ، الحلل اسندسية ح ١ ص ١٠٢١

(٩) الوزير السراج ، الحلل السندسية ج ١ ص ١٠٢٣ . الزركشى ، المصدر السابق ص ٢٠—٢٢

فقد سبق فى الصفحات الاولى من البحث وحسبما سيتأكد تفصيليا فيما بعد الحديث عن الاساس الفكرى فى نشأة الخلافة الموحديـــة ونهج التمييز الذى أخذ به ابن تومرت وعبد المؤمن وخلفاؤهما فى سبيل الحفاظ على هذا الاساس • وكما سنوضح فيما يلى من فصول ، ذهبت الخلافــة الموحدية الى ترجيح المقومات الفكرية لحركة الموحدين على المقومـــات السياسية والاقتصادية التى سبق أن تفوقت فى عصر الدولة المرابطيـــة وكان ذلك الاساس الذى قامت عليه الثورة الموحدية • وبعد انتصــــار الثورة الموحديه وتطور نظام دولتها الناشئة ، ظهرت الحركة الفكريـــة الموحدية وكأنها قد استقرت على قاعدتين : احداهما فقهية استمـــدت أصولها من المذهب المالكى ، والاخرى عقائدية أخذت بالمذهب الاشعرى• وبعد استكمال بناء الدولة وبلوغ امبراطوريتها الى منتهاها فى الفتــوح والتوسع ، عادت المقومات السياسية والاقتصادية تتغلب علـــى الاسس الادارية فى الدولة ومن ثم أصبح حديث نهج التمييز مجرد رمز سياسى يجرى من أجل السلطة والحكم • ومثل هذا الحديث ينطلق أيضـــا على بقية شعارات الدولة المأخوذة عن الاصول الفكرية المهدوية للثـــــورة الموحدية • ومع ذلك ، فان مجرد الاحتفاظ بهذه الشعارات كان يعنى أن الدولة قد استمرت تتمسك ببعض أصولها الفكرية ، ومن ثم حفظـــت لخلافتها المغربية مقوماتها المتميزة فى مجال المنافسة بينها وبين الخلافــة المشرقية • وكان فى مقدمة هذه الشعارات تصدير الرسائل والخطـــب الموحدية بأسم « الامام المعصوم والمهدى المعلوم » واستمرار نقش أسم المهدى فى السكة الموحدية وترديده فى كافة الشعارات [١٠] •

ثم حدث بعد وفاة المهدى انشقاق فى أهل بيته من هرغة وتينمـــلل

---

(١٠) ابن صاحب الصلاه ، المن بالامامة ص ٦٦

على خلافة عبد المؤمن الى تعيين أبنائه على الاقاليم وما حمله هذا التعيين من معالم سياسية غالبة على غيرها من المعالم التى حملتها شعـــارات الثورة المهدية التومرتية • وزاد من غلبة المعالم السياسية اقدام عبـــد المؤمن فى عام ٥٤٨ هـ / ١١٥٤ م على التخلص من هؤلاء المنشقين بالقتل وتهجير بنى أمغار الى فاس واصدار الامر الى واليها الجيانى بـــأن يتعهدهم بالحراسة • وبذلك ، أخفقت المحاولة الاولى لثورة بيت المهدى بزعامة أخويه عيسى وعبد العزيز وأشياعهما من أهل هرغة وتينملل (١١)

ولم يلبث هؤلاء أن تمكنوا من الفرار الى مراكش حيث شرعـــوا فى الاعداد للثورة على عبد المؤمن من جديد • فتوجهوا الى واليها عمر بـــن تفراجين لاخذ مفاتيح المدينة وأمروا عبيدهم بقتله لرفضه أمـــرهم • وخرجت المدينة لقتالهم ، فقتل العبيد بالصباغين وعبد العزيز ببـــاب الدباغين ، وعيسى عند باب ايلان ، وكاتبهم بباب أغمات ، وأخرجتـــهم العامة وعلقتهم بباب الشريعة • وعندما تم القبض على أولادهم ونسائهم عثر معهم على مجموعة كبيرة من الكتب تتضمن أسماء بقية المشتركين فى الثورة فأمر عبد المؤمن الحدادين بعمل القيود ، واستقدمهم مكبلين أمامه فى قصره ، فأمربقتلهم جميعا • وقدر عدد هؤلاء بنحو ٣٠٠ نهم خمســة من أعيان نجار المدينة (١٢) •

---

(١١) ولى الخليفة عبد المؤمن بن على أبناءه باسم السادة على الاقاليم الموحدية : أبو محمد عبد الله ببجاية وعمر فى تلمسان ، ويوسف فى اشبيلية ، وأبو سعيد فى غرناطة وعلى فى فاس وأبو الربيع فى تادلة ، وأبو زيـــد بن اللمطية فى السوس . (البيذق ، أخبار المهدى ص ٦ــ٧٧ . الوزير السراج ، الحلل السندسية ج ١ ص ٩٩١ . ابن عذارى ، البيان ، ج ٣ ص ٢٨) .

(١٢) بزودنا البيذق بتفصيلات عن قتلهم فيقول : « .. جمع السوقة صغيرهم وكبيرهم وقال لهم : اليوم أعرف أن مالى اخوانا ولا جيرانا غيركم وأنتم أهل الامانات ، بارك الله لنا فيكم ، وأعطاهم السلاح سيوفا ورماحا ودرقـــــا وسكاكين وأمرهم أن يعملوا زقاقا من ايمى ن نكمى (أى باب الدار بالبربرية)

وفى ظل المبادىء الفكرية للثورة الموحدية لم يكن هناك معنى ولا مغزى لثورة بيت المهدى . فالبيعة بالخلافة بعد المهدى تمت لعبد المؤمن الرفيق الاول للمهدى ، على نهج خلافة السلف الصالح . وتمسك عبد المؤمن فى سيرة حكمه بشعارات الثورة الفكرية الموحدية وقرب اليه من بقى من صحابة المهدى العشرة ، لا سيما الصاحب الاكبر أبو حفص . ولم يلبث الحكم بعد عبد المؤمن أن انحصر فى أسرته داخل نطاق من النظام الوراثى مع التمسك الظاهرى بشعارات الثورة الفكرية الموحدية (١٣) . وجاء التغيير الجدرى الثانى فى عهد الخليفة يعقوب المنصور ، عندما أجرى عدة تعديلات فى الاصول الفقهية والعقائدية للدعوة الموحدية بحجة أن الفقهاء قد تفرعوا بهذه الاصول مذاهب عدة . فأصدر أمره باحراق كتب هؤلاء الفقهاء ومنع الناس من الخوض فى علم الاصول والكلام وألف كتابا يلغى به كتاب المهدى جمع فيه من الكتب الصحاح ما يتعلق بأمور الدين وشجع الناس على حفظه بالمنح والاموال . وأمر على حد قول المراكشى . « جماعة ممن كان عنده من العلماء والمحدثين بجمع الاحاديث من المصنفات العشرة الصحيحين والترمذى والموطأ وسنن أبى داودوسنن النسائى وسنن البزار وسنن ابن أبى شيبة وسنن الدارقطنى وسنن البيهقى فى الصلاة وما يتعلق بها على نحو الاحاديث التى جمعها محمد بن تومرت فى الطهارة فأجابوه الى ذلك وجمعوا ما أمرهم بجمعه » (١٤) .

حتى الى السجن ، وأمرهم باخراج أعداء الله من السجن عشرة فى عشرة ، وكانوا يقتلون بخصائصهم ، فكل من قال منهم لاى شىء أقتل ؟ قيل له هذا كتابك ، فيمط كتابه بيده ، كذلك فعل بهم حتى ماتوا جميعا .. فى عام ٥٤٩ هـ» البيذق ، نفس المصدر ، ص ٨ــ٧٩

(١٣) الجرارى ، الموحدون ، ص ١٠٦

(١٤) المراكشى ، المعجب ، ص ١٨٤ ، ابن الابار ، التكملة ج ٢ ص ٥٦٣ ابن الاثير الكامل فى التاريخ ، ج ١٢ ص ٥٧

وفى رأى البعض أن مسلك المنصور هذا كان يستهدف محو مذهب مالك كلية من المغرب وحمل الناس على الظاهر من القرآن والحديث ، اذ لم يكن مؤمنا ايمانا كاملا بعصمة المهدى ولا بمذهبه (١٥) ، فكان يسأل الطلاب والعلماء عما يقرأونه ويغضب عندما يجد الطالب يقرأ تأليف المهدى ويقول : « ما هكذا يقول الطالب انما حكمك أن تقول قرأت كتاب الله وقرأت شيئا من السنة » (١٦) . ويتأكد عدم ايمانه بامامة المهدى من قوله لأحمد بن مطرف المرى ، وكان شيخا صالحا : « يا أبا العباس اشهد لى بين يدى الله عز وجل أنى لا أقول بالعصمة » . وفى مناسبة أخرى ، استأذنه فى فعل شىء يفتقر الى وجود الامام فخاطبه قائلا : « يا أبا العباس أين الامام ... أين الامام » (١٧) .

وتتمثل فى قول القاضى الموحدى حفص بن عمر صورة لمؤثرات الحملة المذهبية المذكورة على الحركة الفكرية المعاصرة ، يقول : « اياكم والقدماء وما أحدثوا ، فأنهم عن عقولهم حدثوا . أتوا من الافتراء بكل أعجوبة وقلوبهم عن الاسرار محجوبة ، الانبياء ونورهم ، لا الاغبياء وغرورهم عنهم يتلقى وبهم يدرك السول » (١٨) .

ويبرر مثل هذا التدخل من جانب يعقوب المنصور فى الاطار الفكرى لدولته وخلافته قوة هذا الخليفة الموحدى وعظمة شخصيته المهيمنة والمتسلطة على كل شؤون دولته ، وضخامة انجازاته بالاضافة الى اجماع الموحدين حول كلمته . ولكن عندما يأتى مثل هذا التدخل من ابنه المأمون الذى يبلغ بتدخله الى حد اصدار أمره بابطال العقيدة

---

(١٥) المراكشى ، المصدر السابق ، ص ١٨٥—١٨٦
(١٦) المراكشى ، نفس المصدر ، الجرارى ، المرجع السابق ص ١٠٧
(١٧) المراكشى ، المعجب ص ١٩٣ الجرارى ، الموحدون ، ص ١٠٧
(١٨) جنون ، النبوغ المغربى ، ج ٢ ص ٣٥

التومرتية كلية ، فان الامر يتجاوز الحدود ويتحول هذا التدخل من جانبه الى مجرد بدعة من البدع التى تردت فيها الدولة الموحدية بعد موت يعقوب المنصور . فقد كان الحفاظ على هذه العقيدة ولو اسميا أمام الاخطار التى تكالبت عليها وهددت بسقوطها تزاحم الاعداء على الاندلس واستقلال بنى حفص بافريقية ، وتغلب بنى مرين على المغرب واستحوذاهم على جميع بواديه .

ولقد واجه المأمون مع اتمام بيعته فى شوال ٦٢٤ ه / نوفمبر ١١٢٧ م هذه الاخطار الى حد القول فى احدى خطبه : « معشر الموحدين لا تظنوا انى أنا ادريس الذى تندرس دولتكم على يده ، كلا انه سيأتى بعدى ان شاء الله »[١٩] . ومع ذلك ، كانت ثورة المأمون الكبرى على العقيدة التومرتية بنبذ فكرها ومهدويتها وأمامتها وعصمتها والى حد لعن المهدى فى خطبه علنا على المنابر فى جميع بلاده ومحى اسمه من النقش فى السكة وقطع النداء الذى كان معمولا به منذ بدء الدولة الى عهده[٢٠] ، وكتب فى كتبه بذلك الى جميع الاقطار بخط يده للعمل بها . وكان يرى أنه ليس الوحيد الذى هم بصدع ذلك الفساد بل كان والده الخليفة يعقوب المنصور من قبل يعمل على تحقيقه ولكن حياته لم تطل لاتمام ذلك العمل الجليل الذى وقع عبء تنفيذه عليه . وفى ذلك يقول فى رسالته : « من عبد الله ادريس أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين الى الطلبة والاعيان والكافة ، ومن معهم من المؤمنين والمسلمين ، أوزعهم الله شكر نعمه الجسام ، ولا أعدمهم طلاقة أوجه الايام الوسام ، وانا كتبناه اليكم كتب الله لكم عملا منقادا ، وسعدا وقادا ، وخاطرا سليما ،

---

(١٩) ابن الخطيب ، الاحاطة ح ١ ص ٤١٩—٤٢٠ . ابن أبى زرع ، القرطاس ، ص ٢٥١ . السلاوى ، الاستقصا ح ٢ ص ٢٣٨

(٢٠) ابن عذارى ، البيان ح ٣ ص ٢٦٧

لا يزال على الطاعة مقيما ، من مراكش كلاها الله تعالى وللحق لسان ساطع ، وحكم قاطع ، وقضاء لا يرد ، وباب لا يسد ، وظلال على الآفاق ، تمحو النفاق ، والذى نوصكم به تقوى الله • والاستعانة به ، والتوكل عليه ، ولتعلموا أننا نبذنا الباطل وأظهرنا الحق ، وأن لا مهدى الا عيسى بن مريم الناطق بالصدق ، وتلك بدعة قد أزلناها ، والله يعيننا على القلادة التى تقلدناها ، كما أزلنا لفظ العصمة عمن لا تثبت له عصمة ، وأسقطنا عنه وصفه ورسمه ، وقد كان سيدنا المنصور رضى الله عنه هم أن يصدع بما به الآن صدعنا ، وأن يرقع للامة الخرق الذى رقعناه ، فلم يساعده لذلك أمله ، ولا أجله اليه أجله ، فقدم على ربه بصدق نية ، وخالص طوية ، واذا كانت العصمة لم تثبت عند العلماء للصحابة فما الظن بمن لا يدرى بأى يد يأخذ كتابه أف لهم قد ضلوا وأضلوا ، وسقطوا فى ذلك وزلوا ، اللهم اشهد أننا نبرأنا منهم تبرأ أهل الجنة من أهل النار ، ونعوذ بك من أمرهم الرثيث ، وفعلهم الخبيث ، لانهم فى المعتقد كفار ، والسلام على من اتبع الهدى واستقام » [٢١] •

كان المأمون الموحدى أديبا بليغا ، ومع ذلك فان ثورته المذهبية تلك ترتبط ارتباطا وثيقا بمبايعته بالخلافة الموحدية • صحيح أن بيعة أهل الاندلس ومراكش وصلت اليه فى سنة ٦٢٤ هـ (١٢٢٦ م) الا أن أشياخ الموحدين نكثوا بيعتهم له بعد أن أقدم على قتل أخيه العادل ثم بايعوا ابن أخيه يحيى • وعرف المأمون بنكث الموحدين وهو فى طريقه الى مراكش قادما من الاندلس ، فأنشد قول الشاعر تمثلا بالخليفة الراشد عثمان بن عفان (رضى الله عنه) :

---

(٢١) كتاب الوثائق ، وثيقة رقم ٨٩ ص ٢٦٤ . أنظر ايضا فى : ابن عذارى ، البيان ، ج ٣ ص ٢٦٧ـ٢٦٨ . مجهول ، الحلل ص ١٣٧ . ابن الخطيب ، الاحاطة ج ١ ص ٤١٩ـ٤٢٠ . جنون ، النبوغ المغربى ج ٢ ص١٠٢

لتسمعن ونيكا في ديارهم
باللرجال الى نارات عثمانا [٢٢]

كان المأمون داهية سياسية عندما استعان بالقاضى أبى الوليد بن أبى الاصبع بن الحجاج سنة ٦٢٤ هـ (١٢٢٦ م) لاعداد خطبة عيد الفطر حتى يتهيأ له أن يكشف ما فى نفوس أشياخ الموحدين نحوه اذا ما كانوا يضمرون الغدر به أم يسكنون عنه وفى هذا المسلك تحد صريح لاشياخ الموحدين • ثم عمد الى تأمين ظهره فاتصل بملك قشتالة ليمده بجيش يساعده على قتال ابن أخيه يحيى • وبعد أن وصل الى مراكش سنة ٦٢٧ هـ (٨ — ١٢٢٩ م) أمر أشياخ الموحدين وأعيانهم بالمثول بين يديه ، وخاطبهم بقوله : « يا معشر الموحدين أنكم قد أظهرتم علينا العناد ، وأكثرتم فى الارض الفساد ونقضتم العهود ، وبذلتم فى حربنا المجهود ، وقتلتم الاخوان والاعمام ولم ترقبوا فيهم عهدا ولا زماما ثم أخرج كتاب بيعتهم الذى بعثوا به اليه ، وعاتبهم على نكثهم لهذه البيعة وآدانهم ، فلما ثبتت ادانتهم سقط فى أيديهم ، فالتفت الى قاضيه (المكيدى) الذى قدم معه من اشبيلية وقال له : « ما ترى أيها القاضى فى أمر هؤلاء الناكثين ؟ » فقال : « يا أمير المؤمنين ان الله تعالى يقول :«ومن نكث فانما ينكث على نفسه » • فقال المأمون : « صدق الله العظيم ، فانا نحكم فيهم بحكم الله ، ومن لم يحكم بما نزل الله فاولئك هم الظالمون » [٢٣] •

ثم أصدر المأمون أمره بعد ذلك بسحب جميع أشياخ الموحدين

---

(٢٢) ابن أبى زرع ، القرطاس ص ٢٥٠
(٢٣) عن تدبير الخطبة أنظر : ابن عذارى ، البيان ج ٣ ص ٢٥٤ ، ٢٥٦ ابن أبى زرع ، القرطاس ، ص ٢٥١ . السلاوى ، الاسنقصا ج ٢ ص ٢٣٨ جنون ، النبوغ ج ٢ ص ١٠٤

وأشرافهم الى مصارعهم ، فقتلوا جميعا ولم يبق منهم لا على صغير ولا كبير . ويسوق لنا ابن عذارى أيضا قصة تصور مدى عنف المأمـون فى علاج مسألة بيعته الى حد أنه لم يراع أى صلة قربى أو رحم ، ولا حتى الطفولة البريئة ، وذلك عندما أتى دور ابن أخت له صغير يبلغ من العمـر ثلاث عشرة عاما وخاطبه قائلا : « يا أمير المؤمنين أعف عنى لثلاث ، صغر سنى ، وقرب رحمى ، وحفظى لكتاب الله العزيز » . فنظر المأمـون الى قاضيه يستشيره قائلا : « كيف ترى قوة جأش هذا الغـلام وأقدامه على الكلام فى هذا المقام ؟ » فقال القاضى : « يا أمير المؤمنين انك ان تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا الا فاجرا كفارا » فأمر به فقتل [٢٤] .

وفى رواية أخرى أن ما يزيد على أربعة آلاف رأس مـن رؤوس القتلى سيقت الى مراكس ، وعلقت على أسوارها الى أن فاحت الروائح الكريهة منها فطلب منه كاتبه الفزارى ازالتها ، فكان جواب المأمـون : « ان هاهنا مجانين ، هذه الرؤوس أحراز لهم ، عطرة عند المحبين كريهة عند المبغضين » [٢٥] . وهذا يعنى فى نظر المأمون أن ما فعله انذار لكل من تسوله نفسه على الخروج على تعاليمه ومخالفته ، وأن هـؤلاء القتلى استحقوا تلك العقوبة وفى ذلك يقول متوعدا كل مخالف :

أهـل الحراب والفساد فى الـورى
يعـزون فى التشبيـه للذكـار
ففسـاده فيـه الصـلاح لغيـره
بالقطـع والتعليق فى الاشجـار

---

(٢٤) ابن عذارى ، المصدر السابق ، والصفحة .

(٢٥) الحلل ، ص ١٣٨—١٣٩ . السلاوى ، نفس المصدر ص ٢٣٨

ذكـــارهم ذكـــرى اذا ما أبصـــروا
فـــــوق الجذوع وفى ذرى الاســـوار
لـــــو عم حكم اللـــه ســـــائر خلقـــه
ما كـــان أكثرهم من أهـــل النـــار (٢٦)

لم نقف ثورة المأمون على الموحدين عند حد هذه المذبحة الاليمـــــة التى أنزلها بهم ، بل تعداها الى النيل من العقيدة التومرتية كما سبـــق الذكر . وتمادى أكثر فى هذا السبيل ، فألغى ما أبتدعه المهدى من نداءات بربرية فى الصلاة مثل القول فى آذان الصبح « أصبح ولله الحمـــــد ، تاصليت الاسلام . سودود ناردى » (٢٧) . وبلغ الامر حد محـــو اسم المهدى من السكة بل أمر فى عام ٦٢٧ هـ بتدوير الدراهم التى كان قـــــد ضربها المهدى مربعة . وكانت دراهم الموحدين تمثل مرحلتين : الاولى فى عهد عبد المؤمن ومن جاء بعده من الخلفاء الذين كانوا يعترفون بامامـــة المهدى وتتميز بأن وجه بعض الدراهم وأنصافها من هذا العهد قـــد نقش على وجهه . « الله ربنا ، محمد رسولنا ، المهدى أمامنا » ،والمرحله الثانية بعد رفض أمامة المهدى ابتداء من عهد المأمون وقد نقش على وجههـــــا « الله ربنا ، محمد رسولنا ، القرآن امامنا » (٢٨) .

ولم تلبث العقيدة التومرتية أن استعادت شرعيتها فى عهد الرشيد

---

(٢٦) ابن عذارى ، نفس المصدر ، ص ٢٦٦ . الحلل نفس الصفحة .

(٢٧) ابن عذارى ، نفس المصدر ص ٢٦٧ . ابن الخطيب ، الاحاطة ، ص ٤١٩ـ ٤٢٠ . السلاوى ، الاستقصا ج ٢ ص ٢٣٥ . عنان ، عصـــــر المرابطين ، العصر الثالث ، ص ٢٧٠

(٢٨) د. عبد الرحمن فهمى ، فجر السكة العربية من مجموعات متحف الفن الاسلامى ، القاهرة ، ١٩٦٥ ، ص . أنظر أيضا :

— Lavoix, H.; Catalogue des Monnaies Musulmanes de la Bibliothèque Nationale, 3 Vols, Paris, 1887, p. 192.

بن عبد المؤمن ، ومن ثم استعاد أشياخ الموحدين مكانتهم [٢٩] وأكتسبت الدولة الموحدية من جديد بعض مقوماتها التاريخية التى كانت قد أفتقدتها فان تعاقب الثورات، وحوادث اخمادها فى تلك الصورة الدامية المذكـورة كان قد أثر تأثيرا مباشرا على المقومات السياسية والحربية والاقتصادية اللازمة لضمان استقرار الخلافة الموحدية فى المغربين الاقصى والاوسط. لذلك ، جاء بعث الروح فى هذه الخلافة على يـد أبى زكرياء الحفصى فى افريقية حصيلة طبيعية تجمع فيها كل صوت موحدى مؤيد لاستمـرار الدولة الموحدية وخلافتها .

ج — دولة أبى زكريـا الحفصى [٣٠] :

بدأ أبو زكريا جهوده لسلب مراكش خلافتها الموحدية وذلك عـن طريق بث العيون فى الامصار الغربية لتأليب أهلهـا على المستضعفين من الموحدين الذين محوا أسم المهدى ورسمه . وبدأ بأخيه عبو والى افريقية الذى رفض خطته الثورية ، فاتفق مع زعماء قابس على التخلص منـه ، ونجح فى اغراء فقهاء القيروان بالخطبة له سرا فى تونس . ولم يلبـث أبو زكريا . أن استولى فى عام ٦٢٥ هـ / ١٢٢٧ م على القيروان ثم اتجه الى تونس فدخلها فى رجب من نفس العام . وفى العـام التالى ، أعلنت طرابلس ولاءها له وتمكنه فيها بين عامين ٦٢٨ — ٦٣١ هـ / ١٢٣٠ — ١٢٣٣ م من ضم القسم الشرقى من المغرب الاوسط على أثر حملـة سيرها الى تلمسان قوامها أربعة وستون ألف مقاتل بسبب وقـوف بنى يغمراسن الزيانيين بها ضد دعوته . وفى هذه الحملة ، تقـدم كل من عبد القوى بن توجين وأبى العباس بن منديل المغراوى — أقوى زعماء زناتة

---

(٢٩) ابن عذارى ، البيان ج ٣ ص ٣٠٥—٣٠٦

(٣٠) الوزير السراج ، الحلل السندسـية ج ١ ص ١٠٢٣ — ١٠٢٧ . الزركشى ، تاريخ الدولتين ص ٢٧ . ابن أبى دينار ، المؤنس ص ١٢٣ .

فى غرب الجزائر — لمساعــدة أبى زكريا فى انتزاع تلمسان[٣١] من أيدى الزيانيين ، وتم استيلاء الحفصيين على تلمسان فى عام ٦٤٠ هـ / ١٢٤٢ م

تمت البيعة الاولى لابى بكر زكريا للخلافة الموحدية فى عام ٦٢٦هـ—١٢٢٨م من أشياخ الموحدين فى افريقية وطــرابلس وقسنطينة وبجاية • وجاءت البيعة فى عام ٦٣٤هـ — ١٢٣٧م من كافة الموحدين خواصا وعواما واكتفى أبو زكريا بلقب الامير فى الخطبة مع ذكر اسم المهدى وخلفــائه • ومن ثم أهمل كلية ذكر اسم الخليفة الموحدى (المأمون) فى مراكش كما أن تلقبه بالامارة لم يستكمل بعد رسم « أمير المؤمنين » بالرغم من ميل الشعراء الى الاخذ بالرسم الكامل فى المديح لابى زكريا[٣٢] •

ومع ذلك ، فقد اعتمد الحفصيون فى اعلان خلافتهم بافريقية والمناطق التابعة لهم على الاصل العــربى ، والنسب النبوى ، الى جانب قرابتهم للموحدين ، فــزعموا أنهم من ســــلالة الخليفـــة أبى حفــص عمر بن الخطاب[٣٣] ، وهكذا توفرت لديهم كل المقومات الشرعية ليرثوا خــلافة المــوحــدين •

وفى سنة ٦٤٠هـ — ١٢٤٢م تلقى أبو زكــريا البيعة من كل من قصر عبد الكريم وسبتة وسجلماسة وبينما عادت سجلماسة فى نفس السنة الى التبعية لبنى عبد المؤمن فى مراكش فان ابن خالص حاكم سبتة ظل يحــكم

(٣١) أبو زكريا يحيى بن خلدون (ت ٧٨٠ هـ / ١٣٧٨ م) ، بغية الرواد فى ذكر ملوك بنى عبد الواد ، نشره ألفرد بل ، الجزائر ١٩٠٣ ، ص ٩—١٠ ، ٢٠—٢١ •

(٣٢) السلاوى ، الاستقصا ، ج ٣ ص ٢٢٦—٢٢٨ •

(٣٣) العبادى ، دراسات فى تاريخ المغرب والاندلس ص ٣—١٢٤ • واعتزازهم فهم بهذا الاصل أطلق كتابهم وشعراؤهم على دولتهم أسم العمرية والفاروقية . أنظر أيضا :

— Brunschvig; La Berbérie Oriental Sous Les Hafsides, II, p. 18.

هذه المدينة باسم الامير أبى زكريا الحفصى[٣٤] . وحدث فى عام ٦٤٦هـ — ١٢٤٨م أن استولى النصارى على اشبيلية التى كانت تدعو له ، كما توفى فى نفس العام ابنه يحيى وولى عهده ونائبه على بجاية . ومن ثم انتقلت ولاية العهد الى ابنه الثانى المستنصر قبل عام واحد من وفاة أبى زكريا . وكان الجديد البارز فى حوادث هذه الفترة أن الدولة الحفصية الفتية أصبحت أمل أهل الاندلس الذين سقطت مدنهم تباعا وأصبحت ملاذا لهجرة العديد من الاندلسيين الساعين الى الحمايه الحفصية وترددت أصوات شعراء الاندلس تستنهض همم الحفصيين معقد آمالهم من ذلك قول ابن الآبار :

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا　　　أن السبيل الى منجاتها درسا[٣٥]

ويذكر المقرى فى أزهار الرياض أن أبا زكريا الحفصى أرسل أسطولا من ١٨ سفينة شحنها بالمؤونة والسلاح ، ولكن هذه السفن أخفقت فى تفريغ شحنتها لشدة الحصار المحكم حولها واضطرت لافراغ حمولتها فى دانية أما بلنسية فقد استسلمت للعدو فى ١٧ صفر سنة ٦٣٦هـ — سبتمبر ١٢٣٨م[٣٦] .

---

(٣٤) ابن القنفذ ، الفارسية فى مبادىء الدولة الحفصية ، ص ١١٠ .

(٣٥) أزدهرت الدولة الحفصية فى عهد أبى زكريا وتقاطرت عليه البيعات من مختلف الانحاء ، فوصلت اليه فى عام ٦٤٣ هـ البيعة من أشبيلية والمرية وشريش وطريف (أنظر ، ابن القنفذ ، الفارسية ، ص ١١٠) ويذكر الزركشى أنه نتيجة لتضييق العدو على أهل الاندلس ، استغاث أبو جميل زيان بن أبى الحملات مدافع أمير بلنسية بأبى زكريا وأرسل له ببعته فى سنة ٦٣٦ هـ مع ابن الابار صاحب تلك القصيدة (تاريخ الدولتين ، ص ٢٧) وكاتبه ووزيره الذى أرسله سفيرا من قبله مع وفد من أهل بلنسية يستصرخ أبا زكريا يحيى لانجاد بلنسية قبل أن تقع فى قبضة ملك أرغونة . وقد روى ابن الابار فى الحلة السيراء أنه قدم تونس رسولا من قبل أبى جميل زيان بن سعد والى بلنسية ودانية فى منتصف عام ست وثلاثين وستماية (ابن الابار ، التكملة لكتاب الصلة ، ج ١ ترجمة رقم ٧٠٥) .

(٣٦) د. عبد العزيز سالم ، المغرب الكبير ، ص ٨٣١ (١٩٦٦م) .

(٢)

تطور العلاقات الخارجية للحفصيين مع المشرق الاسلامى
(فى عهود الخلفاء : المستنصر ــ اللحيانى ، الواثق ــ أبى العباس)

جاء فى وصية أبى زكريا لابنه المستنصر من الارشادات عن قواعد الحكم الصالح ما يعد ترجمة صادقة للسياسة التى اتبعها فى ارساء أسس دولته والتجارب التى خاضها فى علاقاته السياسية المختلفة . فكانت الوصية أشبه بدستور مرشد بليغ ، الامر الذى تستحق من أجله أن يسجل بعض ما جاء فيها فى هذا الموضوع من البحث ليكون منارا يلقى الضوء على ما يليه من أخبار الدولة الحفصية .

يقول أبو زكريا فى وصيته المذكورة : « سددك الله وأرشدك وهداك الى ما يرضيه وأسعدك ، وجعلك محمود السيرة ، مأمون السريرة : أن أول ما يجب على من استرعاه الله فى خلقه ، وجعله مسؤولا عن رعيته ، أن يقدم رضاء الله تعالى فى كل أمر يحاوله ، وأن يكل أمره وحوله وقوته لله ، ويكون عمله وسعيه وذويه من المسلمين وحربه ، وجهاده للمؤمنين بعد التوكل . وأحسن الى كبير جيشك وصغيره ، الكبير على قدره والصغير على قدره ، ولا تلحق الحقير بالكبير ، فيكون احسانك اليه مفسدة فى كلا الوجهين ، ويضيع احسانك ، وتشتت نفوس من معك فاتخذ كبيرهم أبا وصغيرهم ابنا، اخفض لهم جناح الذل من الرحمة ، وشاورهم فى الامر ، فاذا عزمت فتوكل على الله ان الله يحب المتوكلين . واتخذ نفسك صغيرة ، وذاتك حقيرة ، ولا تسمع كلام الغالطين ، وعليك بتفقد أحوال رعيتك والبحث عن عملهم ، والسؤال عن سيرة قضاتهم فيهم ولا تنم عن مصالحهم ، ولا تسامح أحدا

فيهم ، فاكشف عنهم كلمة ملمة ، ولا تراع فيهم كبيرا ولا صغيرا اذا عدل عن الحق »[٣٧] .

عمل أبو زكريا على تدعيم علاقاته بكل الدول المحيطة الاسلامية كانت أم مسيحية ، فقد عقد معاهدات تجارية وحسن الجوار مع البندقية فى سنة ٦٢٨هـ — ١٢٣١م ، ومع بيزة سنة ٦٣٢هـ — ١٢٣٤م ، ومع جنوة سنة ٦٣٤هـ — ١٢٣٦م ، وفى عام ٦٣٧هـ — ١٢٣٩م أرسل اليه فردريك الثانى ملك صقلية قنصلا كما أقام مع ملك أرغمون علاقات دبلوماسية[٣٨] .

هذا ولقد أقام أبو زكريا مع السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب فى مصر علاقات ودية تظهر من خلال الحملة التى شنها الصليبيون على دمياط فى عام ٦٤٧هـ — ١٢٤٩م وكان أبو زكريا قد وصلته أنباء مسبقة عن تلك الحملة على مصر فأرسل الى الملك الصالح يحذره لكى يؤمن جانبه ويتخذ أهبته لمنازلة الحملة . وتتضارب أقوال المؤرخين بشأن هذا الخبر فمن رأى المقريزى على سبيل المثال أن الملك الصالح كان فى دمشق بالشام آنذاك[٣٩] وأن الامبراطور فردريك الثانى (ملك صقلية) بحكم علاقات الصداقة القائمة معه من عهد الملك الكامل قد أسر الى الملك الصالح بعزم لويس التاسع ملك فرنسا على السير الى أرض مصر وامتلاكها . وكان الملك الصالح أيوب مريضا فى تلك الفترة ، فحمل الى مصر على محفة ليكون قريبا

---

(٣٧) ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٦٢٠—٦٢٣ .

(٣٨) بوفاة أبى زكريا سنة ٦٤٧ هـ / ١٢٤٩ م نقض نصارى صقلية عهدهم وعذبوا المسلمين وأجلوهم عن ديارهم وطردوهم الى افريقية بل تجاوزوا ذلك الى طرد مسلمى جزيرة مالطة أيضا . أنظر :

— Abun Nasir; Ibid., p. 139—140.

— Burnschivg, La Berbérie, T. I, p. 34.

(٣٩) المقريزى ، الخطط ، ج ٣ ص ٣٨٤ .

من ميدان المعركة[٤٠] • ويؤكد ابن القنفذ أن الملك الصالح علم بأمر تلك الحملة وهو بمصر[٤١] ، وأنه سمع بخبرها من رسول أبى زكريا اليه ، وفى ذلك يقول : « ••• وأنه لما تحقق قصد الفرنسيس الى الديار المصرية قبل أن يبلغ ذلك الملك الصالح فوجه كتابه فى ذلك فى البر الى الملك الصالح فدخل عليه الرسول بالقاهرة فجاءه بالكتاب ، فاذا فيه بالاعلام بما عزم عليه العدو — دمره الله — والاعتذار على عدم المبادرة اليه بنفسه وجنده ، لما يخشى من عدو صقلية المجاورة له ، ومن أعراب افريقية »[٤٢] •

وبلغت علاقات حسن الجوار بين الحفصيين فى افريقية والايوبيين فى مصر فى تلك الآونة درجة كبيرة من الود الى حد أن الاسكندرية اعتبرت لدى الحفصيين موطنا للاعيان المغضوب عليهم من الدولة الحفصية • وفى هذا يروى الزركشى عن الوزير الحفصى ميمون بن موسى الهنتاتى الذى غضب عليه أبو زكريا وقبض عليه فى عام ٦٢٦هـ — ١٢٢٩م واستصفى أمواله ثم « بعث به الى قابس واعتقل بها مدة طويلة ، ثم صرفه الى الاسكندرية • واستوزر مكانه أبا يحيى بن أبى العلاء بن جامع الى أن هلك فاستوزر من بعده بن أخيه »[٤٣] •

وقد استطعت أن أصل فى تفسير التقارب الودى القائم بين العاهلين الحفصى والايوبى الى الافتراضات التالية وذلك من خلال دراستى للنصوص القليلة المتعلقة بعلاقات أبى زكريا السياسية مع الايوبيين ،

---

(٤٠) المقريزى ، الخطط ، ج ٣ ، ص ٣٨٤ ، المقريزى ، السلوك ، ج ١ ص ٣٣٤—٣٣٥ . سعيد عاشور وآخرون ، مصر فى العصور الوسطى ،القاهرة ١٩٧٠ ص ١١٢ .

(٤١) ابن القنفذ ، الفارسية ، ص ١١٢ .

(٤٢) ابن القنفذ ، نفس المصدر والصفحة .

(٤٣) الزركشى ، تاريخ الدولتين ، ص ١٩ ، ٢٤ . أنظر أيضا : ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٥٩٦ .

والعلاقات الدولية المتوازية التى أقامها مع الدول المجاورة ، ومن خلال وصيته لابنه بشأن أساليب الحكم الصالح :

١ — من الجائز أن يكون أبو زكريا قد أدرك المتغيرات التى طرأت على العلاقات الموحدية مع المشرق الاسلامى فهذه العلاقات التى كانت تصلح فيما مضى مع خلافة متداعية فى دور الاحتضار مثل الدولة الفاطمية أو مع الخلافة العباسية التى شاخت وتهالكت وحتى مع دولة ناشئة مثل الدولة الايوبية فى عهدها الاول لابد أن تتطور بحكم الاوضاع المتغيرة . فالدولة الايوبية قد اجتازت مرحلة نشأتها وأثبتت مقدرة كبرى على التطور الى دولة اسلامية شرقية كبرى فى ظل الخلافة الروحية للعباسيين .

٢ — لا نستبعد أن يكون أبو زكريا قد ربط بين سياسته الخارجية مع الدول الاسلامية وبين علاقته بدولة الموحدين فى المغرب الاقصى . والظاهر أنه أدرك أن ذلك يستلزم منه أن يحدد أول كل شىء الرابطة السياسية والروحية بين دولته وبين الدولة الام الموحدية فى مراكش . وبالتالى يستلزم الامر تجنب فتح جبهة شرقية مع انشغال الدولة الحفصية بتسوية مسائل علاقاتها المعلقة مع الدولة الام وأملاكها الغربية . ومن الغريب أن ما حدث مع الحفصيين تكرر حدوثه مع الايوبيين ، فقد شهدت الدولة الايوبية بداية حركة انفصالية مماثلة للحركة الحفصية تمثلت فى اقدام المنصور بن رسول عمر بن على بن رسول نور الدين على تأسيس الدولة الرسولية باليمن والاستقلال بها عن الايوبيين سلاطين مصر والشام[٤٤] .

٣ — كذلك لا نستبعد أن يكون كل من الحفصيين والايوبيين قد أدرك

---

(٤٤) ابن خلدون ، نفس المصدر ، ص ٥٩٦ . على بن الحسن الخزرجى كتاب العقود اللؤلؤية فى تاريخ الدولة الرسولية ، تحقيق محمد بسيونى عسل ج ١ ، القاهرة ١٩١١ ، ص ٢٨—٤٤ .

أن الخطر الاكبر على دولتيهما يكمن فيما اذا تصاعـد الخطـر المسيحى (الصليبى) وتجاوز القدرة الجهادية للدول الاسلامية ، لا سيما بعد أن نال الضعف الشديد بكل من الخلافتين الموحدية والعباسية ، ولم يعد التنافس الروحى بينهما ورقة سياسية ضاغطة فى العلاقات الاسـلامية بين المشرق والمغـرب .

ومن خلال هذه الافتراضات ، كان على العلاقات الحفصية الايوبية أن تأخذ بالاعتبار حماية المصالح المشتركة بينهما ودعم روح الجهاد حسبما دلت الاشارات المحدودة السابق ذكرها عن خبر الحملة الصليبية على دمياط وخبر نفى الوزير الحفصى الى الاسكندرية .

وتوفى السـلطان الحفصى أبو زكريا فى بلاد عنـابة (بونة) فى عام ٦٤٧هـ — ١٢٤٩م ودفن بجامعها ثم نقل فيما بعد الى قصبة مدينة قسنطينة. واتفق أن انتهت بوفاته حياة معاصريه من الحـكام الذين ارتبـط معهم بعلاقات ما وهم : الملك الصالح أيوب سلطان مصر والشام[٤٥] ، والمنصور بن رسول صاحب اليمن وملك نصارى الاندلس (الاندور) حسب رسـم صاحب الفارسية[٤٦] . وكانت وفاته العاجلة نهاية لمـا أصابه من غم شديد حزنا على الوفاة المبكرة لابنه وولى عهده المحبب اليـه الذى رثاه بقصيدة جاء فيها :

---

(٤٥) المقريزى ، السلوك ، ج ١ ، ص ٢٩٥ .

(٤٦) هكذا جاء اسم (الاندور) فى الاصل ، والرسم أقرب الى اسم فرناندو القديس . والمعروف فى تاريخ الاندلس أنه ابتداء من عـام ١٢٤٨ م استولى من المسلمين على اشبيلية وجيان وقرطبة ومرسية ملك قشتالة فرناندو الثالث الملقب بالقديس . والمعروف أيضا تاريخيا أن هذا الملك قد مات فى عام ١٢٥٢ وليس فى عام ١٢٤٩م وأن هذا العام الاخير قد شهد أيضا قيام الفونسو الثالث على عرش البرتغال (١٢٤٨ — ١٢٧٩ م) بعد أن قاد الثورة بايعاز من البابوية على حكم أخيه سانشو الثانى . ولعل صاحب الفارسية قد وقع لديه

ألا جازع يبـــكى لفقـــد حبيبـه
فانى لعمـــرى قد أضـــرّ بى الثكل
لقـد كان لى مال وأهـــل فقـدتهم
فهـــأنا لا مـــال ولا أهـــلُ
ســأبكى وأرثى حسرة لفـــراقهم
بـــكاء قـريح لا يمـل ولا يســلُ
فلهجى ليـوم فـرق الدهـــر بيننـا
ألا فـــرج يـرجى فينتظـم الشمـلُ
وأنى لارضى بالقضـــاء وكلمـــة
وأعـــلم ربى انه حاكـم عـــدل(٤٧)

ثم بويع الامير أبو عبد الله بن أبى زكريا (المستنصر) البيعة الاولى فى بونة سنه ٦٤٧ هـ / ١٢٤٩ م بعد وفاة أبيه مباشرة . ثم بويع البيعـة الثانية بعد وصوله الى تونس الحاضرة الحفصية ، فى شهر رجب من نفس السنة . وأحتفظ أيضا بنفس لقب الامير الذى أخذ به أبوه وكان ذلك فى شهر ذى الحجة من عام ٦٥٠ هـ / ١٢٥٢ م .

وبالاطلاع على نص وصية أبيه اليه التى أشرنا اليها من قبل يتضح التناقض أمام الدارسين بينها وبين الوصف الذى أنتهى اليه المؤرخون فى

الخلط بين حدث سقوط هذا الملك البرتغالى صحبه ثورة أخيه وبين حـدث سقوط أشبيلية سنة ١٢٤٨ م على يد فرناندو القشتالى . أنظر ، ابن القنفذ ، الفارسية ، ص ١١٥ .

— Sidney Painter; A History of the Middle Ages, London, 1968, p. 196.
— Atkinson, W.C. A History of Spain and Portugal, London, 1970, p. 92.

(٤٧) ابن عذارى ، البيان ، ج ٣ ، ص ٣٩٤ . ابن الخطيب ، الاحاطة ، تحقيق عنان ، ص ٣٢١ .

قولهم عنه أنه كان فى غاية الجبروت الى حد أن رجال دولته نقموا عليه والى حد أن · عمه أبو عبد الله بن عبد الواحد المعروف باللحيانى أعلن الثورة عليه [٤٨] .

وفى عام ٦٥٠ هـ / ١٢٥٢ م أصبحت علامة الدولة الحفصية بنفس اللقب الخلافى : أمير المؤمنين ولم تمض على ذلك ستة أعوام حتى سقطت الخلافة العباسية فى بغداد على أيدى المغول وقتل الخليفة العباسى المستعصم بالله وخلا المشرق الاسلامى من وجود خليفة عباسى مدة ثلاث سنوات (٦٥٦ — ٦٥٩ / ١٢٥٨ — ١٢٦١ م) . وهذا يعنى أن الخلافة الاسلامية صارت خلافة واحدة هى خلافة الموحدين ، وهو ما تأكد بالفعل عندما أتت البيعة من مكة فى عام ٦٥٧ هـ / ١٢٥٨ — ١٢٥٩ م الى الخليفة الحفصى أبى عبد الله محمد الملقب بالمستنصر [٤٩] . ولم يبق أمام خلافة الحفصيين الموحدية غير علاج ازدواجية رمز السلطة فى هذه الخلافة بين تونس ومراكش . وسرعان ما عادت الخلافة الحفصية الى وضعها السابق على أثر قيام السلطان الظاهر بيبرس باحياء الخلافة العباسية فى مصر فأستقدم أحد امراء بنى العباس وهو أحمد بن الظاهر بن الناصر العباسى من دمشق لهذا الغرض فى عام ٦٥٩ هـ / ١٢٦٠ م ، وأقر القضاة وجماعة العرب اتصال نسبه بنسب العباس بن عبد المطلب فبويع بالخلافة ولقب بالمستنصر بالله ومع ذلك فقد أثيرت الشكوك حول صحة نسب المستنصر هذا وفى ذلك يقول أبو الفداء « وفى هذه السنة قدم الى مصر جماعة من العرب [٥٠] . ومعهم شخص أسود اللون اسمه أحمد زعموا أنه ابن الامام

---

(٤٨) ابن الخطيب ، الاحاطة ، تحقيق عنان ، ص ٣٢٢ .

(٤٩) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢٢٧ .

(٥٠) هم عرب خفاجة (راجع النويرى ، نهاية الارب ، ج ٢٨ القسم الاول ، المقريزى ، السلوك ، ج١ ، ص ٤٤٧ .

الظاهر بالله بن الامام الناصر » (٥١) • غير أن هذا الامام لم يلبث أن قتل على أيدى المغول سنة ٦٦٠ هـ أثناء توجهه الى العراق لاعادة الخلافة العباسيه فى بغداد ، فتأجل البت فى مشكلة الخلافة العباسية الى حين احيائها من جديد بالقاهرة فى عام ٦٦٢ هـ / ١٢٦٣ م فى شخص الامير العباسى أبى العباس أحمد الذى بويع له بالخلافة فى مصر وتلقب بالحاكم بأمر الله • ويعلق المقريزى على وضع الخلافة العباسية الجديدة فى القاهرة بقوله : « •• أن خلافة الخليفة العباسى ، ليس فيها أمر ولا نهى وحسبه أن يقال له أمير المؤمنين » (٥٣) •

معنى ذلك أن الخلافة العباسية فى القاهرة احتفظت بمعالم مشكلتها التى وقف على معالمها ابن تومرت منذ رحلته المشرقية وكانت سببا فى اعلان ثورته المهدوية وقيام الخلافة الموحدية • وقد لحق الحفصيون بنفس الطريق عندما سعوا الى تجديد الخلافة الموحدية ونصبوا أنفسهم عليها فى دولتهم الحفصية • وكان قبول المماليك بخلافة عباسية رمزية حافزا دعا الخليفة الحفصى الى دعوة هؤلاء الى التحول بولائهم الروحى الى الخلافة الموحدية ووضع حد للخلافة المزدوجة • لذلك ، عندما وصلت الى الخليفة المستنصر الحفصى ببيعة شريف مكة (أبو نمى محمد بن أبى سعد الحسن بن على بن قتادة من ولد موسى الجون بن عبد الله المحضى الحسنى) (٥٤) • كان

---

(٥١) المقريزى ، السلوك ، ج١ ، ص ٤٥٣ — ٤٥٧ . ، أبو الفدا ، المختصر فى أخبار البشر ، ج ٣ ، ص ٢١٣ •

(٥٣) المقريزى ، السلوك ، ج ١ ، ص ٥١٢ ، ٥٤٤ . المقريزى ، المواعظ والاعتبار ، ج ٣ ، ص ٣٩٤ •

(٥٤) عبد الملك العصامى المكى ، سمط النجوم العوالى فى أنباء الاوائل والتوالى ، ج ٤ ، ص ٢٢٢ . كتب هذه البيعة : عبد الحق بن ابراهيم بن محمد بن سبعين المرسى عن شريف مكة ، ووصلت على يد أبو محمد ابن برطلة (الزركشى ، تاريخ الدولتين ، ص ٣٧) •

لهذه البيعة المكية وقع كبير فى البلاط الحفصى ، فأحتفل المستنصر الموحدى بها احتفالا عظيما ، وقرأها بنصها الكامل الطويل على منبر جامع الزيتونة ، وتسمى من يومها بأمير المؤمنين ، وسجل الشعراء الحدث حسبما جاء فى الابيات التالية :

أهنـأ أمير المـؤمنين ببيعـة
جـاءتك بالاقبـال والاسعـاد
فلقد حبـاك بمكـة رب الـورى
فأتى بشير بأفتتـاح بـلاد
واذا أتت أم القـرى منقـادة
فمن المبـرة طاعـة الاولاد (٥٥) .

وعن الاحتفال بالبيعة المكية ، يقول ابن خلدون : « .. أن البيعـة لما وصلت استحصر لها السلطان الملا والكافة وقرئت بمجمعهم وقـام خطيبهم القاضى ابن البراء . وفى ذلك المحفل فأبلغ فيها فاحتفـز فى تعظيمها والاشادة بحسن موقعها ، واظهار رفعة السلطان ودولته بطاعة أهل البيت والحرم ودخولهم فى دولته تم جأر فيها للسلطان بالدعاء،وانفض الجميع ، فكان من الايام المشهودة فى دولته » (٥٦) .

ويذكر المقريزى فى السلوك أن بيبرس أراد ابطال ادعاء السلطـان الحفصى بالخلافة فكتب اليه « مثلك لا يصلح أو يلى أمور المسلمين » (٥٧).

---

(٥٥) ابن القنفذ ، الفارسية ، ص ١٢٥ . ويذكر أنه جاء فى نهايـة الرسالة :
(كتبت تجاه الكعبة المعظمة فى الجانب الغربى من الحرم الشريـف) . ص ٢٣٨ .
(٥٦) ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٦٣٤ — ٦٥١ .
(٥٧) المقريزى ، السلوك ، ج ١ ، ص ٤٠١ .

ومع ذلك فقد اختلف الرواة حول تاريخ هذه البيعة فذكر بعضهم انها تمت فى عام ٦٥٥ هـ / ١٢٥٧ م وذكر البعض الآخر أنها أرسلت فى عام ٦٥٧ هـ / ١٢٥٨ م (٥٨) .

أكدت البيعة المكية للخليفة الحفصى الحقيقة بأن الخلافة العباسيةفى الشرق الاسلامى قد فقدت أهم دعائمها بعد أن تلقت الضربة القاضية مرتين على أيدى المغول ، وجاءت البيعة المكية أشبه بضربة كبرى أخرى أنذرت بالقضاء أيضا على محاولة احياء هذه الخلافة فى القاهرة . لذلك كان يحق للدولة المملوكية الناشئة أن تتضرر كثيرا من هذا الحدث وأنيسود التوتر علاقاتها بالدولة الحفصية لفترة زمنية قصيرة . ولكن ظهر أن هذا التوتر لم يمنع اشتراك الدولتين فى التحرر من الخطر الصليبى الذى مثلته حملة لويس التاسع (الحملة الصليبية الثامنة) على تونس سنة ٦٦٨ هـ / ١٢٧٠ م كما سبق أن مثلته نفس الحملة الصليبية على دمياط فى سنة ٦٤٧ هـ / ١٢٥٠ م (٥٩) وأنتهت بأسر لويس فى دار ابن لقمان وتعهده بألا ينزل فى أى أرض للاسلام نظير اطلاق سراحه وبعد عودته الى فرنسا ، حنث بوعده وقرر العودة الى مصر على رأس حملة جديدة أنتهت بالنزول فى تونس بدلا من مصر ، وهلك فيها الملك الفرنسى سنة ٦٦٩ هـ / ١٢٧١ م مع معظم جيشه بالقرب من قرطاجنة بعد أن تفشى فيهم الوباء . وخرج بقية أجناد الحملة من البلاد التونسية بعد عقد الصلح وبشرط عدم

---

(٥٨) ابن أبى دينار ، المؤنس ، ص ١٣٤ . ابن القنفذ ، الفارسية ، ص ٢٣٨ — ٢٣٩ . تاريخ الدولتين ، ص ٣٢ . وفيها يذكر أنه تم مبايعة الناس البيعة العامة ، ووضع العلامة التى كان يمهر بها هى : « الحمد لله والشكر لله » وأنقسمت علامة الدولة الى قسمين علامة كبرى توضع فى أول الكتاب بعد البسملة والصغرى معلمة فى آخره لصدوره عن الخليفة .

(٥٩) — Runciman, S.; A History of the Crusades (3 vols) Cambridge, 1951, pp. 273—274.

التعرض لاى جهة من البلاد وابرام هدنة لمدة خمسة عشر عاما مع منح فرنسا أرضا بقرطاجنة لاقامة ضريح الملك لويس [٦٠] .

أما فيما يتعلق بالعلاقة بين الدولة الحفصية ودولة المماليك حول وقائع هذه الحملة الصليبية ، فان المصادر لم تذكر من اشارة غير ما حملته القصيدة التى ألقاها شاعر تونسى تعبر أبياتها عن مشاعر الجهاد المشترك بين تونس ومصر ضد قوى الصليبيين مطلعها :

يا فرنسيس تونس أخت مصر
فتهيأ لما اليه تصير
لك فيها دار ابن لقمان قبر
وطواشيك منكر ونكير [٦١]

ويستدل من أخبار العام التالى ٦٧٠ هـ / ١٢٧٢ م على أن العلاقة بين الدولتين من خلال احداث الحملة الصليبية الثامنة قد تعدت حدود هذه المشاعر . فهل قدم المماليك للحفصيين عونا ضد حملة لويس التاسع على تونس ؟ وهل قدم الحفصيون فى مقابل المساندة المملوكية التى حصلوا عليها نوعا من المساعدة الى الظاهر بيبرس فى حملته الاخيرة ضد سلاجقة الروم ؟ هذه الاسئلة يعززها خبر هام أوردته المصادر العربية فى هذا العام نفسه (٦٧٠ هـ) عن وصول السفير الحفصى أبى عبد الله محمد بن الراسى على رأس سفارة الى السلطان الملك الظاهر بيبرس فى الوقت الذى كان الظاهر بيبرس مشغولا بصد هجمات المغول على بلاد الشام لا سيما على البيرة فى سنة ٦٧٠ — ٦٧١ هـ / ١٢٧٢ — ١٢٧٣ م

---

(٦٠) ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٦٦٣ — ٦٧١ .
(٦١) ابن خلدون ، نفس المصدر ، ابن أبى دينار ، المؤنس ، ص ١٣٦ .
ابن القنفذ ، الفارسية ، ص ١١١ .

وحدث أن تطورت الحرب معهم عندما تيقن الظاهر ببيرس من تحالف المغول مع سلاجقة الروم ضده الامر الذى دعاه الى تكثيف حملاته التى أعدها فى سنة ٦٧٤ هـ / ١٢٧٦ م لغزو سلاجقة الروم الذين حلت بهم الهزيمة فى موقعة ابلستين فى نفس العام (٦٢) •

وواضح من الحملة التى جردها السلطان الظاهر ببيرس على مملكة النوبة المسيحية على حدود مصر الجنوبية فى سنة ٦٧٥ هـ / ١٧٦ م (٦٣) ، ومد نفوذه أيضا الى بلاد الحجاز ، وجود علاقة بين السفارة الحفصية المذكورة وبين هذه الاحداث وقيام نوع من التعاون بين الدولتين فى اطار هذه الحوادث أو على الاقل الاتفاق على هدنة بينهما شبيهة بتلك الهدنة التى عقدها الحفصيون مع الفرنسيون (٦٤) •

والظاهر أن هذه الهدنة التى عقدت بين المستنصر الحفصى وبين ببيرس قد اقتضاها انشغال الاخير بمصير أملاكه الشامية حيث توفى أثناء وجوده بدمشق فى سنة ٦٧٦ هـ / ١٢٧٧ م • كما اقتضاها من ناحية الحفصيين ما وقع من انقسام فى البيت الحفصى عندما ثار على الخليفة الحفصى أخواه ابراهيم وميمون • وقد فر الاول الى الاندلس بينما لجأ

---

(٦٢) المقريزى ، السلوك ، ج ١ ، ص ٦٠٢ . أبو الفداء ، مختصر تاريخ البشر ، حوادث سنة ٦٧٥ هـ .

(٦٣) مفضل ابن أبى الفضائل ، النهج السديد ، ص ٢٣٤ — ٢٣٨ . ابن القنفذ ، الفارسية ، ص ١٣٢ . سعيد عاشور ، العصر المماليكى فى مصر والشام ، ص ٤١ .

(٦٤) ذكر محمد بن أبى القاسم الرعينى القيروانى ، المعروف بابن أبى دينار أن أصل هذه المعاهدة للصلح محفوظ فى وزارة الخارجية الفرنسية وهى مؤرخة بخط القاضى ابن زيتون بتاريخ ٥ ربيع الآخر ٦٦٩ هـ . وقد حضر الفقيه أبو العباس أحمد بن عثمان بن عجلان القيسى (عرض عليه القضاء فى تونس وأبى — ت ٦٧٠ هـ) عقد تلك الهدنة ، المؤنس ، ص ١٣٦ .

الثاني الى المشرق • وكان من سياسة الحفصيين ازاء مثل هذا الحادث اتباع أسلوب المهادنة ومهاداة أصحاب البلاد التى تأوى اللاجئين السياسيين بالهدايا الثمينة (٦٥) •

وفى هذا الصدد ، يذكر ابن بطوطه فى رحلته الى المشرق « أنه عندما زار مدينة الاسكندرية كان السلطان أبو يحيى زكريا بن أحمد الحفصى المعروف باللحيانى ، سلطان افريقية المخلوع أو كما يسميه البعض المخلوع ضيفا على السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون فى دار السلطنة بالاسكندرية وكان يجرى له مائة درهم فى اليوم الواحد • وكان يرافقه فى منفاه أولاده عبد الواحد ، ومصرى ، وأسكندرى ، وحاجبه أبو زكريا ابن يعقوب ووزيره أبو عبد الله بن ياسين » (٦٦) • وظل اللحيانى مقيما بها الى أن توفى هو وولده السكندرى بالاسكندرية ، أما ابنه الثانى المصرى فقد امتد به العمر فى الاسكندريه ، بينما مضى أخوه عبد الواحد يتردد ما بين الاندلس والمغرب وأفريقية وتونس بجزيرة جربة (٦٧) •

وعلى الرغم من أن عهد أبى يحيى اللحيانى (٧١١ — ٧١٧ هـ / ١٣١١ — ١٣١٨ م) يدخل ضمن مرحلة الضعف التى بدأتها الدولة الحفصية

---

(٦٥) عن هذا الانقسام أنظر : ابن عذارى ، البيان ، ج ٣ ، ص ٣٩٨ .

(٦٦) ابن بطوطة ، الرحلة ، القاهرة ، ١٩٣٤ ، ص ١٤ . استوزر السلطان المخلوع : أحمد بن ابراهيم بن محمد بن يوسف المرادى القرطبى المتوفى بالاسكندرية فى ربيع الاول ٧٣٦ هـ / أكتوبر — نوفمبر ١٣٣ م (المقريزى السلوك ، ج ٢ ، قسم ٢ ، ص ٤٥٤) . وأعترافا من السلطان المخلوع بجميل الضيافة وكرمها وطيب المقام بمصر — على حد قول د . سعد زغلول قد سمى واحدا من ابنائه المصرى والآخر السكندرى (الاثر المغربى والاندلسى فى المجتمع السكندرى ، ص ٢٦٠ — ٢٦١) .

(٦٧) ابن بطوطة ، الرحلة ، نفس الصفحة .

بعد موت المستنصر وأحتدام الخلاف الاسرى فى عهد ابنه الواثـق [٦٨] (أبو زكريا يحيى الواثق بن أبى عبد الله المستنصر) ، فان الدولة الحفصية فى هذا العهد ازدادت اقترابا من الدولة المملوكية ، وتوطدت العلاقـات بينهما لا سيما فى عهد السلطان المملوكى الناصر محمد بن قلاوون الى حد أن السلطان الحفصى المذكور (أبو زكريا الواثق) قطع اسم المهدى بـن

---

(٦٨) فيما يلى أسماء سلاطين بنى حفص الدين تولوا السلطنة فى مرحلة الضعف المذكورة . الواثق يحيى بن المستنصر محمد : بويع سنة ٦٧٥هـ ، وعزل سنة ٦٧٨ هـ . وأبو اسحاق أبراهيم بن أبى ز كريا يحيى بويع سنة ٦٧٨وقتل سنة ٦٨١هـ نتيجة فتنة ، وأحمد بن مرزوق بن أبى عمار بويع سنة ٦٨١هـ وقتل سنة ٦٨٣ هـ ومما قيل عنه أنه نودى عليه ملكا على يد المنسعوذين ، وأنقسمت الدولة فى عهده الى قسمين شرقى وغربى ، ثم أبو حفص عمر بن أبى زكريـا بويع سنة ٦٨٣ هـ وتوفى سنه ٦٩٤ هـ . أبو عصيده المستنصر محمد الواثق بن المستنصر ، (شهد عصره تدخل الصوفية بدرجة كبيرة) بويع بالسلطنـة فى سنة ٦٩٤ هـ وتوفى سنة ٧٠٩ هـ ، ثم أبو بكر بن الشهيد بن يحيى ، بويع لـه سنة ٧٠٩ هـ وتوفى فى نفس السنة (ودامت ولايته ١٦ يوما) ثم أبو البقـاء خالد أبى زكريا : بويع له سنة ٧٠٩ هـ وخلع سنه ٧١١ هـ ثم أبو زكريا بن محمد بن أحمد اللحيانى بويع له سنة ٧١١ هـ وفر من البلاد سنة ٧١٧ هـ (كـانت بيعته بمشاركة العرب فغلبوا على الوضع السياسى للدولة) . يليه محمد أبو ضربة بن أبى يحيى زكريا (الواثق) بويع له سنة ٧١٧ هـ وتوفى سنة ٧١٨ هـ . ثم أبو بكر بن أبى زكريا يحيى بن الامير اسحاق ابراهيم بويع له ٧١٨ وتوفى ٧٤٧ هـ ثم أبو حفص عمر بن السلطان أبى بكر بن أبى زكريا بويع له فى رجب ٧٤٧ هـ وقتل فى جمادى الاولى ٧٤٨ هـ (قتله أبو الحسن المرينى أنتقاما لوثوبه على اخوته وسفك دمهم) ثم أبو العباس أحمد بن السلطان أبى بكر الملقـب بالمعتمد بويع له سنه ٧٤٨ ودامت ولايته أسبوعا أو أكثر قليلا (ذهب ضحية مؤامرة الحاجب المستبد على الدولة ابن تافراجين) ثم السلطان أبو الحسن على المرينى ، استولى على تونس فى جمادى الثانية ٧٤٨ وطرد منها سنـة ٧٥٠ هـ . ثم أبو الفضل المرينى (سنة ٧٥٠ — ٧٥٠ هـ) ثم أبو العباس الفضل بن أبى بكر الحفصى (بويع سنة ٧٥٠ وخلفه الوزير ابن تافراجين سنة ٧٥١ هـ ثم أبو العباس بن أبى بكر ، بويع له سنة ٧٥١ وكان مغلوبا على أمره من ابن تافراجين حتى وفاته سنة ٧٧٠ هـ . وأخر تولى السلطان الحفصى أحمد بن محمد بن ابى بكر فى الفترة من سنة ٧٧٢ الى ٧٩٦ هـ . (أنظر : ابن القنفذ ، الفارسية ، ص ٢٩٤) . أنظر الملحق رقم ٧ .

تومرت من خطبة الجمعة وأستبدله باسم السلطان المملوكى . ولـذلك ، اختار هذا السلطان الاسكندرية مأوى له عندما اضطربت أحوال البـلاد فأضطر الى الخروج من تونس والتوجه الى الاسكندرية بحرا وهنـاك أقام البقية الباقية من حياته حتى عام ٧٢٨ هـ أو ٧٢٧ هـ (على ما ذكره ابن تغرى بردى) (٦٩) .

ومن الثبت الاحصائى لسلاطين بنى حفص فى الضعف الـوارد فى الهامش سالف الذكر يمكننا الوقوف على مدى الضعف الذى وصل اليـه سلاطين هذه المرحلة . فبعد عهد اللحيانى الملقب أيضـا بالمستنصر الثانى (٧٠) . وباستثناء حكم أبى اسحاق بن أبى بكر (٧٥١ هـ ـ ٧٧٠ هـ) الذى غلب عليه الوزير ابن تافراجين ، كان متوسط فترات حكم هـؤلاء تتراوح بين السنة والسنتين . ولذلك كانت ميول هؤلاء السلاطيـن وهواهم يتأرجح بين المشرق والمغرب تبعا لقوه الدولة الحاكمة فى كـل منهما ، لا سيما وأن المغرب قد عرف فى هذه المرحلة من جديد بعثا لدولته على أيدى بنى مرين الى حد قيام السلطان المرينى أبو الحسن بالاستيلاء على الدولة الحفصية وأملاكها لفترة امتدت ما بين عامى ٧٤٨ و٧٥٠ هـ كما نجح فى حكمها ابنه أبو الفضل المرينى أيضا خلال سنة ٧٥٠ هـ .

ومع حالة الضعف والتردى التى آلت اليها الدولة الحفصية فى تلك المرحلة فقد شهدت مرحلة من البعث امتدت ما بين عامى ٧٧٢ هـ و٨٩٩ هـ ،

---

(٦٦) ويذكر ابن تغرى بردى أن أبا زكريا يعتبر أول الامراء الحفصيين الذين قطعوا أسم المهدى من الخطبة وعوضه بالسلطان الناصر محمد بـن قلاوون (النجوم الزاهرة ، ج ٩ ، القاهره ، ص ٢٦٨) .

(٧٠) كانت الخطبة مشتركة بينه وبين أبيه حيث يقول الخطيب بعد ذكر السلطان : « اللهم وارضى عن نجلهم الناشىء عن مقامات شرفهم المستنصر بالله أمير المؤمنين ابى عبد الله محمد (الزركشى ، تاريخ الدولتين ، ص ٦٤) .

وبدأت بعهد السلطان الحفصى أبى العباس أحمد بن عبد الله بن أبى يحيى أبى بكر ، وشملت فترة حكم ابنه أبى فارس عبد العزيز : ٧٧٢ — ٨٣٧ هـ قبل أن تنتقل الى طورها الاخير فى عهد كل من محمد المستنصر بن المنصور بن أبى العباس أحمد وأبى عمر عثمان بن محمد بن المنصور بن أبى فارس عبد العزيز ٨٣٧ — ٨٩٣ هـ ، وسجل نهايتها خلفه أبو عمرو يحيى بن محمد المسعود : ٨٩٣ — ٨٩٩ هـ .

بدأ أبو العباس عهده الاول فى السلطنة بالعودة الى قسنطينة بمساعدة بنى مرين سلاطين المغرب الاقصى . وكانت وحدة السلطنة الحفصية قد تمزقت من جراء استبداد أشياخ القبائل العربية بنواحى اقطاعاتهم ، ولذلك ، كان السبيل الى اعادة هذه الوحدة ضرب سلطة هؤلاء بقوة أخرى فتية تتمثل اما فى سلاطين المرينيين أصحاب المغرب الاقصى أو سلاطين المماليك فى مصر والشام . وقد تعدى دور المرينيين فى هذه الحوادث نطاق التحالف مع أبى العباس باسم الوحدة الحفصية عندما تدخلوا فى النزاع الواقع بين هذا السلطان وابن عمه عبد الله صاحب بونة الذى حصل على تأييدهم ضد السلطان الحفصى فى حركته الفاشلة سنة ٧٩٦ هـ (١٣٩٤ م) وهى الحركة التى أنتهت بقتله وتعليق رأسه على باب فاس . وفى رواية أخرى أنهما تلاقيا فى عام ٧٩٧ هـ (١٣٩٥ م) وهزم عبد الله فى مسافة كبيرة من تبرسق الى سيبوس ، ففر على فرسه ، ومع حلول الظلام ركب البحر قاصدا المغرب للاستنجاد ببنى مرين [٧١] .

---

(٧١) ابن القنفذ ، الفارسية ، ص ١٩١ . أنظر أيضا : ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٥٩٨ . (لم أتوصل الى معرفة مكان مدينة سيبوس ، ولعلها تكون محرفة ، حيث ذكرها ابن خلدون سببة وهى مدينة بالقرب من تونس) .

كذلك تعدى دور العرب أيضا حسبما سيجيء الحديث فيما بعد نطاق الاستبداد القبلى بالسلطة المحليه ، عندما استعان بهم الشيخ الموحدى أبو عبد الله بن محمد بن تفراجين استكمالا لدور أبيه أبى محمد بن تفراجين فى الاستبداد بالسلطنة واتصالا بهذا الدور العربى الرافض أصلا السيطرة المملوكية ، وصلت الى تونس فى عام ٧٩٩ هـ / ١٣٩٧ م من مصر سفارة السلطان المملوكى الملك الظاهر أبى سعيد برقوق (٧٨٤ — ٨٠١ هـ / ١٣٨٢ — ١٣٩٩ م) تحمل هدية قيمة الى السلطان أبى العباس الذى أجزل بدوره العطاء لرسل السلطان المملوكى وخرج معهم فى عام ٨٠٠ هـ / ١٣٩٨ م يودعهم ويشيعهم بنفسه وأتفق أن ضم ركب السفارة الركب المغربى الكبير الذى خرج للحج ، فخرج معهم حتى تجاوزوا حدود طرابلس ، حتى يكون أفراده فى مأمن من عبث الاعراب فى تلك النواحى لا سيما الهوارة (٧٢) .

وهذا الحديث عن العرب والمماليك ، ينقلنا الى نقطة بحث يستلزمها الامر لتوضيح ماوقع من حوادث يمكن حصرها فى نطاق العلاقات التى كانت قائمة منذ عصر الموحدين بين العناصر العربية والمملوكية والمغربية التى شكلت وجها آخر للعلاقات الحفصية المملوكية خارج نطاق الحديث عن الخلافة الموحدية الحفصية وما يتعلق بها من موضوعات كالبيعة والتبعية للمشرق الاسلامى والمغرب .

---

(٧٢) ابن القنفذ ، الفارسية ، ص ١٠٩ . ابن أبى دينار ، المؤنس ، ص ٧

(٣)

تطور العلاقات بين العناصر العربية والتركية المملوكية وبين الحفصيين

هذا الوجه الآخر من العلاقات المشرقية — المغربية فى عهد الدولتين الحفصية والمملوكية تتجاوز أهميته المجال السياسى الى مجال الفكر الشعبى عند العامة ، وذلك منذ أن انتشرت بينهم مقولات لابن تومرت عبر بها عن تأصل الدعوة الموحدية وتذهب هذه الاقوال الى أن من يطول به العمر من الموحدين سوف ينهد امراء من أهل مصر يستظلون بالشجرة التى كان المهدى يديم الجلوس تحتها للوعظ والارشاد .

أما عن دور العرب فى تاريخ الدولة الموحدية المراكشية فقد سبق أن فصلنا الحديث عنه ونعود هنا الى الاشارة الى هذا الدور فى تاريخ الدولة الحفصيه . ففى بداية هذا الفصل أشرت الى الامكانيات البشرية المحدودة التى قدمها موقع الدولة الجديد فى تونس اذا ما قورن بموقع الدولة الموحدية الاولى فى مراكش . وتبرز رسائل الموحدين — بعد حملاتهم على تونس — الاهمية الاقتصادية لمدن افريقية التى أفتتحها الموحدون . وقد سبقت الاشارة الى مثل هذا الوصف بالنسبة لمدينة تونس [٧٣] . وفى رسالة أخرى اشارة الى الاهمية الاقتصادية لمدينة قابس جاء فيها : « .. وهذه المدينة العتيقة روح هذه الجهات الافريقية ومعناها وقفلها الذى يحمى حوزتها ويكف عداها ، ومنعتها التى لا يتهيأ لمفسد أن يتخطاهاالى أذيتها وينعداها ، وما تمنى للاغزاز — أبادهم الله — ما تمشى الاتملكها، ولا توصلوا الى اغترهم الا بانتشار سلكها . وهى جامعة مع هذه الفوائد

---

(٧٣) ابن أبى دينار ، المؤنس ، ص ٧ .

الجمة ، والمنافع الكاملة المستتمة محاسن يروق الناظرين رواؤها وتملا العين بهجتها . المؤنقة ولألأوها يتفجر خلالها الماء العذب ، ويلتقى بها الركاب والركب ، وتحدق بأرجائها الجنات الالفاف والحدائق الغلب ، وتجتمع فيها أصناف التمر المتخير والحب » [٧٤] .

ومع ذلك ، فلا جدال فى الحقيقة التى ذكرناها فيما سبق حول الامكانات البشرية المحدودة للاراضى التونسية ، وتنعكس هذه الامكانات أيضا على حجم القوة الحربية للحفصيين ، بحيث اضطروا الى فتح المجال أمام المرتزقة من الاجناس المختلفة ومن المعروف أن قوة الجيش الحفصى فى عهد أبى زكريا الاول مؤسس الدولة نحو سبعين ألف مقاتل من العرب والاندلسيين والمماليك الغز والنصارى [٧٥] . وتعد العناصر الثلاثة الاخيرة وافدة جديدة اذا ما قورنت بالعنصر العربى الذى سبق الى الهجرة والاستقرار والانخراط فى صفوف الموحدين . كما ظهر العنصر التركى من دون غيره من العناصر عنصرا متسلطا بحكم السيطرة المملوكية على بلدان المشرق فضلا عن تحول الغز الى عنصر محلى آخر تكاثرت أعداده الى جانب العنصر العربى . وقد ازداد شغل المماليك الغز لدور العرب العسكرى وحاز افرادهم على الكثير من الامتيازات الاقطاعية التى سبق اليها العرب .

فلقد ظهر المماليك الغز فى المناطق الشرقية من بلاد المغرب فى خلال فترة الاضطرابات التى تسبب فيها ابن غانية وأسرته الميورقية . وجاء انخراطهم فى صفوف المتحاربين فى خضم هذه الحوادث متفقا مع سبق استخدامهم فى المشرق بين قوات الفاطميين وقبلهم العباسيين .

---

(٧٤) لبفى بروفنسال ، رسائل موحدية ، رقم ٣٠ ، ص ١٩١ .

(٧٥) R. Brunschvig, La Berbérie, p. 81. —

أما فى المغرب فقد استخدمهم الموحدون فى جيوشهم ، فى أعقاب السفاره التى أرسلها صلاح الدين الى المنصور الموحدى والتى كانت من آثارها غلبة روح الجهاد على المشاعر الاسلامية فى المغرب مما أدى الى انفتاح الموحدين على الغز بحيث بدأوا فى استخدامهم فى ديوان التمييز [٧٦] .

ثم زادت أهمية هؤلاء الغز فى الجيش الموحدى عندما اعتمد عليهم يعقوب المنصور بكثرة فى معركة الارك عام ٥٩١هـ — / ١١٩٥م . ذلك أنه لما أراد الاستعداد للمعركة أعلن عن النفير العام عبر كتبه التى أرسلت الى جميع بلدان مملكته [٧٧] لجمع أكبر عدد (حسب قوله) من الاتقياء والصالحين والشجعان ، على أن يحملوا اليه لتمييزهم قبل بدء المعركة .

وأجتمع للمنصور من هؤلاء الغز الاتراك عدد كبير قربهم اليه وجعل كلما ساروا بين يديه ، يبدى أفتخاره بهم حتى أنه كلما نظر اليهم قال . « من عنده هؤلاء الجند لا هؤلاء ويتسير الى العسكر » [٧٨] .

---

(٧٦) يكون على رأس ديوان العسكر ورير ، غالبا من الجند ، له الاشراف على كل ما يتعلق بالجيش وشئونه . اما التمييز فهو كما أسلفنا عملية تصفية فى صفوف الجيش من المارقين والخطرين واعدامهم ، ثم تطور الى اختيار الصفوة من الجند باشراف الخليفة الموحدى قبل كل معركة . ويعمل بالتمييز ويقرن بالانعام والبركات على الجند الذىن فازوا بالتمييز ، وكان يتولى ديوان التمييز وزىر يسمى كاتب دىوان التمىىز . وكان للجيش فى ديوان الكتابة كاتب أو أكثر يختصون بالكتابة فى شئونه (ابن عذارى ، البيان ، ج ٣ ، ص ١٤١) .

(٧٧) ابن ابى زرع ، القرطاس ، ص ٢٢٢ .

(٧٨) وفى اعزاز الخليفة يعقوب الموحدى لهؤلاء شبه بما حكى عنه قتيبة بن مسلم والى خراسان حين لقى الترك ، وكان فى جيشه أبو عبد الله محمد بن واسع ، فجعل يكثر السؤال عنه ، فأخبر أنه فى ناحية من الجيش « متكئا على سنة قوسه رافعا اصبعه الى السماء ، فقال قتيبة لاصبعه هذا : تلك احب الى من عشرة آلاف سيف » . (المراكشى ، المعجب ، ص ١٧٥) .

والمنصور فى ذلك قد أقترب بهم من وضع طائفة المماليك السلطانية — أى المماليك الخاصة بالسلطان القائم بالامر . وقد وصفهم القلقشندى بأنهم: « أعظم الاجناد شأنا وأرفعهم قدرا وأشدهم قربا وأوفرهم اقطاعا ، ومنهم يؤمر الامراء رتبة بعد رتبة » [٧٩] .

وقد بلغ من اعزاز المنصور للغز الوافدين من مصر وغيرها من بلدان المشرق الى حد اقطاعهم الاقطاعات الواسعة التى لم يصل اليها الجند الموحدون . وكان جزء مهم من هذه الاقطاعات بالمغرب والاندلس يغل فى كل سنة حوالى ٩ آلاف دينار . وفى ذلك يقول المراكشى : « فأحسن نزلهم وبالغ فى تكرمتهم وجعل لهم مزية ظاهر على الموحدين ، وذلك أن الموحدين يأخذون الجاميكة ثلاث مرات فى كل سنة ، فى كل أربعة أشهر مرة ، وجاميكة الغز مستمرة فى كل شهر لا تختل » وقال : « الفرق بين هؤلاء وبين الموحدين ، أن هؤلاء غرباء لا شىء لهم فى البلاد يرجعون اليه سوى هذه الجاميكة والموحدين لهم الاقطاع والاحوال المتأصلة » [٨٠] .

وتجاوزت المكانة الساميه التى نشغلها هؤلاء الحياة العسكرية الى الحياة العامة ، فقد عرف عنهم حسن المعاشرة والمعاملة للناس بل ذكر أنه لم يرد المغرب من هذه الطائفة الا وكان ألطف حسا وأذكى نفسا وأحسن محاضرة وأطيب معاشرة ، وأنهم كانوا يقرضون الشعر فزاد ذلك من علاقاتهم الودية بالمغاربة [٨١] .

---

(٧٩) القلقشندى ، صبح الاعشى ، دار الكتب ، ١٣٣٢ هـ ، ج ٤ ، ص ١٥ .

(٨٠) المراكشى ، نفسه ، ص ١٧٧ .

(٨١) يذكر المراكشى : أنشد لهم أحد الاصدقاء شعرا لاحد شعراء الاندلس من أهل اشبيلية :

وقائل فيهم لم توجع فقلت له — كف الهجوع لطرف نافر الوسن
لم تدر الكرى الممنوع عن بصرى — هى السنات التى فى مقلتى حسن

(ص ١٧٧) .

وقد ذكر ظهور هؤلاء الغز مع يعقوب المنصور عند زيارته لمدينة تينملل وجلوسهم تحت شجرة خروب مقابلة للمسجد العامة بمقولات ابن تومرت السابق الاشارة اليها عند الوعد بالنصر ، وعن مشاهدة أمراء من أهل مصر مستظلين بهذه الشجرة • ويذكر فى هذا الصدد أنه بمشاهدة هؤلاء مستظلين بظل تلك الشجرة أعتبر ذلك من الايام المشهودة حيث سمع التكبير من كل جهة وخرجت النساء تولولن وتضربن بالدفوف ويرددن بلسانهن البربرى ما معناه « صدق مولانا الامام نشهد أنه الامام حقا » • وأن كان المنصور نفسه لم يبد اهتماما بتلك الحادثة لعدم اعتقاده أصلا فى امامة المهدى ومهدويته [٨٢] •

واستمر جلب الغز الاتراك من مصر فى عهد خلفاء يعقوب المنصور والى ما بعد هزيمتهم الشنعاء فى عهد محمد الناصر بن يعقوب المنصور فى معركة العقاب بالاندلس سنة ٦٠٩ هـ (١٢١١ م) ، التى كانت نذيرا بخروج الاندلس من أيدى الموحدين بل ونهاية الدولة الموحدية[*] • ومع انتقال قوة الدولة الموحدية الى القسم الشرقى من أملاكها على أيدى الحفصيين فى تونس ، وفى ظل ما قام من علاقات أوثق مع الشرق ، تهيأ المجال لدخول عدد كبير من المماليك الاتراك فى خدمة الدولة الحفصية عسكريا بوجه خاص • وظهر هؤلاء فى عهد الامير الحفصى أبى زكريا وقد فاقت مرتبتهم فى الجيش مرتبة العرب القدامى • فقد رتب هذا الامير جنوده فى تونس تحت امرة قائد يسمى المزوار على النحو التالى :

---

(٨٢) المراكشى ، المعجب ، ص ١٧٨ •

(*) راجع فى هذا الانهيار ، ابن أبى زرع ، القرطاس ، ص ٢٤٢،٢٤٤، ٢٤٦ •

أولا — الجند من أبناء الموحدين المغـــاربة .

ثانيا — الجند من أبناء الاندلسيين الوافدين ومنهم الرماه .
ثالثا — الجند من مماليك الترك .

رابعا — قبـــائل العـــرب .

خامسا — العلوج أبنـــاء الافرنج .

لذلك استمر دور هؤلاء الترك يتشاركون فى الوقائـــع الحربية لدول المغرب بما فى ذلك الدولتين المرينية والزيانية (**) .

(**) تم استخدام الترك فى دولة عبد الواد الزيانية فى تلمسان خاصه فى عهد أبى حمو الزيانى — كقواد أورسل — الذى أرسل رسوله موسى بن على الغزى لطلب النجدة العسكرية ضد ثورة راشد بن المغراوى خاصة من العرب عندما أرادوا محاصرة بجاية ضد الموحدين (أنظر الفرد بل ، بغيـــة الرواد فى ذكر ملوك بنىء بد الواد ، الجزائر ١٩٠٣ ، ص ١٢٩) . ويؤكد برنشفك على أهمية الاعتماد فى الحقبة الاولى من القرن ١٣م من حياة الدولة الحفصية على مجموعات هامة من الغز ويضيف أنه فى عهد أبى زكريا الاول وابنه كان قد تم شراء ألفا من الفرسان المماليك الاتراك من مصر . ويذكر أيضا براوية ابن خلدون أنه بعد سقوط بغداد هرب عدد كبير من قواد الاتراك الى الشمال الافـــريقى ابتاعهم الخليفة المستنصر . ويستطرد برنشفك الحديث عن وجود العبيد فى الجيش الحفصى فيقول : « .. فى بداية القرن ١٤م كانت هناك مجمـــوعة من العبيد السود جناوة Ganawo مرتدين ملابس بيضاء حاملين الرماح ، كانوا جزءا من حاشية السلطان ، ولكنهم كانوا قليلى العدد » . ابن خلدون ، العبر، ج٦ ، ص ٥٩٧ — ٥٩٨ .

— Brunschvig, Op. Cit., pp. 81—82.

أمام هذا النمـــو المتزايد للعنصر التركى بين صفوف الجنـــدية فى قوات الموحدين والحفصيين والمرينيين والزيانيين ، انحسر الدورالعربى الى مجال أحداث الثورات والفتن • وقد سبقهم فى ذلك عرب مصر تعبيرا عن رفضهم للحكم التركى • ونشهد بداية هذه الثورات من العصر الايوبى عندما قام العادل سيف الدولة أخ صلاح الدين فى عام ٥٧٠ هـ / ١١٧٤ م بالقضاء على ثورة عربان الصعيد بقيادة كنز الدولة ، وعندما قام الامير أقطاى نيابة عن السلطان المملوكى أيبك بالقضاء على ثورة كبرى لعـــرب بلبيس سنة ٦٥١ هـ / ١٢٥٣ م • وكذلك عندما قام الاميران سلار وبيبرس الجاشنكير نيابة عن السلطان الناصر محمد بن قلاوون فى عام ٧٠٢ هـ / ١٣٠٢ م بالقضاء على ثورة أخرى للعرب فى صعيد مصر قتل خلالها منهم بضعة آلاف حتى « جافت الارض بالقتلى » ، ومنها ماوقع من نتائـــــج وخيمة للعرب ترتبت على ثورتهم من جديد فى الصعيد سنة ١٣٥٣ م بقيادة ابن الاهدب شيخ قبيلة عرك (٨٣) •

لم تكن حركات العرب فى مصر وثوراتهم ضد الترك نابعة من فراغ سياسى ارتبط بالحياة البدوية التى عرفت عن جماعات منهم تعـــــــرف بالعربان أو الاعراب • فهى قد اتصلت من ناحية بحركة الفلاحين المصريين الرافضين للمظالم الجبائية المختلفة التى نزلت بهم الى حد لجوئهم الى « الهروب من الارض والاستسلام للموت فى المجاعات والاوبئة » (٨٤) • كما اتصلت حركتهم ايضا بالاتجاهات الشيعية والخارجية التى أنهضت

---

(٨٣) المقريزى ، السلوك ، نشر زيادة ، ج ١ ، ص ٩٢٠ — ٩٢٢ • سعيد عاشور ، مصر فى عصر دولة المماليك البحرية ، ص / ١٠٩ •

(٨٤) — A.N. Polıak; Les Révoltes Populaires en Egypte à L'époque de Mamloukes et Leurs Causes économiques REI 1934, T.3, pp. 260—61.

أصحابها ضد الحكم المملوكى السنى . هذا فضلا عن اتصال تلك الحركة بأسباب تاريخية تعلقت بظاهرة الاختلاط بين العرب والبربر فى شمال أفريقيا ، وارتباط ثوراتهم فى بداية عهد كل من دولتى الايوبيين والمماليك بالاعتقاد فى أنهم أحق بالحكم من هؤلاء الحكام الذين خلفوا الفاطميين . ثم أن أشياخ العرب كانت لهم امتيازات أحرزوها من جراء اقطاعهم الاراضى الواسعة فى مناطق اقامتهم بل وتنصيبهم جباة لخراج الوجه القبلى (٨٥) ولذلك تنوعت الحياة الاقتصادية والاجتماعية لقبائل العرب وأصبحت لهم موارد ثابتة من مواشى الذبح والخيول والجمال المصدرة الى القاهرة والاسكندرية ، بل تعداها الى الدقيق والقمح والزيت والصابون والفواكه وبقية المنتجات الزراعية التى ينقلونها ويتاجرون فيها بل قامت بعض بطون هذه القبائل العربية المستقرة بالزراعة والصناعة مثل هوارة فى الصعيد التى عملت فى عصر قصب السكر وتكريره (٨٦) .

وحين تنتهى صورة هؤلاء فى نظر المؤرخين المعاصرين الى تلك الصورة التى نقلها لنا ابن اياس عن حوادث سنة ٩٠٨ هـ / ١٥٠٣ م ، فأن الامر يدعو الدارسين الى البحث فى الاصول التاريخية لهذه الصورة قبل الاخذ بظاهرها الوارد على لسان ابن اياس القائل : « فى ذى القعدة سنة ٩٠٨ هـ تزايد الفساد من العربان والعشيرة فى جهة الشرقية والغربية وجهة الصعيد حتى كادت أن تملك العربان البلاد من أيدى المقطعين فعند ذلك جمع السلطان الامراء فى الدهيشة وضربوا مشورة بسبب فساد أحوال البلاد الشرقية والغربية وتعيين فى ذلك اليوم جماعة من الامراء بأن يخرجوا لمحاربة العربان وطردهم عن البلاد فعين طراباى رأس نوبة

(٨٥) ابن اياس ، بدائع الزهور ، القاهره ، ١٩٣٦ ، ج ٣ ، ص ١٩٦ .

(٨٦) — E. Piloti; L'Egypte au Commencement du XVe Siecle, Le Cairo Univ. Fouad, Ter 1950, pp. 19 et Pass.

النوب الى جهة الغربية ومعه جماعة من المماليك السلطانية وعين الامير قانى باى قرا أمير آخور كبير الى جهة الشرقية • وعين خايربك صاحب الحجاب وقانصوه بن اللوقا أحد الامراء المقدمين الى جهة الصعيد وعين أزبك المكحل أحد المقدمين ودولات باى قرموط أيضا بأن يتوجهوا الى جهة البحيرة فخرجوا هؤلاء الامراء وصحبتهم الجم الغفير من العسكر • ثم بعد أيام جاءت الاخبار بأن عربان الشرقية قد كسروا الامير قانى باى أمير آخور كبير وقطعوا طبوله وجرح فى وجهه • فعند ذلك أرسل له السلطان نجدة فعين الامير تمر زردكاش أحد الامراء المقدمين ومعه جماعة من المماليك السلطانية فتوجهوا اليه •• ثم أن الامراء الذين توجهوا الى محاربة العربان صاروا يقطعون رؤوس شبان العرب ويرسلوهم الى القاهرة فى شلف التبن على الجمال • وأشيع عن الامير طراباى أنه كان ينشر جماعة من العربان بالمنشار من رؤوسهم الى أقدامهم ، وسلخ منهم جماعة كثيرة وراح الصالح حتى مهدوا البلاد • وقتل من العربان زيادة على ألفين انسان فمن يومئذ سكن الاضطراب التى كانت بالشرقية والغربية قليلا وخف أمر العشير الذى طافشا فى البلاد » [٨٧] •

ومثل هذه الصورة تراها فى قول العبدرى عن عربان افريقية أثناء رحلته حيث قال : « •• ولا يعدم من عربانها ايلام خاطر ولقد استوى لديهم الصالح والطالح وأنفق فى مذاقهم بكفرهم ونفاقهم كل عذب ومالح • اتخذوا أخذ الحاج خلقا ودينا وأعتقدوا هلاكه ملة ودينا فما له عندهم طلعة أحلى من مال اليتيم فى الولى الفاجر اللئيم ، ومن حيث اخوان الصفا ومن الوعد على ثقة الوفاء لبسوا أسمال المغاور والغوا خلال المفاوز فهم بها أغنى عن الماء من ضب وأصب الى صب الغرافر ••

(٨٧) ابن اياس ، نفس المصدر ، ج ٤ ، ص ٥١ •

ولا يخطر على تلك المعابر عابر ولا يرد فى تلك المناهل ناهل الا انقضـوا عليه انقضاض النسور على البغات ، وأنحدروا عليه بحيث لا يغاث مـن استغاث • فمزقوا أشلاءه تمزيق الدهر للاحرار وعاثوا فيه عوث أوس فى ثلة وأسامة فى ضرار ، ولا أمن لهم من عوادى الدهر » (٨٨) •

غير أن الصورة فى المغرب الادنى لم تكن كذلك على الاطلاق • ففى تلك المرحلة من حياة الدولة الحفصية عمل العرب على البناء مثلما كانـوا يفعلون فى عهدهم الاول • ففضلا عن تعمير مناطق استقرارهم الاولـى الساحلية وما نشروه بها من معالم حضارتهم وفى مقدمتها اللغة العربية ، أنتقلوا الى سفوح الهضاب العالية يتحصنون بها خلال وقائع أزمـاتهم فأسسوا قرية القلعة الصغرى والكبرى وأكودة والحمام فى أوائل القرن ٨هـ وفيها امتزجوا أكثر بالسكان من أهلها البربر •

ولكن العرب سرعان ما أستثمروا — أثناء حركتهم ضد السيطـرة التركية فى الجيش والادارة الحفصية — الثورات المختلفة التى نشبـت ضد الحفصيين ، فظهر لهم دور كبير فى ثورة الدعى أحمد بن على عمارة المسيلى ، الذى نجح مؤقتا فى ادعاء المهدية وشرع يطوف البلاد لاخـذ البيعة ، فكان العرب أول من بايعه وأقتنع بمهدويته لا سيما قبائل دباب ورياح (٨٩) • وبتعضيد العرب بايعه أهل فاس سنة ٦٨١ هـ / (١٢٨٢ م) ودارت مذبحة هائلة بين هذا الدعى والقوات الحفصية وأهتبل العـرب الفرصة وأقدموا على ضم القرى انتقاما من السلطة الحاكمة •

---

(٨٨) العبدرى ، الرحلة ، المقدمة ، ص خ ، ص ٣ — ٤ . أنظر أيضا : ابن بطوطة ، الرحلة ، ص ٧ — ٩ •

(٨٩) ابن القنفذ ، الفارسية ، ص ١٤٣ — ١٤٥ . الوزير السراج ، الحلل السندسية ، ج ١ ، ص ١٠٣٦ — ١٠٣٧ . عبد الوهاب بن منصـور ، قبائل المغرب ، ج ١ ، ص ٤٢١ — ٤٢٨ •

وتكرر المشهد على أطراف تونس العاصمة الى حد دخول أحد زعماء قبيلة الكعوب (هداج بن عبد الكعبى) جامع الزيتونة بخفيه ، ولما سألته العامة : « لماذا تدخل المسجد بخفيك ؟ قال : دخلت بها على الملك بقصره » استخفافا منه بالدولة الحفصية ، فما كان من العامة الا أن فتكوا به [٩٠] .

ثم عمد عرب الكعوب من أولاد أبى الليل [٩١] فى سنة ٧٠٩ هـ (١٣٠٩ م) الى طلب العون من خالد بن أبى زكريا أمير الثغور الغربية وأغروه بالاستيلاء على القسم الشرقى من الدولة الحفصية بسبب القبض على بعض أشياخهم . فلم يتردد خالد بن أبى زكريا فى الاندفاع مع العرب فى حركتهم للاخذ بالثأر وتملك البلاد . ولم يكتب لحركته النجاح بسبب وصول أبى يحيى اللحيانى من الحج واستيلائه على الحكم فى عام ٧١١ هـ / ١٣١١ م ، بمساعدة العرب أنفسهم . ولم يلبث هذا السلطان الحفصى أن أشرك معه العرب فى سلطانه بل أباح لهم حرية التصرف فى البلاد وأقطعهم اقطاعات واسعه ليكونوا عونا له على منافسيه [٩٢] .

وبدخول تونس تحت الحكم المرينى ومصاهرة أبى الحسن المرينى

---

(٩٠) الزركشى ، تاريخ الدولتين ، ص ٥٦ .

(٩١) عن دور عرب الكعوب من أولاد أبى الليل وثوراتهم ، ثم علاقتهم بابن تافراجين .

أنظر :

— Georges Marçais; Les Arabes en Berérie Du XI ou XIVe Siecle, Paris 1913, pp. 487—488.

(٩٢) الفرد بل ، بغية الرواد ، ص ١٣٦ — ١٤٠ .

لابى يحيى بن أبى زكريا [٩٣] واتخاذه من أبى محمد بن تافراجين [٩٤] وزيرا له ، يعود العرب الى الثورة . وفى هذا يقول الزركشى : « .. ووقف الشيخ أبو محمد عبد الله بن تفراجين بين يدى المولى ابراهيم ومهد أموره وأحكم دولته ولقب بالمستنصر وكانت سيرة الشيخ ابن تفراجين فى مدته سيرة حسنة مع جميع أهل تونس الا أنه لم يكن له فى أعرابها وطرفها قوة ظهور وأعظم جبايه من سفارة البحر » [٩٥] .

ثم يعود العرب الى الظهور من جديد على مسرح الحوادث ابان الفتن التى نشبت بين ابناء أبى يحيى أبى زكريا بايعاز من ابن تافراجين ، عندما لجأ الى أغفال أخذ البيعة لولى العهد أبى العباس أحمد ونصب مكانه أخاه أبا حفص . فانحاز عرب الكعوب من بنى سليم الى جانب ولى العهد أبى العباس أحمد ، وانتهى هذا الموقف بقتل ولى العهد وأحد رؤساء الكعوب وهو أبى الهول بن حمزة[٩٦] . فلجأ هؤلاء الى أبى الحسن على المرينى فى عام ٧٤٧هـ — (١٣٤٨م) يستحثونه على ضم افريقية وقد تحقق

---

(٩٣) يشير ابن القنفذ الى هذه المصاهرة بقوله : « صاهر أبو الحسن المرينى الدولة الحفصية مرتين الاولى على فاطمة ابنة السلطان أبى بكر التى هلكت فى غزوة طريف التى نكب فيها السلطان أبو الحسن سنة ٧٤١ هـ ، وتم زواجها منه فى سنة ٧٣١ هـ . ثم تزوج بنتا ثانية للسلطان هى عزونة شقيقة الفضل صاحب بونة وتم زواجه منها سنة ٧٤٧ هـ (الفارسية ، ص ٢٤ .
انظر ايضا :

— G. Marçais; La Berbérie Musulmane et L'orient Au Moyen Age, Paris, 1946, p. 301.

(٩٤) ينتسب ابن تافراجين الى بربر الموحدين (المصامدة) اذ كان جده من أعوان المهدى بن تومرت وأبو محمد هذا يعتبر أكبر شخصية فى البيت الحفصى فقد تولى منصب الحجابة عندما استبد بالدولة فى عهد السلطان أبى اسحاق بن أبى يحيى ، حتى أصبح الحاكم الفعلى وباسمه كانت ترد كل مكاتبات الدولة (أنظر : الفرد بل ، نفسه ، ص ١٤٠ — ١٤٦) .

(٩٥) الزركشى ، تاريخ الدولتين ، ص ١٠٦ — ١٠٧ .

(٩٦) الزركشى ، تاريخ الدولتين ، ص ٨٤ — ٨٥ ، ٨٩ .

ذلك بالفعل وتمكن هذا الامير المرينى من دخــول تونس فى ســنة ٧٤٨هـ (٨ــ١٣٤٩م) وبسط السيطرة المرينية على البلاد التونسية[٩٧] .

غير أن أبا الحسن المرينى لم يلبث أن عامل العرب بنفس المعامــلة التى سبقه اليها الحكام الاقوياء فقد رفــض أن يحتفظوا بحقــوق اتاوة الخفارة التى كثيرا ما كان يغالى فيها أشياخ العرب الذين فرضــوها على كل مسافر بنواحى اقطاعاتهم نظير تأمينهم لهمضد أعمال السلب والنهب والغارات . وكان أبو الحسن المرينى مدفوعا فى ذلك بحرصه على فــرض هيبة الدوله وسلطانها بدليل اقدامه على وضع حد لسيطرة ابن تافراجين وسطوة الاعراب معا . وبالنسبة لهؤلاء ، فقــد بالــغ فى انتزاع ما كانوا ينعمون به من سلطان الى حد أنه استعاد الاقطاعات التى كانت بأيديهم وأعاد توزيعها على المرينيين وأهل البــلاد ورفــع اتاوات الخفــارة عن الناس[٩٨] وأعفاهم منها وعوض العرب عنها بعطايا أو رواتب من ديوان الدولة .

غير أن العرب أنكروا هذا الاسلوب وأسفروا عن نواياهم العدائية ولجئوا الى استخدام العنف ضد الحكم المرينى ، ووجدوا تشجيعا على ذلك من ابن تافراجين . واتفق جل العرب لا سيما الكعوب منهم على تشــكيل حكومة جديدة بافريقية يقوم عليها أحمد بن عثمان ابن أبى ديوس آخــر أحفاد بنى عبد المؤمن ، وانضم اليهم جيش الزناتيين من بنى عبد الواد . وعند الاشتباك مع الجيش المرينى دارت الدائرة على المرينيين وفــر أبو الحسن الى القيروان وهناك تلقى الهزيمة الثانية فى محرم من عام ٧٤٩هـ ــ ١٣٤٩م بعد حصار لم يتخلص منه الا بعد دفع الخفارة للعرب ضعف ما كان

---

(٩٧) أنظر عنهم ، ابن الخطيب ، الاحاطة ، تحقيق عنان ، ص ٣١٢ .

(٩٨) الوزير السراج ، الحلل السندسية ، ج ١ ، ص ١٠٥٦ ــ ١٠٥٧ .

يدفعها التونسيون وذلك مقابل حمايته حتى يصل الى ســوسة ومنها بحرا الى تونس(٩٩) .

وفى تونس استطاع أبو الحسن أن يقرب اليه العرب من جديد فبدأ بأولاد مهلهل وعن طــريقهم انصاع بقية العــرب وأثباتا لحسن نواياهم وعربونا لطاعتهم له قدموا له سلطانهم الجديد ابن أبى دبوس وهكذا عاد التآلف والتحالف بينه وبينهم فصاهرهم أبو الحسن بأن زوج ابنه أبا الفضل بابنة عمر بن حمزة أحد زعماء العرب ربما كسبا لقلوبهم ولترويض مواقفهم الرافضــة(١٠٠) .

وهكذا شغلت الدوله الحفصية لفترة طويلة بالدور العــربى ، وكاد الدور التركى ينطمس بالمقارنة بالدور العربى ، ومن الغــريب أن البديل للوجه السلبى للعرب أصبح يتمثل فى المغاربه المرينيين .

ثم عاد العرب الى سيرتهم السابقة مع عودة الدولة الى التسيب بعد وفاة سلطانها الحفصى أبى اسحاق سنة ٧٧٠هـ (١٣٦٨م) ومن قبــله ابن تافراجين سنة ٧٦٦هـ (١٣٦٥م) . غير أن هذا لم يمنــع من تأديبهم من جديد على يد السلطان أبى فارس عبد العــزيز ســنة ٧٩٩هـ (١٣٩٧م) واجبارهم على دفع ضريبة العشر . وتكرر تأديبهم على يد السلطان أبى عمرو عثمان بعد أن تولى السلطة فى سنة ٨٣٩هـ (٦ــ١٤٣٧م) خرج فى اثر العرب(١٠١) وقبض على أكابرهم ومنهم : نصر الذوادى ومحمد بن سعيد واسماعيل بن ضرار ومهلهل وأكابر الذواودة(١٠٢) بعــد أن احتال عليهم

---

(٩٩) الفرد بل ، بغية الرواد ، ص ١٤٤ — ١٤٥ .
(١٠٠) الزركشى ، تاريخ الدولتين ، ص ٨١ — ٨٥ .
(١٠١) الزركشى ، تاريخ الدولتين ، ص ١٣٦ — ١٣٧ .
(١٠٢) الوزير السراج ، الحلل السندسية ، ح ١ ، ص ١٠٨٤ .

باعطاء كل شيخ منهم ألـــف دينار حتى يدخـــلوا القصر وعنـــدئذ كبلهم بالحديد . فثار أولاد أبى الليل وحاولوا تطويق تونس ، الا أنهم فشلوا فى ذلك . كذلك شارك العرب فى حوادث عام ٨٩٣هـ (٨٩ــ١٤٩٠م) منذ عهد أبى زكريا يحيى حفيد أبى عمرو عثمان ، ففيها أثاروا الفوضى فى البـــلاد واستغلوا فرصة الوباء الذى انتشر فيها فيما بعد لا ســـيما فى عام ٨٩٩هـ (٥ــ١٤٩٦م) وأودى بحياة السلطان نفسه[١٠٣] . ومع نهاية الدولة غلب أشياخ العرب من جديد فى الاستبداد بسلطاتهم على حســـاب الســـلطة الحفصية . لا سيما منذ عام ٩٣٢هـ (١٥٣٣م) فى عهد الســـلطان محمد بن الحسن عندما استبد أولاد سعيد بالبلاد الامـــر الذى دعا الســـلطان الى اسكاتهم بستين ألف دينار[١٠٤] . وقد جسم ابن أبى دينار سطوة العرب فى قوله : « ... ان هؤلاء العرب أذاهم بالطبع مثل العقرب ولو قطع ذنبها لا يبطل لدغها ، والى زماننا نحن منهم على وجل نسأل الله أن يحسم هذه المـــادة »[١٠٥] .

(٤)

دور الجند المغاربة فى العلاقات المشرقية

حبت الطبيعة بلاد المغرب وافريقية بوجه خاص بالمقومات الضرورية لقيام المغاربة بدور بحرى هام ، وقد لاحظ ابن خلدون أثر ذلك على تمرس

---

(١٠٣) ابن أبى دينار ، المؤنس ، ص ١٥٧ . الوزير السراج ، نفسه ، ص ٢٠٥ [illegible]

(١٠٤) ابن أبى دينار ، المؤنس ، ص ١٦١ . انظر اكضا ، احمد بن ابى الضياف ، اتحاف أهل الزمان ، تونس ، ١٩٧٧ ، ص ١٢ — ١٣ .

(١٠٥) ابن أبى دينار ، نفسه ، ص ١٥٩ . راجع فى ذلك ابن ابى الضياف اتحاف أهل الزمان ، ص ١٦ — ١٧ .

المغاربة بالامور البحرية فقال : « والساكنون بسيف هذا البحر وسواحله من عدوتيه يعانون من أحواله مالا تعانيه أمة من أمم البحار ، فقد كانت الروم والافرنجة والقوط بالعدوة الشمالية من هذا البحر الرومى ، وكانت أكثر حروبهم ومتاجرهم فى السفن ، فكانوا مهرة فى ركوبه والحرب فى أساطيله ، ولما أسف ما أسف منهم الى ملك العدوة الجنوبية ، مثل الروم الى افريقية والقوط الى المغرب ، أجازوا فى الاساطيل وملكوها ، وتغلبوا على البربر بها ، وانتزعوا من أيديهم أمرها ، وكان لهم بها المدن الحافلة مثل قرطاجنة وسبيطلة وجلولا ومرناق وشرشال وطنجة • وكان صاحب قرطاجنة من قبلهم يحارب صاحب رومة ، ويبعث الاساطيل لحربه مشحونة بالعساكر والعدد ، فكانت هذه عادة لاهل هذا البحر الساكنين حفافيه ، معروفة فى القديم والحديث »[١٠٦] •

وقد أثر امتداد الساحل الافريقى فى طبيعة السكان ، فكانوا يتميزون بنشاطهم البحرى العظيم ، وهو نشاط يكون جزءا لا يتجزأ من حياتهم الاجتماعية والاقتصادية ، ولم يظهر هذا النشاط فى صورته الحقيقية ابان تبعية بلاد المغرب للخلافة الاموية بالمشرق ، ولكنه اتضح بعد أن تطلع المغاربة الى الانفصال عن المشرق الاسلامى[١٠٧] ، فماسوا نشاطهم البحرى الذى بلغ ذروته فى القرنين الثالث والرابع باحتلالهم صقلية وجنوبى ايطاليا ومالطة وسردانية وقورشقة •

وفى المشرق الاسلامى ، كان تجنيد المغاربة فى الجيش المملوكية تقليدا متبعا منذ احتدام الحركة الصليبية ، فساهموا مساهمة فعالة فى الجهاد ضد الصليبيين وفى المرابطة على سواحل مصر والشام منذ عصر مبكر ، فقد

---

(١٠٦) ابن خلدون ، المقدمة ، ج ٢ ، ص ٦٢٧ •

(١٠٧) فتحى عثمان ، الحدود الاسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربى والاتصال الحضارى ، ثلاثة أجزاء ، القاهرة ، ١٩٦٧ ، ج ٢ ، ص ١٨٩ ، ٣٤٧ •

اشترك حماعة منهم فى الجهاد مع عساكر نور الدين محمود بن زكى ضد الصليبيين[١٠٨] . ولذلك عين للمغاربة الغرباء الملتزمين زاوية المالكية بجامع دمشق أوقافا كثيرة[١٠٩] . كذلك كان يبذل جهده لافتداء الاسرى منهم لانهم غرباء لا أهل لهم . واشترك المغاربة فى الجهاد بالاسكندرية فى بداية قيام الدولة الايوبية ، فأسس لهم صلاح الدين مدرسة ودارا وبيمارستانا ، واشترك كثير من المغاربة فى موقعة القبارصة بطرابلس الشام ، وقتل منهم فى أول لقاء مغربيان[١١٠] . وكان الامير يلبغا الخاصكى يكثر من تواجدهم فى البحر لاعتيادهم على ذلك[١١١] . وقد اشترك كثير منهم فى الدفاع عن الاسكندرية فى وقعة الاسكندرية ، واستشهد منهم عدد كبير ، وكان يلبغا الخاصكى يقدرهم قدرهم ، ويعتبرهم فرسان البحر .

وفى عام ٧٦٧هـ — ١٣٦٥م قام مغاربة الاسكندرية بدور بارز فى مقاومة الغزوة القبرصية على المدينة آنذاك . وكانت هذه الغزوة من أخطر الوقائع التى تعرضت لها الاسكندرية طوال عصرها الاسلامى . وكما جرى استخدام الغزو الاتراك فى صفوف القوى الموحدية الحفصية ، قام المماليك لا سيما البحرية منهم باستخدام المغاربة النازلين بالاسكندرية على الاخص فى القوى البحرية المملوكية . وظهر تحت قيادة الامير يلبغا الخاصكى عدد من قواعد المغاربة فى البحر ومنهم الرئيس ابراهيم التازى . والى جماعة المغاربة المقيمين فى الاسكندرية ترجع المشورة الحربية بعدم القتال على الشواطىء بدون جماعة أو غطاء وضرورة التحصن داخل المدينة والقتال

(١٠٨) ابن جبير ، الرحلة ، ص ٣٠١ .
(١٠٩) ابن جبير ، نفس المصدر ، ص ٢٨٥ .
(١١٠) د . السيد عبد العزيز سالم ، طرابلس الشام فى التاريخ الاسلامى ، الاسكندرية ، ١٩٦٧ ، ص ٤٦٠ .
(١١١) النويرى السكندرى (محمد بن قاسم) ، الالمام بما جرت به الاحكام المقضية فى وقعة الاسكندرية ، ص ١١٦ ب .

والمناورة من وراء الاسوار • وكان التاجر عبد الله البنا هو صاحب هـذه النصيحة[١١٢] التى لم يؤخذ بها حتى لا تتعرض مزارات الاولياء والاربطة المقامة فى شبه جزيرة المنار للاعتداء القبرصى[١١٣] •

كان القبارصة فى حملتهم على الاسكندرية يترقبون عملا حاسما من جانب المسلمين،فلما أدركوا عدم اكتراثهم للامر،قدموا غرابا الى الساحل، فتصدى له جماعة من المغاربة المجاهدين ، خاضوا فى المـاء ، وناوشوا من فيه القتال ، وتمكنوا من الامساك بالغراب فى أيديهم ثم طلبوا من الزراقين أن يزودوهم بالنار ليحرقوه ، ولكن للاسف لم يهتم أحـد بذلك ، لقـلة همتهم وتهاونهم وغفلتهم • وما زال المغاربة ينادون فى طلب النفط والنار ، وأمام صراخهم المتواصل رمى الزراقون بمدفـع فيه نار « كنار الحلفاء ، فوقع فى المـاء فانطفأ » ، وحدث خلاف بين المغاربة ، فتضاربوا بالسيوف وسقط منهم عدد كبير صرعى[١١٤] •

ويؤكد النويرى فى كتابه « الالمـام بالاعلام » أن المغـاربة دفعوا حياتهم ثمنا للدفاع عن المدينة عنـدما نزلوا الى المياه وأمسكوا القبرصية وجعلوا أجسادهم عرضة للنيران[١١٥] • ومن بين القواد المغاربة المشهورين الذين اضطلعوا بمهام عسكرية بحرية هامة الرياس ابراهيم التازى المغربى الذى شغل منصب رئيس دار الصناعة بالاسـكندرية فى أيام السـلطان

---

(١١٢) د . سعد زغلول ، الاثر المغربى والاندلسى فى المجتمع السكندرى ص ٢٦٢ — ٢٦٣ .

(١١٣) د . سالم ، تاريخ الاسكندرية وحضارتها ، ص ٣٢٨ .

(١١٤) عن تفصيل بقية أخبار الحملة ، راجع : النويرى ، المصـدر السابق ، ص ٧٩ — ٨٤ ب . د . سالم ، تاريخ الاسكندرية ، ص ٣٢٩ — ٣٤٤ . د . سالم ، د . أحمد مختار العبادى ، تاريخ البحرية الاسلاميـة فى حوض البحر الابيض المتوسط ، بيروت ، ١٩٧١ ، ص ٣١٢ — ٣١٦ .

(١١٥) النويرى ، نفس المصدر ، ص ١٤٦ ب .

المملوكى الاشرف شعبان . ومع غضب هذا السلطان من الغارة القبرصية وغيرها على سواحــل بلاده ، كلف رئيس دار الصــناعة ابراهيم التازى بالاغارة على جــزر العــدو[١١٦] . وفى ٢٩ رجب من سنة ٧٦٩هـ (مارس ١٣٦٨م) أقلع التازى من ثغر الاسكندرية فى مركبين حربيين بهما خمسمائة مقاتل متجها الى جزيرة قبرص وما يجاورها من جزر فغنم سفينة بقلعين للعدو أرسلها الى الاسكندرية بعد أن حجز معه رجالها واستمر التازى فى غاراته ثلاثة وعشرين يوما عاد بعدها محمــلا بالغنائم والاسرى فارتجت الاسكندرية لقدومه ، وخرج أهلها الى موضع منارها لاستقباله ، واصطف الترك المجردة لحراسة الاسكندرية بطول الساحل راكبين خيولهم ، متطلعين الى الغرابين القادمة ، وقد ارتفعت عليهما أعلام السلطان . ودخل الرايس ابراهيم التازى الاسكندرية وسار من خلفه أسارى الفرنج يتقدمهم راهب كهل وهو راكب حمار ووجهه لذنبه ، وخلفه يسير خمسة وثــلاثون أسيرا حفاة الاقدام قد ربطت أعناقهم بالحبال وأيديهم بالخشب[١١٧] .

ثم نلقى الملك بطرس لوزنيان مصرعه على يد بعض رجاله سنة ٧٧٠هـ (١٣٦٩م) ، الا أن موته لم يغير من سياسة قبرص العــدوانية نحو مصر والشام نتيجة لرفض سلاطين المماليك ابرام صــلح معها . لهــذا استمر قراصنتها يغيرون على الشواطىء الاسلامية ، ويجدون من وسائل دفاعها البحرى والبرى خير مقاوم لهم . وحسبنا أن نشير الى تلك المحاولة التى قام بها الاسطول القبرصى لغزو مدينة الاسكندرية من جديد سنة ٧٧٠هـ ، فتصدت له المراكب بقيــادة الرايس ابراهيم التازى ، ووســائل الدفاع

(١١٦) د . سالم ، د . العبادى ، تاريخ البحرية ، ج ١ ، ص ٣٢٧ .
(١١٧) د . سالم ، تاريخ الاسكندرية ، ص ٣٦٣ . د . سعيد عاشور ، قبرص والحروب الصليبية ، ص ٧٩ .

الساحلى من جروخ وسهام ومجانيق ، وخاضت معه معركة بحرية ضارية فقد فيها بعض سفنه وعـــدد كبيرا من رجاله ، ثم فـــر هاربا لا يلوى على شىء(١١٨) .

ودكر النويرى معلقا على بطولة ابراهيم التازى المغربى رئيس دار الصناعة بالاسكندرية : « لان الفرنج ليس بقهرهم سوى المغاربة ، وذلك لمخالطتهم لهم بجزيرة الاندلس ، يعرفون طرق حربهم وطعنهم وضربهم فى بر وبحر ، فلو كان منهم بالاسكندرية من المغاربة جمعا كبيرا بجـــوامك مرتبة ، وغربان مجهزة بعددها وأزوادها ، كانوا يخـــربون جـــزر كثيرة ، وصارت الفرنج معهم فى جزيرة »(١١٩) .

واذا كانت أخبار المغاربة فى القوة المصرية ومعاركها تتناثر فى اشارات نادرة سجلها النويرى وغيره الا أن الانســـارة التى أوردها ابن اياس عن دورهم فى الاسطول المملوكى أيام السلطان الغورى تؤكد عدم انقطاع هذا الدور واستمراره وأهميته عند سلاطين المماليك وسياستهم الحربية ، يقول ابن اياس : « .. وكان العسكر الذى خرج فى هذه التجريدة ملفقا ما بين أولاد الناس وبعض مماليك سلطانية ، والغالب منهم مغاربة وعبيـــد سود رماة وتراكمة وغير ذلك ، وأرسل السلطان صحبتهم جماعة كثيرة من البنائين والنجارين والفعلاء بسبب تلك الابراج التى أنشأها السلطان فى جدة وأنشأ الصور .. »(١٢٠) .

---

(١١٨) النويرى ، المصدر السابق ، ص ٢٧٤ ب . د . سالم ، تاريخ البحريه الاسلامية ، ج ١ ، ص ٣٢٨ .

(١١٩) النويرى ، نفس المصدر ، ص ٢٧٧ ب . د . سالم ، تاريـــخ الاسكندرية ، ص ٣٣٠ .

(١٢٠) ابن اياس ، بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، تحقيق الدكتـــور محمد مصطفى ، القاهرة ، ١٩٦٠ — ١٩٦٣ ، ج ٤ ، ص ٨٤ .

ولا جدال فى أن قلة الاشارات المذكورة عن المغاربة كان مرجعها ما أصاب مدينة الاسكندرية من اضمحلال فى القرن ٩هـ — ١٥م بسبب تحويل الطريق التجارى الى رأس الرجاء الصالح ، وما قام به البرتغاليون من السيطرة على الطريق التجارى الشرقى فى المحيط الهندى وجنوب البحر الاحمر . لذلك ، عندما اهتم سلطان مصر الملك الاشرف قانصوه الغورى ببناء أسطول كبير فى السويس ليتعقب به الفرنجة فى البحر الاحمر والمحيط الهندى ، ويحمى التجارة المصرية ، نجده فى سنة ٩١١هـ (ربيع الاخر) يستعرض عسكره ويعين فيها ثلاثة تجاريد أنفذ كل منها الى جهة معينة . منها تجريدة بحرية وجهها الى بلاد الهند[١٢١] اشتركت فيها قوة مغربية حسبما أشرنا آنفا أوكل السلطان قيادتها الى الامير حسين الكردى ، ووكل قيادة المغاربة وحدهم الى الخواجا نور الدين على المسلاتى المغربى . وخرجت الحملة فى احتفال كبير حتى وصلت الى مدينة السويس فاستقلوا منها السفن المزودة بالسلاح ، ثم أبحروا منها الى جدة فى جمادى الاخرة عام ٩١١هـ (١٥٠٥م) . وبعد وصولهم اشتبكوا فى معركة طاحنة مع يحيى بن سبع أمير ينبع الثائر على الحكومة المملوكية فى مصر ، فانهزم وفر هاربا وظلت تلك القوات بفرقها بعض الوقت فى جدة لبناء الحصون والاسوار لمراقبة الطريق وقطعه على البرتغاليين بسبب ندرة المنتوجات الهندية الى مصر . وفى ذلك يردد ابن اياس قوله : « ... وكان باش المماليك الذين توجهوا فى المراكب الى جدة والتركمان والعبيد الذى بها حسين المشرف ، وباش المغاربة الذى بها الخواجا نور الدين على المسلاتى المغربى »[١٢٢] .

ووضحت مكانة المغاربة فى أحداث هذه التجريدة من تطور النزاع

---

(١٢١) ابن اياس ، نفس المصدر ، دالصفحة .
(١٢٢) ابن اياس ، المصدر السابق ، ص ٨٤ — ٨٥ .

المذكور الى صدام بين القائد المغربى على المسلاتى وأمير الحملة حسين الكردى ، وتطور النزاع بينهما الى حد عرقلة الحملة عن تحقيق هدفها ، فأمر السلطان الغورى بالقبض على المسلاتى الذى عاد الى القاهرة مكبلا بالحديد بينما أتم حسين الكردى عمله وانتصر على البرتغاليين فى عام ٩١٤هـ (١٥٠٨م) وغنم غنائم عديدة قبل أن يعود البرتغاليون للايقاع بالحملة المصرية ، ويرجع الامير حسين الكردى الى مصر فى عام ٩١٨هـ (١٥١٢م) يجر أذيال خيبة الهزيمة تاركا السبيل أمام البرتغاليين للاستيلاء على مقاطعة مكران فى الهند سنة ٩١٩هـ (١٥١٣م) ومحاصرة سواكن أهم المراكز التجارية المصريةعلى البحر الاحمر ، بل وتهديد مدينة جدة نفسها .

وظهر دور المغاربة الحربى من جديد ضمن استعدادات السلطان الغورى للرد على تلك الهزيمة . ومما يذكر فى هذا الصدد ، أن السلطان المملوكى وجد صعوبة بالغة لعصيان الجند عليه فاستخدم الحيلة معهم ليحثهم على الخروج مع الحملة الى أن جند ٦ آلاف أعد لهم ٢٠ سفينة فى ميناء السويس زودها بمجموعة كبيرة من أمهر البحارة منهم عدد كبير من طوائف المغاربة على قيادة الاسطول الريس (سليمان العثمانى) الذى أبحر فى رجب عام ٩٢١هـ (١٥١٥م) . ولكن يتكرر ما سبق من صدام بين القواد الى حد قتل الامير حسين الكردى وعودة سليمان العثمانى فى شعبان عام ٩٢٣هـ (١٥١٧م) ببعض الاسرى وبقايا رجاله(١٢٣) .

فكان ذلك من ارهاصات سقوط السلطنة المملوكية ودخولها فى ظل الامبراطورية العثمانية حسبما هو معروف من تاريخ نهاية الدولة المملوكية وبداية الدولة العثمانية فى بلدان المشرق والمغرب على السواء حتى نهر ملوية الى الشرق من أحواز فاس بالمغرب الاقصى .

---

(١٢٣) اسماعيل سرهنك باشا ، حقائق الاخبار عن دولة البحار ، ج ٢ ، ص ٣٦ . انظر أيضا : محمود رزق سليم ، الاشرف قانصوه الغورى ، أعلام العرب ، ص ١١٥ — ١١٨ .

البـــــاب الثانى

الصلات الحضـــارية بين الخلافة

والمشرق الاســــــلامى

الفصـــــل الرابـــــع

الصـــلات الاجتماعية

١ ـــ أثر الرحلات المغربية الى المشرق ٠

٢ ـــ انخراط المغاربة فى سلك الوظائف المشرقية ٠

٣ ـــ موقف الموحدين من يهود المغرب والمشرق ٠

الصـــلات الاجتماعية

(١)

أثر الرحلات المغربية الى المشرق

نعددت رحلات المغاربة الى المشرق ولم تنقطع على مــدى مــراحل التاريخ الاسلامى • كذلك ، تكاثرت أعداد من استطاب منهم المقام فى أقطار المشرق ، وتشكلت منهم أكثر من طبقة اجتماعية بين سكان هــذه البلاد • ونقرأ عن المظاهر الاجتماعية لهذا الجانب من العلاقات بين المغرب والمشرق فى أوصاف مختلفة جاءت على ألسنة الرحالة المغاربة •

(أ) وصف الرحالة المغاربة فى عصر الموحدين لموانى مصر :

١ ــ الاســكندرية :

من ذلك ما جاء على لسان العبدرى فى قوله : « ثغر الاسكندرية مدينة الحصانة والوثاقة وبلد الاشراق اللامع والطلاقة وطلاوة المنظر وحــلاوة المذاقة كل عنها ظفر الزمان ونابه ومل منها جيش الحدثان وأحزابه فــلم تبد عليها للزمان ضراعة ولا كست لها فى معاملاته سلعة ولا بضاعة ولا وقفت له موقف ذل يوما ولا ساعة بل ثبية لحزبه ثبوت البطل وصابرت كيده حتى اضمحل سحره وبطل ، ولم تصغ أذنا الى ما يوعد به من الخنا والخطل فهى واقفة وقوف الاطواد سامية بطرف غير كليل وجيد غير متآد ، أخــذة من الكفر وأهلية الخنق ، حتى أبدلتهم من الصافى المروق الكدر المرنق فسامروا الاسف مسامرة الندى للمحلق ودجا عليهم ليل هم أولهم بعد نهار سرور تألق ، واضطرم عليهم الاسى واحتدم فخالفــوا النــدم ، وقالوا عضــو لا يفترق • مدينة فسيحة الميدان صحيحة الاركان مليحة البنيان تسفر عن محيا جميل المنظر وترنو بطرف ساج أحور تبسم عن ثغر كالاقحــوان اذا

نور كأنه لم يغب عنها نشخص الاسكندرية بما ساس فيها من عجائب بمانيها ودير ، ناهيك بمدينة كلها عجب قد ستر حسنها حسن غيرها وحجب ، ووفى فيها الاتفاق حقه كما وجب ، وقد أغنى عن تسطير وصفها بأسطره الاعلام وصرت به على المهارق الاقلام »[1] .

ويصف ابن بطوطة الاسكندرية بقوله : « ثم وصلنا فى أول جمادى الاولى الى مدينة الاسكندرية حرسها الله وهى الثغر المحـــروس ، والقطر المأنوس ، العجيبة الشأن ، الاصيلة البنيان ، بها ما شـــئت من تحســـين وتحصين ومآثر دنيا ودين ، كرمت مغانيها ، ولطفت معانيها ، وجمعت بين الفخامة والاحكام مبانيها ، فهى الفريدة تجلى سناها ، والخريدة تجلى فى حلاها ، الزاهية بجمالها المغرب ، الجامعـــة لمفترق المحاسن لتوسطها بين المشرق والمغرب ، فكل بديعة بها اجتلاؤها وكل طرفة فاليها انتهاؤها ، وقد وصفها الناس فأطنبوا ووصفوا فى عجائبها فأغربوا .. »[2] .

ويستطرد ابن بطوطة فى وصفه هذا ، فيصف مـــراسيها ومنائرها ، فضلاً عن عمود السوارى . ويعجب بأبوابها الاربعة ويعددها قائلا هى : « باب رشيد ، وباب البحر ، والبـــاب الاخضر ويفتح يوم الجمعة فقـــط فيخرج الناس منه الى زيارة القبور ، وأخيرا باب سدرة واليه يشرع طريق المغـــرب »[3] .

---

(١) العبدرى (أبو عبد الله محمد بن محمد العبدرى الحيحى) الرحلـــة المغربية ، تحقيق محمد الفاسى ، الرباط ١٩٦٨ ، ص ٩٠ .

(٢) ابن بطوطه (محمد بن عبد الله بن محمد بن ابراهيم اللواتى الطنجى) المكنى أبو عبد الله ويعرف بابن بطوطة ، تحفة النظار فى غرائب الامصـــــار وعجائب الاسفار ، تحقيق أحمد العوامرى ، محمد أحمد جاد المولى ج ١ ، ٢ ، القاهرة ، ١٩٣٤ ، ص ١٢ . أنظر أيضا : المقرى ، نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ٤٠٦ .

(٣) ابن بطوطة ، الرحلة ، ص ١٢ — ١٣ . ابن رشيد السبتى ، الرحلة تحقيق : نجاح صلاح الدين ، ص ١٤٥ .

حظيت الاسكندرية ، ميناء مصر الشمالى بامتداح الرحالة المغــاربة ونالت اعجابهم بعمرانها الفسيح واتساع طرقاتها وجمال مبانيها ونضارة معاهدها وقد ساعد على تعظيمها ما كان يلاقيه الرحالة الوافدون عليها من مشاق الرحلة وما كان ينزل بهم على أيدى الاعراب على الطــريق ما بين تونس وسوسة وصفاقص وقابس وطرابلس ، وهو ما يعبر عنه العبدرى فى قوله : « وصحبنا فى بعض المراحل اليها نحو مائة فارس أو يزيدون ، وكان بالركب قوم رماة فهابتهم العرب ، وتحامت مكانهم وعصمنا الله منهم »[٤] .

٢ — عيــــذاب :

كان ينتجع عيذاب ميناء مصر الشرقية[٥] أعــداد كبيرة من الرحالة المغاربة بهدف الحج ، وقد بلغت عيذاب نهاية القــرن ٥هـ — ١١م درجــة عظيمة من الازدهار ، وان كان لا يعرف السبب الذى أدى الى تحول طريق التجارة الشرقية الى عيذاب ، والواقع أن عيذاب كانت مركزا هاما للتجارة الشرقية (تجارة الكارم) ، كما كان طريق الحــج يمر بها فى الفترة ما بين سنتى ٤٥٠ — ٦٦٠هـ / ١٠٥٨ — ١٢٥٨م . وربما أجاب ابن جبير فى رحلته عن هذا التساؤل أثناء وصفه لميناء عيذاب حين قال عنها فى سنة ٥٧٩هـ — ١١٨٣م : « من أحفل مراسى الدنيا ، بسبب أن مراكب الهند واليمن تحط

---

(٤) العبدرى الرحلة ، ص ١١ .

(٥) كانت عيذاب نقطة الاتصال بين التجارة البحرية والتجارة النهرية وكان ميناؤها يتميز بعمقه وبخلوه من الشعاب النائبة . فكانت ترد اليهــا البضائع من الحبشة واليمن وزنجبار بطريق البحر ، ثم تحمل على الابــل فى الصحراء مسيرة عشرين يوما الى أسوان أو قوص ، ومن هناك تنتقل الــى القاهرة فى النيل ، أنظر ، القلقشندى ، صبح الاعشى ، ج ٣ ، ص ٤٦٨ . ابن جبير ، الرحلة ، ص ٦٤ .

فيها وتقلع منها ، زائد على مراكب الحجاج الصادرة والواردة »[٦] .

وكانت الضرائب الديوانية المقررة على النشاط الاقتصادى فى هـذا الميناء تشمل الوافـدين من الحجاج أيضا حيث صار يؤخـذ من كل حاج ثمـانية دنانير .

وكانت ضرائب الميناء تنقسم على أساس « ثلث المدينة للملك الناصر وثلثاها لملك البجاة وهو يعرف بالحـدربى »[٧] . وكثيرا ما تعطل سـفر الحجاج بسبب خروج ملكها وسلطانها من البجاة ضد سلطان مصر بالاستيلاء على المراكب التى تقلهم الى ساحل جـدة[٨] .

ومثل هذا الخروج على الاعراف المعهودة فى معـاملة الحجيج كان مثار غضب الرحالة المغاربة وأكثر من عبر عن ذلك العبـدرى أثناء نزوله بثغر الاسكندرية ، اذ يقول : « .. ومن الامـر المستغرب والحـال الذى أفصح عن قلة دينهم ، وأعرب أنهم يعترضون الحجاج ، ويجـرعونهم من بحر الاهانة الملح الاجاج ، ويأخذون على وفـدهم الطريق والفجـاج ، يبحثون عما بأيديهم من مال ، ويأمرون بتفتيش النساء والرجال ، وقد رأيت من ذلك يوم ورودنا عليهم ما اشتد له عجبى وجعل الانفصـال عنهم غاية

---

(٦) يؤكد ابن جبير على أهمية أحمال الفلفل التى شاهدها فى عيذاب ، وكانت تنتقل الى القاهرة ويباع الحمل منها بخمسين دينار ، ويباع نفس الحمل فى الاسكندرية بثلاثة أضعاف ثمنه للاوربيين (الرحلة ، ص ٦٤ — ٦٦) .

(٧) ابن بطولة ، الرحلة ، ص ٤٣ .

(٨) هى مدينة كبيره كثيرة الحوت واللبن ، يحمل اليها الزرع والتمر من صعيد مصر ، أهلها البجاة وهم سود الالوان يلتحفون ملاحف صفر ، ويشدون على رؤوسهم عصائب تكون عرض العصابة منها اصبعا ، لا يورثون البنـات وطعامهم ألبان الابل ، ويركبون المهارى ويسمونها الصهب (ابن بطوطـة ، الرحلة ، ص ٤٢ — ٤٣) . راجع أيضا : التجيبى السبتى ، مستفاد الرحلـة والاغتراب ، ص ٢٠٥ — ٢٠٨ .

أربى ، وذلك أنه لمـــا وصل المركب جاءت شرذمة من الحرس لا حرس الله مهجهم الخسيسه ، ولا أعدم منهم لأسد الافات فريسة ، فمدوا فى الحجاج أيديهم ، وفتشوا الرجال والنساء ، وألزموهم أنواعا من المظالم »[٩] •

(ب) المظالم على تجـــار المغرب :

وفى أخبار الرحالة الذين سبقوا العبدرى ما يشير الى جشع حرس الديوان بالاسكندرية وشراهتهم الكبيرة فى تقرير المكوس على الوافــدين عليها من بلاد المغرب والاندلس • وعندما ذكر ابن جبير مثل هذا الاجراء أثبت وجوده قبل رحلة العبدرى بنصف قرن ولم يلق تبعة ذلك على أهــل المدينة كما فعل العبدرى[١٠] • وانما أرجع ذلك الى فســـاد القائمين على ادارة الديوان مسجلا أيضا مشاهداته عن الاجراء الجمركى المذكور ، من حيثحصر أعداد الركاب وتدوين أسمائهم ومعرفة البلدان التى جاءوا منها، وحصر ما لديهم من أمتعة تمهيدا لتقدير المكس المقرر التى بلغت دينارين عن كل عشرة دنانير أن بنسبة ٢٠٪[١١] •

ويشرح الاستاذ محمد الفاسى وجهة نظر العبـــدرى لتبرير سخطه فيقول : « •• عندما يقول أهل الاسكندرية فانه يعنى أولا المشرفين على

---

(٩) العبدرى ، الرحلة ، ص ٩٣ ، د . سالم ، تاريخ الاسكندرية ، ص ٢٦٢ — ٢٦٣ .

(١٠) جاء العبدرى فى هذا الصدد بأوصاف متدنية منها القول : « أكثر أهلها رعاع ضرر بلا انتفاع مع سوء أخلاق ومرارة مذاق وقلوب رباها الضغن تربية الاولاد ، جناها الخبر والصلاح .. والغريب بينهم نكرة لا تتعــرف أن رواه زادوا الوجوه جهامة ونكروا منها ما قد نكرته الدمامة ، وجمجموا قولا — تما لؤوا على كل وصف شان وما زان وتواصوا على تطفيف المكيال والميزان . فان عاملهم غريب لم يلق منهم الا ما يريب ، يتخذونه هدفا ولكل منهم فيه سهم مصيب حتى بخرج من ماله بغير نصسب ، لا ترجا منهم فيئة انابة ولا تلقى منهم فئة رأفة ولا عصابة ولا ينفع الغريب فى معاملتهم » . الرحلة ، ص ٩٢ .

(١١) ابن جبير ، الرحلة ، ص ٧ .

الديوانة وأعوانهم الذين كانوا يطبقون الاوامر الصارمة الصادرة لهم فى معاملة من يرد عليهم من الخارج . تلك المعاملة القاسية ، نظرا لتخوفهم من الاعداء الصليبيين وجواسيسهم خشية تسربهم اليهم تحت ستار التجارة أو الحج أو ما شابه ذلك »[١٢] .

ويزيد من وضوح صورة هذا الشرح ما ذهب اليه الدكتور سعد زغلول فى بيان مراحل فرض تلك المكوس وأسبابها الملحة اذ يقول : « فاذا كانت ملحة فى رحلة ابن جبير الاولى فانها بعد الانتصارات التى تحققت على الصليبيين بيدى صلاح الدين ، فان رحلة ابن جبير الاخيرة ، لم يعد لهـا نفس الالحاح . أما على أيام رحلة البلوى سنة ٧٣٧هـ — ١٣٣٦م فـكانت الحروب الصليبية فى الشام قد انتهت منذ مدة ولو أن الاعمال العدائية مع أهل قبرص ورودس لم تنقطع نهائيا » . وعندما يصل هذا الحـديث الى عهد الرحالة البلوى ، حيث بلغت الضريبة الجمركية فى أيامه ٢٠٪ مما يحمله الحجاج من أموال يقول : « وأغلب الظن أنها كانت أكثر المسائل الحاحا فى ذلك الوقت ، بدليل ما يذكر عن النويرى السكندرى اثر مفاوضات الصلح بعد غارة ملك قبرص كانت تتلخص فى تخفيض الضريبة على متاجـره من الخمس الى العشر ، وأن يعفى حجاج قبرص الى كنيسة القيامة من دفع المـكوس »[١٣] .

وبهذه المناسبة أيضا كانت تلك القصيدة التى بعث بها ابن جبير الى

---

(١٢) العبدرى ، الرحلة ، المقدمة ، ص ظ ، راجع أيضا : د . سـالم ، تاريخ الاسكندرية وحضارتها ، ص ٥١٥ — ٥٢١ . د . سالم ، التاريـخ والمؤرخون العرب ، ص ٢٢٥—٢٢٩ .

(١٣) د . سعد زغلول عبد الحميد ، الاثر المغربى والاندلسى فى المجتمع السكندرى ، الاسكندرية ، ١٩٧٥ ، ص ٢٥١ .

السلطان صلاح الدين يمدحه فيها لتخفيفه عن كاهل المسلمين ويذكره بالله فى حقوق المسلمين ومنها :

رفعت مغارم أرض الحجاز
بانعامك الشامل الهامر
فكم لك بالشرق من حامد
وكم لك بالغرب من شاكر
وقد بقيت حسبة فى الظلوم
بمكة من معلن جاهر
يعنف حجاج بيت الاله ويسطو
بهم سطوة الجائر
ويكشف عما بأيديهم
وناهيك من موقف صاغر
وقد أوقفوا بعد ما كوشفوا
كأنهم فى يد الآسر
ويلزمهم حلفا باطلا
وعقبى اليمين على الفاجر
وان عرضت بينهم حرمة
فليس لها عنه من ساتر[١٤]

وربما كان ابن جبير والعبدرى فى شكواهما من جور موظفى الديوان ينطقان بلسان عموم المغاربة ، لا سيما التجار منهم ، وتضرر هؤلاء من ظلم القباض أو المكاسة ، حتى أن ابن اياس يذكر فى عام ٨١٤هـ / ١٥–١٤١٦م

---

(١٤) العبدرى ، الرحلة ، ص ٩٥ .

أنه : « عندما توجه الملك الناصر فرج بن الظاهر برقوق الى الاسكندرية فى سنة ٨١٤هـ فلما دخلها كان له يوم مشهود ، فوقف له بعض تجار المغاربة بقصة يشكو فيها من ظلم القباض لهم فأبطل ما كان يؤخذ منهم من الثلث الى العشر ، فارتفعت له الاصوات بالدعاء »[١٥] .

ونضيف الى هذه الصورة صورة الاسكندرية المشرقة كما صورها لنا الرحالة ابن رشيد السبتى ، وقد سمى فيها الاسكندرية « باب المغرب » واهتم بوصف مساجدها بصفة خاصة لانها لفتت الانظار ويبلغ عددها نحو « عشر ألف مسجد أو عشرين ألف مسجد » . ويعدد ما بها من المدارس مثل : « المدرسة السلفية ، مدرسة صلاح الدين الايوبى ، مدرسة الابزارى ، دار الحديث النبيهية ، مدرسة عبد اللطيف بن محمد بن سند — أحد كبار تجار الاسكندرية » . ومع ذلك نجده يذم مدينة بلبيس كما فعل العبدرى بالاسكندرية ، حيث يقول فيها : « فبئس الاهل أهلها ، يا شر ما لقينا من بأسهم والله يجزيهم بسوء صنيعهم ، لقد أنعموا فى التفتيش لاسبابنا ، وأغرمونا مالا نحب من أموالنا ، أنصف الله ظلامهم وأرانا أنوار الخروج من ظلامهم »[١٦] .

(ج) معاملة أهل مصر للمغاربة :

ويتضح ضخامة حجم الجالية المغربية فى مصر من قول العبدرى نفسه فى وصف صعيد مصر : « .. وقد سمعت ممن جال فى صعيد مصر وريفها

---

(١٥) ابن اياس ، بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، ج ٣ ، ص ١٣٢ . انظر أيضا . د . سالم ، تاريخ الاسكندرية ، ص ٣٨٦ .

(١٦) ابن رشيد ، الرحله ، تحقيق ، نجاح صلاح الدين القابسى ، ص ١٤٥ ، ١٥٩ — ١٦٤ .

أن أهلها لا بأس بهم وأنهم أشبه حالا من المذكورين بكثير ، ومع ما ذكرت فقد كاد المغاربة ينيفون على أهل البلاد كثرة لطيب الارض وسمعتها وكثرة أرزاقها وربما تقاتلوا مع أهل الموضع فغلبوهم ، وقد فشا على لسان الصغير منهم والكبير أن مغربيا يملكهم لا محالة ويتحدث بهذا عامتهم وخاصتهم .. » (١٧) .

وبخلاف ما جاء فى وصف العبدرى من سوء معاملة حرس ديوان الاسكندرية لاصحابه المغاربة ، يذكر فى وصف مدينة قوص بصعيد مصر جاوس الحجاج والتجار المغاربه مع عمدة هذه المدينة يكتب لهم كتب الامان ويحض على تسيير جميع مطالبهم : « .. فالمجلس أعزه الله ينتهز هده الفرصة فى خدمة المذكورين ، ويقابلهم بالاكرام والاجلال ، ويعاملهم بالاحترام ويوصى بهم كل الوصية ويبسط لهم من الانس ما أعلمه من أخلاقه الرضية ، ويظهر الاجتهاد فى مصالحهم ، والاعانة لهم والعناية بهم ، فيتقدم الى النواب بمساعدتهم على استئجار الجمال التى يحتاجون الى ثغر عيذاب المحروس . ويكتب المجلس من جهته كتابا نسافيا الى نوابه بالثغر المذكور يتضمن الوقوف فى خدمتهم ، وتسفيرهم فى أجود المراكب والتأكيد على الربان فى أمرهم ورعايتهم وأكرامهم . ويفصل المجلس فى هدا الامر من أنواع التأكيد والمساعدة ما يجد شكره وأجره فى الدنيا والآخرة » (١٨) .

---

(١٧) العبدرى ، نفسه ، ص ١٤٨ . راجع أيضا عن أهمية العدد المغربى فى صعيد مصر : السبتى (أبو القاسم يوسف التجيبى السبتى ، ت ٧٣٠ هـ / ١٣٢٩ م) ، مستفاد الرحله والاغتراب ، تونس ١٩٧٥ ، ص ٢٠٥ — ٢٠٦ .

(١٨) السبتى ، مستفاد الرحلة ، ص ١٧٤ .

ولا يتوج هذا الحديث الاخير عن سوء معاملة المغاربة فى مصر الا قول المقرى ، بعد دخوله مصر سنة ١٢٠٨ هـ / ١٦١٩ م وتزوجه منها وأقامته بها مدة ، حسبما جاء على لساء ابن الحاجب :

يا أهـــل مصر وجـــدت أيـــديكم
في بذلهـا فى الســخاء منقبضــة
لمـــا عـــدمت القــرى بأرضكم
أكلت كتبى كـــأننى أرضـــة

ومما قاله بلسانه :

تــركت رســوم عــزى فى بــلادى
وصرت بمصر منسى الرســـوم
ونفسى عفتهـــا بالـــذل فيهـا
وقلت لهـا عن العلياء صــومى (١٩)

وينفى أو يخفف هذا القصيد الشعرى الهجائى السياسة الرحيمــة التى اتبعت مع المغاربة . ففى عصر صلاح الدين كانت السلطات المصرية تحن الى ضعاف الحال من المغاربة ويتمثل ذلك فى قول ابن جبير : « ومن أشرف المقاصد أيضا أن السلطان عين لابناء السبيل من المغاربة خبزتيــن لكل انسان فى كل يوم ، بالغا ما بلغوا ، وينصب لتفريق ذلك كل يوم انسانا أمينا من قبله ، فقد ينتهى فى اليوم الى ألفى خبزة أو أزيد ، بحسب القلة والكثرة ، وهكذا دائما ، ولهذا كله أوقاف من قبله حاشا ما عينه من زكاة العين لذلك » (٢٠) .

---

(١٩) د . سعد زغلول ، الانر المغربى ، ص ٢٥٤ .
(٢٠) ابن جبير ، الرحلة ، ص ١٠ .

وعلى الرغم من سوء معاملة سلاطين المماليك لتجار المغاربة ، الا أن السلطان الغورى كان يحيطهم بعنايته ويتعهدهم برعايته ، ففى سنة ٩١٥ هـ / ١٥١٦ م « أفرد السلطان على طائفة المغاربة اثنين وثلثين ألف دينار وكان سبب ذلك أن تغرى بردى الترجمان لما توجه الى بلاد الفرنج اشترى من ملوك الافرنج عدة أسرى من المغاربة بنحو من خمسين ألف دينار ، فلما خلصوا أراد السلطان أن يوزع ما غرمه من المال على طائفة المغاربة التى بمصر والاسكندرية فى نظير ما غرمه » [٢١] .

وفى نفس السنة : « نزل السلطان الغورى الى الميدان فوقف على جماعة من المغاربة نحوا من سبعين انسانا ما بين رجال ونساء وقدقصدوا الحج فى هذه السنة فرسم لهم السلطان بأشرفى لكل واحد منهم ثمن بقسماط » [٢٢] .

وكانت هذه الاعانة تتم فى كثير من الاحيان بغض النظر عن تصنيف المغاربة بين من جاء بقصد الحج أو لطلب العلم ، كما كانت تؤدى أحيانا دون ملاحظة الفرق بين مياسيرهم وفقرائهم . ولقد أشار بعض المقربين الى صلاح الدين عليه بأن يستثنى المياسير منهم من تلك الاعانة لعدم حاجتهم اليها ، وذلك بعد أن تبين لهم عند رؤية بعض القادمين من طرابلس عبر تلك المسالك البرية « وقد ذهبت رسومهم عطشا وجوعا دون النظر الى ما كانوا يحملونه من المال » [٢٣] .

وعندما يذكر ابن اياس أن تجار المغاربة كانوا ضمن مشاهير الناس

---

(٢١) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ١٦٣ .
(٢٢) ابن اياس ، نفسه ، ج ٤ ، ص ١٦٦ .
(٢٣) د . سعد زغلول ، المرجع السابق ، ص ٢٤٠ .

الذين صادرهم السلطان الاشرف قايتباى سنة ٩٠١ هـ / ١٤٩٦ م ، فان فى ذلك ما يشير الى عظم ما بلغه تجار المغاربة من ترف وثراء فى البلاد . كما نستدل من أشارة نفس المؤرخ (٢٤) الى أن مصر كان قد وصلها فى عـام ٨٨٩ هـ / ١٤٨٥ م ألف وخمسمائة حاج من المغاربة على مدى أنتعـاش الرحلات المغربية الى المشرق بقصد الحج والتجارة فى آن واحـد . ولم تتأثر هذه الرحلات قط باضطراب الاوضاع الامنية فى الاقطار التى يمر بها الحجاج ففى شوال سنة ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م جاءت الاخبار من مكة « بأن الاحوال فاسدة وأن عربان بنى ابراهيم قد التفوا على يحيى بن سبع أمير الينبع ومالك بن رومى أمير خليص وقد أشتد الامر فى ذلك جدا فلماتحقق السلطان ذلك أمر بابطال التوجه الى الحجاز فى هذه السنة من مصـر والشام وسائر الاعمال قاطبة . وكانت هذه الواقعة من أعظم المصائـب والثلم فى الدين ، وقد حضر الركب التكرورى والركب المغربى ولم يحـج منهم أحد فى تلك السنة » (٢٥) .

---

(٢٤) ابن اياس ، نفسه ، ج ٣ ، ص ٣٢٠ . ويذكر ابن اياس « فى سنة ٨٨٩ هـ حج الشيخ عبد اللطيف شيخ ركب المغاربة ، وكان قدم صحبة الركب من تونس بروح الحج وكان بالركب نحو من ألف وخمسمائة انسان من المغاربة يقصدون الحج (ج ٢ ، ص ٢٢٤) .

(٢٥) ويزودنا ابن اياس بوصف دقيق لما قام به الاعراب ، وقد أبـدى مخاوفه فى أن يتكرر مع الحجاج المغاربة والسودانيين ما حدث سنة ٩٠٨ هـ بالنسبة للركب الشامى والعراقى والمصرى وما صنع بالمجاورين بمكة . وهو شبيه بما حدث سنة ٣٠٨ هـ فى عصر الخليفة العباسى القاهر بالله لما تغلـب عليه القرامطة ، وكان زعيمهم أبو ظاهر خارجيا سفاكا للدماء ، جاهلا . ولما وصل ركب الحجاج من بغداد يتقدمه أمير الركب منصور الديلمى مكة وأقـام بها الى يوم الصعود هجم عليهم أبو ظاهر بمن معه من العربان فقتل محارب أمير مكه والديلمى ، ونهبت جميع الاموال بمكة وقتل الحجاج وأسر النسـاء

ومن مظاهر الصلات الاجتماعية بين المغاربة والمشارقة الاحتفالات التى كان يقيمها الحجيج المغاربه وما كانت تحمله مواكبهم من هدايـــا حكام تونس الى سلطان مصر . ويتسهد عليها النموذج الخاص بوصـول رسول تونس (أبو يحيى زكرياء المسعود أبى عمرو عثمان) الى مصر لدى السلطان الغورى وصحبته « تقدمة حافلة للسلطان قيل انها قومت بعشرة آلاف دينار وهى ما بين قماش فاخر وخيول وسلاح وغير ذلك فأخلـع عليه السلطان كاملية صوف بصمور ونزل من القلعة » (٢٦) .

ومن الجدير بالذكر أن العلاقات الودية توثقت بين تونس ومصـر بحيث اتخذت سمات الروابط الاسرية . فكان حرص الحفصيين علـى أن يعلموا سلاطين مصر بأخبارهم . مثل ذلك أنه عندما تم لهم الانتصـار على الفرنج فى جزيرة جربة أعلموا مصر بهذا النصر فى ربيع الاول من سنة ٩١٧ هـ / ١٥١١ م ، وسجلوا فى مكاتباتهم ما غنموه من غنائم وعدد قتلاهم

والصبيان الصغار ، فكان من قتل فى ذلك نحو ٣٥ الف ، وطرح غالب القتلى فى بئر زمزم ، وأخذ الذهب والفضة ، وخلع باب الكعبة والحجر الاسود وعـرى الكعبة ، وبذلك انقطع الحج من بغداد وغيرها من البلاد عشرين سنة ، حتى خلافة الراضى بالله أحمد بن المقتدر حيث تم الصلح مع تلك الطائفة وأذنـوا للناس بالحج وجعلوا على الحجاج فى كل سنة نحوا من خمسين الف دينـار تعطى لتمكينهم من الدخول الى مكة . وهذا أول مكس أخذ على الحجاج مـن سنة ٣٣١ هـ وتلطفوا بالقرامطة حتى ردوا الحجر الاسود وباب الكعبـة الى مكانها . (أنظر ، ج ٤ ، ص ٨٩) . راجع ايضا : المقريزى ، المواعظ والاعتبار ج ٢ ، ص ٩٢ . ابن الاثير ، الكامل ، ج ٦ ، ص ٩٤ ، ٢٤٩ . ابن الجوزى ، المنتظم فى تاريخ الملوك والامم ، ج ٥ ص ١١٠ — ١١٩ . الصابى . (ثابت بن سنان) تاريخ أخبار القرامطة ، جمع وتحقيق سهيل زكار ، بيروت ١٩٧١ ، ص ٧ ، ١١٣ .

(٢٦) ابن اياس ، نفسه ، ج ٤ ، ص ٢٦٨ .

وأسراهم ، بل « وبعثوا للسلطان مكحلة نحاس كبيرة وأشياء كثيرة من أنواع الهدية وشخصين من أسراء الفرنج وعليهم آلة السلاح » (٢٧) .

وقد بلغ التأثير المغربى على الحياة الاجتماعية بمصر الى حد أنه فى عام ٨٨١ هـ / ١٤٧٦ م « أشيع بين الناس أن السلطان (قايتباى) يتزى بزى المغاربة وينزل الى جامع الازهر ويصلى به » (٢٨) . ولم يكن هذا غريبا أو من قبيل الاشاعة مع كثرة العلماء والفقهاء والمغاربة الذين تولوا عدة مناصب هامة فى الحياة العلمية المصرية .

(د) من مظاهر التأثيرات المتبادلة بين مصر والمغرب :

وأتصالا بموضوع الاحتفالات وما حملته من مؤثرات مغربية ماظهر من المديح الذى ذكر البعض أنه من مستحدثات القرن السابع الهجرى . ومن رواد هذا الفن فى مصر البوصيرى وابن دقيق العيد الذى وصفه العبدرى فى رحلته بأنه : « .. صاحب المدرسة الكاملية ، لقيت منه حبرا يحق له اللقاء وبحرا من علم لا تكدره الدلاء وطيا آسيا .. ما يلقى له فى سعة المعارف نظير أو يوجد من يماثله فى صحة البحث والتنقير ، وله فى البلاد ذكر شهير .. فهو الآن قطب مصر وعلمها » (٢٩) .

واذا كان البعض يرى أن نشأة فن المديح قد صاحب ركب الدعوة الاسلامية من مطلع تاريخها ، فان المؤكد أن هذا الفن لم يكتسب صبغته الكاملة الا بعد اتصاله بالفكر الصوفى المغربى . ونشهد من القرن الخامس الهجرى قصائد مثل القصيدة المعروفة بالشقراطية لصاحبها

---

(٢٧) ابن اياس ، نفسه ، ج ٤ ، ص ٢١٨ .
(٢٨) ابن أياس ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٦٧ ، ج ٣ ، ص ١٢١
(٢٩) العبدرى ، الرحلة ، ص ١٣٨ — ١٣٩ .

الشيخ ابن محمد عبد الله بن يحيى الشقراطيسى التوزرى المتوفى سنة ٤٦٦ هـ / ١٠٥٤ م • ثم أن البوصيرى صاحب البردة مصرى المولد مغربى الاصل من صنهاجة حسبما يشهد بذلك لقبه (محمد بن سعيد الصنهاجى) فضلا عن أنه تتلمذ أيضا على أبى العباس المرسى •

وكما عرفت مصر مثل هذه التأثيرات المغربية فى حياتها الاجتماعية ، فقد عرف المغرب الموحدى والحفصى بعض التقاليد المشرقية وفى مقدمتها الاحتفال بالمولد النبوى الشريف • فقد ذكر ابن خلكان فى وفياته أن «ابن دحية السبتى وهو من كبار علماء المغرب فى عصر الموحدين ، رحل الى المشرق فأنشأ له الكامل الايوبى المدرسة الكاملية للحديث فى القاهرة سنة ٦٢٢ هـ ، وولى أمرها من بعده لاخيه أبى عثمان ثم لابنه شرف الدين» [٣٠] ثم يذكر ابن خلكان أنه بعد عودة ابن دحية من مدينة أربل الى خراسان عام ٦٠٤ هـ ، رأى الملك مظفر الدين بن زين الدين مولعا بعمل المولد النبوى عظيم الاحتفال حتى أنه ألف له كتاب « التنوير فى مولد السراج المنير » • وأنتقلت فكرة الاحتفال بالمولد النبوى الى المغرب • وكان العزفيون (أبو العباس العزفى السبتى ، المتوفى عام ٦١٣ هـ وأبنه أبو القاسم) أول من استحدثها فى المغرب نقلا عن المشرق [٣١] •

ويبدو أن الموحدين احتفلوا بالمولد فى أواخر عهدهم • فقد ذكر ابن عذارى أن المرتضى وهو الخليفة قبل الاخير (بويع سنة ٦٤٦ هـ وقتل ٦٥٦ هـ) : « •• كان يقوم بليلة المولد خير قيام ويفيض فيه الخير والانعام ، وكان أشار له بذلك الفقيه أبو القاسم العزفى لانه لما ألف كتابه

---

(٣٠) ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ط بولاق ، ج ١ ، ص ٤٨١ •
(٣١) د • عباس الجرارى ، الادب المغربى من خلال ظواهره وقضاياه ج ١ ، الرباط ١٩٧٩ ، ص ١٤٥ •

(الدار المنظم فى مولد النبى المعظم) وبعث به اليه وأشار بذلك الرأى عليه » (٣٢) .

وأستمر هذا التقليد متبعا حتى العصر المرينى الى حد أن الشعراء الشعبيين كانوا يتبارون أمام السلطان المرينى فيما كان يقيمه لهذه المناسبة من احتفالات تموج بالشعراء والادباء ورجالات العلم ، وكان الفائز منهم يظفر بمائة دينار وفرس ووصيف وخلعة يخلعها عليه السلطان . أما سائر الشعراء فكان كل منهم يظفر بخمسين دينارا (٣٣) .

وبالاضافة الى ما سبق أن ذكرناه من شواهد تدل على عمق وتأصل العلاقات المغربية بالمشرق الاسلامى عامة ، وفى المجتمع السكندرى خاصة نلاحظ أن أهل الاسكندرية مازالوا يستخدمون فى لهجتهم المحلية نون الجمع بالنسبة للمفرد المتكلم مثل ذلك ما أورده الاستاذ الجليل الدكتور سعد زغلول عبد الحميد فى بحثه القيم عن مجتمع الاسكندرية فى العصر الاسلامى نسوق منها على سبيل المثال لا الحصر : « نأكل ونشرب ونلعب ونروح .. » بدلا من : « آكل وأشرب وألعب وأروح .. » . وما يزال أحد أسواق الاسكندرية يعرف حتى عهد قريب بسوق المغاربة وهو من أشهر أسواق الاسكندرية وكان يقوم فى قلب المدينة (٣٤) .

---

(٣٢) ابن عذارى ، البيان ، ج ٣ ، ص ٤٥٢ .

(٣٣) — Leon L'Africain; Description de L'Afrique; Adrien-Maisonneuve, Paris, 1956. pp. 214—15.

(٣٤) د . سعد زغلول ، الاثر المغربى ، ص ٢٠٩ حيث يذكر لنا كيف ضحت المدينة بهذا السوق فى سبيل انشاء الطريق الجديد الموصل من « المنشية » الى الميناء الغربى . وقد عرف هذا السوق مؤخرا (بسوق سوريا) فى طرفه الاخير على أثر العلاقات الخاصة التى قامت مع سوريا عقب الوحدة الاندماجية (١٩٥٨ — ١٩٦١ م) والتى أدت الى أزدهار تلك السوق . ثم تحول الاسم الى أسم « سوق ليبيا » اثر زيادة توثيق العلاقات بين البلدين فى سبيل تحقيق (الوحدة الاندماجية) .

وفى سوق المغاربة هذا وبالقرب منه كانت تباع أنواع الثيـــــاب والفرش المغربية من : البرانس المخططة أو البيضاء ذات غطاء الـــرأس المدبب أو بغيره (وهو ما يعرف فى العامية المغربية بالقب) ، والملاحـــف والاخفاف الفاسية المطرزة ، والبسط الصوفية بأنواعها الى جانب أنـــواع الطعام المعروفة فى المغرب والتى يستخدم العجين فى صنعها • وأشهـــر هذه المأكولات « الكوسكوسى » الى جانب المحمصة التى تصنع على شكل حبات كروية صغيرة أقل حجما من حبات الحمص ، أو « الشعيرية » التى تتخذ شكل حبات خيطية فى حجم حبات الشعير • وكان المتخصصـــون فى بيع كل ذلك رجالا ونساء من المغاربة [٣٥] •

وبالاضافة الى ما سبق ، هناك بعض المنجمين من أصول مغربيـــة يشتغلون بفتح « الكتاب والمندل » ويتنبأون بالمستقبل ويعرفون مخابىء الكنوز [٣٦] ، فكانت لهم فى قلوب أهل المدينة السكندرية هيبة ورهبة [٣٧] (ولا زال هؤلاء موجودون فى المغرب الى الآن بصفة خاصة فى مدينـــــة مراكش حيث يتجمع العدد الكبير منهم فى ساحة الفنا • وهى أهم ميادين المدينة وتعتبر من أهم المناطق التى يقوم الزوار والسياح بزيارتها علـــى مدار السنة) •

---

(٣٥) د . سعد زغلول ، المرجع السابق ، ص ٢١٠ .

(٣٦) وقد اشتهر هؤلاء بالكذب وقيلت فيهم الامثال ومنها « افتح الكتاب مغربى كذاب » .

(٣٧) د . سعد زغلول ، نفس المرجع والصفحة .

(٢)

انخراط المغاربة فى سلك الوظائـــف المشرقيـــــة

كثر عدد المغاربة الذين رحلوا عن بلادهم وأستقروا فى أقطار المشرق الاسلامى وتنوعت وجوه الحياة التى انخرطوا فيها ، وأن كـــان معظمهم يشتغل بالتجارة ، كما أن عددا من أقطابهم تفرغوا لنشر الفكر الصوفى ، ومنهم أيضا من نال حظوة لدى الحكام والسلاطين فأسندوا اليهم بعض المناصب الرفيعة كمنصب القضاء أو الكتابة . ولقد وصل الينا أسماء عدد كبير ممن شغلوا هذه المناصب فى مصر ، ومنهم من ولى قضاء دمشق شأن القاضى شهاب الدين أحمد بن سعيد بن السيوسى المغربى المـــالكى (ت ٨٧٤ هـ) ، وقاضى قضاة المالكية بدمشق ، الذى ولى قضاء الاسكندرية ، وكان « من أهل العلم والفضل ، وجرت عليه أمور شتى وأذهب أمـــوالا جمة على وظيفة القضاء » [٣٨] .

ومنهم من تخصص فى الفقه المالكى ببغداد أمثال الفقيه المحدث بدر الدين أبو على الحسن بن أحمد الزهيرى ، المالقى ، وكان أفضل علمـــاء عصره ، ولما قدم بغداد رتب فقيها فى المالكيه [٣٩] . والفقيه أبو عبد الله محمد بن على بن محمد العربى بن المغربى ، قدم بغداد سنة ٦٠٨ هـ / ١٢١١ م قرأ عليه ابن الدبيثى مجموعة من المنامات النبوية [٤٠] .

ومن الاسماء المغربية التى لمعت فى مناصب القضاء فى مصر :

ــ عماد الدين الكندى قاضى الاسكندرية وعنه يقول ابن بطوطة :

---

(٣٨) ابن اياس ، بدائع الزهور ، بولاق ١٣١١ هـ ، ج ٢ ، ص ٩٩ .
(٣٩) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج ٩ ، ص ١٧٥ .
(٤٠) د . بدرى محمد فهد ، تاريخ العراق ، ص ٤٢٠ .

« .. امام من أئمة علم اللسان . وكان يتعمم بعمامة خرقت المعتاد للعمائم ولم أر فى مشارق الارض ومغاربها عمامة أعظم منها . رأيته يوما قاعدا فى صدر محراب ، وقد كادت عمامته أن تملا المحراب » [٤١] .

— وشمس الدين محمد بن أبى القاسم بن عبد السلام الريفى التونسى المالكى (٦٣٩ — ٧١٥ هـ / ١٢٤١ — ١٣١٥ م) الذى درس بمدارس القاهرة وناب فى الحكم بالحسينية ، ثم ولى قضاء الاسكندرية ، ولو أن ولايته هذه لم تحمد [٤٢] .

— ومنهم ولدا التنسى : كمال الدين التنسى (ت ٧٧٧ هـ / ١٣٧٥ م) وأبنه محمد اللذين توليا قضاء الاسكندرية ، وناصر الدين أحمد بن محمد جمال الدين ابن عطاء الله (٧٤٠ — ٨١٠ هـ / ١٣٣٩ — ١٤٠٧ م) الذى ولى قضاء المالكية .

— وأبو عبد الله القارىء المالكى المغربى الذى ناب فى حكم الاسكندرية .

— وعبد الله بن محمد بن سهل المرسى المغربى نزيل الاسكندرية الشهير بالشيخ نهار توفى سنة ٧٨٠ هـ / ١٣٧٨ م [٤٣] .

— وأبو عبد الله محمد بن عبد الملك بن عبد الله المرجانى التونسى الاصل ، الاسكندرانى الموطن (٧٢٤ — ٧٨١ هـ / ١٣٢٤ — ١٣٨٠ م) [٤٤]

---

(٤١) ابن بطوطة ، الرحلة ، ص ١٥ .

(٤٢) لم تحمد هذه الولاية لاتهامه بأخذ الدراهم فى قضاء الحوائج (انظر : ابن حجر ، الدرر ، ج ٤ ، ص ١٤٩ — ١٥٠ . د . سعد زغلول ، الاثر المغربى ، ص ٢٦١) .

(٤٣) ابن حجر ، أنباء الغمر ، ج ١ ، ص ١٨٤ .

(٤٤) ابن حجر ، نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٢٠٧ .

— وأبو عبد الله الدكالى المتوفى بالاسكندرية سنة ٧٩٩ هـ / ١٣٩٦ م وكان « من أعجوبة الدهر فى عظمة الزهد والدين وخشونة العيش والسير على طريقة السلف » (٤٥) .

— وسالم بن عبد الله ابن سعادة بن طاجين القسنطينى نزيل الاسكندرية (ت آخر ٨٢٠ هـ / ١٤١٧ م) (٤٦) .

— وأبو الطيب محمد بن أحمد بن محمد بن علوان المالكى التونسى السكندرى المتوفى بالاسكندرية فى سنة ٧٢٨ هـ / ١٤٢٤ م ، وكان من أكابر شيوخ المالكية ، سمع عليه عدد من مشاهير علماء المدينة(٤٧) .

— وأبو بكر بن عبد الرزاق الدكالى المالكى الذى تفقه على يدى محمد بن يوسف السكندرى ، توفى بمكة سنة ٨٢٧ هـ / ١٤٢٤ م (٤٨) .

— والشيخ شهاب الدين أحمد بن سعيد التلمسانى المغربى متولى قضاء الاسكندرية بعد وفاة قاضيها جمال الدين عبد الله بن الدمامينى (٤٩)

— والشيخ خلف بن على بن محمد المغربى الاصل التروجى المولد ، الشافعى السكندرى » ٧٦٠ — ٨٤٤هـ / ١٣٥٩ — ١٤٤٠م) الذى سكن الاسكندرية وأرتفعت مكانته العلمية بها حتى صار شيخ الشافعية والمالكية بها (٥٠) .

— وأحمد بن محمد بن عمر الصنهاجى السكندرى المولد والمنشأ

---

(٤٥) ابن حجر ، نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٥٤٣
(٤٦) ابن حجر ، نفس المصدر ، ج ٣ ، ص ١٤٨ .
(٤٧) السخاوى ، الضوء اللامع ، ح ٧ ، ٧٧ .
(٤٨) السخاوى ، نفسه ، ح ١١ ، ص ٤٧ .
(٤٩) السخاوى ، التبر المسبوك ، ص ٣٥ .
(٥٠) السخاوى ، الضوء اللامع ، ح ٣ ، ص ١٨٤ .

والوفاة ، القاهرى الحسينى الدار (٧٨٠ — ٨٥٥ هـ / ١٣٧٨ — ١٤٥١ م) وكان دائم الزيارة للقاهرة وبدأها من سنة ٨٠٩ هـ / ١٤٠٦ م ، الا أنه لم ينس زيارة الاسكندرية ، حيث تولى مشيخة المدرسة البسامية (٥١) .

— ومحمد بن عثمان بن ظافر المغربى البجائى المالكى (٨١٧ — بعد ٨٦٠ هـ / ١٤٥٥ — ١٤٥٦ م) استقر به المطاف بالاسكندرية حيث طاب له المقام (٥٢) .

— وأبو محفوظ محرز بن على بن مسعود الحسنى المغربى التونسى المالكى نزيل الاسكندرية المعروف بابن الرفاء ، ولد بتونس سنة ٧٩٥ هـ / ٢ — ١٣٩٣ م . (٥٣)

— والشهاب أحمد بن الزينى عبد الرحمن العسلونى بن منصور المقرى الفكير ، المالقى السكندرى ، الذى نشأ بالاسكندرية وصارت له امامة الجامع الغربى بها لمدة ٣٥ عاما (٥٤) .

— وأبو عبد الله محمد بن عبد الله يوسف التونسى الاصل ، المغربى المالكى ، نلقى العلم بالبرلس والقاهرة ، وحج وزار قبل أن يستوطن الاسكندرية حيث توفى فى سنة ٨٨٨ هـ / ١٤٨٣ م (٥٥) .

— وأبو الفضل العز عبد العزيز بن مسلم بن دال المستنانى المالكى المغربى السكندرى (ت ٨٧٤ هـ / ١٤٧٠ م) (٥٦) .

---

(٥١) السخاوى ، نفسه ، ج ٢ ، ص ١٦٠—١٦١ .
(٥٢) السخاوى ، نفسه ، ج ٨ ، ص ١٤٦ .
(٥٣) السخاوى ، نفسه ، ج ٦ ، ص ٢٤٠ .
(٥٤) السخاوى ، نفسه ، ج ١ ، ص ٣٣٥ .
(٥٥) السخاوى ، الضوء اللامع ، ج ٨ ، ص ١١٧ .
(٥٦) السخاوى ، نفسه ، ج ٤ ، ص ٢٣٥ .

— وأبراهيم بن سعد بن أبراهيم .. الحضرمى الاندلسى المغربى ، عرف بابن الصباغ والحربى ، وكان أبوه من أثرياء تجار الثغر ، وأضطر ابراهيم الى ترك دراسته بالقاهرة بعد وفاة والده ورحل الى الاسكندرية، ولكنه سرعان ما توفى بعده فى سنة ٨٩٣ هـ / ١٤٨٧ م (٥٧) .

ومن بين الوظائف التى أسندت الى بعض المغاربة أيضا فى مصر والشام وغيرها من أقطار الشرق الاسلامى ، السفارات لا سيما الى الدول الاوربية ، ومنها سفارة محمد بن محفوظ المغربى الذى أرسله السلطان الاشرف قايتباى فى ذى الحجة من سنة ٨٨٣ هـ / ١٤٧٩ م رسولا من قبله الى ملك الكتيلان الفرنجى ، وقد قام السفير المغربى بعمله خير قيام وأرسل ملك الكتيلان الى السلطان قايتباى على يده أى المغربى — هدية حافلة (٥٨) .

ومنهم عبد الرحمن بن خلدون الذى قام بدور السفير الممثل لسلطان المماليك فرج بن برقوق الى تمورلنك عام ٨٠٤ هـ / ١٤٠١ م (٥٩)

ولكثرة اسناد منصب القضاء الى العلماء ا لمغاربة بدت وظيفة القضاء فى مصر والشام وكأنها قد صارت حكرا على المغاربة بحيث أنه عندما يموت أحد القضاة المغاربة يخلفه قاضى مغربى ، ويعبر ابن اياس عن ذلك بقوله عند تعرضه لذكر وفاة القاضى ابن حريز (٦٠) : « .. ولما

---

(٥٧) السخاوى ، نفسه ، ج ١ ، ص ٥١ .

(٥٨) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ١٥٠ .

(٥٦) ابن خلدون ، النعريف بابن خلدون . ورحلته غربا وشرقا ، تحقيق الاستاد حمد بن ناويت الطنجى ، القاهرة ، ١٩٥١ ، ص ٣٦٦ .

(٦٠) هو القاضى المالكى حسام الدين بن حريز ، وهو محمد بن أبى بكر بن محمد بن حريز بن أبى القاسم الهاشمى القرشى العلوى الحسنى ، مغربى الاصل ، وعنه يقول ابن اياس : « .. ثم انشى بمنفلوط وولى القضاء بها مدة

مات ولى بعده أخوه سراج الدين عمر فقرر فى قضاء المالكية عوضا عن أخيه » (٦١) .

ولقد بلغت شهرة بعض القضاة المغاربة من الانتشار حدا دعا بعض السلاطين الى تقريبهم اليهم ومن هؤلاء القضاة القاضى أصيل الحضرى الذى بلغ من الشهرة مبلغا كبيرا ، وأصيل الحضرى هذا هو محمد بن ابراهيم بن على بن عثمان بن يوسف بن عبد الرزاق بن عبد الله المغربى (٧٨٨ هـ / ٨٧٣ هـ) وفيه يقول ابن اياس : « كان مالكى المذهب ، وكان عشير الناس كثير المداعبات والنوادر ، لطيف الذات ، محببا لارباب الدولة ، عاش من العمر مدة طويلة » (٦٢)

ونظرا لما كان يتمتع به هؤلاء المغاربة الوافدين على مصر والشام والمشرق الاسلامى من تقدير لدى الخاصة والعامة فقد اتخذ بعض سلاطين المماليك منهم مشايخ خاصة لهم ؛ كما حدث فى عهد السلطان قايتباى ، ففى سنة ٨٧٩ هـ : « قرر الشيخ أبو عبد الله القلجانى — أبو عبد الله محمد بن محمد القلجانى التونسى المالكى — قاضى الجماعة فى مشيخة تربة السلطان .. وقرر بها ثلاثين صوفيا يحضرون فى الخمسة أوقات ، وبنى للصوفية حول التربة عدة بيوت يسكنون بها دائما ، ثم رتب لهم الجوامك والخبز والزيت والصابون ، وغير ذلك من وجوه البر المعروف (٦٣) . وكان

كان عالما فاضلا ، جوادا سمحا ، فى سعة من المال ، وسمع على ولى الدين العراقى وابن عياش وغيرهما من العلماء ، وآل أمره الى أن ولى القضاء الاكبر بمصر ؛ وصفا له الوقت .. وعظم أمره فى القضاء » . وكان مولده سنة ٨٠٤ هـ وتوفى سنة ٨٧٣ هـ (بدائع الزهور ، ج ٢ ، ص ١٠٦) .

(٦١) ابن اياس ، نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٨ .
(٦٢) ابن اياس ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٠٠ ، ج ٣ ، ص ١٩ .
(٦٣) ابن اياس ، المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٠٠ .

عالما فاضلا فى مذهبه المالكى ، وبعد فترة اقامته الطويلة بمصر قفل عائدا الى المغرب حيث مات سنة ٨٩٠ هـ / ١٤٨٤ م » (٦٤) .

ويقول ابن اياس عن أحدهم : « وفى جمادى الآخرة من سنة ٨٥٩ هـ توفى الشيخ الصالح سيدى محمد المغربى المجذوب رحمة الله عليه ،ولما مات أخذه السلطان اينال ودفنه بجوار تربته تبركا به » (٦٥) .

وشهد ابن اياس لعدد منهم بالعلم والفضل من بينهم تقى الدين أحمد بن محمد بن محمد بن حسن بن على الشمنى القسنطينى ، والشيخ أبو عبد الله محمد التونسى الموصلى المالكى ، أحد أكابر علماء تونس ، عاش نحوا من سبعين سنة (٦٦) .

(٣)

موقف الموحدين من يهود المغرب والمشرق

كان الموحدون من بداية عهدهم قد جروا على عادة المشارقة فى تمييز اليهود وأهل الذمة عامة عن المسلمين . وقصة هارون الرشيد فى هذا الصدد معروفة ، عندما أمر فى عام ١٩١ هـ / ٨٠٧ م بأن يؤخذ أهل الذمة فى بغداد بمخالفة هيئتهم هيئة المسلمين فى لباسهم وركوبهم ، فأمر بأن يتخذوا الزنانير فى أوساطهم وأن تكون قلانسهم مضربة ، وأن يجعلوا شراك نعالهم مثنية ، وأن يتخذوا على سروجهم فى موضع القرابيس مثل الرمانة من خشب ، وأن تمنع نساؤهم من ركوب الرحائل ، كمانهى اليهود والنصارى عن الركوب على السرج (٦٧) .

---

(٦٤) ابن اياس ، المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٢٢٢ .
(٦٥) ابن اياس ، المصدر السابق والصفحة .
(٦٦) ابن اياس ، نفس المصدر ، ج ٣ ، ص ١٢٣ .
(٦٧) R. Brunschvig; La Berbérie, Tom I, p. 409. —

وقد ظلت نفس الاوامر مع التشدد فى تنفيذها سارية فى القرن الخامس الهجرى ، بل كان أهل الذمة يمنعون من تعلية بيوتهم على أبنية المسلمين ، وأن ملكوا بيوتا عالية أقروا عليها منعوا من الاشراف منها على المسلمين (٦٨) .

هذه السياسة التى أتبعها المشارقة مع أهل الذمة طبقت الى حد كبير فى المغرب الاسلامى عندما تشدد الموحدون فى تنفيذ أحكام الاسلام ، فنجد عبد المؤمن يخير اليهود فى المغربيين الاوسط والادنى بعد أن افتتحه لا سيما فى بلدتى بجاية والهدية ، أما فى الدخول الى الاسلام أو الجلاء عن البلاد أو القتل . وحدد لذلك أجلا معلوما ، فمن أسلم كان له ماكان للمسلمين من حقوق وعليه ما عليهم من واجبات ، ومن امتنع عن الاسلام فى الاجل المعلوم حل دمه وماله . فأسلم الكثير وهاجر القليل ، وأعتنق البعض الاسلام فى الظاهر (٦٩) ، ونفذت الاحكام مداراة وخشية من القتل ثم خرجوا بأموالهم وأهليهم وأثقالهم مهاجرين وعادوا يهودا كما كانوا .

كانت تلك سياسة الموحدين منذ بداية عهدهم — عبد المؤمن — حتى عصر المأمون ، وقد عبر ابن جبير عن اعجابه لسياسة الموحدين مع اليهود وتشددهم مع أهل الذمة وعبر ذلك بقوله : « وليتحقق المتحقق ويعتقد الصحيح الاعتقاد أنه لا اسلام الا ببلاد المغرب ، لانهم — أى المغاربة — على جادة واضحة كما أنه لا عدل ، ولا حق ، ولا دين على وجهه الا عند الموحدين » (٧٠) .

---

(٦٨) آدم ميتز ، الحضاره الاسلامية ، ج ١ ، ص ٨٣ — ٨٦ .
(٦٩) ابن جبير ، الرحلة ، ص ٤٩ .
(٧٠) ابن جبير ، الرحلة ، ص ٤٩ — ٥٠ .

ومن الجدير بالملاحظة أن الموحدين اعتبروا اليهود والنصارى أعداء للاسلام وأنهم أهل رجس ودنس وبخس ، فأى انتصار عليهم هو انتصار للاسلام • ووضح ذلك عند انتصار الموحدين على النصارى فى معاركهم المتعددة وأهمها معركة الارك الشهيرة التى خاضها الخليفة يعقوب المنصور الموحدى فعلت الاصوات بالتهليل والتكبير لهذا النصر (٧١) •

ظل اليهود والنصارى على وضعهم ظاهرة الاسلام باطنه الاذى بالمسلمين بعد عبد المؤمن حتى عهد حفيده يعقوب المنصور الذى أمر فى سنة ٥٩٥ هـ / ٨ — ١١٩٩ م بتمييز اليهود بعمل ما يسميه الزركشىبالشكلة « وجعل قمصهم طول ذراع فى عرض ذراع وجعل لهم برانس وقلانس زرقا » (٧٢) • بل يعطينا المراكشى وصفا أدق للباس اليهودى فى عهده يتسم بالمهادنة حيث يقول : « •• أمر أن يتميز اليهود الذين بالمغرب بلباس يختصون به دون غيرهم وذلك ثياب كحلية وأكمام مفرطة السعة تصل الى قريب من أقدامهم وبدلا من العمائم كلوتات على أشنع صورة كأنها البراديع تبلغ الى تحت آذانهم • فشاع هذا الزى فى جميع يهود المغرب ، ولم يزالوا كذلك بقية أيامه » (٧٣) •

ويغلب على الظن أن المبرر الرئيسى لهذا التمييز أن الخليفة الموحدى يعقوب المنصور كان يشك فى اسلامهم ومن مأثور قوله : « لو صح عندى اسلامهم لتركتهم يختلطون بالمسلمين فى أنكحتهم وسائر أمورهم ، ول صح عندى كفرهم لقتلت رجالهم وسبيت ذراريهم وجعلت أموالهم فيئا للمسلمين ، ولكنى متردد فى أمورهم ، ولم تنعقد عندنا ذمة

---

(٧١) ابن عذارى ، البيان ، ح ٣ ، ص ١٩٧ •
(٧٢) الزركشى ، تاريخ الدولتين ، ص ١٦ — ١٧ • انظر أيضا عن هذه الشكلة ، ابن عذارى ، البيان ، ج ٣ ، ص ٥ ، ٦ •
(٧٣) المراكشى ، المعجب ، ص ١٨٨ •

ليهودى ولا نصرانى منذ قيام المصامدة ولا فى جميع بلاد المسلمين بالمغرب بيعة ولا كنيسة ، انما اليهود عندنا يظهرون الاسلام ويصلون فى المساجد ويقرؤون أولادهم القرآن جارين على ملتنا و سنتنا والله أعلم بما تكن صدورهم وتحويه بيوتهم » [٧٤] .

ظل وضع اليهود على تلك الحال حتى أيام الخليفة الرابع محمد الناصر فترسلوا اليه ولم يعدموا وسيلة حتى الاستشفاع ، فأمر لهم بتغيير الزى الى ثياب صفر وعمائم صفر ، وأستمر الوضع على هذا النحو حتى عام ٦٢١ هـ / ١٢٢٤ م [٧٥] . والمعروف أن بعد حياة الناصر حدث أنهيار فى الدولة الموحدية وأسسها التى أرتكز عليها اليهود فى الحصول على حريتهم ، وساعدتهم الظروف السياسيه السيئة التى كانت تمر بها الدولة بعد اعتلاء الخليفة المأمون دست الخلافة وانقلابه على الدعوة الموحدية والتقارب الكبير الذى تم بينه وبين اليهود والنصارى الى حد استنصاره بهؤلاء على قومه المسلمين الموحدين عندما نكث هؤلاء الاخيرون ببيعته عام ٦٢٧ هـ / ١٢٢٩ م ، فأتصل بالملك فرناندو الثالث ملك قشتالة ، وطلب المساعدة بارسال جيش يعبر به الى العدوة لقتال الموحدين ،فأشترط عليه النصارى شروطا قاسية منها : « اعطاء النصارى عشرة من الحصون الموحدية بالاندلس المتاخمة لحصونهم وباختيارهم ، وأن يلتزم ببناء كنيسة للنصارى مع دخولهم الى مراكش يظهرون فيها دينهم ويضربون فيها نواقيسهم لصلواتهم ، وأن من أسلم منهم لا يقبل اسلامه فيرد الى اخوانهم فيحكمون فيه بأحكامهم » [٧٦] . ولقد أجاب المأمون كل هذه المطالب ، فأنتعشت أحوال أهل الذمة فى المغرب .

---

(٧٤) المراكشى ، نفس المصدر ، والصفحة .
(٧٥) المراكشى ، المعجب ، ص ١٨٨ .

ومع ذلك فقد ظلت هذه الكنيسة قذى فى أعين المراكشيين وجميع المغاربة ، ولم تلبث أن هدمت بعد سنتين ، فاهتمت البابوية فى روما بذلك الموضوع وبأحوال القشتاليين العاملين فى الجيش الموحدى • وذهبت أطماع البابوية الى التفكير فى تنصير ملوك الموحدين ورعاياهم من المغرب والاندلس • بدأت الاتصالات لايفاد البعثات ، والارساليات والرهبان ، وذلك فى عهد البابا اينوسان الرابع ، الذى أوفد رسوله القس لويى فرنانديث دى أين الى مراكش عام ٦٤٣ ه / ١٢٤٦ م ليكون أسقفا هناك وسلم القس كتابا يهنىء فيه الخليفة الجديد عمر المرتضى — السعيد — بانتصاره على خصومه ويشيد بالدور الذى قام به المرتزقة النصارى فى تحقيق هذه الانتصارات ، ويحثه على الاستكثار منهم ، وينصحه باعتناق المسيحية دين النصارى لكى يفوز على حد زعمه برضى الله ويغنم بركة الكوسى الرسولى • وكتب البابا أيضا رسائل مماثلة الى أمراء سبتة وبجاية وتونس يوصيهم بتسهيل الاتصال بين النصارى المقيمين بمراكش وأخوانهم المقيمين بتلك المراسى •

وقد توصلنا الى الاحاطة بمحتوى هذه الرسالة من خلال رد الخليفة عمر المرتضى على البابا برسالة مؤرخة فى ١٨ ربيع الاول سنة ٦٤٨ ه / ٢٠ يونيو سنة ١٢٥٠ م ، حملها الاسقف لويى نفسه الى البابا اينوسان الرابع [٧٧] • ولاهمية هذه الرسالة اخترتها ضميمة للبحث (وهى مكتوبة

---

(٧٦) ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٢٥٣ . ابن الخطيب . الاحاطة ، ج ١ ، ص ٤١٩ . . ابن عذارى ، البيان ، ح ٣ ، ط تطوان ، ص ٢٦٤—٢٦٥؟ السلاوى . الاستقصا ، ج ٢ ، ص ٢٣٦ . وأنظر أيضا :

— J. Gonzalez; La Conquistas de Fernando III en Andalucia. Madrid 1946, p. 59.

(٧٧) عبد الوهاب بن منصور ، كتاب الوثائق ، ج ١ ، ص ٢٦٦ •

بخط مغربى جميل فى أعلاه بين الحمدلة والتصلية والمتن علامة الخليفـة وهى الحمد لله وحده) (٧٨) .

ولقد حظى الرعايا اليهود فى العهد الحفصى من تاريخ الدولـــة الموحدية بحرية كبيرة ويذكر الاستاذ برنشفيك : « ... أنه كان يوجـد حوالى سنة ١٤٠٠ م عدد كبير من صناع الصاغة اليهود فى السوق التى ما زلنا حتى اليوم نجدهم فيها بتونس » (٧٩) . ولدينا الرسالة التجارية المؤرخة فى ٢٠ شوال ٦٢٤ هـ / ٣ أكتوبر ١٢٢٧ م الصادرة من تونس الى بيزة تؤكد على وساطة اليهود جاء فيها : « .. موصله اليكم عمر بن أبى الجيد الاسرايلى التونسى وصهره بينوره المنتصر وغيرهما فنحب منكم أن تنصفوه فى جميع من يتعين له عليه من حق وبيده عقود ثابتة .. ويكـون مرعى الجانب عندكم لانه ممن يكرم علينا .. » (٨٠) .

ولقد حظى اليهود الرهادنة بمثل هذه المكانة فى تونس الحفصيـة . وكان هؤلاء من التجار المتنقلين يأتون من الصين بلدا الى بلد حتى نورمبرج فى المانيا ينقلون السلع والعلوم والكتب والعادات — ولهم فى كل مدينـة أسواق تسمى سوق الرهادنة (٨١) ، لا سيما بأفريقية خاصة فى القيروان . وقد ساهم هؤلاء اليهود بوفرة فى تجارة الاقمشة والمنسوجات الحريرية من البلاد الاسلامية والتوابل والادوية والذهب والرقيق على حدودها ،

(٧٨) انظر الملحق رقم ٩

(٧٩) — R. Burnschvig; Op. Cit., p 409

(٨٠) منسيل أمارى ، مجموعة الرسائل ، رقم ٢٨ ، ص ٨٣ — ٨٥ .

(٨١) عن هذه الدورة عبر أوربا وسطها وشرقها والحصول على منتجاتها كسلع مهمة فى التشرق أنظر :

— Lopez & Raymond; Medieval Trade, U.S.A., 1961, p. 2931.

وركزوا على الصيرفة (٨٢) .

وكانت لهم مكانة خاصة لدى البلاط الحفصى ، فكلفوا باقتناء نـوع معين من البضائع حققت لهم أرباحا طائلة ، كما كانوا و سطاءَ تجاريين بين الغرب الاوربى وبين المسلمين فى أفتكاك الاسرى ، وقد سهل لهم هذا الاتصال الحصول على حاجاتهم المالية من أقرانهم فى البلاد الاوربية أو الاسلامية على السواء ، وقاموا بعمليات الربا التى حرمت على المسلمين

وكان من بين هؤلاء اليهود أيضا المترجمون المشرفون على ترجمـة المعاهدات التجارية خاصة بين الحفصيين وأوربا . ففى سنة ٦٩٢ هـ / ١٢٩٣ م عين الطبيب ابن داوود ضمن بعثة دبلوماسية الى تونس من قبل أرغون ، وفى سنة ٦٦٦ هـ / ١٢٦٧ م كان موشى التونسى كاتبا لبلديـة جنوة باللغة العربية (٨٣) .

---

(٨٢) كان هؤلاء اليهود يجيدون الحديث بعدة لغات : عربية — فرنسية — اسبانية .. الخ ، ويرتحلون الى الشرق والغرب والعكس ، وكانوا يتجرون فى الخصيان والجوارى ، والدمشقى وفى أنواع مختلفة من الفراء والسيوف ، ويحطوا رحالهم فى فرنسا ، أنظر :

— Rabinowitz, L.I.: Jewish Marchant Adventurers, London, 1948, p. 166—7.

(٨٣) نجاة باشا ، التجارة فى المغرب الاسلامى من القرن ٤ هـ الى ٨ هـ ، تونس ١٩٧٦ ، ص ٧٧ .

الفصــل الخــامس

العلاقـــات الاقتصاديـــة

١ ـ الموحدون وسطاء للتجارة بين المشرق الاسلامى والمغرب •

٢ ـ تجارة السودان •

٣ ـ التنظيمات التجارية الموحدية والحفصية •

العلاقـــات الاقتصاديـــة

(١)

الموحـدون وسطاء للتجارة بين المشرق الاسلامى والمغـرب

شهدت العلاقات التجارية بين المغرب والمشرق الاسلاميين فى عهد الخلافة الموحدية ازدهارا واضح المعالم لم تعرفه البلاد منذ القـدم • فكانت كل من الاسكندرية وتونس مركزين هامتين ارتكزت عليهما التجارة العربية الشرقية • فموقع الاسكندرية الفريد على البحر المتوسط عنـــد الطرف الغربى لفرع رشيد أهلها لان تكون همزة الوصل بين وادى النيــل وصحراوات المغرب الشمالية وأقاليمه الساحلية العامرة ، حيث يمـــر الطريق القديم الذى يصل بين أقصى المغرب (من سجلماسة فى الجنوب الى فاس وتازة) عبر المر الافريقى الى تونس ثم طرابلس الـــى الاسكندرية ومنها الى السويس شرقا فالطريق الرئيسى المؤدى الـــى الحجـاز •

وبحكم موقعها الفريد بحرا بحذاء ميناويها الشرقية والغربية كانت بر الامان لجميع الرحلات البحرية سواء للتجارة أو للحج أو بقصد طلب العلم ، كما كانت ملاذا للمغاربة وأهل الاندلس فى فترات الاضطـراب التى كانت تشهدها بلاد المغرب والاندلس والتى سبق الحديث عن أمثلة لهـا [١] •

---

(١) ابن بطوطة ، تحفة النظار فى غرائب الامصار وعجائب الاسفار ، تحقيق : أحمد العوامرى ، ومحمد احمد جاد المولى ، القاهرة ١٩٣٤ ، ص ١٤ هذا بالاضافة الى أن الاسكندرية كانت بالنسبة للمغاربة تعنى دار الربـاط أنظر د . عبد العزيز سالم ، تاريخ الاسكندرية ، ص ٢٤٦ .

لذلك صارت المدينة مستقرا لكثير من المغاربة والاندلسيين وغدت وطنا ثانيا لهم [٢] .

أما مدينة تونس ، فقد سبقت الاشارة الى التصور الموحدى لاقتصادياتها فيما سجله الفاتحون الموحدون فى مجموع رسائلهم ، وكانت بموقعها الساحلى منفذا رئيسيا أيضا للطريق البرى الذى أشرنا اليه . وبحكم هذا الموقع الساحلى المتوسط فى السيف الجنوبى لحوض البحر المتوسط ، غدت تونس فى العصر الموحدى مركز جذب هام سياسى وتجارى فى آن واحد مجددة بذلك دورها القديم ودور الموانى المغربية بوجه عام فى تاريخ العلاقات التجارية [٣] .

فأجتذبت اليها النورمان الصقليين وبنى غانية الميروقيين الى أن تم طردهم على أيدى الفاتحين الموحدين . كذلك اجتذبت تونس اليها البيوت التجارية الاوربية التى عقد معها أبو زكريا الحفصى اتفاقياته . وكانت هذه الاتفاقيات حلقة وصل كبيرة فى تاريخ العلاقات التجارية بين ميناء تونس الحفصية والاسكندرية المنفذ البحرى الشرقى لدولة المماليك وقد ساعد على تعميق هذه العلاقات وتوثيق أواصرها ما سبقت اليه

---

(٢) د . سعد زغلول ، الاثر المغربى ، ص ٢٠٧ — ٢٠٨ .

(٣) تعرضت المراكز التجارية القديمة مثل أوتيقة Utica أى قرت عتيقت بمعنى المدينة العتيقة تمييزا لها عن قرت حدشت بمعنى المدينة الحديثة قرطاجنة ، وتقع على بعد ٣٠ كلم من الشمال الشرقى من تونس ، للدمار بعد الحروب البونية الثلاثة ولكن سرعان ما استردت أهميتها الاقتصادية فى أعقاب الفتح الاسلامى . فأعيد بناء الموانى العديدة بدور صناعتها ، ومن أهم هذه الموانى المطلة على البحر المتوسط ميناء تونس فى القرن ٧ هـ ، وموانى بجاية والمهدية (٩١٥ م) وقابس وسوسة وبنزرت . أنظر : عثمان الكعاك ، العلاقة بين تونس وايران عبر التاريخ ، تونس ١٩٧٢ ، ص ٣٢ . كذلك وقعت تونس معظم الوثائق التجارية كما هو واضح من بنود نصوص الملاحق

الاسكندرية فى هذا المضمار منذ عهد الفاطميين بحيث غدت مركزا تجاريا عالميا بعد أن كانت مجرد تغر للجهاد أو جهة قتال • وأحتفظت الاسكندرية بمركز الصدارة بين الثغور التجارية فى حوض البحر المتوسط فتوتقت صلاتها بثغور أوربا وقدمت اليها السفن من بيزنطة ومن المدن الايطالية ، وصارت فى القرن الرابع عشر الميلادى قطب الجاذبية فى التجارة الصادرة أو الواردة بين الشرق والغرب على السواء • فمما يذكر عن فريسكو بالدى الفورنسى أنه كان يرى « من السفن فى ميناء القاهرة فى زمانه أى عام ١٣٨٤ م أكثر مما فى جنوة أو البندقية » (٤) • فكانت السفن التجارية تصل اليها من جنوة والبندقية وبيزة وأيضا من مرسيليا (٥) •

ويذكر هنرى بيرين أن هذه التجارة كان هدفها الربح المادى بالرغم من القيود والتحفظات الدينية التى لم تمنع المدن البيزنطية والايطالية من استعمال سفنها لتجديد الصلات التى كانت قائمة بينهما وبين افريقية فى المغرب وبين مصر والشام فى المشرق (٦) • بل هناك من يقول بأن الاسكندرية كانت تضم أعدادا لا تحصى من الجنسيات الاوربية داخل أسوارها ، وأنه بالرغم من التحذير السابق للتعامل مع المسلمين فأن تجار البندقية لم يترددوا فى النزول بثغر الاسكندرية فى فترة مبكرة (من عام ٨٢٨ م) (٧) • وذهب بيرين الى حد القول بأن البحر المتوسط وأن كان قد

---

(٤) جوستاف لوبون ، حضارة العرب ، ترجمة عادل زعيتر ، القاهرة ١٩٥٦ ، ص ٢٢٤ . انظر أيضا د . سالم ، تاريخ الاسكندرية ، ص ٢٥٧—٢٦٣

(٥) W Heyed: Histoire du Commerce du Levant au Moyen Age, Paris, 1885. pp. 53. 92—94. —

(٦) H. Pirenne; Mohamet et Charlemagne, Paris, 1937, p. 14. —

(٧) عادل أبراهيم يعقوب ، التاريخ الاقتصادى للشرق الاوسط ، بغداد، ١٩٨٠ ، ص ٣٨ .

تحول نتيجة لظهور الاسلام الى خط فاصل بين الشرق والغرب ثقافيا وسياسيا وروحيا ، فأنه لم يكن كذلك فى مجال التجارة والتعامل المادى اللذين أحتفظا بنشاطهما فى مياهه ومراسيه [٨] .

ومن المعروف أن قطالونية سرعان ما تولت فى العلاقات الاسبانية التجارية بالبحر المتوسط دورا متطورا الى حد منافسة المدن الايطالية . واذا كانت معلوماتنا عن علاقاتها بأفريقية فى القرن ١٣ م وبداية القرن ١٤ م مانتزال طفيفة ، فأن التعامل التجارى القطلونى مع تونس لم يلبث أن أرتفع من ١٠٠ ألف بيزنت الى ٣٠٠ ألف سنويا ، كما أرتفعت تجارتها مع بجاية من ١٢ ألف الى ٢٤ الف دينار [٩] .

واذا كانت الاساطيل الاسلاميه فى الموانى الموحدية بالمغرب الاسلامى تستهدف أساسا الجهاد العسكرى ، الا أن الامر لم يخل من تجهيز عدد من قطعها على نسق البحرية القطلونية التى مارست ذلك منذ تاريخ مبكر . وليس أدل على هذا القول من العدد الضخم من السفن التى أمر عبدالمؤمن بانشائها فى سواحل العدوة والاندلس ، وبلغ عددها زهاء ٤٠٠ قطعة من بينها ١٢٠ قطعة فى مرسى المعمورة ، ومائة بالريف ، ومائة بدور صناعة افريقية وثمانون بصناعة الاندلس [١٠] .

---

(٨) — H. Pirenne, Op. Cit , p. 14.

(٩) نجاة باشا ، التجاره فى المغرب الاسلامى ، ص ٧٠ . والبيزنت عملة أسبانية فضية . أنظر : حسن حسنى ، النقود العربية ، ص ٣٥ .

(١٠) ابن صاحب الصلاة ، المن بالامامة ص ٢١٣ — ٢١٥ . أنظر أيضا عن البحرية فى حوض البحر المتوسط : أرشيبالد لويس ، القوى البحرية والتجارية ، ترجمة أحمد عيسى ، مراجعة محمد شفيق غربال ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، ص ٣٨٧ — ٣٩٩ . أنظر أيضا : د . سالم ، د . العبادى ، تاريخ البحرية الاسلامية فى المغرب والاندلس ، ص ٢٥٤ — ٢٥٦ وأيضا :

— A. Julien; Histoire de L'Afrique de Nord, p. 124.

ونكتمل صورة هذه العلاقات التجارية من حيث اتساع مجـــال نشاطها الى حد أنها شكلت رابطة وثيقه بين المشرق والمغرب وفقـــا للموضوعات التالية :

أ — التجارة بين المشرق الاسلامى والغرب الاوربى .

ب — التجارة بين المغرب الاسلامى والغرب الاوربى .

جـ — التجارة بين المغرب والمشرق داخل العالم الاسلامى . (١١)

لذلك ، فان الحديث عن أحد أقطاب هذه الرابطة التجارية فى العصر الموحدى يفى بالغرض الكلى ، لا سيما اذا ما توفرت الوثائق التى نستند عليها فى تصوير الحركة التجارية ، ولقد أستعنت فى ذلك بعدد من الرسائل التجارية تبادلها الخلفاء الموحدون والحفصيون مع المدن الاوربيـــة التجارية (١٢) . وهى رسائل تتضمن مادة علمية أساسية تسلط الضوء على طبيعة العلاقات مع الثغور المشرقية لا سيما الاسكندرية كما تبرز الرابطة التجارية التى أشرت اليها (١٣) .

ومن بين تلك الرسائل واحدة ورد فيها ما يلى : « ... من أن أمورهم كانت عندنا جارية على مرادها وسارية مسرى أعتقادهم وأنها الآن حالت عن معهودها وخرجت عن قنونها فى وصول المركب الذى وصـــل مـن

---

(١١) — CL. Cahan, Le Commerce dans le Monde Musulman a Son Apagée, UNEF, FGEL, année 1966—1974, p. 36.

(١٢) — Michele Amari; Documenti Degli Archivi Toscani.

وهذه الرسائل مكتوبة بالايطالية والعربية لم تنشر بعد حصلت عليهـا المغرب من ايطاليا فى عام ١٩٧٥ ، ونحتفظ بها اليوم دار الوثائق بالرباط تحت برقم

A O
4 583
———
1 bis

(١٣) أنظر الملحق رقم ١٠ .

الاسكندرية وما كان منا اليه بعذر يأتى هذا ، عند المشيخة مقبولا لانا كنا بعثنا مركبا الى الغزو فزعبه الضرورة الى دخول الاسكندرية فأكرم هناك وأجرى مجرى العناية وما يسعنا أن نقابل عن ذلك الاكرام الا بمقتضاه فوصل ذلك المركب فزودناه وباع بمدينة تونس حماها الله » . (١٤)

وتتجسم فى موضع آخر منها صورة العلاقات الموحدية فى هـــذا الاطار الى حد القول : « ... ونحن نهدى اليهم من السلام أعطره وننثر عليهم درره ونذرف، بذكرهم مسكه وعنبره ونحضر فيهم كل يوم محضرة لما انعقد قديما وحديثا من السلاف والاحلاف منا ومنهم ومن أسبـــاب المحبة ومتقدم الصحبة والمودة .. وشجت بيننا وبينهم أواصر الائتلاف وأستمرت منا ومنهم المحبة .. » (١٥)

ومع ذلك ، لم يخل أمر هذه العلاقات من مشكلات كانت وراء تبادل مثل هذه المراسلات ، سواء ما كان ينجم من أخطار الطبيعة أو نشـــاط الجهاد البحرى (القرصنة) غير الملتزم بالتعهدات الرسمية . فنجد احدى الرسائل الموحدية تقول بصدد الظاهرة الاولى (الاخطار الطبيعيـــة) : « .. من مدينة بيشة حرسها الله أنا مركب من تجارنا وأهل قطرنـــا وأنظارنا أوسقا بالقمح من جزيرة سقلية وأقلعوا يردون (١٦) مدينـــة طرابلس حماها الله ، فأسقطهم الريح فى أحوازها وكان الماء قد عجزهم (١٧) فنزلوا الى البر ليستقروا ، فلم يتركهم أهل الموضع الا حتى بعـــوا (١٨)

---

(١٤) ميشيل أمارى ، المصدر السابق ، رسالة رقم ١ ، مؤرخـــة فى جمادى الاولى من سنة ٥٥٢ هـ فى عهد عبد المؤمن الى أرك بيشـة — بيزة — وقناصلتها وقماصتها العامة والخاصة ، ص ٤ — ٥ .

(١٥) ميشيل أمارى ، نفس المصدر ، رسالة رقم ١ ، ص ٣ .

(١٦) يقصد يريدون .

(١٧) بقصد أعجزهم .

(١٨) يقصد أبتاعوا .

منهم من القمح قليلا ، فلما كان فى اثر هذا وصل مـــن مدينة اطرابلس غرابا [١٩] معمرا من عند واليها ومقدمها وقبض على القوم وأنهبهم وقبض على الذى وجد فى المركب من التجار ونجا بعض منهم فى العشارى [٢٠] ، وقذفوا حتى وصلوا الى طرابلس .. » [٢١] . وقـــد يترتب على تـــلك الاخطار الطبيعية قسوة فى معاملة التجار فى الموانى الافريقية ، وبالتالى تطلب بلدانهم عودة كل التجار وما يحملون من مواد تجارية على أساس : « .. لا نائبة تنوبهم ولا ضريبة تلزمهم سوى العشر المعتاد » [٢٢] .

أما بالنسبة للجهاد البحرى الذى يطلق عليه فى المصادر الاوربية القرصنة ، فان الموحدين قد التزموا الى حد كبير بعهودهم فى علاقـــاتهم الخارجية ، لذلك ، حظيت جهودهم البحرية بالتقدير فى هذا الشأن وأدىذلك الى الحد كثيرا من الاعمال البحرية (الجهادية ، القرصنة) الخارجـــة على مواثيقهم . فالاصل فى الحركة التجارية البحرية أن تكفلها مواثيق الامن والحرية بين أحداث الحروب الجهادية والصليبية . كذلك اقتضت علاقات هذه الفترة التزام التجار الاوربيين أثناء اقامتهم فى الموانىء الاســـلامية مشرقية ومغربية[٢٣] برسوم ذلك العهد وحدوده واتباع مراسمه المتعارفة بحيث لم تكـــن تضرهم أو تفـــزعهم المطالب غير المألوفـــة ، بحيـــث لم

---

(١٩) صحتها لغويا غراب .

(٢٠) يعنى بالعشارى الفلك أو الزوارق .

(٢١) مشيل أمارى ، المصدر السابق ، رسالة رقم ٢ ، فى عهد يوسف بن عبد المؤمن ، وهى غير مؤرخة وبالعودة الى الترجمة الايطالية وجد التاريخ الميلادى : ٢٣ أبريل ١١٨١ م ، ص ٧ — ٩ .

(٢٢) ميشيل أمارى ، نفس المصدر ، رسالة رقم ٢ ، ص ٩ . أنظـــر الملحق رقم ١١ .

(٢٣) أنظر عن استقرار أهل جنوة وبيزة والبندقية فى تونس وبجاية :

— R. Le Tourneau; L'Occident Musulman du VIIes a la fin du Xve's.

فى مجلة ALEO ، الجزائر ١٩٥٨ ، ج ١٦ ، ص ١٤٧ — ١٧٦ .

يتعرضوا لاى أذى سواء فى البر أو فى البحر[٢٤] . وكان الخوف من نهاية آجال المعاهدات التجارية وعدم قدرة التجـار الاوربيـين على الاحتفاظ بمكانتهم التجارية فى الموانى المغربية ، دافعا الى تجديد المراسلات مـع الخلفاء الموحدين . وفى هذا الصدد ، جاء فى رد الخليفة الموحدى يعقوب المنصور : « .. أنه ما زوى له من المشارق والمغـارب والاكناف والارجاء والرضا عن الامام المعصوم المهدى المعلوم محيى رسوم الدين بعد الدروس .. مظهر معالم التريعة بعد ما تناولها الجهل بيد الاضحار والاخفا وعن خليفته أمير المؤمنين .. ابن أمير المؤمنين .. ابن سيدنا الخليفـة أمير المؤمنين .. من الصلح للقناصلة والاشياخ والاعيان والكافة من أهل بيشة وجهاتها من بلد العتيق الى قاب قرب والجزائر التى هى سردانية وقرصة وايلنيزة والبه وقبرارة ومونت اقرشت وجلية وقسـرقنة وكل من فيها من زعمائهم وأعيانهم اطرروان بن تدسك واستنابوه فى العقد لهم وعليه .. فعرف رسولهم المذكور برغبتهم فى ادامة الهدنة لهم .. وأنهم ملتزمون لكل شرط يشرط عليهم ومنتهون الى جميع مايحل لهم .. وأجاب مسئلتهم وأمر لهم صلح على عادتهم وهدنتهم وعقد لهم السلم الى مدة من خمس وعشرين عاما من تاريخ هذا الكتاب على الامنة التامة والمعدلة الشاملة العامة ، وأذن لهم أعلى الله اذنه ووصل انعامه ومنه فى الوصول الى بلاد الموحدين أعزهم الله للتجارة فيها والتجهيز بها وقصرهم على أربعة بلاد من جملتهـا وهى سبتة ووهران وبجاية وتونس حماها الله ولم يبح لهم النزول بغيرها ولا الاحتلال بسواها الا لضرورة من صعوبة البحر »[٢٥] .

---

(٢٤) ميشيل أمارى ، نفس المصدر ، رسالة رقم ٣ ، ص ١٠ــ١٣ مؤرخة (وسط الرسالة) فى ٢٠ صفر ٥٨٠ هـ / يونيو ١١٨٢ م ، وذلك فى عهد يوسف بن عبد المؤمن .

(٢٥) ميشيل أمارى ، المصدر السابق ، رساله رقم ٥ ، مؤرخـــة فى رمضان ٥٨٢ هـ / نوفمبر ١١٨٦ م ، ص ١٩ — ٢٠ .

وواضح من هذه الرسالة وسابقتها أن الدولة الموحدية حددت أسلوب تعاملها مع التجار الاوربيين كما حددت المراسى التى يدخلونها والاعراف التى يخضعون لها[٢٦] .

ورغم تحديد الموانى والمراسى المغربية التى يجب التعامل التجارى فيها فقط ، الا أن هذا لم يمنع من تعرض سفن التجار الاوربيين لاعتداءات قراصنة أوربيين ، مثلما حدث فى ميناء تونس عندما تم استيلاء تجار بيزة على مسطحين (سفينتين) هما — الاركليوسة واكرناطة — وأسر ثلاثه مراكب للمسلمين بما فيها من تجار وركاب وتجارة ، وقتل جماعة من المسلمين ، وما ترتب على هذا الاعتداء من انتهاك الحرمات وفضح الحريم وموت البعض غرقا فى البحر ووقوع عدد من الجرحى . ولهذا السبب اتخذ الموحدون اجراءات مشددة لمعاقبة المعتدين بالعقوبة المنصوص عليها فى قوانين الدولة الموحدية طبقا للشريعة الاسلامية ، لكى يكون ذلك الحكم رادعا لغيرهم فلا يتجاسر أحد القراصنة بعد ذلك على التعرض للمسلمين « لا بأخذ ولا مضرة » ، وهذا نفس ما كان يفعله أشياخ وأعوان وتجار جنوة فيمن قصد المسلمين بأذى من أهل بلادهم[٢٧] . كذلك كانت تلك المراكب التجارية تنتقل فى جماعات ، وكثيرا ما كانت تخفرها مراكب حربية لحمايتها مما عسى أن يداهمها من اعتداءات القراصنة[٢٨] .

ولقد أحدث ذلك رد فعل لدى بعض التجار لا سيما البيزيين الذين

---

(٢٦) Robert S. Lopez; Medieval Trade in the Mediterranean World, U.S.A., 1961, p. 303—317.

(٢٧) ميشيل أمارى ، المصدر السابق ، رسالة رقم ٦ ، مؤرخة فى شهر ذى القعدة سنة ٥٩٦ هـ ، ص ٢٣—٢٨ .

(٢٨) نجاة باشا ، المرجع السابق ، ص ٨٣ . ويؤكد أيضا أن القرصنة من السلوك المتعارف عليه فى تلك الفترة من الزمن حتى أن التجار أنفسهم كانوا لا يتورعون عن تعاطيها كلما سنحت الفرصة بذلك .

فقدوا ثقة الموحدين بهم ، وكانوا يهتمون أصلا بالتجارة ومسالكها وربط الغرب وموانيه بالشرق لمزيد من الفائدة والربح السريع ، فبادروا بالسعى لاسترجاع ثقة الدولة فى تعاملهم التجارى • وبعد بحث واستقصاء عنهم صدر لهم كتاب الامان على أن : « ••• يصلوا الى بلاد افريقية حاطها الله محمولين على الرعاية والعناية محوطين بكانف الكفاية والحماية •• وحيث حلوا من معاقلها وسواحلها وبرها وبحرها فى مسالك تجارتهم وترددهم بها ومتصرفاتهم لا يعترضهم فى شىء منها متعوض ولا ينغضب لهم هذا الحبل المتين »[٢٩] •

ومما لا شك فيه أنه ترتب على عملية القرصنة ضياع جزء كبير من التجارة الصادرة من الغرب الى المشرق عبر أوربا وتجارها • الا أن الموحدين استطاعوا حل تلك القضايا المختلفة بأخذ قيمة ما استولى عليه القراصنة من اخوانهم المقيمين فى الموانى سالفة الذكر حسب الشريعة الاسلامية وذلك بحضور القاضى والانسياخ والنسهود بالجامع الاعظم • واجتهد فى معرفة قيمة ما أخذوه من كل تاجر واسترداد قيمته نقدا من بيع قمح تجار بيزة المقيمين فى تلك الموانى • بل استطاعت الدولة فى مواضع أخرى حل تلك المشكلة عن طريق مراسلة حكام بيزة ليقوموا بأنفسهم بتوقيع العقوبات على هؤلاء القراصنة[٣٠] • وهناك حقيقة لا بد من الاشارة اليها ، فعندما كان الموحدون يؤكدون على خطورة عمليات القرصنة ، فان

---

(٢٩) ميشيل امارى ، المصدر السابق ، رسالة رقم ٧ ، ص ٢٩ — ٣٠ ، رسالة رقم ٨ ص ٣١—٣٢

(٣٠) ميشيل أمارى ، المصدر السابق ، رسالة رقم ٩ ، مؤرخة فى ذى القعدة سنة ٥٩٦ هـ ، ص ٣٣ — ٣٥ . ولمزيد من تلك العقوبات عن طريق الاتصال الدبلوماسى راجع :

--R.S.Lopez; Op. Cit , p. 31617.—

الامر كان يعنى فى نظرهم أيضا تأمين الطريق التجارى عموما بين المغرب والمشرق • وهذا واضح من خلال ما ورد فى احـــدى الرسائل بأن معظم ركاب سفن القرصنة التى أخذت من مرسى مدينة تونس كانوا من أهـــل تونس وبواديها ، وحجاج مغاربة كانوا قد خرجوا من المغرب متوجهين الى المشرق عبر الاسكندرية ، بالرغم من نفى الرسالة لذلك : « ••• ولم يكن فيه من أهل الاسكندرية الا رجل واحد ولم يكن معه الا شىء يسير »(٣١) •

وقد حاولت الدولة الموحدية من ثغورها المغربية القيام بدور رئيسى لحماية طرق التجارة البحرية فى حوض البحر المتوسط الغربى ، ورائدها فى ذلك القول المأثور الوارد فى احدى الرسائل : « •• يعز من والاه ويذل من عاداه ويحفظ من تمسك بعهده وذمته وحافظ على صنائعه الجسيمة »(٣٢) • كما كان رائد الموحدين فى هذه العلاقات التجارية ما سبق من معـــاملات انتظمت فى الموانى المشرقية ، وعلى حـــد قول رسالة أخرى: «••الواصلون بكتابنا هدا اليكم على ما سلفت به عـــوائدهم من التصرف فى تجـــارتهم والتغلب فى بضاعتهم ، وعاملناهم فى جميع أموالهم بما توجه •• الذمة لهم ووصينا بأن أ •• بلوا بالخير فى كافة أمورهم •• »(٣٣) ، حتى لا تكون أقل من مثيلاتها من الموانى المشرقية(٣٤) •

---

(٣١) ميشيل أمارى ، نفس المصدر ، رسالة رقم ١١ ، ص ٣٨ — ٤٢ • وبها تفصيلات عن عملية القرصنة وأنهاب الركاب مع تقدير قيمة مانهب من كل راكـــب •

(٣٢) ميشيل أمارى ، نفس المصدر ، رسالة رقم ١٣ ، مؤرخـــــة فى رمضان سنة ٥٩٧ هـ / يونيو ١٢٠١ م ، ص ٤٥—٤٧ •

(٣٣) ميشيل أمارى ، المصدر السابق •

(٣٤) ميشيل أمارى ، نفسه ، رسالة رقم ١ ، ص ٤—٥ • والوارد فيها ذكر الاسكندرية •

(٢)

تجـــارة الســـودان

(أ) الطرق التجارية فى بلاد المغرب :

كان الطريق التجارى البرى الى قلب القـارة الافـريقية من أهم المســالك الافريقية بسبب الوحدة التضاريسية لبلدان المغرب التى تؤلف حاجزا طبيعيا مانعا تيسر سبل الاتصال شرقا ويعسره جنوبا . لذلك كانت المسالك المؤدية الى بلاد البربر والمعابر الموصلة الى المغرب تمتد من المشرق الى الغرب وبالعكس . وكانت هذه المعابر فى حد ذاتها الطرق التى كانت تسلكها القوافل التجارية ما بين الشرق والغرب[٣٥] .

وعلى جانب هذه الطرق أقيمت الرباطات ووقفت عليها أوقاف كثيرة فى افريقية[٣٦] ، ثم أقيمت الحصون وأنشئت القلاع لحماية البلاد ، وفى ظل هذه الحماية وتوفر وسائل الحياة فى هذه الطرق كان التجار يقبلون على التعامل التجارى بقدم ثابتة ، وكان ذلك مقدمة لاقامة مـراكز التجـارة والاسواق واختطاط المدن ساحليا وداخليا[٣٧] .

ومن الجدير بالذكر أن مسلكين هامين كانا يخترقان بلاد المغرب مع الاتجاه الطبيعى للتضاريس من الشرق الى الغرب :

١ ـــ طريق الهضاب المرتفعة أو ما يعرف بمنطقة شط الجريد باقليم تونس ويدور حول جبال الاوراس بحيث يمر بحـوض الطـرف وبممر

---

(٣٥) —H Pirenne; Les Villes qu Moyen Age, Essai d'histoire Economique et Social. Bruxelles, 1927, pp. 120—123.

(٣٦) ابن حوقل ، صورة الارض ، ص ٤٩ .

(٣٧) نجاة باشا ، المرجع السابق ، ص ١٦٩ .

الحضنة ثم ممر تازة بالشمال الغربى من بلاد المغرب • وكانت القيــروان وما أضيف اليها من بلدان الساحل التونسى متصلة بهذا الطريق الذى يتفرع منه طريق ثانوى نحو بجاية فى الشمال ونحو بسكرة وورقلة فى الجنوب •

٢ — (أ) طريق القصور ويلى الطريق الساحلية التى تبــدأ من مصر مرورا ببرقة وطرابلس ثم تتبع الســفح الجنــوبى من الاطلس الصحراوى فى اتجاه الجنوب الغربى من المغرب الاقصى • وتتمثل أهمية هــذا الطريق فى ربط المســالك الصحراوية بالاندلس وجــزر البحر المتوسط ، ومن أهم مدنه تاهرت وورقله وسدراتة ومزاب وهو ما يعرف أيضا بمنطقة المغرب الاوسط •

(ب) مضيقات الأطلس المغربى أو ما يعــرف بمنطقة المغــرب الاقصى بواجهاتها البحرية ، ومن أهم مدنها القديمة مدينة أودغست على طريق تجارة هامة هى الذهب والملح والرقيق من بلاد السودان ، وفاس وسجلماسة[٣٨] وتكرور وأهميتها لمعدن الذهب ، وأغمات ومراكش وسوس ونول ولمطة على ساحل المحيط • وهذه المدن الاخيرة هى نهاية القــوافل التجارية المنبعثة الى السودان ، ومن هنا كان انشاء شبكة من المدن شكلت عبر اتصالها فيما بينها العمود الفقــرى

---

(٣٨) هناك تشابه كبيرا جدا بين القيروان وسجلماسة فى مناخهمـــا الصحراوى ، وفى مدى أهمية كل منهما ، فالقيروان مركز هام فى أفريقيـــة ، وسجلماسة مركز للقوافل التجارية على باب الصحراء القادمة من السودان : أنظــر :

— Lopez; Op. Cit , p. 52—53

التجارى الاسلامى بين المغرب والمشرق كما كانت تخرج منها دورة التيارات العظمى للتجارة(٣٩) .

لذلك أوجدت هذه المسالك مع وحدتها الجغرافية وحدة اقتصادية ووحدة عمرانية تمتد من الجنوب الغربى من بلاد السودان الى القارة الاوربية فى الشمال ومن الجنوب الشرقى المغرب فى الشرق الى الصين فى الشرق الاقصى .

وعبرت القوافل هذه المسالك مخترقة الصحراء عبر طرابلس الى أجدابية ومنها الى الاسكندرية حيث تتفرع عبر صعيد مصر الى عدد من المدن والثغور على البحر الاحمر ومنها الى جزيرة العرب وعدن الى الشرق الاقصى . ومن الاسكندرية يتجه فرع آخر الى ثغور الشام ببيروت وصور وصيدا ، ومنها بالطريق البرى حتى جزيرة فيلكة الى ايران والهند والصين. وكانت فيلكة مركز تجمع هائل للمواد الآسيوية .

كانت هذه المسالك البريه واضحة المعالم وتنقسم الى مسافات تقدر بالمراحل والاميال والفراسخ . فطول المسافة على سبيل المثال من القروان الى السوس الاقصى على المحيط الاطلسى ألفان ومائة وخمسون ميلا(٤٠) . وكثيرا ما كان يتولى حراسة الطرق التجارية رجال أشداء من نفس القوافل التجارية . وتعود أهمية هذه المسالك الى القيمة العالية للسلع المنقولة عبرها وأهمها الذهب والعبيد .

---

(٣٩) د . الحبيب الجنحانى ، المغرب الاسلامى ، الحياة الاقتصادية والاجتماعية (ق ٣ — ٤ هـ / ٩ — ١٠ م) تونس ١٩٧٧ ، ص ١٣ — ١٩ .

(٤٠) ابن خرداذبة ، المسالك والممالك ، ص ٨٩ .

(ب) تجـارة الذهب والملـح :

أما الذهب فقد طرأ تحول على طريق تجارته القديم بين بلاد السودان والمشرق • فقد أهمل الطـريق التجارى الذى يربـط بين غانة ومصر عبر بلاد النوبة[٤١] لمـا كان يمثله من خطر على القوافل ، وهذا الخطر يتمثل فى الثورات والانتفاضات التى كان يقوم بها الاعراب رفضا لدفع الجـزية وخروجا على الاحتكار الايوبى والمملوكى للمواد التجـارية الهامة ومنها الذهب •

لذلك أصبح الطريق الرئيسى لتجارة الذهب هو طريق السودان الغربى عبر مراكزه التجارية مثل تمبكتو وتكرور [٤٢] الى مسالك أعالى السنغال والنيجر ثم مراكش غربا ، ومنها الى تونس ثم طرابلس ومصر • وفى ذلك يقول الادريسى : « •• أن السودان بلاد التبر وأنه أكبر غلة عند السودان، وأنهم عليها يعولون صغيرهم وكبيرهم[٤٣] • فكانت القوافل التى تسير فى الصحراء الكبرى الآتية من الجنوب تحمل الذهب والعبيد ، وكان الحمالون يحملون الملح ويعودون بالذهب •

---

(٤١) لموقع غانة فى شمال وادى الذهب أعالى النيجر والسنغال ، فهى تعرف بأسم أراضى الذهب . ويرجع ثراؤها الى تحكمها فى تصدير الذهب الى الشمال ومقايضته بالملح والمواد الاخرى فى الجنوب . وأصبحت تجارة الذهب الشريان الرئيسى فى حياه هذه المملكة ، انظر :

— Roland Oliver; A Short History of Africa, London, 1970, p. 61.

وعن علاقة مصر ببلاد النوبة من عام ٦٥١ هـ انظر أيضا :

— R. Oliver, Op. Cit., p. 70.

(٤٢) د . ابراهيم على طرخان ، دولة مالى الاسلامية ، القاهرة ، ١٩٧٣ ص ٧٤ — ٧٥

(٤٣) الادريسى (أبو عبد الله محمد بن محمد بن الشريف الادريسى) ت ٥٤٨ هـ / ١١٥٤ م ، نزهة المشتاق فى اختراق الافاق ، ط د وزى ، ليدن ١٧٦٦ ص ٨ •

وكانت طرق القوافل الى كانم وغانا فى الغرب محل اهتمام خاص من حكام القاهرة الذين اعتمدوا على الذهب المستورد منها لسك دنانيرهم فشنوا العديد من الحملات والغارات العسكرية لتأمين طريق الذهب ، لكثرة تعرض التجار لعبث اللصوص فى هذا الطريق وتحوله الى الطريق المارة بالمغرب[٤٤] • ويذكر ابن خلدون علاقة مصر بمملكة مالى عبر تجار الذهب فيقول معتمدا على رواية شفاهية من عصر مارى جاطه بن مانسا ملك مالى فى النصف الثانى من القرن الثامن الهجرى : « •• انه بذر وأسرف واضطر الى بيع حجر الذهب الشهير الذى كان فى ذخيرة مملكة أسرته وهو حجر يزن عشرين قنطارا منقولا من المعدن من غير علاج بالصناعة ، ولا تصفية بالنار ، فعرضه جاطة هذا الملك المسرف على تجار مصر المترددين الى بلده وابتاعوه بأبخس ثمن »[٤٥] •

وكان هؤلاء التجار قد سلكوا الطريق القديم المارة بالقيروان وبلاد الجريد وورقلة وتاهرت وتلسان وفاس وسجلمانه ، وكلها مراكز تجارية نشيطة كانت تتجمع فيها كميات هائلة من الذهب • ولم يقتصر التجار الذين يتعاملون مع تلك المراكز التجارية المؤدية الى السودان الغربى لتجارة الذهب والمواد الاخرى على تجار مصر بل تعداهم الى تجار العراق والشام[٤٦] •

---

(٤٤) ظلت مالى وغانة تتصدران تجاره هذا الطريق طوال عصر دولتى المرابطين والموحدين حتى ظهور الحفصيين ، لتظهر فى عهدهم مملكة كانم فى السودان الاوسط فى لقرن ١٣ م وامتدت سلطاتها حتى فزان ، مما أوجد علاقات واسعة بينها وبين الحفصيين فى تونس . أنظر :

— R. Oliver, Ibid., p. 91.

(٤٥) ابن خلدون ، العبر ، ط بيروت ، ١٩٥٩ ، ج ٦ ، ص ٤١٨ • أنظر الملحق رقم ١٧ •

(٤٦) ابن حوقل ، صورة الارض ، ص ٢٤ •

وكانت المراكز التجارية الواقعة على نفس الطــريق تصدر بضائــع أخرى غير الذهب والعبيد أهمها : الحبوب وزيت الزيتون[٤٧] واللحــوم والقطن والخشب والملح والتمر والعســل والسكر والنحــاس المصنوع والشموع والجلود والزئبق (له أهمية فى صناعة الذهب) وغيرها • فكانت سجلماسة تصدر الى السودان أنواع التمور والزبيب والنحاس المصنوع والمنسوجات السجلماسية الشهيرة ، ويعود التجار بالتبر والرقيق • كذلك كان الملح من أهم ما يحمله التجار السودانيون ، وفى هذا يقول ابن حوقل : « وربما بلغ الحمل من الملح فى دواخل بلد السودان وأقاصيه ما بين مائتين الى ثلاثمائة دينار •• »[٤٨] •

وكما سبق الاشارة ترجع أهمية مالى السودانية الى ضخامة ثروتها التى تدفقت عليها من حقول الذهب الواقعة فى منطقة ونقارة وتشتمل على أربعة مناطق :

١ — بامبوك الواقعة بين السنغال الاعلى وفرعه فاليم •

٢ — بور عند التقاء النيجر الاعلى برافده تنكسو •

٣ — لوبى عند أعالى نهر فــولتا •

٤ — أشانتى داخل جمهورية غانة الحديثة •

وفى هذه الاقاليم وغيرها يستبدل الملح بالذهب لعدم وجود الملح بها عن طريق التجارة الصامتة[٤٩] •

---

(٤٧) ليفى بروفنسال ، سلسلة محاضرات عامة فى أدب الاندلس وتاريخها القاها عامى ١٩٤٧ — ١٩٤٨ ، ترجمها د . محمد عبد الهادى شعيرة ، د . عبد الحميد العبادى ، مطبوعات كلية الآداب ، جامعة فاروق الاول ، ١٩٥١ ، ص٩١

(٤٨) ابن حوقل ، المصدر السابق ، ص ٩٨ . وعن سجلماسة أنظــر أيضا : ابن عذارى ، البيان ج ١ ، ط بيروت ١٩٤٨ ، ص ٥٦ .

(٤٩) د . أبراهيم طرخان ، المرجع السابق ص ٦٥ . أنظر الملحق رقم ١٧

ورغم وجود هذا المعدن وثراء مالى الذى اكتسبت به شهرة تجاوزت بلاد المغرب الى أوربا الى حد أن بعض الكتاب كتب يقول : « لا يوجد هناك شعب أثرى من الماندنجو فى الذهب والفضة .. »[٥٠] .

وكان الذهب فى مالى سهل الاستخراج لكثرة توفره قريبا من سطح الارض ، وقد استخدم سادات مالى رعاياهم الوثنيين فى أعمال الحفر والتنقيب لمهارتهم فى ذلك العمل . وارتبط استخراج الذهب بمحاولة انتشار الاسلام بين هؤلاء العمال الذين كانوا يتوقفون أحيانا عن العمل فى هذه المناجم ، لذلك يتسامح سادة مالى معهم حتى يضمنوا استغلال مناجم الذهب لكونه المصدر الرئيسى لثروتهم وتجارتهم[٥١] .

ولذهب مالى أهمية كبرى فى علاقاتها مع المغرب والمشرق على السواء ويتضح ذلك من المرحلة التى قام بها كنكن موسى ملك مالى عام ٧٢٤هـ — ١٣٢٤ م للحج فبهر به مصر والحجاز بل والعالم الاوربى . ومهما كانت أسباب ذلك الحج وتلك الرحلة[٥٢] ، فقد سلك الملك المالى طريقه عبر طريق القوافل الغربى من منحنى النيجر الى المغرب عن سجلماسة ومنها الى مراكش ثم الطريق الشمالى عبر جبال الاطلسى الى تونس مما أتاح للتجار الاوربيين مشاهدة هذا الموكب وهو فى طريقه الى القاهرة[٥٣] . ولقد تعددت

---

(٥٠) Bovill, E.W.; The Golden Trade of the Moors, London, 1961. — pp. 194—5.

ويفسر د . طرخان معنى شعب الماندنجو فيقول : « ينقسم الى مانى بمعنى السيد أو مركز أقامة السيد أو العاصمة ومعنى آخر أن ما — الام ، ودنج — الطفل ، فبذلك يكون ابن الام ، وذلك له أهمية فى النسب الى الام لدى هذا الشعب . نفس المرجع ، ص ٢٧—٢٩ .

(٥١) Bovill, Op. Cit., p. 87. —

(٥٢) د . طرخان ، المرجع السابق ، ص ٧٩ .

(٥٣) د . طرخان ، نفسه ، ص ٨١ .

الروايات بشأن أحمال الذهب التى صاحبت هذه الرحلة فى طريقها الى مصر . ويعبر ابن خلدون عن ذلك بقوله : « ان منسا موسى كان قد أعد لنفقته من بلاده ، فيما يقال مائة حمل من التبر فى كل حمل ثلاثة قناطير »(٥٤) .

وقد استقبل الناصر محمد بن قلاوون سلطان مصر تلك القافلة بحفاوة بالغة عند وصولها ، وعهد السلطان الناصر محمد الى المهندار أبى العباس أحمد بن على الخاقانى لمرافقته خلال اقامته بالقاهرة ، وقد لاحظ هذا المهندار كميات الذهب الكبيرة التى كان ينقلها ملك مالى فقال : « لم يترك — أى منسا موسى — أميرا ولا رب وظيفة سلطانية ، الا بعث اليه بالذهب »(٥٥) .

وقد رد سلطان مصر على تدفق هذه الكمية الضخمة من الذهب فى القاهرة بهدية حافلة تتمثل فى : « طرد وحشى على مفرج اسكندرى ، وكلوته زركش ، وكلاليب ذهب ، وشاش بحرير ورقم خليفتى ومنطقة ذهب مرصعة وسيف محلى ، منديل مذهب خزوفرسين ملجمين مسرجين وأعلام »(٥٦) .

---

(٥٤) ابن خلدون ، العبر ، ج ٥ ، ص ٤٣٤ .

(٥٥) المقريزى ، الذهب المسبوك فيمن حج من الخلفاء والملوك ، نشر د . جمال الدين الشيال ، القاهرة ، ١٩٥٥ ، ص ١١٢ .

(٥٦) طرد وحشى : هو نسيج كان يعمل بدار الطراز بالاسكندرية ويزدان بدوائر أو رسوم بداخلها صور تمثل مناظر لصيد الوحوش . والمفرج السكندرى : هو نوع من النسيج الرقيق المذهب تصنع منه الطرح والكلوتات المزركشة بالكلاليب . أى القلانس المطرزة بأبازيم محاطة بحافة القلانس . والشاش بحرير : هو نسيج حريرى مموج بالذهب وهو نفسه المنمر . ورقم خليفتى : أى مكتوب على هذا النسيج القاب الخليفة بالحرير الباهر الملون . ومنطقة ذهب مرصعة : أى حزام من الذهب المرصع بالاحجار الكريمة .

وشجعت كميات الذهب الوفيرة التى تدفقت على القاهرة الحـركة التجارية فى مصر حتى أن أحد التجار المصريين باع لاحد أتباع منسا موسى ثوبا بخمسة دنانير وهو لا يساوى أكثر من دينار واحـد . ولقـد بهرت الاثواب المصرية الجميله وحسانها أتباع منسا موسى فأقبلوا على الشراء حتى انخفضت قيمة الذهب وسعره لكثرة سيولة الذهب فى أيادى التجار واغراق الاسواق بالذهب السودانى ، ولم يرتفع سعره الا بعد سنوات عـدة(٥٧) .

وشمل هذا البذخ السودانى البلاد المشرقية خاصة الحجاز فى موسم الحج ويعلق السعدى على صدقات الملك المالى فى الحجاز : « .. ومع قوته واتساع ملكه ، لم يتصدق فى الحرمين بأكثر من عشرين ألف ذهب ، مع أن اسكيا الحاج محمد ، ملك سنغى تصدق بمائة ألف ذهب »(٥٨) . وتكررت له — منسا موسى — التكرمة والعطاء فى طريقة العودة أيضا وفى ذلك يقول المقريزى : « وأنعم عليه السلطان بخيول وجمال »(٥٩) .

وبجانب شهرة مالى فى الذهب كانت تتميز بخصوبة أراضيها ووفرة

انظر : ل . أ . ماير ، الملابس المملوكية ، ترجمة صلاح الشيتى، مراجعة وتقديم ، د . عبد الرحمن فهمى اسماعيل ، القاهرة ، ١٩٧٢ ، ص ٢٧ ، ٣٨ ، ٥١ — ٤٣، ٩٩ — ١١٤ . أنظر أيضا : ديماند ، الفنون الاسلامية ، تقـديم : د . أحمد فكرى ، ص ٢٥٠ . راجع أيضا : د . سالم ، تاريخ الاسكندرية ، ص ٥٢٦ — ٥٢٨ .

(٥٧) د . طرخان ، المرجع السابق ، ص ٨٤ .

(٥٨) عبد الرحمن بن عبد الله بن عمران بن عامر السعدى (ت بعـد عام ١٠٥٥ م) : تاريخ السودان حققه ونشره : هوداس وينوا ، بـاريس ١٩٠١ ، ص ٧ .

(٥٩) المقريزى ، الذهب المسبوك ، ص ١١٣ . انظر أيضا :

— Davidson, B.; Old Africa Rediscovered, London, 1959, p. 91.

محاصيلها الزراعية وكثافة سكانها[٦٠] .

وقد وصلت الى السودان الغربى والاوسط بفضل علاقات مالى التجارية معها كميات وفيرة من حبوب مصر وخضرواتها وحيواناتها المستأنسه . مثل الثور والغنم والماعز والحمار النوبى المستأنس والدجاج المستأنس ومن الخضروات والحبوب القرع والقلقاس والفول والبازلاء والذرة العويجة أو الدخن[٦١] .

واستوردت مالى من المشرق أيضا المصنوعات المختلفة مثل السيوف الدمشقية والحرير كما استوردت الثياب المصرية والخيول بكميات كبيرة[٦٢] . ولزيادة حجم التجارة التى شغلت سكان مدينة تكدة المالية — احدى ولايات مالى — يقول الرحالة ابن بطوطة : « شغلتهم التجارة ، يسافرون كل عام الى مصر ويجلبون كل ما بها من حسان الثياب » [٦٣] .

ومدينة تكدة — وهى أكرا — من مدن مالى الهامة ، وهى مركز تجارى رئيسى فى طريق القوافل وتقع بين جاو وأير على طريق الحج عبر الصحراء ، كانت على علاقة وثيقة تجارية مع ورقلة ومع مصر ، ويذكر أن هناك قافلة خرجت من مالى العاصمة نحو مصر عن طريق تكدة بلغ تعدادها ١٢ ألف جمل . واستوردت مصر النحاس من مالى كما استورده المغرب أيضا[٦٤] .

ولما كانت للذهب أهميته فى التجارة المشرقية المغربية ، كانت للملح

---

(٦٠) القلقشندى ، صبح الاعشى ، ج ٥ ، ص ٢٨٢ .
(٦١) د . طرخان ، دوله مالى ، ص ١٣٧ .
(٦٢) أ . سيبالد لويس ، القوى البحرية ، ص ٢٦٠ — ٢٦٣ .
(٦٣) ابن بطوطة ، الرحلة ، ج ٤ ، ص ٤٣٩ . أنظر أيضا :
Bovill, Op. Cit., p. 128.
(٦٤) Bovill, Ibid.

أيضا تجارته الرابحة ، ويصف ابن بطوطة فى رحلته ضخامة كميات الملـــح الموجودة فى مناجم تغازة فيقول : « .. قرية لا خير فيها ، ومن عجائبها أن بناء بيوتها ومسجدها من حجارة الملح ، وسقوفها من جلود الجمال،ولا شجر فيها انما هى رمل فيه معدن الملح ، يحفر عليه فى الارض ، فيوجد فيه ألواح ضخام متراكبة ، كأنها قد نحتت ووضعت تحت الارض ، يحمل الجمل منها لوحين ، ولا يسكنها الا عبيد مسوفة — احدى قبائل البربر — ويتعيشون بما تجلب اليهم من تمر درعة وسجلماســـة ، ومن لحم الجمال . ويصـــل السودان من بلادهم الى تفازة ، فيحملون منها الملح ويباع الحمل منه فى ايوالاتن بعشرة مثاقيل الى ثمانية مناقيل ، وبمدينة مالى بثلاثين مثقالا الى عشرين ، وربما انتهى الحمل الى أربعين مثقالا »[٦٥] . ويبالغ ابن حوقل فى ذكر ثمن حمل الملح فيذكر أن حمل الملح بلغ فى بعـــض بلاد الســـودان الاخرى فى غربى افريقية ما بين ٢٠٠ الى ٣٠٠ مثقال أو دينار[٦٦] .

ويضيف ابن بطوطة أن الملح كان عمله يتصارف ويتعامل بها أهـــل السودان كما يتصارفون بالذهب والفضة ، يقطعـــونه قطعا ويتبايعونه ، ويذكر أن قرية تفازة على حقارتها كان يتعامل فيها بالقناطير المقنطرة من التبر[٦٧] .

وعن هذا الطريق التجارى ومدنه يتحـــدث البكرى عن سلجماســـة وسكانها فيقول : « ومن الغرائب عندهم أن الذهب جزافا عدد بلا وزن ، والكراث يتبايعونه وزنا لا عددا »[٦٨] . وفى حديثه عن مـــدينة أودغست كمركز تجارى شهيرة فى الذهب والملح والعبيد يقول : « .. ويتجهر الى

---

(٦٥) ابن بطوطة ، الرحلة ، ج ٤ ، ص ٣٧٧ — ٣٧٨ .
(٦٦) ابن حوقل ، صوره الارض ، ص ٩٨ .
(٦٧) ابن بطوطة ، نفس المصدر .
(٧٨) ابن حوقل ، نفس المصدر ، ط دى سلاين ، الجزائر ، ١٨٥٧ ، ص ١٧١ .

أودغست بالنحاس المصنوع وبثياب مصبغة بالحمــرة والزرقة مجنحة ، ويجلب منها العنبر المخلوق الجيــد لقرب البحــر المحيط منهم ، والذهب الابريز الخالص خيوطا مفتولة • وذهب أودغست أجود ذهب أهل الارض وأصحه » • ويضيف : « انه كان للرجل الواحــد من سكانها ألــف خادم وأكثر »(٦٩) •

وكان لسكان السودان طريقة خاصة فى التعامل مع التجار الاجانب سبق أن عرفناها بالتجارة الصامتة(٧٠) ، عرضها المسعودى فيقول : « أن فن البيع والشراء فيما كان وراء سلجماسة من أرض المغرب ومثلها بأقاصى خراسان قوم يبتاعون من غير مشاهدة ولا مخاطبة ، فيتركون عند كل متاع ثمنه أعمدة من الذهب ، فاذا جاء صاحب المتاع اختار الذهب وترك المتاع ، وان شاء أخذ متاعه وترك الذهب »(٧١) •

وقد تعدى أثر حركة تجارة الذهب هذه على البلدان الاسلامية المارة بطريقها من المغرب غربا الى مصر والحجاز شرقا لتشمل الحركة النقــدية نفسها • فمع تدفق الذهب والفضة كانت الدورة النقدية عادة مــرضية • وكان نضوب الذهب يتسبب غالبا فى كارثة اقتصادية تظهر فى قلة العملات الجيدة وتغيير سعر العملة ووزنها ومن ثم تقع حالات غش وكساد وقــد يؤدى الامر الى أزمات اقتصادية أو مجاعات تعم بلاد المغــرب والمشرق على السواء •

ويذكر القلقشندى عن مسالك الامصار : « أن معدل ســعر القمــح ٥٠ درهما لكل قفيز وأن التسعير كان أرخص » ويضيف : « أنه كثيرا ما يكون

---

(٦٩) ابن حوقل ، نفس المصدر ، ص ١٥١ ، ١٥٩ .
(٧٠) المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٤ ، ص ٩١—٩٢ .
(٧١) المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٤ ، ص ٩٢—٩٣ .

الرطل الافريقى من لحم الضأن بدرهم ، ويرخص اللحم فى الربيع ، وتباع الدجاجة الطيبة بدرهمين جديدين »[٧٢] . كما يظهر من كلام القلقشندى أن ظروف العيش فى افريقية كانت مماثلة لمصر والمغرب لقـــرب البـــلدين وتأثرهما بطريق التجارة المذكورة .

وكان أساس العملة الموحدية الدينار الذهبى والدرهم الفضى وربما استعمل المثقال الذى له نفس وزن الدينار ، وكذلك الاوقية التى لها نفس وزن الدرهم[٧٣] .

وقد عرف الموحدون صرف العملة من نصف الدرهم والربع والثمن والخراريب . ويتضح لنا ذلك مما أورده عبد الواحد المراكشى فى حديثه عن وفادة صاحب بجاية — يحيى بن عبد العزيز الصنهاجى — الى مـــراكش يقول : « .. ان يحيى بن عبد العزيز كان فى مجلس عبد المؤمن يوما فذكروا تعذر الصرف فقال يحيى : أما أنا فعلى من هذا كلفة شديدة وعبيدى فى كل يوم يشكون الى ما يلقون من ذلك ويذكرون أن أكثر حوائجهم تتعذر لقلة الصرف . وذلك أن عاداتهم فى بلاد المغرب يضربون أنصاف الدرهم وأرباعها وأثمانها والخراريب فتستريح الناس فى هذا ، أو تجرى الصروف فى أيديهم فتتسع بيعاتهم . فلما قام يحيى بن العزيز من ذلك المجلس أتبعه عبد المؤمن ثلاثة أكياس صروف كلها وقال لرسوله : « قل له لا يتعـــذر عليك مطلوب ما دمت بحضرتنا ان شاء الله عز وجل »[٧٤] .

وكانت هذه العملة الموحدية سواء من الفضة الخالصـــة أو الذهب الابريز الطيب يتعامل بها الاندلس ، وكان الدرهم مربع الشكل تزن الاوقية

---

(٧٢) القلقشندى ، صبح الاعشى ، ح ٥ ، ص ١١٥ .
(٧٣) ابن صاحب الصلاه ، المن بالامامة ، ص ٦٥ .
(٧٤) المراكشى ، المعجب ، ص ١٢٤ .

منه سبعين درهما مع اختلاف الكتابات عليه[٧٥] .

وهناك وصف لاوجه الصرف فى الدولة الموحدية وبصفة خاصة فى عهد يعقوب المنصور ، ففى احدى احتفالاته بالنصر كان يقوم بتوزيع الاكسية أو الاعطيات أو ما يسمونها البركة الحافلة من الذهب والدراهم ، ويذكر ابن صاحب الصلاة أنه كان يقدم : « لكل فارس عشرون دينار والاعيان الموحدين وأشياخهم لكل واحد مائة دينار ، ولاشياخ العرب لكل واحد مائة دينار ، ولساير عساكر العرب عشرون دينار لكل فارس »[٧٦] .

والمقصود بهذا الدينار هو الدينار اليعقوبى حسب ما ذكره الاستاذ التازى محقق (كتاب المن) ، ومع صعوبة اعطاء معادلة مضبوطة لمقدار الدينار فانه قياسا على ما ذكره لويس ماسينون كان الدينار الموحدى يزن بالذهب ٤ر٧٢٩ جرام (أى بزيادة ٧٠٤ جرام على الدينار الشرعى)[٧٧] .

(ج) تجـارة الرقيـق :

وتأتى عبر المسالك تجارة الرقيق التى ظهرت كنتيجة متزايدة للايدى العاملة فى المناجم والصناعات المعمارية المتعددة . وكان حل مشكلة الايدى العاملة يتم عن طريق الاستكثار من الرقيق ، على الرغم من أن الاسـلام حرم الرق ودعا الى المساواة فى الحقوق بين المسلمين ولا فرق بين عربى

---

(٧٥) ابن الخطيب ، الاحاطة ، تحقيق عنان ، ص ١٤٣ .

(٧٦) ابن صاحب الصلاة ، المن بالامامة ، ص ٢٩٢ .

(٧٧) Luis Massignon; Le Maroc dans les Premières années du XVI — Siècle, Paris 1906 pp. 102—3.

أنظر أيضا : ابن صاحب الصلاة ، المصدر السابق ، ص ٥٢ وأيضـا : دائرة المعارف الاسلامية النشرة الفرنسية ١٩٦٢ ، فصـل دينـار ، ج. ميلز G. Miles ، ج٢ ، ص ٣٠٥—٣٠٦ . أنظر أيضا : محمد الصبحى ، انبـلاج الفجر عن المسائل العشر ، ط الرباط ١٩٤٠ ، ص ٩—١٨ .

على أعجمى الا بالتقوى ، وقضت القوانين الاسلامية فى غالبيتها على عتق الرقيق فتناقصت أعدادهم ، وكان اقتناء الرقيق يتم عن طريق الاغارة على البلدان المجاورة أو عن طريق الشراء • واشتهرت مناطق ثلاثة بجلب العبيد وتزويد المسلمين بما يحتاجونه منه :

١ ــ منطقة أوربا الشرقية والوسطى (الصقالبة) ومن أكبر تجارهم البنادقة الذين كانوا يصدرون أعداد كبيرة منهم الى العالم الاسلامى الشرقى والغربى[٧٨] •

٢ ــ بلاد الترك التى أمدت الدوله الاسلامية بالجنود والمرتزقة[٧٩] •

٣ ــ بلاد السودان أو الزنوج وهى المنطقة المدارية لحزام السافانا الافريقية • وكان عبيد تلك المنطقة مرغوبا فيهم لاتقانهم الاعمال المنزلية• ومناطقها القديمة مثل النوبة والحبشة ، وسواحل افريقيا الشرقية ، وحديثه مثل السودان • وأصبحت بلاد السودان المصدر الاول لتجارة الرقيق ابتداء من القرن ٤هـ •

وقد ازداد استخدام العالم الاسلامى للرقيق بعد التوسع التجارى المعتمد على أنواع العملات الذهبية بوجه خاص حتى أن استيراد العبيد لم يقتصر فقط على الامراء والاسرات الحاكمة أو الدولة ، بل تعداها الى الطبقات الاجتماعية الثرية خاصة التجار لما تحتاجه من عمال وحراس ، فأصبح العبيد القوة المنتجة الاساسية فى جميع الميادين الاقتصادية •

---

(٧٨) د. مختار العبادى ، الصقالبة فى أسبانيا وعلاقتهم بحركة الشعوبية، مدريد ١٩٥٣ ، ص ٨ــ١٠ •

(٧٩) د. مختار العبادى ، قيام دولة المماليك الاولى فى مصر والشام ، بيروت ، ١٩٦٩ ، ص ٣٤ــ٦١ •

ولاهمية هذه التجارة خصص لها أسواق فى المدن الاسلامية ، وعرفت هذه الاسواق باسم — سوق البركة — كما هو فى تونس • وقام عليها وسطاء كما سبق الذكر خاصة من الاوربيين النصارى واليهود • وتصدرت البندقية وتجارها النخاسة الاوربية ، التى تنقلها الى موانى شرق البحر المتوسط (٨٠) •

أما أهم مصادر الرقيق فى بلاد المغرب فمن أفريقيا السوداء ، وكانت تجارة الرقيق مربحة لا سيما اذا كان الرقيق قوى البنية سليم الحواس (٨١) • ويذكر الاصطخرى الرقيق السود فى جملة صادرات المغرب والاندلس الى الشرق الاسلامى : « والذى يقع من المغرب الخدم السود من بلاد السودان والخدم البيض من الاندلس والجوارى المثمنات ، تأخذ الجارية والخادم من غير صناعة على وجوهها بألف دينار وأكثر ، تقع منها اللبود المغربية والبغال للسرج والمرجان والعنبر والذهب والعسل والزيت والسفن والحرير والسمور » (٨٢) •

وقد راجت أسواق النخاسة رواجا تعبر عنه الدراسات الاحصائية لتجارة الرقيق حتى نهاية القرن ١٥م فوفقا لهذه الاحصاءات بلغ عدد الرقيق نحو ٩٠٠ ألف عبد (٨٣) ، وان اختلف فى تقدير عددهم ، ويسجل فيليب كورتين Philip D. Curtin عدد العبيد المصريين من أفريقيا الى أوربا فى الفترة من عام ١٤٥٨ الى ١٤٦٠ يتراوح ما بين ٧٠٠ الى ٨٠٠ عبد سنويا • ومن عام ١٤٥٠م الى ١٥٠٠م الى ٣٥ ألف عبد (٨٤) •

---

(٨٠) — R. Oliver, Ibid.

(٨١) — Philip D, Curtin: The Atlantic Slave Trade, London, 1969, pp. 16—19.

(٨٢) السفن هو جلد خشن غليظ كجلود التماسيح يكون على قوائد السيوف . أنظر : الاصطخرى ، المسالك والممالك ، ص ٣٧ .

(٨٣) — R.R. Kuczynski, Population Movements. Oxford, 1936, p. 12.

(٨٤) — Philip D. Curtin, Op. Cit., p. 17.

وقد حاول ملوك السودان عرقله تجـارة الرقيـق والتضـييق على النخاسين المغاربة الامر الذى دعا حكام المغرب الى توجيه لون من العتاب الى حكام السودان ، ويتمثل ذلك فى رسالة مؤرخة من الامير أبى الربيـع سليمان الموحدى جاء فيها : « نحن نتجاور بالاحسان ، وان تخـالفنا فى الاديان ، ونتفق على السيرة المرضيه ، ونتألف على الرفق بالرعية ، ومعلوم أن العدل من لوازم الملوك فى حكم السياسة الفاضلة ، والجور لا تعانيه الا النفوس الشريرة الجاهلة . وقد بلغنا احتباس مساكين التجار ومنعهم من التصرف فيما هم بصدده ، وتردد الجلابة الى البلد مفيد لسكانها ومعين على التمكين من استيطانها ، ولو شئنا لاحتبسنا من فى جهتنا من أهل تلك الناحية ، لكنا لا نستصوب فعله ، ولا ينبغى أن ننهى عن خلق ونأتى مثله والسـلام »(٨٥) .

(٣)

التنظيمات التجارية الموحدية والحفصية

اقتضت العلاقات الجارية القائمة بين الغـرب من ناحية والغـرب الاسلامى من ناحية أخرى وبينهما وبين المشرق الاسلامى بوجـه عام ، تنظيما لوجوه المعاملات المـالية والتجارية . ولذلك عرفت الثغور الموحدية شأنها فى ذلك شأن الثغور المشرقية الاسواق المسورة ، والفنادق التجارية (الوكالات) والدواوين الجمركية . ويمكننا أن نقف على الاطار التنظيمى الموحدى لوجوه المعاملات التجارية والمـالية والادارية المتصلة بحـركة التجارة داخل الاراضى التابعة لهم من خلال ما ورد فى الرسائل الموحدية التى سبق الاشارة اليها .

---

(٨٥) جنون ، النبوغ المغربى ، ج٢ ، ص ١٠٦ .

فهناك كتب الامان التى أصدرتها الدولة الموحـــدية من تونس والتى شجعت التجار على الوفود اليها والاشتغال بالتجارة فيها . ويتمثل ذلك فى نص احدى هذه الرسائل التى نطالع فيها : « ... من عثمان الترجمان فى تونس الى بانس ابن كرسى يعلمك أنه قد عز على كثير لم تكن حاضر حتا نخلص لك رحلك .. ولكن تجى أن أرات فما ترا الا خير ولا تفزع لا أنت ولا كل من بجى معك فان ما تروا الاخير . والســـلع رخيصة وكل ما تريد بعمل لك وكل من خلا من أصحابك فى تونس شىء فيجى يأخذه وما يمر لاحد شىء ، وان أراد سعير وقرسطان واكريبيسان المجى فيجوا فما يعمل معهم الاخير . وأن الشيخ أبو الحجاج وصل الى تونس وهو صاحب الديوان وما يعمل معكم ومع غيركم الا خير فلا تخاف من أحد »[٨٦] .

وأبرز الشخصيات المنظمة للحركة التجارية فى الثغور الوكيل التجارى، وتؤكد بعض الرسائل أن الوكيل كان يتولى أيضا حصر التجــار الاحياء والاموات منهم على السواء لمعرفة ما عليهم من ديون وما لهم وتعبر نصوص احدى الرسائل عن ذلك : « .. بحضور وكيل البينسانيين وهو قســوم فى مدينة تونس حيث قال : فنحب منك أن تفحص عن أصحابى من مات منهم ومن هو حى .. قد اتخذ عندى وما بقى لى عنده .. وما لكم كله موقوف ما أخذ منه أحد شيئا »[٨٧] .

ويقوم الوكيل، بالاضافة الى عمله المذكور بحل المشاكل التى غالبــا ما تحدث بين التجار الاوربيين والمغاربة من غش فى التعامل ، أو تهــرب

---

(٨٦) ميشيل أمارى ، مجموعة الرسائل ، رسالة رقم ١٦ ، ص ٥٣ـــ٥٤ وهى غير مؤرخة .

(٨٧) ميشيل أمارى ، المصدر السابق ، رســالـــة رقم ١٥ ، ص ٥٢. ورسالة رقم ١٠ ص ٣٦ـــ٣٧ . أنظر نفس المعنى فى : نجاة باشا ، التجارة فى المغرب الاسلامى ، ص ٥٣ . أنظر أيضا :

— R. Lopez, Op. Cit., p. 384—6.

الاوربيين من دفع أثمان ما يقومون بشرائه من التجار المغاربة ، أو بدفع مبلغ قليل فى الديوان لا يوازى قيمة ما اشتراه التجار . فهناك اشارات تحدد أوصاف هؤلاء التجار أمثال : « رجال جياد ، من خيار التجار » من أجل جذبهم لسداد ديونهم للتجار المغاربة عبر كتب مكتوبة موكلة من قبل هؤلاء التجار المسجلين أمثال : « فرسطان ، ففيان ، بلناط كرك ، وألبان »[٨٨] .

ومثل هذه الاعمال اقتضت أن يكون هؤلاء الوكلاء محل ثقة وأهل للامانة الموضوعة فيهم ، لكونهم الواسطة فى حل المشاكل المالية وسداد الديون واجادتهم أسلوب التحاور على أساس أنهم ليسوا فى حاجة الى وصية ولا زيادة فى التأكيد على أداء الامانة والاعتراف بالحق[٨٩] . وعلى حد قول الرسالة المشار اليها من قبل : « فما لكم موقوف على وجه الامانة لم يغير فيه شىء .. وعثمان المهدوى باكرس بادر اليه فى ثمن النحاس فانه مسافر الى الاسكندرية »[٩٠] .

وكما اقتضى حجم هذه المعاملات التجارية قيام الوكيل بوظيفته ، فان استكمال أعمال الوكيل اقتضت أيضا وجود شهود عدول معروفين للاطراف جميعا[٩١] . فضلا عن تراجمة معتمدين لهذه العلاقات ، وكما هو واضح من

---

(٨٨) ميشيل أمارى ، نفس المصدر ، رسالة رقم ١٩ ص ٦٠—٦٢ .
(٨٩) ميشيل أمارى ، نفس المصدر ، رسالة رقم ٢٠ ، ص ٦٣—٦٤
(٩٠) ميشيل أمارى ، نفس المصدر ، رسالة رقم ١٨ ، ص ٥٧—٥٩ . أنظر الملحق رقم ١٥
(٩١) من هؤلاء الشهود « محمد بن القاسمى الريعى ، أحمد بن عبد الواحد الرساطى ، عبد الكريم بن عبد المؤمن اللخمى ، حسن بن على الترجمان عثمان بن أبى بكر ، قاسم بن على ، سفيان بن هلال ، أحمد قطران ، وعبد الرحمن بن أبى الطاهى النميمى » . انظر : ميشيل أمارى ، نفس المصدر ، رسالة رقم ١٢ ، ص ٤٣—٤٤

نص الوثيقة السابقة فان الامر اقتضى أن يكون هؤلاء معروفين على أوسع نطاق من تونس غربا الى الاسكندرية شرقا . وواضح من التطور الذى طرأ على معنى الترجمة أن صاحبها قد صار له شأن لا يقل عن شأن الوكيل التجارى ، فبعد تولى الناصر محمد الشيخ أبو حفص امارة تونس ، ظهرت بجاية منفذا تجاريا هاما نافس تونس والاسكندرية فى نطاق حركة التبادل التجارى . وفى هذه المرحلة صار محظورا على التجار فى بلاد المغرب الا اذا كانوا مثبتين فى الديوان أو كما يذكرون « نترجم فى الديوان » . وبناء على هذه الترجمة كانت تكتب لهم عقود تبيح البيع والشراء ، بشرط أن تكون هذه العقود مشهود على صحتها ، وموافق عليها من المسئولين ، لانها تسمح لاصحابها فقط أن يدللوا على بضائعهم فى الحلقة التجارية ، ومن ثم الترويج للبضائع الاوربية والمشرقية على السواء ، مما شكل وجها آخر من وجوه حلقة التبادل التجارى فى هذه العلاقات التى لم تخل من الوسيط أو الدليل التجارى المشرقى الشامى والعراقى والمصرى والاوربى من جنوة والبندقية وبيزة وسردانية وقبرص والمغربى والتونسى والطنجى والتلمسانى والبجاوى . ويذكر فى أهمية وجود تلك الدلالة الموثقة : « .. من أحمد بن تميم الترجمان ببجاية الى لبنارت فليول الفرناج .. أن تكلم الاشياخ والاعيان أن يكتبوا كتابا للقايد أو السداد موفق بن عبد الله أن نكون كما جرت عوايدكم نترجم فى الديوان وندلل فى الحلقة »[٩٣] .

ولهذا السبب فاننا نلاحظ أنه عندما يتردد ذكر الموانى المشرقية المختلفة فى أحدى الرسائل الموحدية ، فان الامر لا يرد اعتباطا وانما يدل

---

(٩٢) عن الديوان وأصله المشرقى الفارسى ، فهى كلمة بمعنى دسوأى الجن ، ودان علامة الجمع : فالديوان هو جمع الجنون . ولا زالت كلمة ديوان بمعنى قمرق موجوده بتونس . أنظر : عثمان الكعاك ، العلاقة بين تونس وايران عبر التاريخ ، ص ١٣٦—١٣٧ . راجع : ميشيل أمارى ، نفس المصدر رسالة رقم ٢٥ ، وهى مؤرخة بتاريخ ٦٠٤ هـ / ١٢٠٧ م ، ص ٧٥—٧٧ .

دلالة واضحة على الوجود المترقى فى أكثر من وجه من وجوه حركة التجارة الموحدية . ونلمس ذلك فى رسالة موحدية أخرى جاء فيها : « .. أقلعنا من بيروت ومعهما بعض البضاعة ، وعبرا على قبرص واشتروا منها باقى بضاعتهم ودخلا الديار المصرية آمانين .. » . ورغم هذه المعاملة الحسنة الا أنهم يعلمون السلطات الحفصية بأنهم مظلومين ويطلبون الرحمة لاطلاق سراحهم وما هم الا عبيد هذه الدولة وداخلين فى طاعتها والرأى لهـا »[٩٣] .

وورود اسم قبرص فى هذه الرسالة له مغزى هام ، فاذا كانت بيزة قد تصدرت معظم الصلات التجارية فى العهد الاول من الدولة الموحدية المؤمنية ، فان جزيرتى قبرص وسردانية ستقومان بدور تجارى هام يرجع اليه أعظم الاثر فى تطور هذه الصلات التجارية ويكمل وحدة البحر المتوسط تجاريا — شرقه وغربه وشماله — ويؤكد العلاقات التجارية الودية بين تلك الجزر والمسلمين العبارة التالية الواردة فى احدى الرسائل : « .. أن يكون مثل غليا لم مركبس المجاور له فى سرادانية فانه لم يعامل المسلمين الابالخير والكرامة وبحسب ذلك أكرمناه فيمن يصل من عنده ويأتى من جهته ، فاعلموا ذلك واعلموا بحسبه »[٩٤] .

(ب) الفنادق :

جرت العادة فى المغرب الاسلامى فى العصر الموحدى والحفصى أن ينزل التجار ، سواء من الاوربيين أو المشارقة ، بضائعهم فى مستودعات

---

(٩٣) مبنسيل أمارى ، المصدر السابق ، رسالة رقم ٢٣ ، غير مؤرخة ، ص ٧١ .

(٩٤) ميشيل أمارى ، مجموعة الرسائل ، رسالة رقم ٢١ ، مؤرخة بتاريخ ٥٩٨ هـ ، ص ٦٥—٦٨ .

كبيرة عرفت بالفنادق ، وكانت البضائع تسجل فى دفاتر خاصة فيسهل تقدير المكوس المقررة عليها بنظام الدلالة السابق الاشارة اليه .

ولم يكن الهدف من انشاء الفنادق[٩٥] فى المغرب يختلف عنه فى المشرق، وكما هو معروف فان مصر قد تصدرت بلدان المشرق فى هذا المجال بسبب موقعها المتميز حسبما سبق الذكر .

ومن أهم فنادق مصر فى تلك الفترة (وتسمى بالخانات) الفندق الذى بناه تقى الدين عمر بن أخى صلاح الدين وقد عرف باسم « فندق الكارم » نسبة الى التجار الكارميين[٩٦] المقيمين فى الفسطاط المرسى الرئيسى آنذاك لسفن النيل . وكان سوق العطارين بالاسكندرية المقر الرئيسى لنشاط الكارميين التجارى فى هذا الثغر[٩٧] .

وشهدت الفترة ما بين عامى ٤٩٠ــ٦٩٠هـ / ١٠٩٦ــ١٢٩١م تزايد فى حركة التبادل التجارى بين مصر والشام مما اقتضى انشاء المزيد من الخانات المخصصة للتجار الشاميين والعراقيين القادمين الى مصر أو العائدين منها الى الشام[٩٨] .

وكان من الطبيعى أن يترتب على رواج حركة التجارة المشرقية ازدهار

---

(٩٥) ميشيل أمارى ، نفس المصدر ، رسالة رقم ٢٩ ، مؤرخة بتاريخ ٧١٣ هـ ، ص ٨٦ــ٩٧ وعن هذه الفنادق أنظر أيضا : د . سالم ، تاريخ الاسكندريه ، ص ٥٠٥ــ٥٠٦ . د . سالم : التخطيط ومظاهر العمران فى العصور الاسلامية الوسطى ، مجلة المجلة ، العدد ٩ ، ١٩٥٧ ، ص ٥٧ .

(٩٦) هم تجار مسلمون ، ظهروا لاول مرة فى القرن الخامس الهجرى ١١ م) وكانت لهم مكانة خاصة فى المجتمع التجارى الاسلامى ، وقد تميز الكارمية بالكفاءة والمجازفة فى المشروعات التجاربة الكبرى . أنظر : د . سالم تاريخ الاسكندرية ، ص ٥٠٦ــ٥٠٩ ، ٥١٩ــ٥٢٠ . (أنظر عنهم : عادل أبراهيم يعقوب ، التاريخ الاقتصادى للشرق الاوسط ، ص ٤١) .

(٩٧) د . عبد العزيز سالم ، تاريخ الاسكندرية ، ص ٥١٩ــ٥٢٠ .

(٩٨) عادل أبراهيم ، المرجع السابق ، ص ٤٧ .

عمرانى واقتصادى لمدينة مكة المكرمة وميناثها جدة لا سيما فى المناسبات الدينية ، ومن ثم دخل التجار المغاربة طرفا فى هذه الحركة التجاريةووجوه نشاطها الاقتصادى . كذلك تعددت الفنادق التجارية فى بلدان المغرب بحكم تعدد الاسواق التى عرفتها مراكزها الاقتصادية منذ القدم . فيذكر البكرى أسواق سوسة وأسعارها المعتدلة[٩٩] . وما كان فى تلك الاسواق من مؤسسات تجارية يزدحم فيها تجار البلد والتجار المتنقلون[١٠٠] . كما ذكر البكرى أيضا أسواق أودغست وتجارتها المزدهرة : « يجتمع فيها خلق عظيم فلا يكاد يسمع فيها المرء صاحبه لكثرة اللغط والغوغاء »[١٠١] .

ومن أسواق المغرب المعروفة سوق أغمات وريكة وكان ينعقد يوم الاحد وسوق أصيلة يوم الجمعة . كما كانت تقام فيها ثلاث أسواق موسمية احداها طيلة شهر رمضان والثانية فى العاشر من ذى الحجة أى يوم عيد الاضحى والثالثة يوم عاشوراء ، فيؤمها التجار من كافة أنحاء البلاد وينصبون خيامهم ويعرضون فيها بضائعهم الى أن أنشئت بالتدريج أبنية خاصة تتجمع فيها مؤسسات تجارية هامة[١٠٢] .فاذا بالاسواق نفسها تمثل مدينة صغيرة عتيقة مزودة بأبواب ومتاريس تغلق ليلا وتفتح نهارا ، ومما يذكر بهذه المناسبة أن الحفصيين كانوا لا يسمحون باقامة أسواق دباغة أو صباغة أو صناعة الحياكة الرائجة داخل المدينة تفاديا للروائح الكريهة التى تنبعث منها . فكانت أسواق الدباغين والصباغين تقام عادة خارج المدينة[١٠٣] .

---

(٩٩) البكرى ، المسالك ، ص ٣٤ .
(١٠٠) القلقشندى ، صبح الاعشى ، ج ٥ ، ص ١٠٣ .
(١٠١) البكرى ، المصدر السابق ، ص ١٥٨ .
(١٠٢) نجاة باشا ، المغرب الاسلامى ، ص ٥٤—٥٥ .
(١٠٣) محمد الهادى العامرى ، تاريخ المغرب العربى ، ص ١٧١ .

(جـ) العمـــــلات :

أما فيما يتعلق بالعملات المتداولة فى الاسواق فقد كان أساس النقد الموحدى الدرهم المربع الذى سكه المهدى محمد بن تومرت وكانت نقوشه على النحو التالى :

الوجه الاول :

الله ربنـــا

محمــد رســولنــا

المهــــدى امامنــا

وعلى الوجه الآخــر :

لا اله الا الله

الامــر كلــه لله

لا قـــوة الا بالله(١٠٤) .

ويأتى عبد المؤمن بن على خليفة المهدى ليغير من الدرهم الفضى الى الدينار الذهبى ، ومن الشكل المربع الى المستدير ، وان لم يلغ التربيــع نهائيا(١٠٥) . وكان نقوش الدينار على النحو التالى :

الوجه الاول :

فى حافة الدائرة : أبو محمد عبد المؤمن بن على أمير المؤمنين .

وفى داخل المربع الصغير : المهدى امام الامة الاسلامية بأمر الله .

وفى داخل المربع الكبير على الحافة العليا والسفلى : اسم المدينة .

---

(١٠٤) ملحق رقم ١٨ .

— Rachıd Bourouiba; Abd El Mu'min, p. 77—9.

(١٠٥) د . حسن حسنى عبد الوهاب ، النقود العربية فى تونس ، تونس ، ١٩٥٨ ، ص ٣٥ .

وعلى الوجه الآخـــر :

فى حافة الدائرة : باسم الله الرحمن الرحيم ، صلى الله على محمـــد وعلى آله وسلم تسليما •

وفى داخل المربع الصغير : لا الاه الا الله محمد رسول الله •

وفى داخل المربع الكبير على الحافة العليا والسفلى : اسم المدينة(١٠٦)

واقتدت الدولة الحفصية منذ البـــداية بسنن الموحـــدين فى ســـك مسكوكاتهم شكلا وكتابة ولم يشذ عنها الا أواخر أمرائها اذ أنهم قـــلدوا — آخر القرن العاشر الهجرى — نقود الاتراك العثمانيين(١٠٧) •

وجاءت نقوش الدينار الحفصى على عهد أبو زكريا يحيى على النحو التـــالى :

الوجه الاول :

الطوق : الامير الاجل — أبو زكريا يحيى — ابن أبى محمـــد — ابن أبى حفص •

الوسط : المهدى امام

---

(١٠٦) أنظر الملحق رقم ١٨ وأنظر :

— Luis Massignon; Le Maroc, p. 102—3

وراجع ايضا ابن صاحب الصلاه ، المن بالامامة ، ص ٢٩٢ . محمـــد الصبيحى ، انبلاج الفجر ، ص ٩—١٨ . وأنظر ايضا :

— Rachid Bourouiba, Abd El-Mu'min pp. 77—97.

وأنظر أيضا لنفس المؤلف :

— Six Dinnars Almohades Trouvés a La Qalà des Bani H'ammâd. Bulletin d'Archéalogie Algérienne. Tom II, pp. 271—291.

وأيضـــا :

— Monnaies et Bijoux Trouvés a La Qalà des Bani H'ammâd. Actes du II' Congrès d'Etudes Nord-Africaines, 1970, pp. 67—77.

(١٠٧) د . حسن حسنى ، النقود العربية فى تونس ، ص ٣٥ •

الامـــة القـــائم
بأمـــر الله
والوجه الآخـــر :

الطوق : باسم الله الرحمن الرحيم — صلى الله على محمد — وعلى آله .. وسلم تسليما

الوسط : لا اله الا
الله محمـــــد
رســـــول الله

ورغم استدارة الدينار فان الكتابة الطوقية ، حشرت فى مربعات تشبه كوشات العقود ، ولم تذكر التاريخ ، وتذكر أحيانا أسماء المدن[١٠٨] .

ولمـــا وصلت بيعة مـــكة الى المستنصر الحفصى فى ســـنة ٦٥٧هـ — ١٢٥٨م نراه يرسم على ديناره المسكوك فى تونس ما يلى :

الوجه الاول :

الطـــــوق :

المؤيد — بنصر — الله — المنصور — بفضل الله — أمير المؤنين .

الوســط :

أبو عبد الله محمـــد .
بن أمير المـــؤمنين .
تونس .

والوجه الآخـــر :

الطـــوق :

---

(١٠٨) د . حسن حسنى ، نفسه ، ص ١٤٠—١٤١ .

بسم الله الرحمن الرحيم — صلى الله على سيدنا محمد — لا اله الا الله — محمد رسول الله .

الوسـط :

المهدى خليفة .

الله الشـكر لله .

والحول والقوة بالله(١٠٩) .

وقد ظهرت فى القرنين السادس والسابع للهجرة مشكلة أمام المدن التجارية الاوربية تخص قيمه الدينار لما يعترضـه من ارتفاع مستمر بالمقارنه بالعملات الاخرى(١١٠) . وأمام تلك المشكلة حاولت الدولة ضرب أنواع أخرى من العملات، منها المزيف أو ضرب أنواع غير جيدة من العملات أثارت ثائرة الناس فتراجعت أمامها السلطات ، وهذا ما حدث فى تونس عام ٦٦٠هـ — ١٢٦٢م عندما ضربت الحناديس أى الفلوس النحاس التى ألغت فى شوال من نفس السنة(١١١) .

---

(١٠٩) د . حسن حسنى ، النقود العربية ، ص ١٤٣ .

(١١٠) المعروف أن لفظ Mancus الذى أطلق على العملة الذهبية القديمة المتداولة فى التعاملات الايطاليه والفرنسيه والاسبانيـة تعنى العملة بصفة عامة والدينار العربى بصفة خاصة . وقد ظل تجار المسلمين يتعاملون بالدينار الذهبى رغم اختلاف أوزانه حتى العهد المرابطى ، وقد أدى التـزام المسلمين فى معاملاتهم التجارية بالدينار الى اقدام الدول التجارية الاوربية منذ بداية القرن ١١ م (٥ هـ) على سك عملات ذهبية فى اسبانيا المسيحية . فكان هناك الدينار القشتالى والليونى والبرتغالى . ثم أنتشر نظام العملات الذهبية من اسبانيا الى جنوب ايطاليا وصقلية . أنظر :

— Gabriel Le Bras, C.E.H. of E., p. 586—589.

(١١١) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٦٦٧ — ٦٦٨ . وعن هذه الحنادبس يقول د . حسن حسنى : « واستحدث السلطـان (المستنصر بالله الاول) سكة من النحاس مقدرة على قيمته من الفضة حاكى بها سكة الفلوس بالمشرق ، تسهيلا على الناس فى المعاملات .. ولما لحـق سكة الفضة من غش اليهود المتناولين لصرفها وصوغها . وسمى سكته التى

وأدى نقص العملة الذهبية (كما حدث فى سنة ٥٧٧هـ — ١١٨١م) الى ظهور تغييرات متكررة فى النظام النقدى [١١٢] ، لذلك ، كان الالتجاء الى العملات الاجنبية التى تعوض الدينار الاسلامى . فظهرت فى عام ٦٥٠هـ — ١٢٥٢م فى جنوة العملة الجنوية المذهبة ، وفى نفس السنة ظهـــر الفلورين الفلورنسى ، وكان وزنهما ٣٫٥٠ جرام وهما يعتــبران أكثر وزنا من وزن الدينار الموحدى الذى كان يزن ٢٫٣٢ جرام بالمقارنة بالدينـــار المرابطى الذى كان يزن ٣٫٨٨ جرام ، وكلها من الذهب الخالص ، هذا بالاضافة الى الدوكا البندقى والبيزنت البرشلونى [١١٣] .

وكان انخفاض قيمة الدينار منذ القرن ٤هـ (١٠م) واختلاف وزنه وعياره بحسبه المكان والزمان سببا فى استخـــدام العمـــلة الجنوية بكثرة خاصة فى شرق البحر المتوسط وغربه . والى جانب الدينار ظهـــر الدرهم

استحدثها (بالحندوس) بمعنى السوداء . ثم أفسدها الناس بالتدليس وضربها أهل الريب ناقصة فى الوزن ، وفشا فيها الفساد ، وأشتد السلطان فى العقوبة عليها ، فقطع وقتل ، وصارت ريبة لمن يتناولها ، وأعلن الناس النكير فى شأنها وتنادوا بالسلطان فى قطعها ، وكثر الخوض فى ذلك ووقعت الفتنة ، فأزال السلطان تلك السكة وعفا عنها . النقود العربية فى تونس ، ص ٣٧ .

(١١٢) دائرة المعارف الاسلامية ، النشرة الفرنسية ، فصل سكة ، ج ٤ ، ص ٤٤١ . أنظر أيضا :

— E.Strauss; Prix et Salaires à L'epoque mamlouke, etude sur L'etèt Economique de L'Egypte et de la Syrie à la fin du Moyen Age.

فى مجله الدراسات الاسلامية ، باريس ١٩٤٩ ، ص ٥٤

(١١٣) — Gabriel Le Bras; Op. Cit., p. 590—592

والدوكا عملة ذهبية استخدمت فى معظم أوربا ، قيمتها حـــوالى ٣ شلنات وأستخدمت فى عهد الدوج وندولو فى البندقية الدوكات الذهبية وكانت تعادل ٩ شلنات . أنظر :

— New English Dictionary, Vol III, p. 699.

والبيزنت عملة أسبانية فضية .

الموحدى وكان وزنه فى بداية القرن ٥هـ (١١م) ٥ر١ جرام ، وهو أقل بكثير عن مثيله المرابطى الذى كان يزن ٢ جرام[١١٤] .

واتصالا بهذه المشكلة ، فقد وجهت الى اليهود منذ منتصف القـــرن ٧هـ (١٣م) التهمة بادخال الخلل فى الدورة النقدية لمــا كانوا يقومون به من صهر نقـــود الفضة[١١٥] .

ويؤكد الاستاذ برنشفيك على الدور الهام الذى لعبه اليهود فى توثيق علاقات المغرب الاسلامى بالمشرق عبر أوربا من خـــلال تلك الوثائق التى سجلت فيما سجله أن المركبين سان جيل وسان فـــرنسوا شحنتا بمختلف أنواع البضائع وكانت نسبة كبيرة منها لحساب بعض اليهود وكانوا كسائر التجار المرسلين يصدرون الى افريقية عملة الفضة والجلود والحرير وعلى الخصوص عود القرنفل والزعفران[١١٦] .

---

(١١٤) دائره المعارف الاسلامية ، فصل درهم ، ميلز ، ج ٢ ، ص ٣٢٨— ٣٢٩ وانظر أيضا :

— Babriel Le Bras, Op. Cit., p. 298.

(١١٥) عن دورهم فى الحياة التجارية وتقربهم للسلطة الحفصية ، انظر : ميشيل أمارى ، رسالة رقم ٢٨ ، ص ٨٣—٨٥ . ملحق رقم ١٦ وأنظر أيضا :

— Brunschvig; La Berberie, Tom I,

(١١٦) أعتمدت الدولة الحفصية أيضا فى دخلها هذا على الجبايةالداخلية خاصه من الارياف والبدو على يد وزارة خاصة تعرف باسم وزارة العمـــود ، أنظر ، العامرى ، تاريخ المغرب ، ص ٢٠—٢٢ ، ١٧٣—١٧٤ . وغالبا ماكانت هذه الضرائب تثير مشاكل بين الحكومة والقضاه والمكاسين ، مثل ما حدث فى عهد السلطان أبو فارس عبد العزيز ، على يد قاضى القيروان أبو عبد الله بن نعيب عندما شكا اليه القيروانيين من ظلم المكاس بسبب فداحة المكس حيث قال : « ليس فى الشريعة مكس » وضرب المكاس وطيف به فى شوارع المدينة ، وبرفع الامر الى السلطان الحفصى أمر بعزل القاضى وقال : « هذا لا يصـــلح للولاية » . فأخذت الدولة تدابير أخرى لحل تلك المشاكل حيث أمر السلطان نفسه باسقاط ضريبة المكس من الاسواق التالى ذكرها ومقدار مكسها :

ولم يكن غريبا على الدولة الحفصية التى كان النشاط التجارى بهـا يمثل جزءا كبيرا من دخلها حتىأنها خصصت له ادارة خاصة تعرف بالادارة القمرقية المعتمدة فى ميزانيتها على الدخول الوفيرة الناتجة من التجـارة والقرصنة • فكانت تعمل على تشـجيع التجـارة ، وتعـفى الحبوب من الضريبة ، وتمنح التجار الاجانب حقوق التصـدير للبضـائع ، معفاة من الضرائب ان كانت بضائعهم الى تونس تتساوى فيها قيمة الواردات مـع قيمة الصادرات • أما اذا زادت قيمة الصادرات على الواردات فتكون نسبة الضريبة ٥٪ ، وتعفى هذه الادارة الصفقات التى تعقد داخليا مع الاجانب من الضرائب • وكانت تشجع البضائع المحلية لتنشيط حركة الانتاج ، وتمنح تسهيلات كبيرة فى تصدير بضائعها ذات القيمة العالية خارجيا ، حتى أن دخل القمرقية فى العهد الحفصى كان يقدر سنويا بنحو ١٧٠ ألف دينار • وهو وان كان فيه مبالغة الا أنه يسجل مدى أهمية هذه الادارة وانتعاش التجارة بتونس(١١٧) •

— سوق الرهادنه — ٣ آلاف دينار ذهبا كل سنة .
— كل من أشترى شيئا من أنواع الامتعة واللباس يغرم نصف عشـر الدينـار .
— رحبة الطعام = ٥ آلاف دينار — رحبة الماشية = ١٠ آلاف دينار
— رحبة الزيتون = ٥ آلاف دينار — رحبة العطارين = ١٥٠ الف دينـار
— فندق الادام = ٥٠ ألف دينار — فندق الخضر = ٣ آلاف دينار .
— فندق الفحم = ألف دينار — فندق الملح = ١٫٥٠٠ الف دينار .
— مجبى الاعمدة = الف دينار — سوق القشاشين = ٢٠٠ دينار .
دار الشغل = ٣ آلاف دينار — رزمة الصابون ٦ آلاف دينار .
— فندق البياض = ١ الف دينار — سوق الصفارين = ٥٠ دينار .
— وعلى الطرب والمطربين ومنهم العزافين = ٥٠ دينار . وكـذلك المخنثين فى الحفلات والفخارين وحتى الحانات لبيع الخمر .
أنظر :

— Brunschvig, Ibid, Tom II, p. 239.

(١١٧) — Brunschvig, Op. Cit., p. 241.

ولمعرفة قدر النصاب الشرعى للمكاييل فى القطر التونسى ، اعتنى الحفصيون باصلاح المكاييل ، فاعتمدوا الوسق الشرعى فى قدره كالقفيز التونسى • كما أنهم أول من طبع الدينار والدرهم الذهبى التونسى الجديد المعروف بالدينار التونسى • وهناك اختلاف كبير فى قيمته حسب الفترات التاريخية ، وأهميه استخدامه ، كما أوجدوا نصف الدينار والدرهم الناصرى[١١٨] • وضربت أيضا فى عهد الحفصيين نقود النحاس لاول مرة وكانت تعرف باسم الحندوس كما سبق الذكر •

وكان المكس يقدر عموما فى النظام المالى الموحدى بنسبة العشر فى الشريعة الاسلامية • غير أن هذا العشر قد تراوح فى مقداره الفعلى بين ٨٪ و ٢٠٪ من ثمن البيع • ويرجع الاختلاف فى هذا التقدير الى اختلاف أنواع البضاعة وعقيدة التاجر ومدى قربه وبعده من السلطة • وقد توزع هذا القدر بنسبة ١٠٪ للاجانب ، ٥٪ للذمى ، ٥ر٢٪ للتاجر المسلم • والتزمت الدولة حسبما يتضح من الرسائل بهذه النسبة « وأموالهم فى جميع بلاد الموحدين لا نائبه تنوبهم ولا ضريبة تلزمهم سوى العشر المعتاد »[١١٩] • « وعليهم أن يؤدوا ما جرت العادة بأخذه منهم من العشر على العادات المعروفة والشرايط المعلومة دون زيادة عليهم •• »[١٢٠] •

---

(١١٨) ويضيف د • حسن حسنى عبد الوهاب بأنهم قاموا بتجزئة الناصرى الى (خمسى) وهو خمسة أسداس الدرهم ، والى (خروبة) وهى أربعة أسداس الدرهم والى نصف ناصرى — يعنى — 6/1 والى قفصى وهو (القيراط) يعنى سدس الدرهم ، النقود العربية فى تونس ، ص ٣٧ •

(١١٩) ميشيل أمارى ، المصدر السابق ، رسالة رقم ٢ ، غير مؤرخة من عهد أبى يعقوب يوسف ، ص ٩ •

(١٢٠) ميشيل أمارى ، المصدر السابق ، رسالة رقم ٣ مؤرخة بتاريخ ١١٢٨ م ، ص ١٣ •

(د) المعاهدات التجارية وموادها :

هذا وقد أبرمت الدولة عددا من الاتفاقيات التجارية والمعاهدات ، أو تبادلت بعض الرسائل ، حسب الظروف السياسيه والاقتصادية مع بعض البلدان والتى تمنحها امتيازات خاصة تصل أحيانا الى حد الاعفاء من الضريبة المعروفة بالقبضة ، وقد ورد ذلك فى رساله ترجع الى عهد عبد المؤمن حررت على يد عبد الله بن عبد العزيز بن عبد الحق بن أبى خراسان الى أرك بينسة · « •• وأما أمر القبضة التى تؤخذ من التجار وجرت به العادة فقد هوناها وأمرنا بلطفها ورتسحنا لخدامنا أن كل تاجر من بلدكم متى وصل بسلعة ولم يتفق له معها أنه معاف فيها مرفوع عنه الواجب واللازم فى آمرها يعيدها الى بلده على غرضة مراده •• » • ونؤكد نفس الرسالة على اعفاء بعض المواد كالخشب : « •• وقد تركنا لتجاركم جميع ما يخرجون من الشب وأعفيناهم من الواجب فيه •• »[١٣١] • وهناك نظام آخر للاعفاء اذا تم البيع فيما بينهم على ظهر المركب أو عند وصول المراكب الى احدى الموانىء المسموح بالرسو فيها ولم تنشأ المركب تفريغ أو بيع بضائعها فيسقط عنها العشر[١٣٢] •

وهناك من النصوص الواردة فى معاهدة أبرمت بين الدولة الحفصية وبيزة ما يشير الى أن أبى فارس عبد العزيز الحفصى وقع فى عام ٨٠٠هـ — ١٣٩٧م بينه وبين تجار بيزة معاهدة طويلة الاجل تقضى باعفاء صادراتهم من الذهب والفضة والاحجار الكريمة من أداء الضريبه المقررة ، كما أعفيت من نفس الضريبة صادرات افريقية من الرصاص ، مما أدى الى انخفاض

---

(١٣١) ميشيل أمارى ، المصدر السابق ، رسالة رقم ١ ، مؤرخة فى شهر جمادى الاولى سنة ٥٥٢ هـ ، فى عهد عبد المؤمن ، ص ١—٦ •

(١٣٢) ميشيل أمارى ، المصدر السابق ، رسالة رقم ٥ ، ص ٢١ •

مقدار الذهب الداخل الى افريقية[١٢٣] •

وقد توفرت لدى مجموعة من المراسلات التجارية المتبادلة بين الحفصيين وبيزة ذيلت رسالتى بنصوص بعضها لاهميتها المباشرة بالموضوع • وتتضمن هذه المراسلات عقودا أساسية — تجارية :

— من أبى يحيى زكريا الى المسؤولين فى بيزة ينهى الى علمهم عقد صلح لمدة ١٠ أعوام شمسية متوالية من جمادى الاولى سنة ٧١٣هـ — ١٤ سبتمبر ١٣١٣م على شروط وأسس (الرسالة رقم ٢٩ — طويلة تمتد من ص ٨٦ — ٩٧) •

— عقد تجارى من عهد أحمد بن تفراجين لمدة ١٠ أعوام شمسية من ١١ ربيع التانى ٧٥٤هـ — ١٦ مايو ١٣٥٣م على أسس وشروط (الرسالة رقم ٣٠ — طويلة أيضا تمتد من ص ٩٨ — ١١١) •

— عقد صلح وتفويض بالعمل المشروط طول حياة السلطان — أبى فارس عبد العزيز — من تونس فى ربيع الاول ٨٠٠هـ — ١٤ ديسمبر ١٣٩٧م (الرسالة رقم ٣٤ ، من ص ١٢٣ — ١٣٦) •

وبين هذه العقود تشابه واضح فى الاسس والشروط كأساس للعلاقات التجارية والدينية والاجتماعية ، وتقدير مدى العقوبة على المخالفات لتلك الشروط[١٢٤] •

وللاسف لم يرد ذكر المشرق الاسلامى فى هذه المراسلات الا فى اشارات نادرة • ومع ذلك ، فان الحركة التجارية بين المغرب والمشرق

---

(١٢٣) أنظر الملحق رقم ، ١٥

(١٢٤) أنظر الملحق رقم ١٦ .

الاسلاميين فى العصر الموحدى تبدو أكثر وضوحا من اسـتعراض أنواع السلع الرئيسية المتبادلة .

فأسواق الحبوب التى راجت داخليا بين الحواضر والمدن تركزت فى ثلاثة تيارات : أولا : من مصر نحو ليبيا وبرقة غربا . وخليج عدن والخليج العربى شرقا ومنها الى بغداد ، ثانيا : بلاد الشـام ومنها نحو الجـزيرة العربية ثم الى بغداد ، ثالثا : شمال أفريقيا كله من القـيروان الى باجـة وتونس حيث يخرج حوالى ألف حمل جمل ، وقمح المغرب نحو الاندلس وصقلية ، وبالطريق البرى فى اتجاه سجلماسة جنوبا نحو الصحراء .

ويعتبر الزيتون من أهم الصادرات الافريقية خاصة فى تونس . وهو من أهم المحاصيل الزراعية فى حوض البحر المتوسط وله دور اقتصادى هام فى حياة شعوب تلك المنطقة . ويزرع فى مناطق الكثافة السكانية فى تونس وصفاقص التى تعتبر من أهم الموانىء لتصـدير زيت الزيتـون الى مصر والمغرب وصقلية بحيث كانت السفن تقصد صفاقص « فترسى فى أوحالها عند الجزر ثم تصلها وقت المد حاملة اليها التجار والاموال من كل جهة قصد ابتياع زيتها »[١٢٥] . وتعتمد على هذا الزيت صناعـة الصـابون وزيت التجميل وأهم مراكزه ليبيا وافريقية ومنها كانت تسوق فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط .

ومع فترات الاضطرابات فى تونس ، حلت البندقية محلها فى نقـل الزيت الى مصر وجزيرة كريت ، وذكر شاهد عيان فى رحلته أن « السفن الايطالية كانت تحمل الزيت من جزيرة جربة الى الاسـكندرية »[١٢٦] . ولتوافر انتاج تونس من الزيتون انخفض سعره فقد ذكر ابن حـوقل :

---

(١٢٥) نجاة باشا ، التجارة فى المغرب الاسلامى ، ص ٤٥ .

(١٢٦) Brunschvig, Op. Cit., Tom II, p. 262. —

« كان يباع ستون وسبعون قفيزا بدينارا »[١٢٧] . ولا تزال زراعة الزيتون وزيته تلقى من العناية والرعاية بهذا الاقليم أكثر من أى اقليم فى البحر المتوسط .

ويلى الزيتون فى مجموع الثروة الزراعية المصدرة الكروم الطازج أو المجفف وأجود أنواعه بدمشق وصعيد مصر ومالقة فى الاندلس ، وكانت معاصره منتشرة فى مناطق كثيرة من المغرب ومصر ورغم تحريم الاسلام للخمور ، والتى كانت تصدر من الساحل الافريقى ودمياط الى أوربا[١٢٨] .

وتعتبر التمور من الحاصلات الزراعية الهامة التى تداولتها التجارة البحرية ، فهو ذات منبت عراقى ، وأدخل مع الفتوح الاسلامية الى الشام ومصر والجنوب التونسى حتى الصحراء المغربية ومنها الى الاندلس . وتعتبر بلاد الجريد من أهم مناطق تصديره ، ويذكر البكرى فى تمر توزر : « وانتاجها من التمور أخصب الانتاج بافريقية ويخرج منها كل يوم ألف حمل الى كافه الجهات »[١٢٩] . ولكثرة الانتاج كان يباع أحيانا وقر الجمل بدرهمين « وفى وادى درعة يكون التمر رخيصا جدا ، حتى ربما بيع فى بعض السنين الجيدة حمل الجمل بنصف دينار »[١٣٠] .

ولعب التمر أيضا دورا هاما فى التجارة الصحراوية حيث كان يحمل

---

(١٢٧) ابن حوقل ، صورة الارض ، ص ٤٧ .

(١٢٨) ابن مماتى ، كتاب قوانين الدواوين ، جمعه وحققه الدكتور عزيز سوريال عطية ، القاهرة ، ١٩٤٣ ، ص ٢٢١ . وأنظر أيضا : القلقشندى صبح الاعشى ، ج ٣ ، ص ٣٨٦ . وراجع أيضا : د . محمد عبد الهادى شعيرة الاسكندرية ، من الفتح العربى الى نهاية العصر الفاطمى ، مقال فى الكتاب الذى أصدرته غرفة الاسكندرية التجارية ١٩٤٩ ، ص ٩٠ . د . سالم ، تاريخ الاسكندرية ، ص ٢٩٦ .

(١٢٩) البكرى ، المسالك والممالك ، ص ١١٨ .

(١٣٠) الادريسى ، نزهة المشتاق ، ص ٢١ ، آدم ميتز ، الحضارة الاسلامية ج ٢ ، ص ٣٠٣ .

فى القوافل التى تسير من شمال افريقيا الى بلاد السودان عبر الصحراء ، وكانوا يعودون بسبى العبيد والذهب ، وكان أكبر مركز لتجارة التمر مدينة سجلماسة الواقعة فى جنوب مراكش(١٣١) .

كان الشمع من المواد التى تصدرها افريقية من تونس بكثرة ، ويليه الملح الذى كان يصدر بكثرة الى السودان وأوربا ، واحتكرت البندقية تجارة الملح بدليل ما صرح به أحد نوابها بتونس سنة ٧٩٣هـ — ١٣٩١م مخاطبا السلطان أبى العباس الحفصى قائلا : « ان جمهوريتنا لا تريد أن تستورد من بلادكم غير الحبوب والملح »(١٣٢) . وقد التزمت البندقية عن طريق الاتفاقات بتوريد الرصاص من تونس مع الاعفاء من الضرائب .

ونضيف الى تلك المنتجات الزراعية والصناعية التى كانت من السلع الرئيسية للتجارة بين المغرب الاسلامى والمشرق تجارة التوابل والشب . وكانت تستورد من الشرق عبر مصر وتحفظ فى الفنادق قبل تصديرها الى أوربا ، وكانت لها سوق نافقة فى الغرب الاوربى فهى تصلح للطعام ولصناعة العطور والصباغة والصيدلة وفى مقدمتها حب الفلفل والزنجبيل والقرفة (الدارصينى) وهى مواد لا غناء عنها . وكان حب الفلفل (أو كما يسمونه المغاربة ابزار) يستخدم لشدة الاقبال عليه كعملة فى المفاوضات . ومن بين السلع الاسلامية المطلوبة الزعفران والنيلة ويستوردان من الهند والعراق والشام وبلاد الجريد . واستعمل المغرب الاسلامى — القرمز وكان يصدر منها الى الاندلس(١٣٣) .

---

(١٣١) المقدسى ، احسن التقاسيم ، ص ٢٣٠ . الادريسى ، نزهة المشتاق ، ص ٤ ، ٦ ، ٢١ .

(١٣٢) Brunschvig, Op. Cit., p. 203. —

(١٣٣) نجاه باشا ، المرجع السابق ، ص ٦٥ . ولبيان مدى أهمية تجارة الفلفل يذكر السفير البندقى للسلطان الغورى رعاية التجار البنادقة المقيمين فى دمشق بسبب ما يتعرضون له من مظالم من نواب وأمراء الشام ويقول :

ومن مواد تجارة المغرب مع المشرق سمك التن ويصاد فى سواحل المغرب واسبانيا المقابل لها ، وخصوصا فى مدينة سبتة حيث يجفف ويباع. كذلك كان الطين — والمقصود به تين — يحمل الى مختلف البلاد دانيها وقاصيها . ويعتبر من أغلى الهدايا حيث كان يتحف به الملوك والاشراف الكبار ، وكان الرطل منه يباع فى مصر والمغرب بدينار . وكذلك كان يصدر من المغرب الى المشرق بصفة خاصة من طليطلة الى مصر والشام والعراق[١٣٤] .

وكان الاوربيون يتجرون فى ملح النوشادر كمادة كيماوية هامة مصدرها العراق وينتقل عبر الشام ومصر وصقلية ، ثم الزئبق الذى يكثر وجوده فى المغرب ، ويتفر فى مدينة قرطبة بالاندلس[١٣٥] . ويزيد الدمشقى . « .. ان أحسن الزئبق ما جلب من المعدن الذى بقرب طليطلة »[١٣٦] .

يضاف الى ذلك التسب ، الذى أعفى بسبب أهميته من الضرائب . وكان المرجان من المواد الهامة فى تجارة غرب المتوسط الى المشرق ، وكان يصاد من سبتة وما حولها ، وهو صعب الاستخراج ، ولكن ما يستخرج ذو قيمة مادية تساوى من العشرة دراهم الى العشرة آلاف درهم[١٣٧] .

« .. ومن ذلك فرض الجمارك على نجارنا شراء ٥٣٠ حملا من الفلفل بسعر مرتفع علاوة على حمولتنا العادية وهذا اجراء لا يمكن احتماله لانه سبب لنا خسارة فادحة لتجارتنا » . أنظر ، نعيم زكى فهمى سليمان ، طرق التجارة الدوليه ومحطاتها بين الشرق والغرب أواخر العصور الوسطى ، رسالة دكتوراه ، جامعة القاهرة ١٩٦٨ ، ملحق رقم ٦ ، ص ١٨ — ١٩ من الملاحق (تعليمات الى السفير بندرينو سانودو — سفير البندقية الى السلطان الاشرف قانصوه الغورى ، ٢٥ أكتوبر ١٥٠٢ البندقية) .

(١٣٤) آدم ميتز ، المصدر السابق ، ص ٣٠٧ — ٣١١ .

(١٣٥) الادريسى ، المصدر السابق ، ص ٢١٢—٢١٣ .

(١٣٦) الدمشقى ، محاسن التجارة ، القاهرة ، ١٣١٨ هـ ، ص ٢٩ .

(١٣٧) الادريسى ، المصدر السابق ، ص ١١٦ .

وكانت السفن الاوربية تصل الى ميناء الاسكندرية ودمياط محملة بالفراء والجوخ وتعود موسقة بالبخور والخزف والاقمشة[١٣٨] • ومن المواد الهامة الخشب اللازم لصناعة السفن وأعمال النجارة والاخشاب كمادة تجارية هامة كانت تتجمع فى مدينة الاسكندرية خاصة خشب الصنوبر ومنها توزع الى مصر والشام وصقلية والثغور المتوسطية • ومن أفضل أنواع الاخشاب المستوردة الاخشاب الصنوبرية التى كانت تستقطع من غابات فى طرطوشة وقصر أبى دانس بالاندلس ، ولخشب الصنوبر حمرة خاصة فى لونه ومن جودته لا يتأثر بالسوس[١٣٩] • وقد اختصت الدولة الموحدية فى استيراده للمصالح الهامة مثل البحرية وكان الفائض يعرض للبيع بسعر تحدده الدولة داخليا •

وكان حظ العالم الاسلامى من المعادن قليلا[١٤٠] ، ولضرورته فى تنقية المياه وغير ذلك من الاحتياجات اهتمت الدولة باستيراده سواء كمادة خام أو مطروقا ، وكانت أهم مصادره الهند فى الشرق كما كان يتوفر فى اسبانيا وبعض الاقطار الاوربية • ومن أشهر المصنوعات الفولاذية السيوف الهندية والسيوف الافرنجية ، التى كانت ترد الى العالم الاسلامى عن طريق الاندلس وأوربا[١٤١] •

ويصدر زيت الزيتون من المهدية الى جميع بلاد المشرق ، ومن

---

(١٣٨) د . عبد العزيز سالم ، تاريخ الاسكندرية ، ص ٥١٦ — ٥١٧ .

(١٣٩) الحميرى ، صفة جزيرة الاندلس ، ص ٩٨ ، ١١١ ، ١١٥ ، ١٢٤ ، ١٤٥ ، ١٦١ ، ١٨١ . د . عبد العزيز سالم ، تاريخ البحرية الاسلامية فى المغرب والاندلس ص ٥٧ — ٥٨ .

(١٤٠) د . عبد العزيز سالم ، المرجع السابق ، ص ٥٩ .

(١٤١) البكرى ، المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ، الجزائر ١٩١١ ، ص ٢٠ .

صفاقص وقابس وبرقة[١٤٢] . الفستق من قفصة الى مصر والاندلس وسجلماسة ؛ والجوز من سطيف الى مصر . الثياب والعمائم السوسية ، الثياب الحريرية من قابس والصوفية من أغمات وريكة[١٤٣] . وتعود المراكب من الاسكندرية والمشرق محملة بجلود النمور والبقر الواردة من برقة [١٤٤] . وكان يحمل من طرابلس الى مصر الكتان والعسل والقطران والسمن[١٤٥] . يضاف الى ذلك المراكب المحملة بالزيت من اشبيلية نحو سلا والاسكندرية ثم المشرق . ومن جيان الزعفران ، الوبر والجلود ومن سرقسطة الفراء ، ومن المرية أقمشة الحرير ، ومن شاطبة الورق ، ومن قرطبة الزئبق ومن شواطىء الاطلسى العنبر[١٤٦] .

(هـ) سلاطين المماليك ودورهم فى العلاقات التجارية :

وحرص سلاطين المماليك على تشجيع النشاط التجارى من ميناء الاسكندرية فى كافة الاتجاهات ، وظهر هذا واضحا من الامان الذى أعلنه السلطان قلاوون وجاء فيه : « .. ومن يؤثر الورود الى ممالكنا أن أقام أو تردد .. فليعزم عزم من قدر له فى ذلك الخير والخيرة ، لانها فى الدنيا جنة عدن لمن قطن ومسلاة لمن تغرب عن الوطن .. فمن وقف على مرسومنا هذا من التجار المقيمين باليمن والهند والصين والسند وغيرهم فليأخذ

---

(١٤٢) الادريسى ، نزهة المشتاق ، ص ١٠٩ . ابن حوقل ، المصدر السابق ، ص ٧٢ .

(١٤٣) الادريسى ، نفس المصدر ، ص ١٠٦ .

(١٤٤) الادريسى ، نفس المصدر ، ص ١٢١ .

(١٤٥) الادريسى ، نفس المصدر ، ص ١٧٦ .

(١٤٦) الادريسى ، نفس المصدر ، ص ١٣٦ ، ١٧٨ ، ١٩٢ ، ١٩٩، ٢١٣ وأنظر أيضا : العذرى (أحمد بن عمر بن أنس المعروف بابن الدلائى ت ٤٧٨ هـ/ ٩٨٨ م) ، ترصيع الاخبار وتنويع الاثار والبستان فى غرائب البلدان والمسالك الى الممالك ، نشر عبد العزيز الاهوانى ، مدريد ١٩٦٥ ، ص ٢٢ ، ٩٥ . د . سالم ، تاريخ البحرية الاسلامية فى المغرب والاندلس ، ص ٦٢ — ٦٤ .

الاهبة فى الارتحال الينا ليجد الفعال فى المقال أكبر ويرى احسان يقابل فى الوفاء بهذه العهود بالاكثر ..»[١٤٧] . فكثر وفود التجار من الشرق والغرب على السواء بدليل عقد عدد كبير من المعاهدات التجارية مع الجمهوريات الايطالية وصقلية وقشتالة وأرغونة غربا ، بل ومع جزيرة سيلان شرقا[١٤٨] .

ويمكن أن نستنتج توثق العلاقات الودية بين الدولة الحفصية ومصر المملوكية من الرسائل المتبادلة بين سلاطين المماليك فى مصر والحفصيين فى تونس ، بحيث قامت الدولة الحفصية بدور الوساطة لدى مصر لصالح التجار الاجانب من أجل تحقيق مطالب تجارية للفرنج الفرنتيين فى المرانى المصرية أسوة بما حصل عليه البنادقة من امتيازات[١٤٩] . مع خضوع هؤلاء للتنظيمات التجارية فى مصر ومع تعهد مصر بتوفير الامن فى اطار ما هو من علاقات تجارية .

---

(١٤٧) المقريزى ، السلوك ، ح ١ ، ص ٧١٣ .

(١٤٨) مبشيل أمارى ، المصدر السابق ، أنظر :

أ — رسالة رقم ٣٧ موقعة بتاريخ ٢٢ سبتمبر ١٤٢٢ م فى عهد السلطان برسباى ، ص ١٦٥ — ١٦٨ .

ب — رسالة رقم ٣٩ موقعة بتاريخ ٢٣ ذى الحجة ٨٩٤ هـ فى عهد السلطان قايتباى ، ص ١٨١ — ١٨٣ .

ج — رسالة رقم ١٤ موقعة بتاريخ ١٠ جمادى الثانية ٩٠١ هـ / ٢٦ فبراير ١٤٩٦ م ، فى عهد السلطان قايتباى ، ص ٢١٠ — ٢١٣ .

د — رسالة رقم ٤٢ موقعة بتاريخ ١٨ ذو القعدة ٩١١ هـ / ١٢ أبريل ١٥٠٦ م ، فى عهد السلطان قانصوه الغورى ، ص ٢١٤ — ٢١٧ .

(١٤٩) نعيم زكى فهمى ، طرق التجارة الدولية ، ص ٣٧ حيث يقول : « .. وبعد مفاوضات ناجحة استأنف تجار جنوة أعمالهم التجارية فى مصر والشام عام ١٤٧٤ م وفتحت الوكالة الجنوية أبوابها ، وأعيدت لهم فنادقهم بالاسكندرية وبيروت ودمشق وأعتمدت السلطات قناصلهم كممثلين لهم ولتجارهم » . أنظر ملحق رقم ١٩

الفصـــل الســادس

الصـــلات الثقـــافية والفنية بين

الخـــلافة الموحـــدية والمشرق الاســـلامى

١ ــ الاصـــول الفكرية للدعـــوة الموحـــدية

٢ ــ فقهـــاء الفكر الصـــوفى المغاربة فى المشرق •

٣ ــ علماء مغـــاربة عادوا الى المغـــرب •

٤ ــ الصـــــلات الفنية •

الصلات الثقافية والفنية بين الخـلافة الموحدية والمشرق الاسـلامى

(١)

الاصول الفكرية للدعوة الموحدية

(أ) أسس الدعـوة :

تضاربت الآراء حول ما ألفه صاحب الدعوة المـوحدية من مصنفات تتعلق بالاصول الفكرية لتلك الدعوة • ومع ذلك فان الخط الرئيسى فى فكر ابن تومرت ينتظم فيما أعلنه من ايثاره للمذهب الاشعرى المرشدى وأخذه بعصمة الامام عند فرقة الامامية •

وكان ابن تومرت قد التقى فى الرحلة المشرقية بـكل من الشـيخين الهراس والطرطوشى[1] ، وعلى حد قول ابن خلدون التقى فى المشرق بأئمة الاشعرية « واستحسن طريقهم فى الانتصار لعقائد السلفية والذب عنهـا بالحجج العقلية •• وذهب الى رأيهم فى تأويل المتشابه فى الآى والاحاديث •• وحملهم بالاخذ بمذاهب الاشعرية فى كافة العقائد » • وفى ذات الوقت، يشير ابن خلدون فى معرض حديثه عن ابن تومرت الى رأيه فى عصمة الامام فيقول : « •• وكان من رأيه بعصمة الامام على رأى الامامية من الشيعة ،

---

(١) الهراس : هو أبو الحسن على بن محمد بن على الفقيه الشافعى ، كان يدرس بالنظامية ببغداد توفى سنة ٥٠٤ هـ . والطرطوشى : هو أبو بكـر محمد بن الوليد ولد بطرطوشة بالاندلس سنة ٤٥١ هـ ، رحل الى المشرق للعلم سنة ٤٧٦ هـ وجال ببغداد والبصرة ودمشق والقاهرة واستقر فى الاسكندرية وأقام بها حتى وفاته بها سنة ٥٢٠ هـ . أنظر : ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٢٢٦ . ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ج ٢ ، ص ٣٧ .

وألف فى ذلك كتابه فى الامامة الذى افتتحه بقوله أعز ما يطلب »[٢] .

ومن المعروف أن القرن الخامس الهجرى الذى بدأت فى نهاية رحلة ابن تومرت المشرقية قد شهد بالذات معارك انتصار وهزيمة المذهب الشافعى أمام المذاهب الاخرى . ومن هذا المذهب الشافعى انبثقت الاشعرية المرشدية . فعلى يد أبى زرعة محمد بن عثمان الدمشقى (ت ٣٠٢هـ — ٩١٤م) غلبت الشافعية على الشام بعد أن كانت غالبية أهل دمشق على المذهب الاوزاعى . كما تغلبت الشافعية أيضا على الحنفية فى العراق على يد أبى بكر الشاشى الفقيه الشافعى المعروف بالقفال (ت ٣٦٥هـ — ٩٧٨م) . وكانت الشافعية قد سبقت بهذا النصر الى مصر منذ القرن الثانى الهجرى حيث تغلبت على المذهب المالكى ، غير أن نصرها هذا لم يكن نهائيا . فقد تقاسمت المالكية والشافعية حلقات الفقه فى مصر فى المسجد الجامع فكانت لكل منهما خمس عشرة حلقة ، ولاصحاب أبى حنيفة ثلاث حلقات[٣] . ثم قدر للمذاهب السنية المذكورة أن تنسحب الى خارج أطراف الحاضرة المصرية زمن الفاطميين . فاحتفظ الصعيد بمذهبه المالكى ، وكان للمالكية بالاسكندرية مدرستها أيضا . بينما استمرت الشافعية فى ريف مصر عموما الى أن تمكن الايوبيون من الانتصار لمذهبهم الشافعى نهائيا .

واذا كانت المالكية فى المشرق لم تحظ بمركز الصدارة فى الفقه الاسلامى وكان نصيبها لايزيد فى قليل أو كثير عن المذاهب الفقهية الاخرى ، وكان للمذهب الشافعى الغلبة بين المذاهب السنية الاخرى ، فان المذهب

---

(٢) ابن خلدون ، المصدر السابق ، ص ٢٢٦ .
(٣) ابن سعيد المغربى ، المغرب فى حلى المغرب ، ص ٢٤ .

المالكى لم يترك فى الغرب الاسلامى مكانا لمذهب آخر ويعبر المقـدسى عن ذلك بقوله : « أما فى الاندلس فمذهب مالك وقراءة نافع ، وهم يقـولون لا نعرف الا كتاب الله وموطأ مالك ، فان ظهروا على حنفى أو شافعى نفوه، فان عثروا على معتزلى أو شيعى أو نحوهما ربما قتلوه »(٤) .

فهل كان تعدد المذاهب فى المشرق الاسلامى وراء الثورة المذهبية فى فكر ابن تومرت ، أم أن الاحتكار المالكى للفقه المغربى كان المنطلق لهـذه الثورة ؟

وأميل شخصيا الى الاخذ بالشطر الثانى من السؤال استنادا الى أن الثورة المذهبية التى ذهب اليها المهدى فى منهجه الفقهى قـد استمدها فى الشرق من مذهب الاشاعرة المرشدية الذى لم يسبق للمغاربة أن ألموا به . ثم ان علم الكلام الذى بنى عليه ابن تومرت دعوته رأى فيه فقهاء المالكية سببا لاختلال العقيدة كما رأوا عدم الخوض فى التوحيد والاقتداء بالسلف فى قبول النصوص على علاتها واقرار المتشابهات كما جاءت والايمان بهـا كما هى(٥) .

---

(٤) المقدسى ، أحسن التقاسيم ، ص ٢٣٦ . وعن وصول المـذهب الشافعى الى المغرب وتقلصه من الاندلس نذكر : « .. فى منتصف القرن ٣ هـ على يد قاسم بن سيار القرطبى (ت ٢٧٦ هـ) حيث سعى بعض العلمـاء الى نشره أمثال بقى بن مخلد (ت ٢٧٢ هـ) ، ومع زيادة رحلة الشافعيين من المشرق الى الاندلس أدى الى انتشار المذهب خاصة على عهد الحكم المستنصر الذى كان يشجعهم مثل : أبى الطيب محمد بن أبى بردة (ت ٢٧١ هـ) ولكن أمـام سيادة المذهب المالكى ومحاربة فقهائه لهؤلاء الوافدين ، تقلص المذهب الشافعى الى حد كبير ، وربما أدى ذلك الى رحيل الشافعيين عن طريق المغرب بعـد اضطهادهم أو التجائهم الى المغرب . أنظر : أنخل بالنثيا ، تاريخ الفكـر الاندلسى ، ص ٤٣٦ . راجع أيضا ، د . عباس الجرارى ، الموحدون ، ص ١١٠ .

(٥) الجرارى ، الموحدون ، ص ٨٦ .

وبذهب بعض الباحثين الى أن هذه الاوضاع أدت الى قيود فرضتها الدولة حفاظا على مكاسب تلك الطبقة الناشئة ، مما دعا الى اتخاذ تدابير صارمة أفتى بها علماء المالكية ، منها احراق كتب الغزالى لا سـيما كتاب « احياء علوم الدين » لاشتماله على كثير من المسائل الكلامية ، ومنها الزام الامير المرابطى (على بن يوسف بن تاشفين) بهذه الفتوى الى حد التهديد بسفك الدماء ومصادرة مال من يضبط عنده هذا الكتاب[٦] .

على أن ثورة ابن تومرت الفقهية ما تلبث أن تنتصر على خصـومها فقهاء المالكية ، ويجىء هذا الانتصار مخالفا لمـا حدث فى الشرق عنـدما تذبذب ميزان النصر والهزيمة للاشاعرة فى معاركهم التى خاضوها ، ولهذا كان الثورة الموحدية تعنى من الوجهة التاريخية حادثا خطيرا أصوله أعمق من مجرد العلاقة الفقهية بين المذهبين وانما تمتد الى أعماق الفكر المذهبى فى المجتمعات المغربية وترتكز أساسا على ما قام من علاقات مذهبية فى تاريخ المغرب الاسلامى حتى انتصار المالكية وتغلبها على غيرها من المذاهب .

(ب) الاعتزال :

ولعل أول خيط فى الاصول المذهبية لدعوة ابن تومرت ما يتعلق بفكر

---

(٦) اصدر هذه الفتوى المذكورة فقهاء الاندلس وعلى راسهم ابن حمدين قاضى قرطبة ، وان كان بعض فقهاء المغرب لم يسايروهم فيما ذهبوا اليه مـن انكار فكر الغزالى . ومن بين هؤلاء الفقهاء المغاربة أبو الفضل بن النحـوى الذى رأى أن الغزالى ساعد الدولة المرابطية ووقف الى جانبها . (المراكشى ، المعجب ، ص ١٧٢ — ١٧٣) . وأنظر أيضا : ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ٤ ط بيروت ١٩٦٧ ، ص ٥٩ . ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، القسم الثالث الدار البيضاء ، ١٩٦٤ ، ص ٢٥٣ — ٢٥٦ . ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ١٤ . مجهول الحلل ، ص ٨٥ . وأيضا : د . سالم ، المغرب الاسلامى ، ص ١٣٨ . د . سالم ، المغرب الكبير ، ط ١٩٦٦ ، ص ٧٣٨ — ٧٣٩ ، ٧٤٢—٧٤٥

الاعتزال عامة وطوره المغربى على وجه الخصوص • ويظهر ذلك واضحا من الربط بين المدخل الى تحقيق الدعوة الموحدية ومقولة شيخ المعتزلة واصل بن عطاء فى قول لاحد دعاته : « •• الزم سارية المسجد سنة تصلى عندها حتى يعرف مكانك ، ثم افت بقوله الحسن سنة ، ثم اذا كان يوم كذا وكذا من شهر كذا فابتدىء فى الدعاء للناس الى الحق »[٧] •

انتشر الاعتزال فى المغرب الاقصى منذ فترة مبكرة على يد عبد الله بن الحارث مبعوث واصل بن عطاء[٨] ، وأكبر دليل على ذلك قبيلة أوربة التى كانت على مذهب المعتزلة • ثم انتشر المذهب خصوصا فى افريقية «تونس» التى أصبحت مركزا للدعوة[٩] فى هذا العصر • ولم ينتشر الاعتزال بين عموم البربر لاحجامهم بطبعهم عن تقبل التأويلات النظرية والتدقيقات العقائدية التى جاء بها المعتزلة[١٠] ، هذا فضلا عن اتهام المالكية

---

(٧) البلخى ، مقالات اسلامية فى كتاب فضل الاعتزال ، ص ٦٧ . محمود اسماعيل ، المعتزلة فى المغرب ، ص ٢ — ٤ .

(٨) ويورد الشهرستانى فى الملل والنحل عن المعتزلة ما يلى : « .. وبالمغرب الآن منهم شرذمة قليلة فى بلد ادريس بن عبد الله الحسنى الذى خرج بالمغرب فى أيام جعفر المنصور ويقال لهم الواصلية ، وأعتزالهم يقوم على أربعة قواعد : الاولى نفى صفات البارى تعالى من العلم والقدرة والادارة ، والحياة ، والثانية القول بالقدر ، والثالثة القول بالمنزلة بين المنزلتين والرابعة قوله فى الفريقين من أصحاب الجمل وأصحاب صفين . أن أحدهما مخطىء لا بعينه ، وكذلك قوله فى عثمان وخاذليه أن أحد الفريقين فاسق لا محالة كما أن أحد المتلاعنين فاسق لا بعينه » (ج ١ ، ص ٥٧ — ٦١) .

(٩) البكرى ، المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ، ص ١١٨ .

(١٠) محمود اسماعيل ، المرجع السابق ، ص ٧ .

بالزندقة[١١] . ولكن مراكز المعتزلة نمت فى المغرب الاقصى (الدار البيضاء، طنجة ، وليلى ، أيزرج)[١٢] الى حد أن اتسمت — على حد قول د. محمود اسماعيل — بسمات الامارات المستقلة . وبلغ عددهم وفقا للاحصاءات التى أوردها المؤرخون الى ٣٠ ألف معتزلى[١٣] . وقد دفع الاعجاب بهذه القوة المغربية الاعتزالية شاعر المشرق صفوان الانصارى المعتزلى الى الاشادة شعرا بزعيم واصلية المغرب فيقول :

له خلف شعب الصين فى كل ثغرة
الى سوسها الاقصى وخلف البرابر
رجال دعاة لا يفل عزيمهم
تهكم جبار ولا كيد ماكر[١٤] .

واذا كان المعتزلة فى تونس قد تعرضوا لمحنة كبيرة لصالح المالكية التى تأخذ بظاهر القرآن وترفض التأويل واقرار المتشابهات ، الا أن المالكى فى رياض النفوس يؤكد ميل بعض فقهاء المالكية لمبادىء المعتزلة . وبلغ الصراع الفكرى بين الطرفين مداه فكفروا بعضهم بعضا ، وتبرأ المعتزلة من مخالفيهم حتى ولو كانوا آباؤهم أو أبناؤهم[١٥] ، ولكن محنة الاعتزال فى افريقية يعوضها انتصار أصحاب المذهب فى الشرق حيث أصبح الاعتزال

---

(١١) حسين مؤنس ، مقدمة رياض النفوس ، القاهرة ، ١٩٥١ ، ص ١٠ — ١٣ . الدباغ ، معالم الايمان ، ج ٢ ، ص ١١ . آدم ميتز ، الحضارة الاسلامية ، تعريب د . أبو ريدة ، ج ١ ، ص ٣٧٥ .

(١٢) د . سعد زغلول عبد الحميد ، تاريخ المغرب العربى ، ص ٣٣٧ . وايزرج : مدينة تلى تاهرت .

(١٣) ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ١٢١ .

(١٤) الجاحظ : البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٢٥ . محمد بن تاويت ، الصادق عفيفى ، الادب المغربى ، ص ١٦٠ .

(١٥) المالطى ، التنبيه والرد على أهل الاهواء والبدع ، ص ٤٢ . المالكى رياض النفوس ، ص ١١٤ ، ١٢٠ — ١٢١ .

مذهب دولة بنى العباس الرسمى فى خلافة المـأمون والمعتصم والواثق .
ولمـا كان الاغالبة فى افريقية يتبعون بنى العباس سياسيا ، فقد كان طبيعيا أن تتبع امارتهم الخلافة العباسية روحيا ومذهبيا ، فيسود المعتزلة وتزداد قوتهم عن طريق الرحلات وتقليـد المناصب ، فـدارت الدائرة بذلك على المالكية وشيخهم سحنون ، واشتد تشنيعهم عليه لتمسكه بالقول بعدم خلق القرآن حتى قرر فى النهاية « ألا يفتى ولا يسمع أحدا ويلزم داره» [١٦].
ولم يبدأ انحسار هذا المد الاعتزالى الا منذ أن اعتلى المتوكل ٣٢ هـ / ٨٤٧ م) دست الخلافة العباسية اذ كان سلفيا متشددا فى تطبيق السنة ، وأمتحن المعتزلة أشد الامتحان ، سواء فى داخل الخلافة أو فى الولايـات الى أن اشتد بهم الامر وأنتهوا الى الفقر والتشرد فأضطروا الـى التخفى والتستر [١٧] .

ولم يكن المغرب الاوسط بمنأى عن خضم أحداث المعتزلة ، فقـد شهدت فترات من تاريخه وقائع الخلاف والتقارب بين المعتزلة وبيـن الاباضية الرستمية . ومن الموضوعات التى شارك الاباضية فيهـا رأى المعتزلة موضوع خلق القرآن وتأويل بعض آياته [١٨] ، أما ما يتعلـق بموضوعات أوجه الخلاف فمنها مسألة القدرية [١٩] . وزاد فى هذا الخلاف

---

(١٦) الدباغ ، معالم الايمان ، ج ٢ ، ص ٨٦ — ٨٨ .
(١٧) الخشنى ، طبقات علماء افريقية ، ص ٢٥٧ . محمود اسماعيل ، المرجع السابق ، ص ١٨ — ١٩ .
(١٨) بل ، الفرق الاسلامية فى الشمال الافريقى ، ص ١٤٣ . تللينـو ، بحوث ى المعتزلة ، ص ٢٠٤ — ٢٠٦ .
(١٩) الشهرستانى ، الملل والنحل ، ص ٤٩ — ٥٠ . انظر ابضا : صالح باجة ، الاباضية بالجريد ، تونس ١٩٧٦ ، المقدمة .

بين فرق المعتزلة الواصلية والاباضية الرستمية ظهور فرق أخرى باطنية اتخذت موقفا عدائيا من الامامة الرستمية عرفت بالاباضية الوهبية بسبب ثورتها على الاوضاع السياسية والاقتصادية • وقد شارك الاباضيـــة الوهبية فى ثورتها على تلك الاوضاع معتزلة المغربين الاوسط والاقصى • غير أن الغلبة كانت فى النهاية للاباضية فكسرت شوكة المعتزلة وظلوا مابين مهاجر الى المغرب الاقصى أو باق فى تاهرت (عاصمة الاباضية الرستمية) الى أن حل الضعف بالامامة الرستمية ، فعاودوا الحرب الكلامية مــــع المعتزله ، وعلى حد قول المؤرخ ابن الصغير المالكى المعاصر لتلك الاحداث اذ يقول : « اجتمعت المعتزلة والاباضية بنهر مينة لموعد جعلوه فيما بينهم للمناظرة » (٢٠) •

ولم يختلف دور معتزلة المغرب الاقصى عن اخوانهم فى المغربيــن الادنى والاوسط ، وكما سبقت الاشارة لم يكونوا بعيدين عما كان يجرى فى المشرق • وأكثر من ذلك ، فقد ارتبطوا بدعوة جديدة هى الدعوة العلوية التى قامت عليها دولة الادارسة العلوية (الشيعية الزيدية) التى قامت فى عام ١٧٢ هـ / ٧٨٨ م على يد أبو العلاء ادريس بن عبد الله الاكمل بـــن الحسن بن الحسين بن على بن أبى طالب بعد هروبه من معركة فخ عـــام ١٦٩ هـ / ٧٨٦ م على عهد الخليفة الهادى العباسى ، ونزوله على قبيلـــة أوربة التى ساعدته وناصرته وأخذت له البيعة فى مدينة وليلى • وتمكنت

---

(٢٠) ابن الصغير المالكى ، أخبار الائمة الرستميين ، ص ٥٦ . ولقـــد دخلت هذه الفرق من الخوارج سواء الصفرية منها (نسبة الى زيادة بن محمد الاصفر) أو الاباضية (نسبة الى عبد الله بن أباض) الى المغرب فى القــرن الثانى من الهجرة وأسست دولتهما وأصبح مذهبهما أكثر انتشارا بين قبائــل المغرب ، (أنظر : د . مختار العبادى ، دراسات فى تاريخ المغرب والاندلس ، ص ٤٤ — ٤٨ . محمد بن عبد السلام بن عبود ، تاريخ المغرب ، ص ٩٣) .

دولة الادارسة من بسط نفوذها من عاصمتها فاس على جل المغرب الاقصى وزاحمت جيرانها من بنى يفرن وأنتزعت منهم مدينة تلمسان . ويفسر بعض الباحثين سرعة التفاف البربر حول الادارسة على هذا النحو بحيث تمكنوا من تأسيس دولتهم ، وبالرغم من حداثة عهد هؤلاء البربر بالاسلام من منطق تعظيمهم لآل البيت ، ولكن يضاف الى هذا التفسير ما يتعلق بالتقارب الفكرى بين الادارسة وما سبق من فكر اعتزالى فى فرقهم المتناثرة فى أرجاء المغرب .

بل أن دولة الادارسة ذاتها أصبحت بدورها موطنا للمعتزلة ، فقبيلة أوربة التى ساندتها كانت تدين بمذهب الاعتزال ، وأن عبد الله الكامل نفسه والد ادريس الاكبر كان يعتبر فى الطبقة الثالثة من طبقات المعتزلة (٢١) . هذا فضلا عن أن التقارب بين اسحاق الاوربى والامام ادريس الاكبر يمكن تفسيره على أساس أن الاول على حد قول جولتسهير: « يتفق على ما أقره الشيعة من أن الامام المستور ينتمى الى مدرسة العدل والتوحيد أى الى مذهب المعتزلة » (٢٢) . وبغض النظر عن مدى صحة القول بتشيع الدولة الادريسية ، فان الاعتزال تبعا لذلك الرأى ظل قائما فى المغرب على اتصال بالاعتزال فى المغربين الآخرين ، ومن ثم بمعتزلة الشرق الى أن تغلب التشيع بقيام الدولة الفاطمية (الشيعية الامامية) عام ٢٩٦ هـ / ٩٠٠ م .

---

(٢١) مختار العبادى ، المرجع السابق ، ص ٥٠ .

(٢٢) جولتسهير ، العقيدة والشريعة فى الاسلام ، ص ٢٢٢—٢٢٣ .

جـ ـ التشـــــيع :

هناك من الباحثين من يرفض الاخذ بسمة التشيع أو حتى سمـــة الاعتزال فى الدولة الادريسية ومنهم د . عباس الجرارى (أستاذ الادب والفكر المغربى بكلية آداب الرباط) . ويميل هذا الباحث الى اعتبـــار الادارسة أصلا من السنة المالكية وأنهم أخذوا فى تشكيل حركتهم السياسية داخل نطاق الاعتزال ، وعلى حد قوله : « وان كانت تعتبر هذه الحركـــة اعتزالية ، ولكن الذى لا شك فيه أن الادارسة لم يكونوا من المعتزلة ولا من الامامية الاسماعيلية ولم يكن لهم مذهب معين فى الشيعة وأنهم لذلك لجأوا الى السنة والى المالكية خاصة » [٢٣] .

وأيا ما كان الامر ، فان التشيع لم يلبث أن أنتشر فى ربوع المغرب[٢٤] وقد فسر البعض هذه الظاهرة على أساس العصبية بأنها ترجع الى بغض القبائل البربرية للعرب ، كما فسرها آخرون على أساس مادى (اقتصادى) بأنها ترجع الى تذمر قبائل كتامة من حكم الاغالبة والعباسيين ، أواجتماعى بأنها تعزى الى سلوك الداعية الفاطمى وسيرته فى التقشف والزهد والحفاظ على مكارم الاخلاق والنهى عن قبيح العادات والاتجاه الى لبس الخشن وقليل من الطعام الغليظ . ويستند أصحاب هذا الرأى الى أن عبيد اللـــه المهدى اعتمد على عصبية القبائل والجند الصقالبة وولاهم مركز الصدارة فى دولته [٢٥] .

---

(٢٣) الجرارى ، الموحدون ثورة سياسية ومذهبية ، ص ٩٥ .
(٢٤) الجرارى ، المرجع السابق ، ص ٩٥–٩٦ .
(٢٥) محمود اسماعيل ، المالكيون والشيعة فى افريقية ، ص ٦–١٠ .

غير أن سلوك الاعتزال أو التشيع وان كان قد صادف هوى البربر من الوجهتين الاقتصادية والاجتماعية وأرضى عندهم النزعة العصبيه التى أستشعروها فى علاقتهم بالقبائل العربية ، الا أن الامر سرعان ما تحول الى مشكلة فى تصورهم الفكرى للاسلام وتفسير نصوص شريعته . وكان من العسير عليهم أيضا ادراك التفسير المذهبى الباطنى للسلطة عند الشيعة من حيث أن الامام يستمد سلطته من الله — مباشرة وأن روح الله تحل فى الائمه . وأستدعى الامر وقتا كافيا لتقبل المعنى الظاهرى من هذا التفسير الذى يجعل للامامة الفاطمية أساسين :

أ — العلم اللدنى أو الالهى الموروث عن النبى — صلى الله عليه وسلم — عن طريق على بن أبى طالب ثم أولاده من بعده الى الفاطميين . ومن ثم القول بالامام المعصوم من الخطأ لما ورثه عن النبى من علوم دينية ، علم الظاهر وعلم الباطن أى ظاهر القرآن وباطنه ، وهما ما علمهما النبى لعلى بن أبى طالب الذى أطلع بالتالى على خفايا الكون والسر المكنون من هذين العلمين اللذين توارثهما من بعده الائمة الفاطميين على التوالى ، فظهر الامام بينهم معلما أكبر [٢٦] .

ب — الاساس الثانى يتعلق بمسألة الوصية أو النص على ولاية العهد التى يعبر عنها د. العبادى بقوله : « أن الخلافة الفاطمية خلافة رافضة

---

(٢٦) مختار العبادى ، دراسات فى تاريخ المغرب والاندلس ، ص ٥١ . أنظر أيضا قول الغزالى فى كتابه فضائح الباطنية للرد عليهم : « أما الباطنية فانما لقبوا بها لدعواهم أن لظواهر القرآن والاخبار بواطن تجرى فى الظاهر مجرى الالباب فى القشور وانما بصورها توهم عند الجهال الاغنياء صورا جليه وهى عند العقلاء والاذكياء رموزا واشارات الى حقائق معينة ، نشر د . عبد الرحمن بدوى ، القاهرة ، ١٩٦٤ ، ص ١١ — ١٧ .

لامامة أبى بكر وعمر ، وترى كما يرى الشيعة عموما أن عليا أحق بالخلافة بعد النبى عن طريق النص عليه بالاسم . فالامامة عندهم ليست من المصالح العامة التى تفوض الى نظر الامة ، وأنما هى ركن الدين والاسلام ولا يمكن للنبى أن يتركها للامة ، بل كان عليه تعيين امام لهم معصوبا من الخطأ ، وأن عليا هو الذى عينه النبى اماما بعده » (٢٧) .

ان التفسير التاريخى المنطقى لعلاقة البربر بدعوة التشيع ، وقبلها دعوتى المعتزلة والخوارج ، يمكن تعليله بأنه كان قبولا من النمط الاجتماعى فى علاقات لسلطة القبلية عند البربر . وهذا ما يفسر أخذهم أيضا فى هذا الصدد بشعائر التقديس الحركية مثل الركوع فى حضور الامام وتقبيل الارض بين يديه . ومن نفس المنطق كان رفضهم للتشيع وأنضمامهم الى فقهاء المالكية فى الثورة على الشيعية ، عندما أثقل الفاطميون بتنظيماتهم الاقتصادية على الاهالى (ضريبة التصنيع) ، وعندما تعدوا بنزاعهم حدود الصدام مع المالكية الى الصدام مع الخوارج الرستميين والمدراريين والادارسة فضلا عن الاغالبة ، وأستندوا فى ذلك

---

(٢٧) فى ذلك يقول د . العبادى : « ويستشهدون فى ذلك بوصية الرسول عقب حجة الوداع حيث قال : « من كنت مولاه فعلى مولاه ، اللهم والى من والاه وعاد من عاداه ، وقوله : على منى بمنزلة هارون من موسى » . ثم يتعرض لنشأة فكرية الوصية : « ولقب على بالوصى ، بينما لقب من جاء بعده بالائمة ومرتبة الوصاية عندهم أعلى من مرتبة الامامة وتلى مرتبة النبوة . وأنتشرت الوصية بين الشيعة عامة والفاطميين خاصة ، وقالوا أن الامامة تنتقل من الآباء الى الابناء ولا تنتقل من أخ الى أخ بعد انتقالها من الحسن الى الحسين . فالاب ينص على ابنه فى حياته ، ولا يقوم النص فى الامامة على أساس تولية الابن الاكبر ، فالامام يستطيع أن ينص على أى ابن له ، فهذا أمر يخصه وحده لانه يتلقى علمه ووحيه من الله » (المرجع السابق ص ٥٣ــ٥٤)

أساسا على عصبية قبائل كتامة وأحتراف الجندية عند الصقالبة (٢٨) .

د — أنتصار الفكر المالكى :

ومع فقدان البربر للنمط الاجتماعى من جانب الثورة المذهبية للشيعه والمعتزلة ، ولم يتبق من هذه الثورة سوى الجانب الفكرى ويتعلق بتفسير سلطة الامامة والشريعة . وهنا يغدو الفكر المالكى وثورته السلفية أكثر قبولا وأقل تعقيدا — الامر الذى أتاح للمالكية خط انتصارها التاريخى على دعوات اعتزالية وخارجية و شيعية ، ارتبطت جميعا عند البربر بالنمط الاجتماعى فى أصول فكرهم البسيط .

وقدر لتاريخ المغرب أن يشهد فى حقبته التالية معالم انتصار المالكية التى بلغت أوجها على أيدى المرابطين . ولكن فى نطاق ما حمله البربر من ميراث الدعوات المذهبية المذكورة ، وما انصهر منها فى حياتهم البيئية أو الاجتماعية ، كما قدر لهذا التاريخ أن يشهد أيضا الانتكاسة الكبرى التى تعرضت لها المالكية ببعث ميراث الفكر الخارجى والاعتزالى والشيعى فى الدعوة الموحدية . وفى كلا الحالتين ، لم يكن يهم البربر من فكر هذه المذاهب غير الجانب الاجتماعى فى مبادئها حسبما أشرت .

وهكذا كان السبيل الاول والطبيعى الى أنتصار المالكية على الشيعة الفاطمية حيث ذهبت فى هذا السبيل الى حد الانحياز لثورة أبى يزيد بن

---

(١٨) محمود اسماعيل ، المالكيون والشيعة ، ص ١٠—١١ . ويذكر الدكتور محمود اسماعيل بعض تلك الاحكام المتمثلة فى « اسقاط الرجم عن المحصنين فى الزنا ، واسقاط الصلاة خير من النوم من الآذان واضافة حى على خير العمل وعلى خير البشر ، والصلاة بالعلامة والفطر بها لا الرؤية ، وتحليل المطلق ثلاث واسقاط ايمان الحرج » .

كيداد الخارجى [٢٩] . على أن السند الاكبر فى هذا الانتصار جاء من طريق آخر هو الطريق السياسى عبر الدولة الاموية فى الاندلس ، ففى هذا العهد تحول الصدام بين المالكية والشيعة من خلاف كلامى مذهبى وصدام قبلى اجتماعى بين أنصارها الى صدام سياسى ثم عسكرى مسلح [٣٠] .

وفى هذا الصراع اعتمد الامويون فى الاندلس على قبيلة زناتة المناهضة لقبيلة كتامة التى أعتمد عليها الفاطميون ، فعمل عبد الرحمن الناصر على استمالة زناتة وبنى صالح أصحاب نكور وأتخاذها سلاحا يشهره على الفاطميين وأنصارهم صنهاجة وكتامة [٣١] . وواضح من انتقال الخلافة الفاطمية الى المشرق منذ (٣٥٨ هـ / ٩٦٩ م) والتحول بسلطان دولتها الى مصر أن الانتصار فى النهاية كان من نصيب الخلافة الاموية والمذهب المالكى فى الاندلس والمغرب . وفيما يتعلق بالجانب السياسى لم ينبق من النفوذ الشيعى فى بلاد المغرب غير ما كانت تمثله

---

(٢٩) هو أبو زيد مخلد بن كيداد اليفرنى الزناتى الخارجى ، ثار على الدولة الفاطمية فى الفترة من ٣٢٢ هـ الى ٣٣٦ هـ . وكانت له علاقات مع الخليفة الاموى بالاندلس (الناصر) الى حد تبادل السفارات مع الخليفة عبد الرحمن الناصر ورغم ذلك فشلت تلك الثورة وأنتهت بقتل صاحبها فى عام ٣٣٦ هـ /٩٤٨م (انظر ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٣١٩—٣٢٢ . د . سالم ، المغرب الكبير ص ٦٢٢—٦٣١) .

(٣٠) د . محمود على مكى ، التشيع فى الاندلس ، مجلة المعهد المصرى للدراسات الاسلامية بمدريد ١٩٥٤ ، المجلد الثانى ، ص ١١٢—١١٥ .

(٣١) د . سالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم فى الاندلس من الفتح العربى حتى سقوط الخلافة بقرطبة ، الاسكندرية ، ١٩٨٢ ، ص ٢٨٦—٢٨٨ . د . أحمد مختار العبادى ، سياسة الفاطميين نحو المغرب والاندلس ، مقالة بمجلة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد ١٩٥٧ ، المجلد الخامس ، ص ٢٠٥ .

امارة بنى ربرى فى الطور الاول من حكمها • بينما قابل النفوذ الشيعـى لبنى زيرى فى هذه المرحلة سيطرة زناتة على المنطقة الواقعة ما بين ملوية وطنجة وهى ما تعرف بالريف • ثم كان من أمر قطع بنى زيرى الخطبة الخليفة الفاطمى سنة ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م والتحول بالدعاء للخليفة القائم بأمر الله العباسى وتحول المغرب الى المذهب المالكى •

عاد المذهب المالكى يسيطر من جديد على مسرح الاحداث فى أنحاء بلاد المغرب [٣٢] • بل صارت له فى الارض المغربية دولة كبرى هى دولة المرابطين وأملاكها فى الاندلس ، ولم تعد المالكية المغربية كما كانت مذهبا لعدد من القبائل تتطلع الى حماية امارة محلية فى أحد أطراف المغرب ، أو الى الاندلس أو حتى الى الخلافة العباسية البعيدة فى بغداد ثم فى القاهرة وفى ظل الحماية السياسية التى تكفلها دولة المرابطين القوية ، لم يعد فقهاء المالكية بعد أن امتدت دولة المرابطين الى الاندلس يرتبطون كما كـان العهد فى الماضى بروابط اجتماعية مع القبائل • وعندما يمضى من عمـر الدوله المرابطية أكثر من قرن لتنهار أمام ضربات الموحدين لانكاد نعثر فى المصادر التاريخية على دلائل لتفسر عوامل انهيارها السياسى ، وعندئـذ نجد ملامح هذا التعليل ممثلة فى علاقات البادية التى وقع على قبائلهـا كاهل اندلاع الثورة الموحدية وأنتصارها السريع على الدولة المرابطية • وقد سبقت الاشارة الى أن المالكية والخوارج قد تحالفوا فى ثورة يزيـد بن مخلد اليفرنى ضد الاسماعيليين العبيديين • وبعد هذا العمر الطويل

---

(٣٢) عن سيطرة المالكية انظر : الخشنى ، طبقات علماء افريقية ، ص ٢٥٢ ، ٢٥٧ ، الدباغ ، معالم الايمان فى معرفة أهل القيروان ، ج ١ ، ص ٥٥ ، ٦٦ ، ٨٦–٨٧ ، ١٥٥ .

من تحول المالكية الى مذهب رسمى للدولة المرابطية على حساب المذاهب الاخرى ببن قبائل البادية المغربية ، مالت هذه المذاهب الى التعمق أكثر فى الحياة الاجتماعية للقبائل وأنتهت الى منظومة جمعت ميراث هذه الاصول المذهبية والاجتماعية • وفى هذا الصدد ، كانت قبيلة مصمودة أنموذجا مثاليا للثورة على الحكم المرابطى انطلاقا من الميراث المذهبى الاجتماعى المذكور • فهم أصلا من الروافض البجلية الشيعة المنسوبين الى عبد الله البجلى الرافضى الذى كان قد قدم الى السوس ونشر هنالك مذهبه الذى توارثته أجيال القبيلة من بعده [٣٣] • وقد سار فيهم يوسف بن تاشفين المرابطى فى سنة ٤٤٨ هـ / ١٠٥٦ م وقتل منهم خلقا كثيرة وأخذ أموالهم فيئا للمرابطين ، وأمرهم « باقامة العدل وأظهار السنة فيها وألزمهم الزكاة والعشر وأسقط ما سوى ذلك من المغارم المحدثة » [٣٤]

هـ ــ الفكر الموحدى التومرتى :

وعلى هذا النحو كان فكر ابن تومرت خلاصة هذا الميراث سواء فى بادية موطنه و فى غبرها من بوادى الشمال الافريقى التى مر بها فى رحلته المشرقية ، ووقف على ذلك أيضا فى ريف مصر حيث ساد المذهب الشافعى بينما كانت المالكية فى خارج البوادى والقرى ، المذهب الرسمى لمجتمع المرابطين فى مراكش • وهكذا اجتمع هذا الميراث الفكرى والاجتماعى الذى

---

(٣٣) انظر كيف دخلت قبائل صنهاجة وبطونها فى الدعوة المرابطية حتى أسلمت اسلاما تاما . ابن أبى زرع ، القرطاس ، ص ١٢٤—١٢٦ ، وأهمها لمتونة الذى أراد لها الله أن تملك أمرهم على المغرب والاندلس ، ثم كيف تم فتح بلاد المصامدة الروافض ص ١٢٨—١٢٩ . وعن سقوط الدولة المرابطية وأسبابها أنظر : د . سالم ، المغرب الكبير ، ط بيروت ، ١٩٨١ ، ص ٧٤٢ — ٧٤٤ .

(٣٤) ابن أبى زرع ، نفس المصدر ، ص ١٢٩ .

خرج به ابن تومرت فى رحلته المشرقية الممتدة زمنيا ، ويصبح الفكر الموحدى فى النهاية حصيلة طبيعية لهذا التراث ، ومن ثم تنتفى الدهشة المنطقية المحيطة بانتصار الثورة الموحدية وسقوط الدولة المرابطية (٣٥) .

وكانت الاضافة المشرقية الواضحة فى هذه الثورة ما يتعلق بفكرة الخلافة أو الامامة التى أطلقها ابن تومرت فى طليعة ثورته بل ربما كانت المدخل الرسمى الى الصدام مع أمير المسلمين فيما جرى من حديث بين ابن تومرت وعلى بن تاشفين . فالصورة المشرقية للخلافة الاسلامية التى وقف عليها ابن تومرت لا تحتاج الى مزيد من الحديث أو التعليق . ومع واقع التردى فى هذه الصورة ، ظل أمراء المرابطين يتمسكون بلقب أمير المسلمين وما يحمله من تبعية روحية للخلافة المشرقية (٣٦) .

وقد تكون أصول الاضافة المذكورة ممثلة فى فكر البادية المغربية ، ولعل هذا يتضح فى مخاطبة أشياخ قبيلة ابن تاشفين لزعيمهم بقولهم له : « أنت خليفة الله فى أرضه وحقك أكبر من أن تدعى بالامير بل ندعوك بأمير المؤمنين » . فقال لهم : « حاشا الله أن نتسمى بهذا الاسم أنما يتسمى به خلفاء بنى العباس لكونهم من تلك السلالة الكريمة لانهم ملوك الحرمين مكة والمدينة وأنا راجلهم والقائم بدعوتهم ، فقالوا له : « لابد

---

(٣٥) عن سقوط الدولة المرابطية يرى د . سالم فى تعليل المراكشى لحالة الضعف التى أصابت دولة المرابطين بالاختلال الذى طرأ على آخر دولة على بن يوسف نتيجة تخاذلهم وتواكلهم وطاعتهم للنساء أنه قالة ظالمة وتحامل صريح وتجاهل لحقيقة الاوضاع السياسية ، وهذا يبرر تحيز المؤرخ المراكشى للمصامدة الموحدين وميله الى قضيتهم (المغرب الكبير ، ص ٧٤٢) .

(٣٦) حسن محمود ، قيام الدولة المرابطية ، ص ٣٣٥ — ٣٣٦ . عباس الجرارى . وحدة المغرب المذهبية خلال التاريخ ، الرباط ، ١٩٧٦ ، ص ١٨—١٩

من أسم تمتاز به » [٣٧] . وتمت الخطبة له بذلك على منابر العدوتين وأمر عماله بذلك فكتب ما نصه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما ، من أمير المسلمين ونـاصر الدين يوسف بن تاشفين الى الاشياخ والاعيان والكافة من أهل فلانـة أدام الله كرامته بتقواه ، ووفقهم لما يرضاه ، سلام عليكم ورحمة اللـه تعالى وبركاته . أما بعد حمد الله أهل الحمد والشكر وميسر اليسـر ، وواهب النصر والصلاة على محمد المبعوث بنور الفرقان والذكر ، وانـا كتبناه اليكم من حضرتنا العلية بمراكش حرسها الله ، فى منتصف محرم سنة ست وستين وأربعمائة ، وأنه لما من الله علينا بالفتح الجسيم ،وأسبغ علينا من نعمه الظاهرة والباطنة برود النعيم ، وهدانا وهداكم الـى شريعة نبينا محمد المصطفى الكريم ، صلى الله عليه أفضل الصـلاة وأتم التسليم ، رأينا أن نخصص أنفسنا بهذا الاسم لنمتاز به على سائر أفراد القبائل وهو أمير المسلمين وناصر الدين ، فمن خطب الخطبة العليةالسامية فليحطبها بهذا الاسم ان شاء الله تعالى والله ولى العدل بمنه » [٣٨] .

ولكن الاخذ بهذه التبعية للخلافة العباسية فى بدء قيام الدولـة المرابطية وأيام قوة الدولة العباسية شىء والاستمرار فيها شىء آخـر بعد تحلل قوة هذه الدولة العباسية . وجاءت فكرة المهدى ابن تومـرت بشأن نسبه النبوى تبطل الحجة المالكية التى جعلت يوسف بن تاشفيـن

---

(٣٧) ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، القسم الثالث ، ط الدار البيضـاء ، ص ٢٥٣ — ٢٥٤ .

(٣٨) مجموعة الرسائل ، رسالة رقم ٥٢ ، ص ١٠٦—١٠٧ . مجهـول ، الحلل الموشية ، تحقيق علوس ، ص ١٧ — ١٨ .

لا يقدم على التاقب بالخلافة لانه ليس من السلالة النبوية • وأستكمل ابن تومرت منظومته حين أنتقل بالاشعرية من اطارها الفقهى المذهبى الى تعاليم المرشدة الموحدية الملزمة فى التطبيق الى حد التمييز ، والبالغة فى التفسير الى حد القول بعصمة الامام •

يقول ابن تومرت عن منطق « المرشدة » فى صفات الله ومن ثم فى مضمون العلاقة بين الامامة والرعية : « اعلم أرشدنا الله واياك أنه وجب على كل مكلف أن يعلم أن الله عز وجل واحد فى ملكه خلق العالم بأسره العلوى والسفلى والعرش والكرسى والسماوات والارض وما فيها وما بينها وجميع الخلائق مقهورون بقدرته لا تتحرك ذرة الا بأذنه ليس معه مدبر فى الخلق ولا شريك فى الملك حى قيوم ، لا تأخذه سنة ولا نوم ، عالم الغيب والشهادة ، لا يخفى عليه شيء فى الارض ولا فى السماء ، يعلم ما فى البر والبحر ، ما تسقط من ورقة الا يعلمها ، ولا حبة فى ظلمات الارض ولا رطب ولا يابس الا فى كتاب مبين أحاط بكل شيء علما وأحصى كل شيء عددا ، فعال لما يريد ، قادر على ما يشاء ، له الملك والغنى وله العزة والبقاء ، وله الحكم والقضاء ، وله الاسماء الحسنى ، لا دافع لما قضى ، ولا مانع لما أعطى ، يفعل فى ملكه ما يريد ويحكم فى خلقه بما يشاء ولا يرجو ثوابا ولا يخاف عقابا ، ليس عليه حق ولا عليه حكم ، فكل نعمة منه فضل ، وكل نقمة منه عدل ، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون ، موجود قبل الخلق وليس له قبل ولا بعد ، ولا فوق ولا تحت ، ولا يمين ولا شمال ولا أمام ولا خلف ، ولا كل ولا بعض ، لا يقال متى كان ولا أين كان ، ولا كيف كان ولا مكان ، كون المكان ودبر الزمان ، لا يتقيد بالزمان ولا يتخصص بالمكان ، لا يلحقه وهم ولا يكفيه عقل لا ينحصل فى الذهن ولا

يشتمل فى النفس ولا يتصور فى الوهم ولا يتكيف فى العقل لا تلحقه الاوهام والافكار ليس كمثله شىء وهو السميع البصير » [٣٩] .

وفيما تلى ذلك من أخبار نشأة الدعوة الموحدية ووقائعها الادارية والحربية والقبلية ، ينحسر أكثر الجانب الفقهى المذهبى من دعوة التوحيد التومرتية ، فيبدو هذا الجانب مجرد تشكل نظرى أحاط بالميراث المذهبى — الاجتماعى عند بربر البوادى المغربية . وبذلك ، تتأكد نهاية الاشعرية كمذهب فقهى مشرقى وأثر مذهبى من آثار رحلة ابن تومرت المشرقية ، وتبدو فى تاريخ الحركة الموحدية مجرد مذهب فقهى مرحلى استهدف مقارعة المذهب المالكى فقهيا أو مجرد فرع من الفروع التى أخذ منها الفكر الموحدى فى تفاصيل حركته التاريخية .

لذلك فان مؤرخا مثل ابن أبى زرع ، وقف من الحركة الموحدية موقفا عدائيا ، يصورها بقوله : « .. فصار هذا التوحيد عند المصامدة كالقرآن العزيز ، لانه وجدهم قوما جهلة لا يعرفون شيئا من أمور الدنيا ولا من أمر الدين ، فأستهواهم بكيده ، وغلبهم بعذوبة لفظه ... حتى كانوا لا يذكرون غيره ، ولا يمتثلون أمرا الا أمره ، يستغيثون به فى شدائدهم ، ويتبركون بذكره على موائدهم ويقولون هذا الامام المعلوم المهدى المعصوم على منابرهم ، فدخل الناس فى طاعته أفواجا ، وأتخذوا سنته شريعة ومنهاجا ، فرتب العشرة والخمسين وتمكن فى الملك أى تمكين . وسمى العشرة من أصحابه السابقين الاولين وجعل الخمسين للرأى والمشورة ، وعقد لنفسه الامامة والنظر للمسلمين » [٤٠] .

---

(٣٩) مجهول : الحلل الموشية ، ص ٩٦ . كتاب الوثائق ، ج ١ ، وثيقة رقم ٧٨ ، ص ٢٢٧ . ابن القنفذ ، الفارسية فى مبادىء الدولة الحفصية ، ص ٢١١ .

وهناك من المؤرخين من وقف من نفس الحركة موقفا عكسيا [٤١]
لابن أبى زرع ومنهم ابن خلدون الذى صور الدعوة الموحدية بقوله :
« ويلحق بهذه المغالاة الفاسدة والمذاهب الفاشلة ، ما يتناقله الرأى من
فقهاء المغرب ، من القدح فى الامام المهدى صاحب دولة الموحدين ونسبته
الى الشعوذة والتلبس ، فيما أتاه من القيام بالتوحيد الحق والنص على
أهل البغى قبله ، وتكذيبهم لجميع مدعياته فى ذلك ، حتى فيما يزعم
الموحدون أتباعه من أنتسابه الى أهل البيت . وأنما حمل الفقهاء على
تكذيبه ماكمن فى نفوسهم من حسده على شأنه فأنهم لما رأوا فى نفوسهم
مناهضة فى العلم والفتيا والدين بزعمهم ، ثم أمتاز عنهم بأنه متبوع الرأى
مسموع القول ، موطأ العقب ، نقموا ذلك عليه وغضوا منه بالقدح فى
مذاهبه والتكذيب لمدعياته . وأيضا فأنهم كانوا عليه من السذاجة وأنتحال
الديانة ، فكان لحملة العلم بدولتهم مكان من الوجاهة والانتصاب للشورى
كل فى بلده وعلى قدره فى قومه ، فأصبحوا بذلك شيعة لهم وحربا لعدوهم ،
ونقموا على المهدى ما جاء به من خلافتهم والتثريب عليهم والمناصبة لهم ،
تشيعا للمتونة وتعصبا لدولتهم . ومكان الرجل غير مكانهم وحاله غير
معتقداتهم . وما ظنك برجل نقم على أهل الدولة ما نقم من أحوالهم
وخالف أجتهاده فقاءهم ، ونادى فى قومه ودعا الى جهادهم بنفسه ،
فأقتلع الدولة من أصولها وجعل عاليها سافلها ، أعظم ما كانت قوة وأشد
شوكة وأعز أنصارا وحامية . وتساقطت فى ذلك من أتباعه نفوس لايحصيها

---

(٤١) من بين من امتدح مذهب ابن تومرت من الفقهاء الشيخ السنوسى فى قوله : « أجمعت الائمة على صحة هذه العقيدة وانها مرشدة رشيدة ولم يترك أحسن منها وسيلة ، نفعنا الله واياك بعقد عقيدتها الجليلة » (أنظر : ابن القنفذ ، الفارسية ، ص ٢١٠) .

الا خالقها • قد بايعوه على الموت ووقوه بأنفسهم الهلكة وتقربوا الى الله تعالى باتلاف مهجهم فى اظهار تلك الدعوة والتعصب لتلك الكلمة • حتى علت على الكلم ودالت بالعدوتين من الدول ، وهو بحالة من التقشف والحصر والصبر على المكاره والتقلل من الدنيا ، حتى الولد الذى ربما تجنح اليه النفوس وتخادع عن تمنيه • وهو لم يحصل له حظ من الدنيا فى عاجلة ؟ ومع هذا فلو كان قصده غير الصالح لما تم أمره وأنفسحت دعوته سنة الله التى قد خلت فى عباده » [٤٢] •

وتكاد هذه الصورة التى قدمها ابن خلدون تطابق ما نذهب اليه من تعدد الفروع — مذهبية وأجتماعية — التى أخذت منها الدعوة الموحدية وحركتها التاريخية • وظهر ابن أبى زرع كما رأينا وكأنه اكتفى من الصورة المذكورة بوجهها المعتم فى نظره • وأقترب من هذا التفسير باحث مغربى [٤٣] • جعل مبدئى العصمة والامامة ، ومن ثم فكرة المهدية بوجه عام فى الدعوة الموحدية ، من أصول الاتجاه السياسى لا المذهبى عند ابن تومرت •

وفى نطاق نفس التفسير يمكن قياس حجم الاختلاف فى الرأى بين الاسانيد حول مسألة الاخذ بعصمة الامامة فى المهدية الموحدية ، من حيث الميل فى التفسير الفقهى عموما الى الاخذ بالظاهر حسبما ذهب ابن حزم ، ومن حيث وصل التفسير بالعصمة فيما كان يعن من أمور فى التطبيق حسبما نقرأ من أخبار ابن تومرت وأحداث ثورته على السنة

---

(٤٢) ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٤٦٤ . وأنظر أيضا عن نفس النص فى : عبد الله جنون : النبوغ المغربى ، ج ١ ، ص ٩٩ — ١٠٠ .

(٤٣) الجرارى ، الموحدون ثورة سياسية ، ص ١٠٣ .

المؤرخين . وفى هذا الصدد ، يصل الباحث المغربى المذكور الى حد الدفع عن المهدى الاخذ بعصمة الامامة استنادا الى وجود آثار فى فكر ابن تومرت لمذهب ابن حزم الظاهرى الذى لا يرى بهذه العصمة فى القول :

« أنه يقع من الانبياء السهو من غير قصد ويقع عنها أيضا قصد التىء يريدون به وجه الله تعالى والتقريب به منه فيوافق خلاف مراد الله تعالى الا أنه لا يقرهم على ذلك ولا يداثر وقوعه منهم ويظهر عز وجل ذلك لعباده ويبين لهم » (٤٤) . وسبق الى هذا الرأى المستشرق الاسبانى أنخل جنثالت بالنثيا فى قوله : « وقد مال محمد بن تومرت مهدى الموحدين الى مذهب ابن حزم اذ وجد فيه ما يؤيد دعوته ووصل نفر من فقهاء الحزمية الى كبار المناصب » (٤٥) . كذلك رأى جولد تسيهر (٤٦) تأثر المهدى بابن حزم من خلال التشابه الكبير فى مواقفهما من المالكية ومن صفات الله واعتمادها على الظاهر فى مسائل كثيرة . ومع ذلك ، فان عصمة الامامة عند ابن تومرت يؤكدها آخرون مثل صاحب « المعجب » (٤٧)

---

(٤٤) ابن حزم ، الفصل فى الملل والنحل ، ج ٤ ، ص ٢ — ٣ .

(٤٥) انخل جنثالت بالنثيا : تاريخ الفكر الاندلسى ، ص ٢٣٨ .

(٤٦) عن الجرارى ، الموحدون ، ص ١٠٩ . وتظهر سلفية ابن تومرت الظاهرية فى مواضع منها حديثة عن أسماء الله الحسنى التى لا يجوز فيها فى رأيه قياس او اشتقاق أو اصلاح ، فعنده أن : « أسماء البارى سبحانه موقوفة على اذنه لا يسمى الا بما يسمى به نفسه فى كتابه أو على لسان نبيه لا يجوز القياس والاشتقاق والاصطلاح فى أسمائه ويسمى المخلوق فقيها سخيا لعلمه وكرمه ولا يقاس عليه الخالق سبحانه ، ويسمى المخلوق راميا قائلا لرميه وقتله ، ولا يقاس عليه الخالق سبحانه ويسمى المخلوق زيدا وعمرا يولد ليس له اسم فيصطلح عليه اسمه وليس للمخلوق أن يتحكم على خالقه فيسميه بما لم يسم به نفسه فى كتابه ، ما نفاه عن نفسه فى كتابه نفاه عنه ، وما أثبته لنفسه أثبته له من غير تبديل ولا تشبيه ولا تكييف نسميه بأسمائه الحسنى وندعوه بها » . (انظر ، البيذق ، أعز ما يطلب ، فصل فى أسماء الله تعالى ، ص ٢٣٧) .

(٤٧) المراكشى ، المعجب ، ص ١١٢ .

وصاحب « الاستقصا » • وهذا الاخير قد وصف ابن تومرت قائلا : «أنه مأمور بنوع من الوحى والالهام •• وعليه نزعة خارجية •• ويبشر الى الكوائن الآتية » [٤٨] • وفى هذا الصدد ، يذكر البيذق أن المهدى كان يردد على طلبته « انما الله اله واحد ، والرسول حق ، والمهدى حق ، فاقرأوا حديث أبى داوود تعرفوا الامر ، وعليكم بالسمع والطاعة » [٤٩] كما يذكر أيضا أن المهدى قال لاتباعه « لو شئت لعددت خلفائكم خليفة خليفة » [٥٠]

والظاهر عموما فى الدعوة الموحدية وأصولها الفكرية أن ابن تومرت كقاعدة كان يقرن أقواله وأفعاله بسمات الصوفية فى ميراث بيئته • فعرف عن مهدى الموحدين أنه كان يلبس العباءة المرقعة والملابس الصوفية ، وتسمى بالعبد الفقير الى الله [٥١] ، ومال الى التقشف فى مأكله أيضا لا يزيد عما تقدمه له أخته من رغيف بقليل من سمن أو زيت ، ولم يتغير عن هذه الحياة حتى عندما أقبلت عليه الدنيا • وساءه جدا عندما شاهد أصحابه يوما يتنافسون على ما كسبوه من غنائم ، فأمر بجمع الغنائم

---

(٤٨) السلاوى ، الاستقصا ، ج ٢ ، ص ٩٤ .

(٤٩) البيذق ، أخبار المهدى ، ص ١٧ .

(٥٠) البيذق ، نفسه . ابن حزم ، الفصل فى الملل والنحل ، ج ٤ ، ص ١٨٨ وقد قال المهدى عن أمامته : « .. ما من زمان الا وفيه امام ، قائم بالحق فى أرضه من آدم الى نوح ، ومن بعده الى ابراهيم » قال الله تعالى : « أنى جاعلك للناس اماما ومن ذريتى قال لا ينال المهدى الظالمين » . سورة البقرة آية ١٢٤ . أنظر أيضا : نجاح صلاح الدين القابسى ، رحلة ابن رشيد السبتى ، جامعة عين شمس ، ١٩٧٨ ، ص ٥ .

(٥١) السلاوى ، المصدر السابق . آدم ميتز ، الحضارة الاسلامية ، ج ٢ ، ص ٢٢ ، أنظر : أيضا :

— Amedroz; Notes on Some Sufi Lives, London, 1916, p. 558.

وأحراقها جميعا ، وقال لهم : « من كان يتبعنى لاجل الدنيا فليس لـــه عندى الا ما رأى ، ومن يتبعنى للاخره فجزاءه عند الله » [٥٢] وكان دائما ما يتمثل بهذا البيت :

تجـرد مـن الـدنيا فانـك انمـا
خـرجت الى الـدنيا وأنت مجـرد

وتمسك بقول أبى الطيب المتنبى عن الموت :

اذا غامـــرت فى شرف مـــروم
فلا تقنـع بمـا دون النجــــوم
فطعم المـــوت فى أمـــر حقيـر
كطعم المـوت فى أمـــر عظيم [٥٣]

وبلغ ابن تومرت فى تنسكه الصوفى الى حد أن ظل حصـــورا لا يأتى النساء حتى أنه كان « شديد التقشف والزهد والورع ، لم يلبس قط سوى ثياب الصـــوف من قميـــص وسراويل • ولا يقبـــل على شىء من متـــاع الدنيا»[٥٤] • ويقول ابن خلدون : « هو بحالة من التقشف والحصر والصبر على المكارهة والتقلل من الدنيا »[٥٥] • لذلك جاءت مؤلفات ابن تومرت فى نفس المجال ، وعلى حد قول صاحب الحلل الموشية : « انه ألـــف لهم كتابا سماه بالتوحيد باللسان البربرى وهـــو سبعة أحـــزاب بعدد أيام الجمعة وأمرهم بقراءة حزب واحد منه اثر صلاة الصبح بعد الفراغ من حـــزب

---

(٥٢) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٢٥٥ •
(٥٣) ابن تغرى بردى ، نفسه •
(٥٤) ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ج ٢ ، ص ٥٢ (طبعة بيروت) •
(٥٥) ابن خلدون ، المقدمة ، ط بولاق ، ص ٢٢ • أنظر أيضا :
— Amedroz, Op. Cit., p. 558.

القرآن • وهو يحتوى على معرفة الله تعالى وسائر العقائد كالعلم بحقيقة القضاء والقدر والايمان بما يجب الله تعالى وما يستحيل عليه وما يجــور على المسلم من الامربالمعروف والنهى عن المنــكر ووافق بينهم وألف كتابا سماه بالقواعد وآخر بالامامة »[٥٦] • ومن ثم فقد تسمى العارفون بتعاليم كتاب التوحيد بالموحدين وقال لهم المهدى من لا يحفظ هذا التوحيد فليس بموحد ، وانما هو كافر لا تجوز امامته ولا تؤكل ذبيحته •

وكانت الوقعة الحربية التاسعة فى تاريخ حروب الموحدين والمرابطين، المعروفة باسم البحيرة (٥٢٤هـ — ١١٣٠م) مناسبة أظهرت بشكل واضح ما تضمنته الدعــوة الموحـــــدية أصــول فكرها فى المــيراث المــذهبى الاجتماعى[٥٧] •

فالهزيمة الفادحة التى تلقاها الموحدون فى هذه الوقعة ، وأعقبها موت المهدى بعد ثلاث سنوات ، قد استدعت أكثر من أى وقت مضى ذلك المسلك السياسى — المشار اليه عاليا — فى الاستناد الى القول بعصمة الامامة والى مسايرة فكرة الميراث البيئى للمقولات الشعبية الغيبية المتداولة فى معتقدات البوادى المغــربية عامة وبين تجمعاتها الصــوفية التقليدية على وجــه الخصوص •

وترتبط نهاية حياة المهدى ابن تومرت بحوار الفكر البيئى أو الغيبى عن موته ، مما يعنى ارتباط فكر العقيدة الموحدية بالتراث البيئى للقبــائل المغربية • ومن ثم تبلغ تعاليمه المرشدة بين الموحدين درجة القدسية تلى

---

(٥٦) مؤلف مجهول ، الحلل ، ص ٨٩ — ٩٠ .
(٥٧) البيذق ، أخبار المهدى ، ص ٣٨ .

درجة القرآن فى الاسلام عموما ، بحيث أصبح قبره فى تينملل قبلة هؤلاء ، يهرعون اليـــه فى أزماتهم ، ويتبركـــون بأثره ، ويشفعـــون به فى أوقات شدائدهم : وصار يقينا بذلك أن درج المهدى الموحدى فى قائمة المهدويين فى تاريخ الاسلام ، فهو يعد المهدى المنتظر الثانى بعـــد عبيد الله الفاطمى (مهدى سجلماسة)[٥٨] .

ومع ذلك ، فقد كان لهزيمة الموحدين فى وقعة البحيرة جانب قبـــلى يتعلق بدا يعرف بالتمييز ، حسبما أوردناه آنفا عندما تعرضـــنا للاحداث السياسية والحربية وأثرها فى قيام الدولة الموحدية . وقد تبين لنا عنـــد حديثنا عن التمييز أن الامر بالنسبة للقبائل يتعلق أيضا ببذور قوية ذات طابع اجتماعى حملها الميراث الفكرى المغربى الذى استمدت منه الحـــركة الموحدية دعوتها واستيقظت فى اطاره قبائلها باسم الثورة المـــذهبية على فقهاء المالكية والثورة السياسية على الحكم المرابطى .

وهذا يعنى أن الاصل فى الثورة الموحدية وفى التفاف القبائل المغربية حولها لم يكن يستهدف الاخذ بمذهب من مذاهب الشرق الفقهية كما يعنى أن الوضع السياسى والمذهبى للخلافة الامامية فى الشرق لم يكن الدافـــع الذى جمع هذه القبائل للخـــروج وراء الموحـــدين فى حرب جهادية تتفجر أساسا فى حياة ابن تومرت ضد المرابطين وفقهاء مذهبهم المالكى . كذلك لم يكن الخلاف فى التفسير الفقهى بين ما ذهبت اليه المالكية وما جاءت به المرشدية الموحدية السبب فى صمود المصامدة وراء الموحدين بعد نكستهم

(٥٨) بويع مهدى سجلسماسة فى سنة ٢٩٧ هـ أى قبل مبايعة ابن تومرت بنحو مائة وثلاث وتسعين سنة ، فى سنة ٥١٥ هـ (أنظر ، الجرارى ، الموحدون ، ص ١٠٥) .

الكبرى فى وقعة البحيرة . وأغلب الظن أن هذه الدوافع فى مجموعها تلاقت مع ما كانت تحمله البـوادى المغـربية وقبائلها من ميراث الفكر الذهبى الاجتماعى فى المغرب الرافض للاحتـكار المذهبى المالكى ومن ثم للحـكم المرابطى وما كان يحمله من سلبيات اجتماعية . لذلك ، جاء فكر الموحدين ترجمة صادقة لهذا التلاقى فيما رأيناه من شواهد لم تبعد كثيرا عن أصول هذا الفكر .

(٢)

فقهاء الفكر الصوفى المغاربة فى المشرق

(أ) مدرسة الاسكندرية السنية :

لم تكن قوافل الحج المغربية فى القرنين الخامس والسادس تستهدف مجرد أداء فريضة الحج وانما اقترن هذا الهدف بفكرة الجهـاد والاعتقاد بأن الاقامة فى الرباطات والحياة فى الثغور نوع من الجهاد ، وأن من يموت أثناء مقامه بها يعد شهيدا . لذلك جذبت الاسكندرية عددا كبيرا من علماء المسلمين عامة ؛ ومن علماء المغرب والاندلس خاصـة . ولم يكن هـؤلاء العلماء يكتفون بأخذ العلم وتلقيه أو سماعه بل شـاركوا فى التـدريس ، وترأسوا حلقات الدرس وبالتالى ذاع صيت الاسـكندرية كمركز لعلوم الحديث والفقه على المذهبين الشافعى والمالكى على عكس ما كان يتوقع من شهرة الاسكندرية كمركز للتشيع فى عهد الدولة الفاطمية(٥٩) .

وفى هذا الصدد ، بلغ النفوذ المغربى فى مدرسة الاسكندرية الى حد

---

(٥٩) د . سعد زغلول : الاثر المغربى فى المجتمع السكندرى ، ص ٢٢٩ .

التمكين من نقل مكتبتها الى المغرب وهى المكتبة التى كان عماد الدولة ابن أبى الفضل بن المحترق[٦٠] قد أثراها بعدد ضخم من الكتب • وكان نقلها الى المغرب بعد وفاته : « مما يعنى أن علماء المغـاربة والاندلسـيين كان لهم بالاسكندرية شأن وأى شأن »[٦١] • فهل لنا وقفة أمام الترجمة لعدد من هؤلاء العلماء ؟

فمن أهم من برز من شيوخ الاسـكندرية وأعلامها فى هـذا العصر الفاطمى عالم أندلسى ينتسب الى ثغر طرطوشة وأعنى به الفقيه العالم أبو بكر محمد بن الوليد بن محمد بن خلـف بن سـليمان بن أيوب الفهـرى الطرطوشى الاندلسى نزيل الاسكندرية المعروف بابن أبى رندقة • ولد فى عام ٤٥١هـ ــ ١٠٥٩م فى مدينة طرطـوشة ، ورحـل الى عـدد من المدن الاندلسية الكبيرة للاستزادة من العلم ، فذهب الى سرقسطة واتصل بكبير علمائها القاضى أبى الوليد الباجى[٦٢] وأخذ عنه مسائل الخلاف ، وسمع منه وأجاز له •

غادر الطرطوشى وطنه فى سنة ٤٧٦هـ ــ ١٠٨٥م ليبدأ رحلتـه الى المشرق فى الخامسة والعشرين من عمره أولا لاداء فريضة الحج ثم لتلقى العلم الاسلامى فى المشرق • فـرحل الى مكة حيث أدى الحج ومنها الى

---

(٦٠) المقريزى ، الخطط ، ط مصر ، ١٣٢٤ هـ ، ج ٢ ، ص ٢٥٤ •
(٦١) د • سعد زغلول ، المرجع السابق ، ص ٢٣١ •
(٦٢) العماد الاصفهانى ، فريدة القصر ، ج ٣ ، ص ٤٧٢ . المقرى ، نفح ، ج ١ ، ص ٥٠٩ . راجع أيضا : د • عبد العزيز سالم ، تاريخ الاسكندرية ، ص ٢٢٢ ــ ٢٢٤ • د • جمال الدين الشيال ، أعلام الاسكندرية فى العصر الاسلامى ، ص ٥٠ ــ ١٠٠ ، وكتابة : أبو بكر الطرطوشى العالم الزاهد الثائر ، فى سلسلة أعلام العرب عدد ٧٤ ، لسنة ١٩٦٨ •

بغداد حيث كان يحكم نظام الملك — الذى يعتبر أول من أنشأ معاهد مستقلة للتعليم هى المدارس ، وأشهرها المدرسة النظامية ببغداد التى حملت اسمه. وقد شهد الطرطوشى نظامية بغـداد وهى فى أوج عظمتهـا ، وتتلمذ رغم مالكيته على يد معظم فقهائها ، وجلهم من الشافعيـة ومنهم أبو حامـد الغزالى وأبى بكر الشاشى[٦٣] .

وكان من الطبيعى أن يتأثر أثناء اقامته فى بغداد والبصرة بهـؤلاء الفقهاء والزهاد وعنهم أخذ نزعته فى الزهد والورع والتقشف حتى عده من كتب عنه واحدا من أقطاب المتصوفة الزاهدين .

ثم ترك العراق فيما يقرب من سنة ٤٨٠هـ — ١٠٩٥م وهـو فى سن الثلاثين الى الشام ، وجال بعدها فى عدد من المدن الشامية آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر ورحل عنها سنة ٤٩٠هـ — ١٠٩٧م وهو فى سن الاربعين الى الاسكندرية . وفيها عاصر الطرطوشى محنة مصر على يد الوزير الافضل شاهنشاه بدر الجمالى عندما قتل نزار بن المستنصر الفاطمى ، وما صاحبها من عدم اقامة الشعائر الدينية ، ومنها عدم اقامة صلاة الجمعة فى مساجدها خوفا من الفتن .

حاول الطرطوشى اصلاح الاحوال بمقابلته الشهيرة للملك الافضل شاهنشاه . ثم عاد بعدها الى الاسكندرية فيتخذها منزلا ويبدأ فيها نشاطه الفكرى الذى عارض به مكين الدولة أبو طالب أحمد بن عبد المجيد بن أحمد بن الحسن بن حديد قاضى المدينة بسبب ترفه وبذخه واقباله على الدنيا ، ثم اعتقله الافضل وحدد اقامته حتى مقتـل الافضـل فى سـنة ٥١٥هـ —

(٦٣) ابن خلدون ، العبر ، ج ٤ ، ص ٤٨ ، المقرى ، نفح ، ج ٢ ، ص ٢٩٣

١٢١١م . فلما تولى المأمون البطائحى الوزارة أطلق سراحه ، فعاد الطرطوشى الى الاسكندرية حيث انكب على تأليف أهم كتبه «سراج الملوك» الذى استغرق منه سنة كاملة من شوال ٥١٥هـ الى شوال ٥١٦هـ/١١٢١ — ١١٢٢م[٦٤] .

كان الطرطوشى أديبا وشاعرا[٦٥] ، فأناع فى الاسكندرية علما وفيرا وتتلمذ على يديه عدد كبير من الفقهاء من أهل الاسكندرية والوافدين اليها لا سيما من المغاربة . وكان قد كتب الى يوسف بن تاشفين يدعوه الى تحرى العدالة والدين ، كما كتب اليه القاضى عياض من سبتة وطلب اجازته بجميع رواياته ومصنفاته ، فأجازه رغم عدم رؤيته ومقابلته . وحرص محمد بن تومرت على مقابلته والاخذ عليه أثناء رحلته المشرقية ، وتوفى الطرطوشى فى سنة ٥٢٠هـ / ١١٢٦ــ١١٢٧م[٦٦] .

وكان كتاب « العوفية » من الذخائر العلمية التى عرفتها خزانة سلطان المغرب عن مدرسة الاسكندرية ، وعلى حد قول صاحب الديباج المذهب : « ولما قدم من المغرب ابنا الامام أبى زيد وأخوه نسخاه وأنفقا على نسخه مالا عظيما . وهو الان فى خزانة سلطان فاس بالمغرب »[٦٧] . والمعروف أن مؤلف « العوفية » هو نفيس الدين أبو الحرم المكى ، والعوفية هى نسبة

---

(٦٤) العماد ، فريدة القصر ، ج ٢ ص ٢٩٠ . وراجع ترجمته فى : ابن بشكوال ، كتاب الصلة فى تاريخ أئمة الاندلس ، مجلد ٢ ، مدريد ١٨٨٣ ، ص٥١٨ أنظر أيضا : د . سالم ، تاريخ الاسكندرية ، ص ٢٢٣ .

(٦٥) العماد ، فريدة القصر ، ج ٢ ، ص ٢٩١ — ٢٩٢ .

(٦٦) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ١٠٠ .

(٦٧) ابن فرحون ، الديباج المذهب ، ص ٩٥ — ٩٦ .

الى أبيه أبى الطاهر بن عـوف[٦٨] الذى كان أول من درس فى المدرسـة الصوفية أو الحافظية الفاطمية[٦٩] وحظى أبو عوف بمكانة مرموقة لدى صلاح الدين الايوبى الذى أصدر له سجلا خاصا جاء فيه « .. فليعتمد رعاية المدرسة المذكورة ومن احتوت عليه من الطلبة واعزازهم ، والاشتمال عليهم ، والاهتمام بمصالحهم ، والتوخى على منـافعهم .. »[٧٠] . ومن هؤلاء التلاميذ المذكورين فى السجل عدد كبير من المغاربة ، بل أن ابن عوف نفسه كان ممن تتلمذ على يد الطرطوشى فى نفس المدرسة . ومن الجـدير بالذكر أن الطرطوشى تزوج خالة أبى الطاهر بن عوف[٧١] .

ومما لا شك فيه أن الاثر الذى أحدثته المدرسة الفقهية السـكندرية على تلاميذها يتضمن مؤثرات اسلامية شرقية بسبب اشتراك الفقيه العالم الحافظ أبى الطاهر أحمد بن محمد السلفى[٧٢] فى التدريس بها فى المدرسة

---

(٦٨) د . سالم ، تاريخ الاسكندرية ، ص ٢١٨ . حسن حسنى عبـد الوهاب ، الاسكندرية فى العصر الاسلامى ، ص ٣٨٣ ، الشيال : أعـلام الاسكندرية ، ص ١١٢ — ١١٥ .

(٦٩) أسسها الوزير رضوان بن ولختشى فى ثغر الاسكندرية فى سنة ٥٧٢هـ (١١٣٨ م) فى خلافة الحافظ لدين الله ، وتولى التدريس فيها الفقيه أبو طاهـر بن عوف شيخ المالكية بالثغر . د . سالم ، المرجع السابق .

(٧٠) القلقشندى ، صبح الاعشى ، ج ١٠ ، ص ٤٥٨ — ٤٥٩ . وقد نشر النص بكامله د . جمال الدين الشيال فى : أعلام الاسكندرية فى العصر الاسلامى ، ص ١٢٦ — ١٢٧ .

(٧١) السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ٢١٢ — ٢١٣ . د . سالم ، تاريخ الاسكندرية ، ص ٢٢٣ .

(٧٢) ينتسب السلفى الى جده الاخير ابراهيم سلفه ، وسلفه بمعنى ثلاث شفاه لان شفته الواحدة كانت مشقوقة ، فصارت مثل شفتين غير الاصليـة ، وأن هذا اللقب فارسى الاصل ، لانه مركب من كلمتى « سى » بمعنى ثلاث و «لبة» أو « لفة » بمعنى شفة . أنظر : ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ترجمة رقم ٤٤ ج ١ ، ص ١٠٧ ، العبدرى ، الرحلة ، ص ١١٤ . أنظر عنها : الشيـال ، نفس المرجع ، ص ١٣٢ . أنظر أيضا : د . سالم ، تاريخ الاسكندرية ، ص ٢١٩ .

المنسوبة اليه وهى المدرسة السلفية أو العــادلية نسبة للوزير العادل على بن الســلار .

وقد تتلمذ فى المدرسة السلفية عدد كبير من علماء المغرب والاندلس منهم :

— أبو العباس أحمد بن عمار النابلى ، ذكر السلفى أنه كتب عنه شيئا من الحديث(٧٣) .

— أبو محمد عبد الله بن سليمان بن منصور التاهرتى من أهل تاهرت حيث قال السلفى فى ترجمته : « كان من الفضــلاء فى الفقه والادب ، وله شعر وكتب عنى من الحديث كثير سنة ٥٢٧هـ بعد رجوعه من الحجاز » . وقال أنه روى هذه الاحاديث التى سمعها فى المغرب بعد عودته اليه ، قالَ : « ثم رجع الى المغرب وروى عنى هناك » .

— وأخذ عنــه من علماء الاندلس أبو الوليد يوســف بن المفضــل القبذاقى(٧٤) .

— وتلميذ رابع عرف لكثرة رحلاته بالسايح ، وهو أبو محمد عبد الله أبى الطيب البينوشى ، مغربى الاصل ، لقى فى ســياحاته المتعــددة شيوخ المغرب بمصر والشــام والعــراق والحجاز ، فصــحبهم ، ثم اســتوطن الاسكندرية وأخذ فيها عن السلفى فى أحاديثه(٧٥) .

— ومن تلاميذه أيضا فى الاسكندرية مؤرخ مغربى ، هو أبو الحسن

---

(٧٣) هو من نابل اقليم بين تونس وسوسة .
(٧٤) الشيال ، المرجع السابق ، ص ٦ — ١٤٧ .
(٧٥) معجم السلفى ، نسخة مصورة بكلية الاداب جامعة الاسكندرية ، ج ٢ ، ص ١٢٩ — ١٣٠ . الشيال ، نفس المرجع ، ص ١٤٧ .

على بن عبد الله بن محجوب الطرابلسى ، قال عنـــه : « .. وكان له اهتمام بالتواريخ وصنف الطرابلسى تواريخا وقفت عليه،وانتخبت منه ما استغربته وحدثنى به »(٧٦) .

— بل ان من تلامذته أيضا العالم الموحدى الشهير أبو عمر أحمد بن هارون النغزى الشاطبى الذى استشهد فى سنة ٦٠٩هـ — ١٢١٢م فى موقعة العقاب التى انهزم فيها الموحدون فى الاندلس هزيمتهم الكبرى المعـــروفة بلاس نافاس دى تولوسا(٧٧) .

وتوفى السلفى فى سنة ٥٧٦هـ — ١١٨٠م بعد أن جاوز المـــائة عام ، وبعد أن خلف مدرسة كان لها آثار هامة على معركة الفكر بالمشرق والمغرب على الســـواء .

ولم تلبث مدرسة الاسكندرية أن تحولت فى القرن السابع الهجرى (١٣م) الى مدرسة للتصوف بعد أن ذاعت شهرتها فى الحديث والفقه فى أيام أبى عوفة والسلفى .

ويهمنا أن نذكر من علماء الفكر الصوفى المغربى فى الاسكندرية قطب الاسكندرية الشهير أبو الحسن الشاذلى الذى شهدت حياته أكثر من صفحة تعلقت بأحداث المغرب والمشرق فى ذات الوقت .

ولد أبو الحسن الشاذلى فى سنة ٥٩٣هـ — ١١٩٧م فى اقليم غمـــارة بالقرب من مدينة سبتة . وهو تقى الدين أبو الحسن على بن عبد الجبار بن

---

(٧٦) الشيال ، نفس المرجع ، ص ١٥٠ .

(٧٧) ابن الابار ، التكملة لكتاب الصلة ، ترجمة رقم ٢٦٢ . المقرى ، نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ٢٢٩ — ٢٣٢ . د . سالم ، المغرب الكبير ، ط ١٩٦٦ ، ص ٨٢٢ — ٨٢٧ .

يوسف . درس فى غمارة علومه الاولى مع حفظ القرآن ، ورحل الى تونس للاستزادة من علوم الشرق . ولم يتجه الى فاس أو مراكش مراكز العلم المغربية فى ذلك الوقت لمـا كانت تعانيه من مشاكل سياسية ومذهبية .

وكان المغرب فى النصف الثانى من القرن ٦هـ (١٢م) قد عرف الصوفى الكبير الشيخ أبو يعزى بن يلنور . وفاقت شهرة هـذا الشيخ وتتلمذ على يديه عدد من علماء المغرب والاندلس ، منهم القطب الغوث أبو مدين[٧٨] التلمسانى الذى رحل الى المشرق واستزاد على يد عبـد القادر الجيلانى قطب العراق . وتتلمذ على يدى الغوث بعد عودته الى بجاية بالمغرب عدد كبير منهم المتصوف الكبير محى الدين بن عربى[٧٩] .

وقد لاحظنا اضطهاد الموحدين لهؤلاء الفقهاء وامتحانهم لهم ومنهم الفقيه ابن رشد[٨٠] الذى تعرض لمحنة كبرى فى سنة ٥٩١هـ — ١١٩٤م على يدى يعقوب المنصور الموحدى وكذلك اضطهاد الصوفى أبو مدين الغـوث

---

(٧٨) ابو العباس احمد بن احمد الغبرينى (ت ٧٠٤ هـ / ١٣٠٤ م) : عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء فى المائة السابعة ببجاية ، تحقيق الاستاذ ، رابح احمد بونار ، الجزائر ١٣٨٩ هـ / ١٩٧٠ م ، ص ٥٥ — ٥٦ .

(٧٩) ابو العباس احمد بن احمد الغبرينى ، عنوان الدراية ص ١٥٨ — ١٦٠ . انظر ايضا : المقرى ، نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ٣٦١ — ٣٨٤ ، ج ٤ ، ص ٢٠٧ .

(٨٠) لقد كانت نكبة الفقيه الفيلسوف ابن رشد من سقطات يعقـوب المنصور ، ولكن كان متأثرا فى ذلك بضغط الفقهاء والطلبة والموحدين ، ولكنه عوض طلبة علم الحديث اعظم عناية ، حتى نالوا على يديه من الرعاية والنفـوذ مالم ينالوه أيام ابيه وجده . ولقد اضطر المنصور ذات يوم أن يصرح امام سائـر الموحدين وقد بلغه موقفهم من الطلبة قائلا : « يامعشر الموحدين أنتم قبائل ، فمن نابه منكم أمر فزع الى قبيله ، وهؤلاء الطلبة لاقبيل لهم سواى ، فمهما نابهم أمر فأنا ملجؤهم ، والى فزعهم ، والى ينتسبون » انظر : المراكشى ، المعجب ص ١٥٨

التلمسانى الذى استدعى من بجاية لمحاكمته وتوفى فور وصوله الى تلمسان سنة ٥٩٤هـ[٨١] .

(ب) أبو الحسن الشاذلى ومدرسته :

ومثل هذا الجو من الاضطهاد والاضطراب دفع الكثير من رجال الفكر والفلسفة والتصوف الى الرحيل عن المغرب ، وهذا ما قام به أبو الحسن الشاذلى بعد أن تتلمذ لفترة فى فاس على يد أبى عبد الله بن حرازم[٨٢] .

رحل الشاذلى فيما يقرب من سنة ٦١٥هـ — ١٢١٨م قاصداً تونس أولا ومنها الى الاسكندرية ثم الحجاز ، وفلسطين والشام والعراق مؤكدا اتصاله بعلمائها وفقهائها[٨٣] .

ثم عاد الى المغرب فلقى الشيخ عبد السلام بن مشيش وأخذ عنه . ولما أصبح أبو الحسن أهلا للولاية لصفاء نفسه ، وبالتالى لوراثة القطبانية أمرة أستاذه بالرحيل الى تونس حيث قال له :« .. ارحل الى افريقية واسكن بها بلدة تسمى شاذلة ، فان الله يسميك الشاذلى ، وبعد ذلك تنتقل الى مدينة تونس ، ويؤتى عيك من قبل السلطنة وبعد ذلك تنتقل الى بلاد المشرق وترث القطبانية »[٨٤] .

وفى شاذلة عكف أبو الحسن مثل أستاذه ابن مشيش فى غار ، واتخذه رباطا يتعبد فيه[٨٥] . وبدأ يخرج عن رباطه بعض الوقت يقيم فى تونس

---

(٨١) أبو العباس أحمد بن أحمد الغبرينى ، المصدر السابق ص ٦٠ .

(٨٢) يقع ضريحه على بعد ١٥ كلم من فاس ، واليه تنسب المياه المعدنية المعروفة باسمه (ماء سيدى حرازم) .

(٨٣) نفح الطيب ج ١ ص ٤١٩ ومابعدها . الشيال ، المرجع السابق ص ١٦٥

(٨٤) الشيال ، المرجع السابق ص ١٦٩

(٨٥) ليفى بروفنسال ، أوراق ابن مرزوق (نخب من كتاب المسند الصحيح الحسن فى مآثر مولانا الحسن أبى الطيب ابن مرزوق) باريس ١٩٢٥ ، ص ٢٠

يدرس وينشر طريقته بين مريديه وتلاميذه ، مما أدى الى اقبال الناس على دروسه ومواكبه الى حد أنه قيل عنه : « كان الشيخ أبو الحسن اذا ركب تمشى أكابر الفقراء وأكابر الدنيا حوله وتنشر الاعلام على رأسه وتضرب الكوسات بين يديه »(٨٦) .

وأثار هذا الاقبال الحاسدين عليه(٨٧) حتى خرج من تونس الحفصية فى عهد أبى زكريا الحفصى بعد براءته حاجا . وتطاولت أيدى الحاسدين عليه الذين بالغوا فى الكيد له الى حد أنهم أرسلوا الى الملك الكامل الايوبى سلطان مصر رسالة جاء فيها أنه : « علوى يسعى الى اعادة ملك الفاطميين وأن هذا الواصل شوش علينا بلادنا وكذلك يفعل ببلادكم »(٨٨) . فألقى القبض عليه بمجرد وصوله الى مصر ثم أفرج عنه بثبوت براءته بل اقترب من السلطة الحاكمة ، وطاب له المقام فى مصر لفترة قبل أن يعود الى تونس للقاء تلاميذه أبى العباس المرسى الذى صحبه معه عائدا من جديد الى الاسكندرية فى سنة ٦٤٢ هـ / ١٢٤٥ م . وكان بين هذه الصحبة أيضا خادمه ، أبو العزايم ماضى بن سلطان ، والحاج محمد بن القرطبى ، وأبو عبد الله البجائى ، وأبو الحسن البجائى . وسيكون لهؤلاء فيما بعد مع تلاميذه المبرزين أمثال أبى العباس المرسى وأبى القاسم محمد بن منصور القباري قيادة الحياة الفكرية والروحية فى المدينة (٨٩) .

ولم يقتصر نشاط أبى الحسن الشاذلى على مدرسته بالاسكندرية بل كانت له مدرسة أخرى متنقلة بين مدن مصر ، فقد زار دمنهور ودمياط

(٨٦) الشيال : المرجع السابق ، ص ١٧١
(٨٧) الشيال ، نفس المرجع ، ص ١٧٣ .
(٨٨) الشيال ، نفس المرجع ، ص ١٧٣
(٨٩) ابن رشيد السبتى ، الرحلة ، تحقيق نجاح صلاح الدين ، ص ٨٤

والمنصورة ، ومعظم مدن صعيد مصر ، وتردد كثيرا على القاهرة [٩٠] .

ومن ثم اتصل بالكثير من علماء مصر أمثال الشيخ عز الدين بن عبد السلام ، وتقى الدين بن دقيق السعيد قاضى القاهرة [٩١] ، وعبد العظيم المنذرى شيخ المدرسة الكاملية ، ومحى الدين بن سراقة ، والشيخ مكين الدين الاسمر عبد الله بن منصور الاسكندرانى شيخ القراء بالاسكندرية (ت ٦٩٢ هـ) [٩٢] ، وأبى عمرو عثمان بن الحاجب عالم النحو والعربية ، وابن الصلاح مفتى الشام [٩٣] .

وكان أبو الحسن دائم الحج عن طريق صعيد مصر ، وقد بـات فى حمثيرا سنة ٦٥٦ هـ بالقرب من عيذاب على البحر الاحمر — وكان قـد أوصى بأبى العباس المرسى قبل وفاته بأنه « باب من أبواب الله » . ولم تصدر عنـه أى مصنفات بل كان يردد أن كتبه هى تلاميـذه حيث قال : « كتبى أصحابى » [٩٤] .

---

(٩٠) رغم مانلاحظه من كثرة ترحال أبو الحسن الشاذلى الاأنه لم يطلب له المقام الافى الاسكندرية حيث « .. أن آراءه الصوفية لم تجد لها أمانا الافى الديار المشرقية فاتخذها مقرا له وهناك زادت طريقته وشهرته » أنظر ، ابن رشيـد ، الرحلة ، ص ٨٥ .

(٩١) رغم مانلاحظه من كثرة ترحال أبو الحسن الشاذلى الاأنه لم يطب له المقام الافى الاسكندرية حيث « .. أن آراءه الصوفية لم تجد لها أمانا الافى الديار المشرقية فاتخذها مقرا له وهناك زادت طريقته وشهرته » . أنظر ، ابن رشيد ، الرحلة ، ص ٨٥ .

(٩٢) وعنه يقول العبدرى فى رحلته : « .. عالم الديار المصرية تقى الدين أبو الفتح محمد بن على بن وهب بن مطيع بن أبى الطاعة القشيرى ويعرف بابن دقيق العبد صاحب المدرسة الكاملية ، لقيت منه حبرا يحق له اللقاء وبحرا مـن علم لا تكدره الدلاء .. ما يلقى له فى سعة المعارف نصير او يوجد من يماثله فى صحة البحث والتنقير ، وله فى البلاد ذكر شهير .. فهو الان قطب مصر وعلمها » . الرحلة ، ص ١٣٨ — ١٣٩ . وهو أحد شيوخ الرحالة ابن رشيد السبتى (أنظر الرحلة ، ص ١٦٣) أنظر أيضا : السبتى ، مستفاد الرحلة والاغتراب ، ص ٢٠٨

(٩٣) السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ٢٤٠ .

(٩٤) عن ابن مكين أنظر ، ابن رشيد السبتى ، الرحلة ، ص ١٤ من النص المنشور .

جـ — أبو العباس المرسى ومدرسته :

لا تكاد تذكر الاسكندرية الا بذكر قطبها أبو العباس المرسى وهـو شهاب الدين أبو العباس أحمد بن عمر بن على الخزرجى الانصـارى المرسى البلنسى الذى ينتهى نسبه الى الصحابى الجليل سعد بن عبـادة ولد فى عام ٦١٦ هـ / ١٢١٩ م فى مرسية واليها ينتسب ، واستفاد مـن احتراف التجارة تجارب عديدة . وفى سنة ٦٤٠ هـ / ١٢٤٢ م خرج مـع أسرته لاداء فريضة الحج وكانت رحلة شاقة لاقى فيها الاهوال وأنتهت بغرق والديه ونجاته وأخيه ، واتخذ الاخوان طريقهما الى تونس ، حيث احترف أخوه التجارة بينما انصرف هو لتحصيل العلم واتخذ لنفسه مكتبا فى زاوية الفقيه محرز بن خلف يعلم الصبيان القراءة والكتابة والحساب ويحفظهم القرآن [٩٥] .

سمع أبو العباس أثناء مقامه بتونس بالشيخ أبى الحسن الشـاذلى فسعى الى مقابلته وصحبه الى مصر . وأستخلفه أستاذه أبو الحسـن الشاذلى على شئون الدعوة ، وأعلن هذا الاستخلاف فى حفل جمع فيـه أتباعه بمسجد العطارين بالاسكندرية انفرد بعده أبو العباس بـدروس المدرسة فى الاسكندرية والقاهرة وجلس رسميا مكان أستاذه سنة ٦٥٦ هـ/ ١٢٥٨ م [٩٦] .

وحظى أبو العباس بمكانة علمية عظمى اجتذبت اليه الطلاب والفقهاء

---

(٩٥) المقرى ، نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ٣٨٩—٣٩٠ . الشبال : اعلام الاسكندرية ، ص ١٩٢—١٩٣ .

(٩٦) المقرى ، نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ٣٩٠—٣٩٣ . الشبال : نفس المرجع ، ص ١٩٩—٢٠١ .

من المشرق والمغرب على السواء • وكان كأستاذه عالما لا مصنفات لـه بل خلف عددا من التلاميذ كان كل منهم قطبا من بعده فى الصوفية وعلمـا من أعلام الفكر السكندرى ، منهم :

تاج الدين أبو الفضل أحمد بن محمد بن عبد الكريم المعـروف بابن عطاء الله السكندرى (٦٥٨ — ٧٠٩ هـ / حوالى ١٢٦٠ — ١٣١٠ م) (٩٧) وأبو عبد الله محمد بن سليمان المعافرى الشاطبى (٥٨٥ — ٦٧٢ هـ / ١١٨٩ ١٢٧٤م) (٩٨) • وأبو القاسم محمد بن منصـور بن يحيى اللكى المشهور بالقبارى الاسكندرانى المتوفى سنة ٦٦٢هـ — ١٢٦٤م (٩٨أ) •

توفى أبو العباس المرسى بالاسكندرية فى سنة ٦٨٥هـ — ١٢٨٧م بعد سنوات طالت الى ثلاث وأربعين سـنة نذر نفسه خـلالها لنشر العـلم والمعرفة (٩٨ب) • وعاصر خلالها شيخ طنطا المغربى السيد أحمد البـدوى الذى توفى سنة ٦٧٥هـ — ١٢٧٦م (٩٨ج) •

---

(٩٧) المقرى ، نفح الطيب ، ج ٣ ، ص ٣٤١ . التقى الفاسى ، منتخب المختار أو تاريخ علماء بغداد ، نشر عباس الغزاوى ، بغداد ١٩٣٨ ، ص ٢٠٢ د . سالم تاريخ الاسكندرية ، ص ٥٣٦ .

(٩٨) السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ٣١٥ .

(٩٨أ) السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ٢٤٨ .

(٩٨ب) دفن فى باب مقربة باب البحر ، واصـبح مقبره مزارا ، وأوقفت عليه أوقافا عدة . وفى سنة ٧٠٦هـ — ١٢٠٧م زاره كبير تجار الاسكندرية زين الدين بن القطان الذى بنى على القبر الضريح ذو القبة والمسجد والمأذنة المربعة الشكل — وهى تماثل مآذن مساجد المغرب عموما مما يؤكد مغربية هذا التاجر — وقد خضع المسجد لعدة تجديدات ، ففى سنة ٨٨٢هـ أعاد الامـير قجمـاس الاسحاقى الظاهر والى الاسكندرية بناءه ، وفى سنة ١٠٠٥هـ — ١٥٩٦م جدده الشيخ أبو العباس السنفى الخزرجى ودفن به ، وفى سنة ١١٨٩هـ — ١٧٧٥م زار الاسكندرية الشيخ أبو الحسن على بن عبد الله المغربى فجدده ووسـع بعض أجزائه . أنظر : د. سالم ، تاريخ الاسكندرية ، ص ٤٧٢ ٤٧٦ .

(٩٨ج) السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج١ ، ص ٢٤٠ ، العماد الاصفهانى ، فريدة القصر ، ج٢ ، ص ٣٤٠ .

(د) أشهر علماء المغرب والاندلس فى المشرق :

وبالاضافة الى الشاذلي والمرسى وتلاميذهما لدينا قائمة كبيرة ممن رحل من علماء المغاربة الى المشرق ومنهم :

ـ أبو الحجاج يوسف بن محمد بن فاروا ، الانصارى الاندلسى من ثغر شرق الاندلس من بلاد المغرب ، أصله من مجريط « مولده بأشكرب . وتربيته ونشؤه بجيان دخل بغداد . ورحل الى خراسان فى طلب الحديث ، وتوفى ببلخ ، سلخ من ذى القعدة سنة ٥٤٨هـ ـ ١١٥٣م »(٩٩) .

ـ الفقيه خطاب التلمسانى ، وهو أبو الحسن خطاب بن أحمد بن عدى بن خطاب بن خليفة بن عبد الله بن الوليد بن أبى الوليد . وقد قال عنه الفقيه أبو الحجاج يوسف بن محمد بن مقلد التنوخى الدمشقى ببغداد: « أن خطابا كان اماما فاضلا ، وورد بغداد ، وله شعر حسن ويد باسطة فى اللغة » (١٠٠) .

ـ أبو محمد عبد الله ابن سارة الاشبيلى ، الذى توفى بعد سنة ٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م كان له ذكر كبير فى العراق (١٠١)

ـ أبو الحكم عبيد الله بن المظفر بن عبد الله الحكيم الاديب المعروف بالمغربى ، وهو من أهل المرية انتقل الى المشرق وقد ذكره العماد بقوله : « أنه كان طبيب المارستان المستصحب فى معسكر السلطان السلجوقى ،

---

(٩٩) العماد ، نفسه ، ص ٣٤١ .
(١٠٠) العماد ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣٤١ .
(١٠١) ابن سعيد ، المغرب فى حلى المغرب ، ج ٢ ، ص ١٩ـ٢٠ ، ص ٤٥٦ .

ثم انتقل الى الشام وتوفى ليلة الاربعاء رابع ذى القعدة ٥٤٩ هـ / ١١٥٤ م وقيل فى السنة قبلها بدمشق » [١٠٢]

— أبو الفضل جعفر ابن شرف ، وهو ولد أبى عبد الله محمد مصنف أبكار الافكار توفى حدود سنة ٥٣٠ هـ ، وكان معاصرا لابن رشيق وقد ذكره الفقيه الشيخ اليسع بن عيسى الغافقى الاندلسى بمصر أن أبا الفضل جعفر بن محمد بن شرف شيخه [١٠٣]

— ابن خفاجة الاندلسى ، وهو أبو اسحاق ابراهيم بن أبى الفتح ابن خفاجة الاندلسى الجزيرى ، يكنى أبا اسحاق ، رحل حاجا وسمع بالاسكندرية عن أبى طاهر السفلى . قدم بغداد بعد الستين وخمسمائة ويعتقد أنه مات بها سنة ٥٦١ هـ / ١١٦٧ م [١٠٤] .

— أبو الصلت أمية بن أبى الصلت الاشبيلى ، أديب وشاعر من أهل أشبيلية رحل الى المشرق فأقام بمصر عشرين عاما ، ثم انتقل الى المهدية وتوفى سنة ٥٤٦ هـ / ١١٥٧ م [١٠٥]

---

(١٠٢) العماد ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٣٦ . ويذكر عنه المقرى فى نفح الطيب : « من أهل المرية ، انتقل الى المشرق ، كان كامل الفضيلة جمع بين الادب والحكمة — كان طبيب المرستان المستصحب فى معسكر السلطان السلجوقى حل أو خيم ثم أن أبا الحكم انتقل الى الشام وشهر بدمشق » ج ٢ ، ص ٢٣٣—٢٣٥ .

(١٠٣) العماد ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٧١—١٨٢ .

(١٠٤) السيوطى ، البغية ، ص ٤٠٦ . العماد ، نفسه ، ج ٢ ، ص ١٤٧—١٤٨ ، المقرى ، نفسه ، ج ٢ ص ١٩٥ .

(١٠٥) ويقول ابن سعيد عنه : « يقال ان عمره كان ستين سنة : عشرون فى اشبيلية ، وعشرون فى المهدية وعشرون فى مصر محبوسا فى خزانة الكتب » وعن حسبه يقول : « وكان قد خرج من اشبيلية ، فصحب بالمهدية ملوكها الصنهاجيين ، وتوجه فى رسالة الى مصر ، فسجن فى القاهرة فى خزانة البنود ، وكان فيها خزائن من أصناف الكتب ، فأقام بها نحو عشرين سنة ، فخرج منها

— أبو محمد عبد الله بن سلامة ، أصله من بجاية ، ورحل الى مصر وأقام فترة من الزمن فى الاسكندرية ثم فى مصر ، والصعيد والريف وهــو القائل فيها :

لى حرمة الضيف لو كنتم ذوى كــــرم
وحرمــة الجــار لــو كنتم ذوى حســب
لكنكم يــابنى اللخنــــاء ليس كلكم
فضــل ولا أنتم من طينة العــرب (١٠٦)

— على بن يقظان السبتى ، أصله من مدينة سبتة وقد ذكره بعض أهل الادب بمصر، قال : « ورد الى البلاد المصرية سنة أربع وأربعين وخمسمائة ومضى منها الى اليمن ، ورحل فى غذن من عدن ، وسافر الى المشرق فى طلب الرزق ، وزار العراق ودار الآفاق يمدح أهلها » (١٠٧) .

— ابن شقرون السبتى ، الذى ذكر عنه فى سنة ٥٧٣ هـ / ١١٧٧ م انه كان يعيش بمصر ، وله مدح فى عبد المؤمن بن على خليفة الموحدين (١٠٨)

— يوسف القسطلى ، من الجزيرة الخضراء ، كان فى أواخر المائــة السادسة للهجرة بالمشرق ، وقد مدح عبد المؤمن أيضا (١٠٩) .

— أبو هارون موسى بن عبــد الله ابن ابراهيم القحطانى المغــربى

وقد برع فى علوم كثيرة من حديثه وقديمه » . المغرب فى حلى المغرب ، ج ١ ، رقم ١٨٦ ص ٢٦١—٢٦٢ . وأنظر أيضا : المقرى ، نفح الطيب ، ج ١ ، ص ٥٣٠ ، ج ٢ ، ص ٣٠٧—٣١١ . وأنظر أيضا : ياقوت الحموى ، معجم الادباء القاهرة ، ١٩١١ م ، ج ٢ ، ص ٣٦١ .

(١٠٦) العماد ، نفسه ، ج ١ ، ص ٣٤٣ .

(١٠٧) العماد ، نفسه .

(١٠٨) العماد ، نفسه ، ج ١ ، ص ٣٤٥ .

(١٠٩) العماد ، نفسه ، ج ١ ، ص ٣٤٨ .

الاغماتي رحل الى مصر والحجاز والعراق وخراسان [١١٠] .

ـ الفقيه اليسع بن عيسى بن اليسع أبو يحيى مصنف (كتاب المغرب فى محاسن المغرب) « صنفه بمصر وطرزه بالدولة الصلاحية الناصرية » ، وكان يكتب بالاندلس عن المستنصر بن هود ، ثم رحل الى مصر وأستوطن الاسكندرية ، ثم غادرها الى القاهـرة حيث قربه السلطان صـلاح الدين الايوبى اليه ورفع مكانته وتوفى سنة ٥٧٥ هـ / ١١٧٩ م [١١١] .

ـ أبو عبد الله ، أبو حامد محمد بن عبد الرحيم ، المـازنى القيسى الغرناطى ، ولد عام ٤٧٣ هـ / ١٠٧٧ م ، ونزل بالاسكندرية سنة ٥٠٨ هـ / ١١١٤ م ، فيها سمع عن أبى عبد الله الرازى ، وبمصر عن أبى صادق مرشد بن يحيى المدينى وأبى الحسن الفـراء الموصلى ، وأبى عبد الله محمد بن بركات بن هلال النحوى وغيرهم ، وحدث بدمشق وسمع أيضا بها وببغداد التى قدمها سنة ٥٥٦ هـ / ١٢٦١ م ودخل خراسان وأقام بها مدة ، ثم رجع الى الشام وأقام بحلب سنين وسكن دمشق [١١٢] .

ـ أبو عبد الله محمد بن عبد الملك الخرزجى السعدى القرطبى عاش فى القرن السادس الهجرى ، رحل من الاندلس وقدم مصر وأقام بالقاهرة حيث حدث وسمع من شيوخها ، وأستوطن مصر والقاهرة وتوفى سنـة ٥٨٨ هـ / ١١٩٢ م [١١٣] .

---

(١١٠) العماد ، نفسه ، ج ١ ، ص ٣٠٢ .
(١١١) ابن الابار ، التكملة ، ص ٧٤٤ . ابن سعيد المغربى ، المغرب فى حلى المغرب ، تحقيق د . شوقى ضيف ، القاهرة ، ١٩٦٤ ، ج ٢ ،ص ٨٨
(١١٢) المقرى ، نفح الطيب ، ج ٣ ، ص ٥
(١١٣) المقرى ، نفسه ، ج ٣ ، ص ٧

— أبو بكر بن السراج ، النحوى : هو محمد بن عبد الملك بن محمد بن السراج ، الشنتميرى ، أحد أئمة العربية ، قدم مصر سنة ٥١٥ هـ وأقام بها وأقرأ الناس العربية ثم انتقل الى اليمن . وكانت له حلقة فى جامع مصر لاقراء النحو ، وكثيرا ما كان يحضر عند السلفى مدة مقامه بالفسطاط وتوفى بمصر سنة ٥٤٩ هـ / ١١٥٤ م [١١٤] .

— والفقيه الحافظ أبو الوليد محمد بن عبد الله بن محمد بن خسيرة القرطبى المالكى ، ولد سنة ٤٧٩ هـ ، أخذ الفقه عن بعض الائمة فى قرطبة أمثال القاضى أبى الوليد بن رشد ، والحديث عن أبى عتاب وروى الموطأ عن أبى بحر سفيان بن العاصى بن سفيان ، وأخذ الادب عن أبى الحسن سراج بن عبد الملك بن سراج ، وعن مالك ابن عبد الله العتبى . وخرج من قرطبة عند قيام الفتنة الثانية فرحل الى مصر وأقام بالاسكندرية خوفا من بنى عبد المؤمن بن على ، وكان يعبر عن خوفه بقوله : « كأنى والله بمراكبهم قد وصلت الى الاسكندرية » ثم رحل الى القاهرة وأقام بها مدة وكان يقول : « والله ما يصلون الى مصر ويتأخرون عن هذه البلاد » وظل على ذلك الحال من التنقل والترحال خوفا من بنى عبد المؤمن الموحدين حتى توفى بالهند كما يذكر فى سنة ٥٥١ هـ / ١٢٥٦ م [١١٥] .

— أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن أبى الفضل السلمى ، المرسى ولد بمرسية سنة ٥٧٠ هـ / ١١٧٥ م ونشأ بها ثم أنتقل الى المغرب لفترة من الزمن ثم رحل من المغرب الى مصر فى سنة ٦٠٧ هـ ومنها الى الحجاز ، ثم رحل مع قافلة الحج الى بغداد حيث أقام يسمع ويقرأ

---

(١١٤) المقرى ،نفسه .

(١١٥) المقرى ، نفح الطيب ، ج ٣ ، ص ٩

بالنظامية ، ثم قدم مصر للمرة الثانية ، وخرج منها الى الشام حيث مات بها فى سنة ٦٥٥ هـ / ١٢٥٨ م [١١٦] .

— محمد بن عبد الله بن أحمد بن محمد بن العربى المعافرى من أهل أشبيلية من بيت القاضى أبى بكر بن العربى [١١٧] ، درس بأشبيلية وقرطبة ، ثم رحل فى المرة الاولى الى مصر فأخذ عن أبى طاهر السلفى بالاسكندرية . ورحل مرة ثانية الى المشرق وتنقل بين دمشق وبغداد وأخذ عن كبار علماء هاتين الحاضرتين وجاور بمكة وسمع بها . وعاد من رحلته الثانية الى اشبيلية فى عام ٦٠٤ هـ / ١٢٠٧ م ، فأخذ عنه الطلاب بها وبقرطبة ، ثم رحل الى المشرق فى رحلته الثالثة فى سنة ٦١٢هـ / ١٢١٥م وجاور بالحرمين عدة أعوام وحج مرارا ، وسلك طريق التصوف وغلب عليه الزهد ، وتوفى فى طريق العودة بثغر الاسكندرية سنة ٦١٧ هـ / ١٢٢٠ م [١١٨] .

— على بن ظافر — لم يتحقق من أصله رغم ما كان له من علاقات بمصر الايوبية فى ظل الملك العادل بالاسكندرية ، وقد حكى عن نفسه فى بدائع البداهة فقال : « ومن أعجب ما دهيت به ورميت ... أننى كنت فى خدمة مولانا السلطان الملك الكامل بالاسكندرية سنة احدى وستمائة مع

---

(١١٦) المقرى ، نفسه ، ج ٣ ، ص ١٠ .

(١١٧) ابن بشكوال ، كتاب الصلة ، ص ٦٣٥ ، ص ٢٨٨ ، ورقم ١٢٩٧ ص ٥٩٠—٥٩١ ، حيث يقول : « ختام علماء الاندلس وآخر ائمتها وحفاظها توفى بمدينة فاس سنة ٥٤٣ هـ » انظر ايضا المقرى ، ج ١ ، ص ٤٧٧ . ابن سعيد المغربى ، المغرب فى حلى المغرب ، ج ٢ ، ص ٢٥٤ .

(١١٨) ابن الابار ، التكملة ، رقم ١٥٩٣ . المقرى ، نفح الطيب ، ج ٢ ص ٢٣٣—٢٥٠ .

من ضمنه حاشية العسكر المنصور من الكتاب والحواشى والخدام •ودخلت سنة اثنتين وستمائة ونحن بالثغر مقيمين فى الخدمة مرتضعون لأفاديـــق النعمة ، فحضرت فى جملة من حضر الهناء من الفقهاء بالثغر والعلماء» (١١٩)

ـــ قاضى المالكية وجيه الدين أبو زكريا ، يحيى بن عبد الله الصنهاجى اليزيدى ٦٦٧ هـ / ١٢٦٨ م ، الذى وصف بأنه : « ••• حسن الاخلاق ، حسن الهيئة ، جميل اللباس ، سمح اللقاء مليح التأنيس •• بقظ ، حاضر الذهن ، كان خاطره جمرة متقدة » • (١٢٠)

ـــ الشيخ نور الدين على بن يونس بن عبد الله الهوارى التونسى ، الذى يقال عنه : « •• طلع على الابصار ملاكا لان الغرب مطلعه » (١٢١) •

هذه أمثلة قليلة لعلماء مغاربة كثيرين نزحوا الى المشرق الاسلامى وتنقلوا بين مراكزه العلمية المختلفة وأستقر بعضهم فى بعض هده المراكز وقد ذكر المقرى فى النفح أن بعض المغاربة كتب الى الملك الكامل الايـــوبى رقعة فى ورقة بيضاء ان قرئت فى ضوء السراج ظهرت فضية ، وأن قرئت فى الشمس كانت ذهبية ، وان قرئت فى الظل كانت حبرا أسود • ومـــن الابيات التى جاءت فيها والتى تتوج أهداف المغاربة من إقامتهم بالمشرق :

لئـــن صـــدنى البحر عـــن وطنـــى

وعينـــى بأشـــــواقها زاهـــــرة

فقـــد زخـــرف الله لى مكـــــة

---

(١١٩) المقرى ، نفح الطيب ، ج ٤ ، ص ٢٣٣ •

(١٢٠) سعد زغلول عبد الحميد ، الاثر المغربى ص ٢٥٩

(١٢١) سعد زغلول عبد الحمبد ، الاثر المغربى ، ص ٢٦٠ •

بأنـــــوار كعبتـــــه الزاهـــــرة

وزخـــــرف لى بالنبى يثربـــــا

وبالملك الكامـــــل القاهـــــرة

فرد عليه الملك الكامل قائلا بل قل :

وطيـــــب لـــى بالنبى طيبـــــة

وبالملك الكامـــــل القاهـــــرة (١٢٢)

هـ ـ علماء مشارقة فى المغرب :

وكما كان المشرق الاسلامى هدفا للرحلات المغربية الاندلسية كان المغرب والاندلس بدورهما هدفا لرحلات عدد كبير من العلماء المشارقـــة الذين رأوا فى الرباط بثغور الاندلس ضربا من أعمال البر والتقـــرب الى الله . مـــن هؤلاء :

ـ أحمد بن على بن هاشم القرشى المصرى (٣٧٠ ـ ٤٤٥ هـ / ٩٨٠ ـ ١٠٥٤ م) الذى رحل الى الاندلس مجاهدا (١٢٣) .

ـ أحمد بن محمد الاموى المعروف بابن ميمون (٣٥٣ ـ ٤٠٠ ط / ٩٦٤ ـ ١٠١٠ م) الذى لزم رباط طليطلة بعد عودته من المشرق سنـــة ٣٨٠ هـ / ٩٩٠ م (١٢٤) .

ـ عبد الله بن سعيد بن أبى عوف العاملى الذى استوطن طليطلـــة ويرابط فى حصن ولمش (١٢٥) .

---

(١٢٢) المقرى ، نفح الطيب ، ج ٦ ، ص ٦٠
(١٢٣) ابن بشكوال ، الصلة ، ترجمة رقم ١٨٦ ، ص ٨٦
(١٢٤) ابن بشكوال ، نفسه ، ترجمة رقم ٣٧ ، ص ٢٠
(١٢٥) ابن بشكوال ، نفسه ، ترجمة رقم ٥٧٣ ، ص ٢٥٨ .

ـ ميمون بن بدر القروى الذى أتى من قيروان افريقية ليرابط فى طليطلة [١٣٦] .

واذا كان هؤلاء قد جاهدوا بأنفسهم وتحملوا مشاق السفر والاقامة فى الرباط ، فقد نجد على الجانب الآخر أن البعض منهم جاهد بماله أو بما يملك مثل خلف بن أحمد بن خلف الانصارى يعرف بالرجوى ، من أهل طليطلة الذى أوقف بعض أملاكه ليبتاع من الغلة خيلا يجاهد عليها فى سبيل الله [١٢٧] .

وهناك أيضا من شارك من المشارقة فى رد الحملات الصليبية التى اجتاحت غرب البحر المتوسط أمثال : موسى بن عبد الله بن الحسن الكوفى، وهو عراقى رحل من بلده الى صقلية ومنها دخل الاندلس مجاهدا ، وتوفى فى سنة ٤٨٦ هـ / ١٠٩٣ م [١٢٨] .

(٣)

علماء مغاربة عادوا الى المغرب

وهناك فريق من العلماء الرحالة المغاربة والاندلسيين ارتحلوا الى المشرق الاسلامى وآثروا العودة الى بلادهم لضيق ذات اليد نذكر منهم :

ـ أبو عبد الله محمد بن عبد الله زكريا القلعى الاصم ، من قلعة بنى حماد « كان جيد الشعر ، لكنه كان منحوس الجد ، ورد الى الاسكندرية

---

(١٢٦) ابن بشكوال ، نفسه ، ترجمة رقم ١٣٩٢ ، ص ٦٣٤
(١٢٧) ابن بشكوال ، نفسه ، ترجمة رقم ٣٧٨ ، ص ١٦٨ . انظر أيضا د . سعد زغلول ، الاثر المغربى ، ص ٢٤٤ .
(١٢٨) ابن بشكوال ، نفسه ، ترجمة رقم ١٢٢٦ ، انظر أيضا ، د . سعد زغلول ، نفس المرجع والصفحة .

ومصر وأقام بها زمانا ، لا يجد من يروى ظمأته ، ولا يسد خلته ، وعـاد الى المغرب فى غير أوان سفر المركب ، فسار راجلا ، نعليه مطيته وزاده كدبته ، الى أن وصل الى قوم يعرفون ببنى الاشقر من طـرابلس الغرب فامتدحهم » [129] .

وفريق آخر من المغاربة أطلق عليهم اسم الوافدين أو الطارئين على مصر منهم :

ــ محمود عبد الجبار الاندلسى الطرطوسى ، وأبو الحسن عبد الودود وكان قاضى قضاتهم فى أيام الافضل [131] ، وعلى بن اسماعيل القلعـى بن عبد القدوس القرطبى[130] ، والقاضى الرشيد أحمد بن قاسم الصقلى المعروف بالطميش [132] .

ونذكر من أمثلة من عادوا لنشر العلم فى وطنهم الفقيه القاضى أبـو الوليد الباجى الذى : « .. كان فقيه الاندلس وأمامها ، رحل الى المشرق ، فأشرقت أنوار اقباسه .. وعاد الى الاندلس فاستقر من العزة فى الاعين والانفس .. » [133] . والرحالة المغربى ابن رشيد السبتى الفهرى الذى عايش الاضطرابات التى اجتاحت بلاد المغرب وأدت الى هجرة أعدادكبيرة من علماء المغرب الى المشرق حيث الاستقرار النسبى . وكان ابن رشيد

---

(١٢٩) العماد الاصفهانى ، فريدة القصر ، ج ١ ، ص ٣٣٧

(١٣٠) العماد الاصفهانى ، نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٣٣١ .

(١٣١) العماد الاصفهانى ، نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ٣٣٦ .

(١٣٢) العماد الاصفهانى ، نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٣٤١ .

(١٣٣) المقرى ، نفح الطيب ، ج ١ ، ص ٥٠٩ . ابن خلكان ، وفيـات الاعيان ، ح ٢ ، ص ١٤٢ .

واحدا من المهاجرين فى أخريات أيام ادولة الموحدية وبداية الدولــــة المرينية [١٣٤] .

أوضح ابن رشيد خلال رحلته المشرقية الطويلة واتصاله بالعديد من شيوخ العلم فى مراكزه مدى أهمية مصر كمركز لتلاقى العلماء المشارقــة والمغاربة . كما حدث له فى لقاء التعارف فى مدينة بلبيس على قاضى المدينة وهو : أبو الحسن على بن عبد الكريم بن عبد الله الدمشقى من علمـــاء دمشق المستوطنين مصر ، وقد امتدحه ابن رشيد بالشيخ الفاضل [١٣٥] .
وكان ابن رشيد يستهدف من برنامجه هذا ابراز الشيوخ المشارقــة

والمصريين خاصة والاسكندريين على وجه الخصوص فى صورة طيبةكريمة النفس حتى تحدث هزة عنيفة فكرية وروحية وثقافية فى نفـــــوس بنى جلدته [١٣٦] . ويعدد ابن رشيد شيوخه الذين قرأ عليهم سواءفى تونس [١٣٧] أو فى الاسكندرية [١٣٨] أو القاهرة . [١٣٩]

وممن اجتذبتهم حياة التجارة أو الاشتغال بالعلوم بعد رحلة علمية طويلة الامد الى المشرق عادوا بعدها الى الاندلس :

---

(١٣٤) هو محمد بن عمر بن محمد بن عمر بن محمد بن ادريس بن سعيد بن مسعود ابن حسن بن محمد بن عمر بن رشيد أبو عبد الله الفهرى السبتى ، المكنا أبا عبد الله ، ويعرف بابن رشيد ، مولده فى جمادى الاولى سنة ٦٥٧هـ / ١٢٥٨ م. انظر ، الرحلة تحقيق ، نجاح صلاح الدين القابسى ، المقدمــة ، ص د ، ص ١٩٣ .
(١٣٥) رحلة ابن رشيد ، تحقيق نجاح القابسى ، ص ١٧٣ .
(١٣٦) رحلة ابن رشيد ، ص ٢٥٦ .
(١٣٧) رحلة ابن رشيد ، ص ١٣٤—١٣٨ .
(١٣٨) رحلة ابن رشيد ، ص ٩—٣٢ من النص المنشور .
(١٣٩) رحلة ابن رشيد ، ص ٦٧—١٦٣ من النص المنشور .

— أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سليمان بن عثمان بن هاجر الانصارى البلنسى وكان قد « أخذ القراءات من جماعة أهل بلده وخرج حاجا سنة ٥٧١ هـ ، فجاور مكة وسمع بها والاسكندرية من السلفى وعاد الى بلده سنة ٥٩٦ هـ وحدث بها . وكان يحترف التجارة وتوفى بمرسية عام ٥٩٨ هـ » [١٤٠] .

— أبو الحسن على بن موسى بن سعيد العنسى (متمم كتاب المغرب فى المغرب) « من أهل قلعة يحصب ، فهو غرناطى ، قلعى ، سكن تونس .. وسطى عقد بيته ، وعلم أهله ، ودرة قومه ، الاديب الرحالة الاخبارى ، العجيب الشأن فى التجول فى الاقطار .. تقيد الفوائد المشرقية والمغربية » خرج حاجا فى سنة ٦٣٩ هـ فألقى قصيدته المطولة فى وصف الاسكندرية ، وأتصل بالملك الصالح نجم الدين أيوب ووصف مصر ، وجزيرة الروضة (هى الجزيرة الصالحية نسبة الى السلطان الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل) ، وعاد الى تونس وأستقر بها مدة السلطان أبى زكرياء يحيى بن عبد الواحد بن أبى حفص ، وتوفى بتونس فى حدود سنة ٦٨٠ هـ [١٤١] .

— أبو مروان عبد الملك بن أبى بكر محمد بن مروان بن زهر [١٤٢] الايادى الاندلسى ، رحل الى بغداد وطاب له المقام بها زمانا ، تولى رئاسة الطب ببغداد ثم مصر والقيروان ، عاد وأستوطن مدينة دانية بشرق الاندلس حتى وفاته بها .

---

(١٤٠) المقرى ، النفح ، ج ٣ ، ص ٩ .

(١٤١) المقرى ، نفح الطيب ، ج ٣ ، ص ٢٩—٣٧ . انظر ايضا : ابن الخطيب ، الاحاطة ، ج ٤ ، ص ١٥٢—١٥٨ . حيث يوجد اختلاف بينه وبين المقرى فى بعض السنوات ، راجع أيضا : د . سالم ، التاريخ والمؤرخون العرب ، ص ١٩٦—١٩٩

(١٤٢) عن هذا البيت تفصيليا ارجع الى : المقرى ، نفسه ، ج ٣ ، ص ١٣ ، ١٦—١٩ .

— العابد جعفر بن عبد الله بن محمد بن سيدنوته الخزاعى . من أهل قسنطانة من عمل دانية . درس القراءات والحديث فى بلده ثم رحل الى المشرق حاجا ونزل الاسكندرية فسمع السلفى ، ثم عاد الى بلده ولزم العزلة والزهد ، وسلك طريقة التصوف ، فكان من كبار صوفية الاندلس فى ذلك الوقت حتى وفاته سنة ٦٢٤ هـ (١٤٣) .

— عبد الباسط بن خليل بن شاهين المالقى ، المشهور بالحنفى المؤرخ صاحب كتاب « التواريخ الملوكية فى الحوادث الزمانية » ويحمل القسم الثانى من الكتاب عنوان « الروض الباسم فى حوادث العمر والتراجم » . سجل فيه تاريخ مصر منذ مولده فى سنة ٨٤٧ هـ الى سنة ٨٧٤ هـ وأتبع فيه المنهج الحولى وأهتم بحوادث عصره وتراجم أعيانه ووفياته معتمداً فيه على تاريخ ابن حجر والعينى ، ويقع الكتاب فى مجلدين كبيرين . ويمتاز باحتوائه على رواية فريدة للمؤلف عن رحلة قام بها الى المغرب والاندلس ووصف لاحوال مملكة غرناطة فى أواخر أيامها . وقد كشف الاستاذ (داللافيدا) هذه الرواية الهامة مبعثرة فى ثنايا المخطوط أثناء بحثه فى محتوياته . كما كتب الاستاذ عبد الله عنان عن نفس المخطوط مقالا بعنوان (ذخائر التراث العربى فى مكتبة الفاتيكان) (١٤٤) .

وهناك جماعة من المغاربة كان الدافع على رحلتهم الى المشرق تعرضهم للاضطهاد على أيدى الموحدين ومن ثم كانت رحلتهم من قبيل الهجرات

---

(١٤٣) ابن الابار ، التكملة ، ترجمة رقم ١٦٧١ .

(١٤٤) عبد السلام بن عبد القادر ابن سودة ، دليل مؤرخ المغرب الاقصى ، ج ٢ ، ص ٣٤١—٣٤٢ (الرباط ١٩٦٥) ، عبد الله عنان ، مجلة الكتاب ، العدد ٩ ، السنة ٥ ، ١٩٥٠ ، وله عن رحلة عبد الباسط مقال نشره لصحيفة المعهد المصرى بمدريد .

الاجبارية ، كما حدث لابناء أسرة بنى عشرة ، ومنهم أبو عبد الله محمد بن أبراهيم السلاوى وهى من الاسرات التى أشتبه فى أن تكون من المشرق ونزحت الى المغرب فى تاريخ مبكر ، ومن ثم كان لها دور بارز فى أحداث الدولة الموحدية ذاتها (١٤٥) .

واذا كان لنا أن نختتم هذا الفصل ، فلا أقل من أن نقف قليلا عند المنبع الثقافى الذى أغترف منه مغاربة الشرق فى العصر الذهبى للموحدين وأعنى به عصر يعقوب المنصور الذى تعددت فيه مدارس المغرب الاصيلة فى علوم الفقه والتصوف فضلا عن النحو المشرقى الاصل . ففى بلاط المنصور ومجلسه ظهر على يد محمد بن يوسف اليابرى الضرير ، الذى

---

(١٤٥) وعن تاريخ هذه الاسرة انظر : د. محمد بن شريفة ، من تاريخ الاسر المصرية ، أسرة بنى عشرة ، تطورها التاريخى ، دورها الحضارى، مجلة تطوان ، العدد ١٠ ، سنة ١٩٦٥ ، حيث يقول : « .. يذكر البعض عن أسرة العشرة أنها وردت من العراق ، ولكن يذكر أيضا أنها من عائلة المدبر ، أو الى فزارى نسبة الى فنزارة مابين فاس والرباط (خميس فنزارة) . ويعرفون ببنى القاسم نسبة الى جدهم الاقرب القاسم بن محمد بن موسى بن عيسى بن عشرة ، وقد أشتهروا أكثر ببنى عشرة وهو اسم الجد الاعلى للاسرة ، وكان عشرة من أمراء المغرب فى القرن ٤ هـ (١٠ م) . وقد ارتبطت سلانفسها فى تأسيسها الى بنى عشرة ، فكانت تعرف فى بعض الاوقات بمدينة بنى العشرة ، حيث قال لسان الدين ابن الخطيب : « وسلا المسكينة لا ترجو لعثرتها الاابن عشرتها » .

وفى العهد المرابطى تولوا خطة القضاء وأدرك أصحابها من النفوذالواسع والجاه العريض فى العصر المرابطى مالم يدركه القضاة فى عصر سابق أو لاحق ويعرف عن المهدى ابن تومرت أنه أقام أياما عديدة عند بنى عشرة فى سلا حيث كان طلبتها يختلفون اليه ليأخذوا منه العلم . ولكن زعامة سلا التى كانت لهذه الاسرة تنتهى بانتهاء دولة المرابطين ، ومن ثم أصاب بنى عشرة ما أصاب غيرهم ممن خدم الدولة المرابطية كالقاضى عياض والقاضى أبى بكر بن العربى وان انصراف الدولة الموحدية عن بنى عشرة أدى الى انصراف بعضهم الى حياة الزهد والعزوف عن الدنيا ، ومعاشرة أهل التصوف ، وكانت لهم اليد الطولى فى حركة التصوف فى سلا ، ص ١٧٧—٢٠٦ .

كان معلما لابناء الخليفة المنصور فى القراءة والتجويد ، وتوفى سنة ٦١٧هـ[١٤٦] . كما ظهر نجبة بن يحيى بن خلف الاشبيلى (ت ٥٩١هـ — ١١٩٣ م) الذى استدعاه الخليفة الى مراكش فأستوطنها وتوفى صحبة المنصور أثناء حملته فى معركة الارك [١٤٧] .

وحفل العلم الحديث بعدد من علماء الاندلس استمدوا علمهم من أصول مشرقية ومنهم : عبد الكريم بن محمد بن بقى المرسى [١٤٨] ، ويحيى بن أحمد السكونى اللبلى (ت سنة ٦٢٦هـ) ، وعبد الحق بن عبد الرحمان الازدى نزيل بجاية [١٤٩] الذى أهتم بتفسير ابن برجان ، وعبد السلام بن عبد الرحمان الافريقى ثم الاشبيلى الصوفى[١٥٠] . وعلى بن محمد بن عبد الملك بن القطان (ت ٦٢٨ هـ) الذى كانت له الرئاسة على طلبة علم الحديث بمراكش [١٥١] . وعلى بن أحمد بن على عبد الله الربعى المقدسى الشافعى التاجر ويكنى أبا الحسن [١٥٢] . ومحمد بن حبيشى من أهل المرية (ت ٥٨٤ هـ / ١١٨٨ م) ، وسليمان بن حوط الله (ت ٦١٢ هـ / ١٢١٥ م) أستاذ أبناء المنصور الموحدى ، وتولى قضاء سبتة ثم مدينة سلا [١٥٣] ، وكذلك سليمان بن موسى بن سالم الكلاعى (ت ٦٣٤ هـ / ١٢٣٧ م) [١٥٤] .

---

(١٤٦) المقرى ، نفح الطيب ، ج ٣ ص ٤٠٦ . انظر أيضا : الرشيد ملين عصر المنصور الموحدى ، الرباط ١٩٦٤ ص ٢٤٥ ، ٢٤٦
(١٤٧) المقرى ، نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٠٧
(١٤٨) المقرى ، نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٧٢—٢٧٤
(١٤٩) الغبرينى ، عنوان الدراية ، ص ١٢١—١٢٢
(١٥٠) ملين ، عصر المنصور الموحدى ، ص ٢٤٨
(١٥١) الغبرينى ، عنوان الدراية ، ص ٢٤٢
(١٥٢) ابن بشكوال ، كتاب الصلة ، رقم ٩٢٧ ، ص ٤٣٣
(١٥٣) الرشيد ملين ، عصر المنصور الموحدى ، ص ٢٥٠—٢٥١
(١٥٤) المقرى ، نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ٢٠٦ . ابن سعيد ، المغرب فى حلى المغرب ، ج ١ ، ص ٣١٠—٣١١

وفى علم النحو ظهر : ابن التسلوبين ، عمر بن محمد بن عمر الـــذى كان يقرىء العربية حتى بعد عام ٥٨٠ هـ وظل كذلك لمدة ستين سنة [١٥٥] وابن خروف على بن محمد ، الذى كان يعد من أئمة النحو [١٥٦] وأبو موسى عيسى بن عبد العزيز الجزولى (ت ٦٠٧ هـ / ١٢١٠ م) ، البربرى الـــذى شد الرحلة الى المشرق فى طلب العربية ، وزار مصر وأخذ عن نحوبها أبى محمد ابن برى ، ورجع الى المغرب حاملا الكراسة الشهيرة التى تنتسب اليه وتعرف أيضا بالمقدمة الجزولية ، وقد قربه المنصور الموحدى اليهوأدنى منزلته منه [١٥٧] .

وظهر فى تونس على العهد الحفصى عدد من العلماء فى نفس الفرع من العلوم منهم : أبو الحسن على بن مؤمن بن محمد الخضرمى المعروف بابن عصفور المتوفى بتونس سنة ٦٦٩هـــ ١٢٧١م[١٥٨] .

وفى أدب المقامات على نسق مقامات الحريرى ، أشتهرت مقامات أبى بكر بن زهر الحفيد التى تولى شرحها عقيل ابن عطية الطرطوشى المتوفى سنة ٦٠٨ هـ / ١٢١١ م [١٥٩] .

---

(١٥٥) يقول عنه ابن سعيد : « رئيس النحاة بالاندلس كان فى وقتـــه عليما بالعربية وصناعتها لايجارى ولا يبارى قياما عليها واستبحارا فيها ، توفى فى صفر سنة ٦٤٥ هـ » المغرب فى بلاد المغرب ، ج ٢ ، ص ١٢٩ـــ١٣٠ . أنظر أيضا : ابن الابار ، التكملة ، ص ٦٥٨ . الغبرينى ، المصدر السابق ، ص ٢٥٥ ، ٢٦٦ــ٢٦٧ . ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٣٥٨ .

(١٥٦) المقرى ، المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٣٩٢ــ٣٩٦ . ابن سعيد ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٣٦ــ١٣٨ .

(١٥٧) جنون ، النبوغ المغربى ، ج ١ ، ص ١٢٦ .

(١٥٨) الغبرينى ، عنوان الدراية ، ص ٢٦٦ــ٢٦٨ .

(١٥٩) المقرى ، نفح الطيب ، ج ٣ ، ص ١٦ــ٢٠ .

ويضاف الى الاسماء السابقة أسماء فئة من أدباء وعلماء الدولة المرابطية البائدة ممن واصلوا خدمتهم خلفاء الموحدين ، فعادت بفضلهم الحركة الادبية فى المغرب الى ازدهارها ومنهم :

— على بن ابراهيم بن أحمد بن حمويه الازدى الشيرازى ، يكنى أبا الحسن ، ولد بمصر ونشأ بها ، « وتوجه مع أبيه الى مكة ، ورحل الى بغداد سنة سبع وستين وثلاثمائة فلقى علمائها ، ودخل البصرة ثم عاد الى مكة فحج ثانية ، ثم رجع الى مصر ، ثم حج حجة ثالثة ، وتوفى سنة ستة وعشرين وأربعمائة باشبيلية » (١٦٠) .

— القاضى عياض (٤٧٦ — ٥٤٤هـ) من مواليد مدينة سبتة ، رحل الى الاندلس ثم قصد المشرق ، وبعد عودته اشتغل بالقضاء والفتوى فى سبتة والاندلس حتى سقوط الدولة المرابطية ، فبايع عبد المؤمن ، ولكن عبد المؤمن بن على لم يلبث أن اتهمه بعد ثورة سبتة على الموحدين عام ٥٤٣ هـ / ١١٤٥ م ، فاستقدمه الى مراكش ولكنه توفى بها فى العام التالى (١٦١) .

ويمثل أدب القاضى عياض فترة الانتقال من الدولة المرابطية الى الموحدية حتى قيل عنه : « .. أنه جاء على قدر ، وسبق الى نيل المعالى ، وأبتدر وأستيقظ لها .. والناس نيام . وقد أتيت من كلامه البديع الالفاظ والاغراض ما هو أبحر من العيون النجل والجفون المراض » (١٦٢) .

---

(١٦٠) ابن بشكوال ، نفس المصدر ، رقم ٩٢١ ، ص ٤٣٠ .

(١٦١) المقرى ، أزهار الرياض فى أخبار عياض ، ص ٢٣—٢٨ . انظر أيضا : ابن بشكوال ، كتاب الصلة ، رقم ٩٧٤ ، ص ٤٥٣—٤٥٤ .

(١٦٢) المقرى ، أزهار الرياض ، ص ٢٩ . ابن فرحون ، الديباج المذهب ص ١٦٨ وأنظر أيضا : الغبرينى ، عنوان الدراية ، ص ١١٠ ، ٣١٠ ، ٣١٥ ، ٣١٨ ،محمد بن تاويت ، الصادق عفيفى ، الادب المغربى ، ص ١٥١ .

ومن أفضل نماذج نثره رسالة وجهها الى الفتح ابن خاقـــان [١٦٣] وكان شاعرا كذلك ، ومن مأثور شعره مدحه لقرية بليونش :

بليـــونش جنـــــــة ولكـــــــن
طريقهـــا يقطـــع النياطـــــا
كجنـــــة الخلـــــد لا يراهـــــا
الا الذى جـــاوز السراطـــــا [١٦٤]

— أبو جعفر أحمد بن عطية القضاعى المراكشى ، ولد سنة ٥١٧ هـ / ١١١٩ م وأستكتبه المرابطون فى آخر عهدهم وبداية الدولة الموحديـــة ، وبلغ ذروة مجده بجده وأجتهاده فجمع بين الوزارة والكتابة .

التحق فى بداية حياته بالدولة اللمتونية ، المرابطية ، فكتب لعلى بن يوسف، وظل يشتغل بالكتابة الى أن دالت دولتهم ، فدخل فى خدمة الموحدين وحارب مع أبى حفص عمر أهم قواد الموحدين فى السوس فى القضاء على ثورة الماسى بن هود . ولقد طلب أبو حفص هذا من يكتب عنه وصف هذا الفتح الى عبد المؤمن ، فدلوه على أبى جعفر ، فاستدعاه وكتب عنه . ولما بلغت الرسالة عبد المؤمن أستحسنها ، فاستدعاه وقلده الكتابة ثم اسنداليه

---

(١٦٣) وفيها يقول : « .. عمادى ابا النصر ؟ مثنى الوزارة ، ووحيـــد العصر ، هل لك فى منة تفوت الحصر ، تحف محملا ، وتبلغ املا ، وتشكو قولا وعملا ، شكرا تترنم به الحداة ثقيلا ورملا ؟ اذا بلغت الحضرة العلية مستلما ، ولقيت الطاهر بن طاهر فخر الوزارة مسلما ، وحللت به فناثه الارحب حرما ولمست بمصافحته ركن المجد بندى كرما .. » محمد بن تاويت ، الادب المغربى ص ١٥٤—١٥٦

(١٦٤) المقرى ، ازهار الرياض ، ص ٣٤ . محمد بن تاويت ، نفس المرجع ، ص ١٥٧—١٥٩ . ويذكر عن قرية بلبونش انها « قرية قديمة بجوار سبتة مابين جبل موسى والبحر » .

الوزارة لما آره فيه من حصافة ورجاحة العقل ، وكانت تلك الوزارة « زينا للوقت وكمالا للدولة » .

وقد بلغ أبو جعفر منزلة رفيعة وكثر حساده عليها فكالوا له حتى أوقع به ، وأنتهى الامر بقتله وقتل أخيه أبو عقيل بن عطيه فى سنه ٥٥٣ هـ (١٦٥)

وتعتبر رسائل ابى جعفر من الرسائل الديوانية ، ويشبه فى ذلك معاصره المشرقى القاضى الفاضل فى الاطناب والزخرفة ويتمثل ذلك فى رسالته التى أورثته الوزارة : « كتابنا هذا من وادى ماسه بعد ما تجدد من أمر الله الكريم ونصر الله تعالى المعهود المعلوم ، ما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم ، فتح ، بهر الانوار اشراقا ، وأحدق بنفوس المؤمنين احداقا ، ونبه للامانى النائمة جفونا واحداقا ، واستغرق غاية النسكر استغراقا ، فلا تطيق الالسن لكنه وصفه ادراكا ، ولا لحاقا ، جمع أشتات الطلب والارب ، وتقلب فى النعم أكرم منقلب ، وملأ دلاء الامل الى عقد الكرب .

فتح تفتح أبــواب السمــاء لــه

وتبرز الارض فى أثوابها القشب » (١٦٦) .

---

(١٦٥) هو « من أهل طرطوشة ، وقيل من قطر دانية . يكنى ابا أحمد ، وكان من أهل الحفظ للحديث والمعرفة بالتوثيق ، سكن مراكش فحظى عند على بن يوسف بن ناشفين ، وولد له بها أولاد ، ولما أنتقل الامر للموحدين دخل فى طاعتهم » . العباس بن أبراهيم ، الاعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الاعلام ج ٣ ، رقم ٣٧٤ ، ص ١٠٢ وأنظر أيضا : أحمد بن القاضى . السلاوى : الاستقصا ، ج ٢ ، ص ١٣١ . محمد بن تاويت ، الادب المغربى ص ١٧٤—١٨١

(١٦٦) المقرى ، النفح ، ج ٧ ، ص ١١٣—١١٤ .

ولما شعر أبو جعفر بمدى ما فعله الحاسدون من ايغار صدر عبد المؤمن عليه كتب الى عبد المؤمن يعتذر اليه ويستعطفه ، من ذلك قوله .
« بالله لو أحاطت بى كل خطيئة ، ولم تنفك نفسى عن الخبرات بطيئة ،حتى سخرت بمن فى الوجود ، وأنفت لآدم من السجود ، وقلت : ان الله تعالى لم يو ح، فى الفلك لنوح ، وبريت لقدار ثمود نبلا (عاقر ناقة صالح) وأبرمت لحطب الخليل حبلا ... وأتيت حضرة المعلوم لائذا ، وبقبر الامام المهدى عائذا ، لقد آن لمقالتى أن تسمع ، وتغفر لى هذه الخطيئات أجمع ،مع أنى مقترف وبالذنب معترف :

فعفوا أمير المؤمنين فمن لنا
بـرد قلوب هدها الخفقان[١٦٧]

ولقد ندم عبد المؤمن أشد الندم على فقدان ابن عطية وذلك عندما أراد امتحان الشعراء بهجو ابن عطية فأسمعوه . فأعرض عنهم وقال :
« ذهب ابن عطية ، وذهب الادب معه » [١٦٨] .

— أما رسائل أبو عقيل بن عطية (٥٢٠ — ٥٥٣ هـ) فكانت متصل رسائل أخيه انموذجا احتذاه من تبعه من الكتاب ، ومن الجدير بالذكر آن هذه الرسائل تفضح تشبعهما الواضح والقول بعصمة الامام المهدى .

— وهناك من يمثل الادب المغربى أيضا فى النصف الثانى من القرن ٦ هـ والى بداية ٧ هـ مثل : القاضى أبى جعفر عمر بن عبد اله السلمى الاغماتى (٥٣٠ — ٦٠٣ هـ) ويمتاز برقة شعره ، بل نجده يأمر بالصلاة على ممدوحه مثل ما كان يفعل فى رسائله الموحدية التى تصلى على المهدى

---

(١٦٧) المقرى ، نفح الطيب ، ج ٧ ، ص ١١١—١١٢ .
(١٦٨) المقرى ، نفسه ، ج ٧ ، ص ١١٠—١١٢ . السلاوى ، الاستقصا ج ٢ ، ص ١٣٣ .

بن تومرت . وجاءت قصائده على غرار قصائد شعراء الشرق [١٦٩] .

ـ شاعر الدولة الشهير : أبي العباس أحمد بن عبد السلام الجراوى الزناتى شاعر الخلافة ، وصاحب المكانة الرفيعة لدى الموحدين ، ولد فى نهاية القرن ٦ هـ ، وتوفى سنة ٦٠٩ هـ . وكان عبد المؤمن يتفاخر به حيث قال له فى الاحتفال بتحصين جبل الفتح (جبل طارق) : « يا أبا العباس أنا نباهى بك أهل الاندلس » مشابها فى ذلك مقولة المعز الفاطمى فى شاعره ابن هانىء : « كنا نريد أن نباهى به شعراء المشرق » . وعمر أبو العباس طويلا فكان شاعر عبد المؤمن وشاعر خلفائه يوسف ثم يعقوب المنصور ثم الناصر [١٠٧] .

ـ ابن خبازه ، ميمون بن على بن عبد الخالق الخطابى الصنهاجى المعروف بابن خبازه (ت ٦٣٧ هـ) من أهل فاس كان ضليعا فى الفقه واللغة وأتقن أساليب البلاغة فجاء شعره « محكم النظم والتركيب » .

ـ أبو بكر بن يحيى بن عبد الجليل بن عبد الرحمن بن مجبر الفهرى ، شاعر المغرب (ت ٥٨٨ هـ) بل كان يعتبر شيخ الشعراء ويتمثل ذلك فى قول يعقوب المنصور له : « .. كما أن الشعراء عيال عليك يا أبا بكر » [١٧١]

ومن جميل ما قاله فى مقصورة المنصور الموحدى بجامع الكتبية بمراكش وكانت عجيبة الصنع :

طورا تكون بمن حوته محيطة
فكأنها سور من الاسوار

---

(١٦٩) محمد بن تاويت ، الادب المغربى ، ص ١٨٨—١٩٢ .
(١٧٠) محمد بن تاويت ، المرجع السابق ، ص ١٩٣—١٩٨
(١٧١) المقرى ، نفح الطيب ، ج ٤ ، ص ٢٢٢ .

وتكـــون حيــــا عنهم محجوبــة
فكأنهـــا سر مـــن الاســـــــرار

وكأنهـــا علمت مقاديــر الـــورى
فتصرفت لهم علـــى مقـــــــدار

فـــاذا أحسب بالامـــام يزورهـــا
فى قومـــه قـــامت الى الـــزوار

ببـــدو فتبـــدو ثم تخفى بعـــــده
كتكـــون الهـــالات للاقمـــار [١٧٢]

ومن أهم ما ظهر فى حياة الادب المغربى فن الزجل أو ما يعرف بفن الملحون ، ويشتمل على الاغراض الشعرية كالحماسة والحرب والـــوصف والمدح . ومن أشهر الزجالين ، الزجال المغربى ابن غزلة ، الذى كان ينظم الموشح والمترنم ، فيلحن فى الموشح ويعرب فى الزجل [١٧٣] .

وكان لانتعاش الحياة الادبيه المغربية عموما أثر كبير فى اشتغـــال المرأة المغربية بالعلم والمعرفة ، ومن أمثلة ذلك ام هانى بنت القاضى عبد الحق بن عطية التى درست على ولدها وكان لها تواليف فى الوعظ والارشاد وزينب ابنة يوسف بن عبد المؤمن على الاصول ، وحفصة الركونية كـــانت أستاذة نساء دار المنصور [١٧٤] وأم عمرو بنت أبى مروان ابن زهر طبيبة

---

(١٧٢) المقرى ، نفسه ، ج ٤ ، ص ٢٢٤ .
(١٧٣) الجرارى ، الادب المغربى ، ص ١٧٥—١٧٦ . جنون ، النبوغ المغربى ، ج ١ ، ص ١٢٩ .
(١٧٤) المقرى ،نفح الطيب ، ج ٤ ، ص ١٧١ . ابن الخطيب ، الاحاطة ج ١ ، ص ٤٩٣ . وانظر عنها أيضا : العباس بن ابراهيم ، الاعلام بمن حـــل بمراكش وأغمات من الاعلام ، رقم ٤٣٠ ، ص ٢١٢—٢١٨ .

دار المنصور ، وأبنتها كانت عالمة فى صناعة الطب والولادة ، ورقـــاء بنت ينتان الفاسية الاديبة الشاعرة ، وأمة العزيز السبتية التى كان لهـــا شعر رائع وأم العز العبدرية وكانت مجودة ، روت عن أبيها صحيح البخارى ، ومنهم زينب القرقولية وروحية عتيق الغسانى نزيلة أغمات ومــــراكش وكانت أستاذة فى القراءات السبع ، وأم المجد مريم بنت أبى الحســـن الغافقى الذى أنشأ مدرسة للغرباء فى سبتة وحبس عليهم أول مكتبـــة بالمغرب ، وخيرونة الفاسية التى كانت تحضر مجلس عثمان السلالى امام أهل فاس فى الاصول ولها ألف القصيدة البرهانية على طريقة الاشعرى(١٧٥) وهناك أيضا أسماء العامرية الاشبيلية الشلبية التى كتبت الى يعقــوب المنصور تتظلم من ولاة بلدها وصاحب خراجها (١٧٦) .

ثم هناك مدرسة الفكر الصوفى المغربية الشهيرة ، وكان على رأسها فى المغرب الصوفى أبو العباس السبتى ، وهو أبو العباس أحمد بن جعفر الخزرجى المعروف بالسبتى ، دفين مراكش عام ٦٠١ هـ وكانت له قـــدرة خاصة خارقة فى الكلام لا يناظره فيها أحد الا أفحمه ، وفى ذلك يقـــول السلاوى : « كان الشيخ أبو العباس جميل الصورة ، فصيح اللســـان ، أبيض اللون ، حسن الثياب قادرا على الكلام ، لا يناظره أحدا الا أفحمه ، حتى كان مواقع الحجج من الكتاب والسنة موضوعة على طرف لسانه »(١٧٧) وكان مذهبه يقوم على التوكل والصدقة ويعبر السلاوى عن ذلك بقوله :

---

(١٧٥) عبد العزيز بن عبد الله ، تاريخ الحضارة المغربية ، ص ١٠٩ . جنون ، المرجع السابق ، ص ١٤٤ .

(١٧٦) المقرى ، نفح الطيب ، ج ٦ ، ص ٢٨—٢٩

(١٧٧) السلاوى ، الاستقصا ، ج ٢ ، ص ٢٦١ .

« .. كان برا باليتامى والمساكين ، رحيما بهم ، يجلس حيث أمكنه الجلوس فى الاسواق والطرقات ، ويحض الناس على الصدقة ، ويأتى بما جاء فى فضلها من الايات والاثار فتنثال عليه من كل جانب ، فيفرقها على المساكين وينصرف فكان له مع الله تعالى فى التوكل عليه عقد أكيد ، ومقام حميد » (١٧٨) .

ومن هؤلاء المتصوفة القاضى عياض (١٧٩) ، والشيخ أبو محمد عبد السلام بن مشيش (١٨٠) ، والفقيه أبو اسحق ابراهيم بن محمد السلمى البلفيقى (١٨١) وأبو مدين شعيب ابن الحسن نزيل بجاية ، وكان يعقوب المنصور قد دعاه لامتحان مذهبه ولكنه توفى فى الطريق الى مراكش ودفن بتلمسان فى الموضع المعروف بالعباد سنة ٥٩٤ هـ (١٨٢) .

ومنهم من أعطى صورا مختلفة لحياة التصوف مثل : يوسف بن محمد بن عبد الله المالقى المعروف بابن الشيخ ، الذى كانت طريقته تحث على الجهاد والشهادة فى سبيل الله ، وعلى خدمة المصلحة العامة ، وتأسيس معاهد للدين ، ولذلك غزا ابن الشيخ عدة غزوات مع يعقوب المنصور ورحل الى المشرق وغزا مع صلاح الدين عدة غزوات أيضا ثم عاد الى بلده وبنى بها ٢٥ مسجدا من ماله الخاص خدم فيها بيده ، وحفر خمسين بئرا (١٨٣) .

---

(١٧٨) السلاوى ، نفسه ، والصفحة .

(١٧٩) هو عياض بن موسى بن عياش بن عمرون بن موسى بن عياض بن محمد ابن عبد الله بن موسى بن عياض اليحصبى السبتى ، ينتمى الى سبتة (المقرى ، أزهار الرياض فى اخبار عياض ، ج ١ ، ص ٢٣) .

(١٨٠) توفى ابن مشيش فى سنة ٦٢٢ أو ٦٢٥ هـ . أنظر : السلاوى ، نفسه ج ٢ ص ٢٦٢

(١٨٢) يذكره الغبرينى فى مؤلفه رغم كونه فى أعقاب المائة السادسة ، أنظر ، عنوان الدراية ، ص ٥٥—٦٤ ، المقرى ، نفح الطيب ، ج ٩ ، ص ٣٤٢

(١٨٣) ملين ، عصر المنصور ، ص ٢٥٨—٢٥٩ .

(٤)

الصــلات الفنيــــة

كان المشرق الاسلامى منبعا خصبا للتأثير العلمى والادبى والفنى ، وقد رأينا كيف أن بلاد المغرب الاسلامى فى عصر الموحدين تعرضت لموجات من التأثيرات العلمية عن طريق الرحالة المغاربة لطلب العلم فى المشرق أو عن طريق علماء المشرق الذين أستقروا فى المغرب والاندلس • وكما تأثــر المغرب الاسلامى فى عصر الموحدين والحفصيين بالمشرق علميا فقد تأثــر كذلك فنيا ، ويضرب المقرى نقلا عن ابن الرقيق المغربى فى كتابه قطــب السرور مثلا معبرا عن مدى تأثير الفن المشرقى فى المغرب الاسلامى •وقد ذكر أن عبد الوهاب بن حسين بن جعفر الحاجب كان واحد عصره فى الغناء الرائق والادب الرائع والشعر الرقيق واللفظ الانيق ورقة الطبع وعلــو الهمة ، وكان قد قطع عمره وأفنى دهره فى اللهو والطرب والفكاهة وكان أعلم الناس بضرب العود وأختلاف طرائفه وصنعة التجويد وكــان ينظم الابيات ويصوغ عليها الالحان العجيبة ، وكان يجتمع عنده اخوانه وخلانه يغنون بين يديه وأتخذ له زامرا هو بشارة الزامر • وكان من حذاق زمرة المشرق أستقر عنده ، وكان لا يطرأ على ابن الحسين الحاجب من المشرق مغن الا نزل عنده ووصله منه كل صنوف البر والاكرام ، وبينما كان جالسا فى مجلس طرب وأنس ذات ليلة اذ دخل عليه بعض غلمانه فقال:«••بالباب رجل غريب عليه ثياب السفر ذكر أنه ضيف ، فأمر بادخاله ، فاذا رجــل أسمر سناط [١٨٤] رث الهيئة ، فسلم عليه ، قال : اين بلد الرجل ، قال : البصرة ، فرحب به ، وأمره بالجلوس ، فجلس مع العلماء فى صفــه [١٨٥]

---

(١٨٤) سناط : معناها ليس فى لحيته شعر .
(١٨٥) الصفة هى المكان المظلل .

وأتى بطعام فأكل وسقى أقداحا ، ودار الغناء فى المجلس ، حتى أنتهى الى آخرهم ، فلما سكتوا اندفع يغنى بصوت ندى وطبع حسن ، وطـرب عبد الوهاب وصاح ، وتبين الحذق فى اثاره ، والطيب فى طبعه ، وقال : «ياغلام خذ بيده الى الحمام ، وعجل تملى به ، فأدخل الحمام ، ونظف ثم دعا عبد الوهاب بخلعة من ثيابه فألقيت عليه ، ورفعه فأجلسه عن يساره . وأقبـل عليه وبسطه فغنى له .. فطرب وشرب واستزاده ، فمر يوم من أحسـن الايام وأطيبها ، ووصله ، وأحسن اليه ، ولم يزل عنده مقربا مكرما ، وكان خليعا ماجنا مشتهرا بالنبيذ ، فخلاه وما أحب ، ثم وصف له الانـدلس وطيبها ، وكثرة خمورها ، فمضى اليها ومات بها . وعلى نحو هذه الحـال كان يفعل بكل طارىء يطرأ من المشرق » (١٨٦) .

ويعلق ابن الرقيق بقوله : « وعلى هذا الحال كان يفعل بكل طارىء يطرأ من المشرق ولو ذكرتهم لطال بهم الكتاب » (١٨٧) .

ومما لا شك فيه أن كثيرا من التأثيرات الفنية المشرقية فى المغـرب الموحدى والحفصى أرتبطت بدخول العرب الهلالية والمماليك الغـز أرض المغرب وقد أستقرت هذه التأثيرات لفترة طويلة فى أرض المغرب بحيـث أسهمت اسهاما كبيرا فى تمشرقه فى العصر موضوع الدراسة .

أما فى مجال الفنون والصناعة والزخرفة فقد كان التأثير المغـربى على المشرق أكثر وضوحا لكثرة وفود الرحالة المغاربة الى المشرق الاسلامى طلبا للعلم أو لاداء فريضة الحج أو للتجارة والتكسب (١٨٨) .

---

(١٨٦) المقرى ، نفح الطيب ، ج ١ ، ص ١٨١ ، ولمزيد عن الفن والفنون راجع ، د . سالم ، قرطبة حاضرة الخلافة ، ج ٢ ، ص ١١٨—١١٩ .

(١٨٧) المقرى ، نفح الطيب ، ج ١ ، ص ١٨٣ .

(١٨٨) د . سالم ، قرطبة حاضرة الخلافة فى الاندلس ، ج ٢ ، ص١٨٢— ١٩٥ ، ص ٢٠٠—٢٠١ .

وأبرز مثل للتأثيرات المغربية ارتباط كلمة الزليجى المغربية وتقابل الفسيفساء المشرقى بكلمة « زليزلى » العامية وأنتشار ذلك فى مصر بوجه خاص باعتبارها أكثر الاقطار المشرقية أرتباطا بالمغرب وتعرضا لتأثيراته وفى ذلك يقول المقرى : « ويصنع بالاندلس نوع من المفضض المعروف فى المشرق بالفسيفساء ونوع يبسط به قاعات ديارهم يعرف بالزليجى يشبه المفضض وهو ذو ألوان عجيبة يقيمونه مقام الرخام الملون الذى يعرفه أهل المشرق فى زخرفة بيوتهم كالشاذروان وما يجرى مجراه »[(١٨٩)] .

---

(١٨٩) المقرى ، نفح الطيب ، ج ١ ، ص ١٨٧—١٨٨ . وان هذا الفسيفساء يستخدم ايضا فى تغطية الاجزاء الدنيا من الجدران أو ما يدور بأعلاها من طرز خشبية تحت السقف مباشرة . راجع فى ذلك : د . سالم ، بعض المصطلحات للعمارة الاندلسية المغربية ، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية فى مدريد ، المجلد الخامس ، العدد ١—٢ ، ١٩٥٧ ، ص ٢٤٤—٢٤٥

الخاتمـــــــــة

ننتهى فى الخاتمة الى أن البحث أفاض فى الكشف أساسا عن الوجوه المختلفة لعلاقات دولة خلافة الموحدين بدولتى الايوبيين والماليك فىعالم الخلافة الاسلامية — مغربية ومشرقية — وهو العالم الذى يمثل القطاع الاعظم من أرض الاسلام • ومثل هذا البحث يعرض لمعالم تلك الوجوه كما يعرض للقضايا التاريخية المتصلة بهذه المعالم •

وفضلا عن ذلك ، فقد رصد البحث عددا من الظاهرات التاريخيـــة التى مازالت فى حاجة الى المزيد من الدراسات المتخصصة • فهناك نظام التمييز ونظام الصفوة العشرى الذى كان كل منهما يشكل أساسا مـــن أسس الدولة الموحدية وعنصرا رئيسيا من عناصر فكرها وتنظيماتهاوماخلفه هذان النظامان من آثار على مواقف رعاياها من المسلمين فضلا عن أهـــل الذمة لا سيما اليهود • فكان أن عرض هذا البحث لاصول هذه الظاهرة فى الفكر المغربى ، فضلا عن دراسة الاصول الفكرية الموحدية ذاتها وصـــلة ذلك بالفكر المشرقى • وأثبت البحث فى هذا المجال بخلاف ما ذهبت اليـــه الدراسات السابقة أن الفكر الشعبى المغربى ومؤثرات البيئة المغربية كانا لهما فى تلك الاصول ومن قبل رحلة ابن تومرت الى المشرق قدر كبير الى جانب الفكر المشرقى ، وهو ما سنؤكده من جديد عند العودة الى ذكر هذه الاصول فى نهاية الخاتمة •

كذلك هناك ظاهرة معارك الموحدين مع القبائل العربية المشرقيـــة وأستمرارها زمنا طويلا ، الامر الذى طرح على القبائل العربيـــة القبول بأحد الخيارين : الانخراط فى صفوف الموحدين وقبول سيادتهمالسياسية والدينية أو عدم القبول بهذا الانخراط فى اطار من التمرد القبلى المجرد

من أى سند سياسى فضلا عن الدينى • وحدث بالفعل أن أنتهت علاقات الموحدين بعرب المشرق الى الخيار الاول • غير أن طورا آخر من تاريخ العلاقات الموحدية بالمشرق قد استجد بقيام الدولة الايوبية والاتساع فى حدودها من مصر باسم الخلافه العباسية المنافسة للخلافة الموحدية • ويتأرجح الخيار العربى هذا من دولتى الخلافتين الاسلاميتين المغربية والمشرقية الى ما بعد أنتهاء الدولة الموحدية من مراكش وأحيائها فى تونس وأنتهاء الدولة الايوبية من القاهرة وقيام الدولة المملوكية محلها •وجسمت هذا الموقف المتأرجح أحداث حملة قراقوش ، وما تمثله من تحالف أيوبى وعربى ضد الموحدين ، كما جسمته من ناحية أخرى ظاهرة انخراط العديد من العرب فى صفوف الجند الموحدية فضلا عن ثوراتهم ضد الحكم المملوكى فى مصر وما تمثله من تحالف موحدى عربى ضد المماليك •

لذلك فصل البحث فى دراسة جوانب هذه الاحداث الحربية وماتمثله من معالم سياسية وحربية فى العلاقات بين المشرق والمغرب فى العصر الموحدى • ومع تشدد منظور الخلافة الموحدية المهدوية الرافض لغيرها من الدول ، والقاضى بتكفير كل خارج على سلطاتها وتعاليمها ، أوضح البحث كيف أن العلاقات الاسلامية العامة كانت تغلب أحيانا كما وقع فى طلب السلطان صلاح الدين الايوبى من الخليفة الموحدى يعقوب المنصور على يد رسوله ابن منقذ بقيام البحرية المغربية بعرقلة المسيحيين (الكفار) فى الغرب وعدم تمكينهم بارسال المدد الى اخوانهم فى الشام، مما يمكن مسلمى المشرق من فك الحصار المضروب على مدينة عكا •

وأثبت البحث أن هذا الطلب العسكرى الايوبى من المغرب استند الى ما كانت تتمتع به دولة الخلافة الموحدية من قوة بحرية أعدت أعدادا قويا منذ عام ٥٥٧ هـ • ورغم الحفاوة والكرم التى لاقاها ابن منقذ أثناء

أقامته فى مراكش وما تلقاه عند عودته من الهدايا ، فقد ذهبت أقوال عن عدم تلبية المنصور طلب صلاح الدين وتعددت التفسيرات من جانب المؤرخين والكتاب فى ربطهم السبب بعدم تصدير الرسالة الايوبية بلقب : « الخليفة يعقوب المنصور أو أمير المؤمنين » ولكن الحقيقة التى أثبتها البحث فضلا عن هذا التعليل هى أن المنصور كان مشغولا بأخطار صليبية على أملاكه الاندلسية والافريقية لم تكن بأقل من الخطر الصليبى على عكا ، وهى الاخطار التى حسرتها جيوش الموحدين بانتصارهم فى معركة الارك الشهيرة سنة ٥٩١ هـ / ٤ — ١١٩٥ م • وفى رأى المغاربة أن المنصور الموحدى أعتبر نفسه بذلك قد ساعد المشرق الاسلامى فى القضاء على الزحف الصليبى الى الشام مما أدى الى كسب صلاح الدين معاركه بها ، ومن ثم غلب هذا الرأى بظاهرة وحدة المواقف الاسلامية العامة فى التاريخ

وبانتقال مقر الخلافة الموحدية من مراكش الى مقر الحفصيين فى تونس ، صادف أن وقع أيضا فى المشرق حدث قيام الدولة المملوكية محل الدولة الايوبية فى حكم مصر والشام وحدث انتقال مقر الخلافة العباسية من بغداد الى القاهرة بعد اجتياح المغول للاراضى المشرقية حتى بغداد •

وترتب على هذه الاحداث العودة بالموحدين فى شخص الحفصيين الى التشدد فى دعواهم بخلافتهم كخلافة واحدة لجميع العالم الاسلامى ونالوا فى ذلك تأييد بيت الاشراف فى مكة المكرمة ، وجاءت للحفصيين بيعة مكة سنة ٦٥٧ هـ / ٨ — ١٢٥٩ م •

وأفادت هذه البيعة بمدى ما أصاب الخلافة المشرقية العباسية من تدهور فى مقامها الدينى والسياسى • غير أن مبادرة المماليك فى العمل على تجديد المقام الدينى للخلافة العباسية من القاهرة قد أضعف من جديد من

أنتصار المشارقة للدعوة الموحدية • وفى هذا الصدد ، أختلف البحث مع الرأى الذى ذهب اليه الاستاذ الدكتور أحمد مختار العبادى بشأن حجم أنصار الموحدين فى مصر والشام بأن علق البحث قدر هذا الحجم على درجة التدهور فى قوة دولة المشرق وخلافتها الاسلامية ؛ بمعنى أن هذا القدر كان يزداد عندما تضطرب هذه الدولة ويضعف دور خلافتها ويعود هذا القدر الى النقصان بعودة دولة المشرق وخلافتها الى سابق قوتها ودورها التاريخى • لذلك ، مع أستقرار الاوضاع فى كل من دولة المغرب الحفصية الموحدية ودولة المشرق المملوكية قصرت كل دولة نشاطها السياسى والحربى على الاخطار الاوربية التى تهددها ، وفى ذات الوقت سمحت صلات الجوار بعلاقات اقتصادية وثقافية وفنية بين المغرب والمشرق أعظم مما كانت من قبل • ودليلنا على ذلك هنا أن مصر ومدينة الاسكندرية فيها على الخصوص قد صارت بمثابة الوطن الثانى للحفصيين ، فهى الملجأ والملاذ لهم من أضطهاد السلطات الحاكمة فى تونس • حدث ذلك عندما فر السلطان أبو يحيى زكرياء اللليحيانى الى الاسكندرية بأبنائه : مصرى وسكندرى ، وعبد الله الواحد ومات ودفن بها هو وابنه سكندرى • ومثال آخر عندما هرب السلطان محمد بن أبى ضربة الى الاسكندرية بحرا وأقام بها حتى وفاته سنة ٧٢٧ هـ أو ٧٢٨ هـ • ولم يكن هذا اللجوء بمصدر تضرر للسلطات الحفصية ، فكثيرا ما أعتبرت هذه السلطات مصر منفى طيبا للمغضوب عليهم فى دولتها •

وفى هذا المجال أثبت البحث أن الامر وصل فى فترة ضعف السلاطين الحفصيين ، من عهد الواثق بن المستنصر وما بعده ، الى حد اقتراب الحكام الحفصيين من الدولة المملوكية فى مصر باعلان اسم السلطان الناصر محمد بن قلاوون بدلا من أسم المهدى فى خطبة الجمعة • ولكن لم يمنعهم ضعفهم هذا من تحول ميولهم عن المشرق تحت حكم المماليك الى المغرب تحت حكم

المرينيين أو العكس تبعا لقوة الدولة الاسلامية فيهما • ومثل هذا الموقف انما يعد تكرارا لظاهرة تاريخية كثيرا ما أتبعتها الدول الاسلامية عموما •

وأثبتت الدراسة أيضا فى صدد العلاقات الموحدية المملوكية كيف تطور دور الجند الترك الغز على حساب دور الجند العرب • وكان دور هؤلاء الترك قد ظهر من أيام الايوبيين عندما استخدمهم الخليفة الموحدى يعقوب المنصور كحرس خاص له ، ووضح أهتمامه بهم من قوله : « أن هؤلاء الترك الغز أحب الى من هؤلاء (أى العرب) » • وقد صار لرجال هذا الحرس مركز الصدارة فيما دار من حروب بين البيوتات الحفصية • ثم توسعت الدولة الحفصية فى استخدام الترك بالعمل على انخراطهم فى سلك الجندية الحفصية جنبا الى جنب مع العرب ، وأزداد ضعف الاخيرين الى جانب الترك باستخدامجند الجناوة أيضا ، وهم المجلوبون من السودان •

وزاد من ضعف نفوذ العرب العمل على تجريدهم من ثقلهمالاقتصادى المستمد من تخويلهم حق فرض اتاوة الخفارة مقابل حراستهم للقوافل التجارية وقوافل الحجيج ، وذلك عندما استبدل الحفصيون هذه الخفارة برواتب وعطايا من الدولة شأنهم فى ذلك شأن الموظفين مما أدى الى استقرارهم وتأسيس القرى مثل : القلعة الصغرى والكبرى وأكودةالحمام فى القرن ٨ هـ •

وكما توسع الحفصيون فى استخدام أتراك وعرب المشرق ، نجد على الجانب الاخر استخدام المغاربة فى جندية المشرق • وقد لعب هؤلاءالمغاربة دورا بارزا فى أحداث عام ٧٦٧ هـ / ١٣٦٥ م فى الحملة الصليبية القبرصية على مصر ؛ وما قاموا به من أعمال دفاعية مجيدة حموا بها سكان مدينة

الاسكندرية . كذلك أثبت البحث أن المغاربة كونوا غالبية فى الاســـطول حصرى ملوتى الذى تم على يديه استتباب الامن فى الحجاز الى عهـد السلطان الغورى المملوكى .

وظهر من البحث أن جالية مغربية كبيرة قـد أستقرت فى الاراضى المصرية وتألف منها الى جانب الجند المغاربة غالبية تجارية تركت تأثيرا واضحا على الحياة الاجتماعيه والاقتصادية والثقافية والفنية . ويتجلى هذا الاثر فى وجود زنقة الستات وهى ما تعنى الشارع فى اللهجة المغربية، واستخدام نون الجماعة فى اللهجة السكندرية ، ولبس النعال (البلغة) والبرانس . وكذلك ادخال أكلات « الكسكسى والمحمصة والشعرية » المغربية فى عادات الغذاء السكندرية .

ومن هذه الجالية المغربية أيضا ذلك العدد الكبير من فقهاء المغاربـة وما سغلوه من مكانة فى الحياة التعليمية والفقهية المصرية عموما والسكندرية خصوصا . ولمع أعلام من هؤلاء أمثال : الطرطوشى ، أبو الحسن الشاذلى وأبو العباس المرسى وغيرهم ممن ورد ذكرهم فى البحث . كذلك تـولى العدد الكبير من المغاربة وظائف القضاء والفتيا ، بل تقرب عدد لا بأس به منهم الى السلطات الحاكمة خاصة المملوكية . فعرض البحث لاسماء عدد كبير من المشايخ الخاصة للسلطان ، وقراء القرافة الخاصة ، بـل وصلت أهمية هؤلاء المغاربة الى حد استخدامهم كسفراء ورسل مثلما حـدث فى عهد السلطان قايتباى عندما استخدم ابن محفوظ المغربى سفيرا له .هذه المكانة الكبيرة التى شغلتها الجالية المغربية فى مصر تفسر ما ذهب اليه عامة من أعتقاد فى كرامات شيوخهم حتى أقيمت لهم المقامات التى أصبحت على مر العصور مزارات هامة .

وكشف البحث أيضا عن تاريخ هذه الجالية الى أن عددا كبيرا من أفرادها عاد بعد فترة من الاستقرار بالمشرق الى موطنه حاملا معه علوم المشرق كى تؤثر بدورها على الحركة الفكرية والادبية بالمغرب • وقد أظهر البحث فى أكثر من موضع معالم هذا الاثر الفكرى المشرقى فى العصر الموحدى سواء بالنسبة لفكر المرشدية فى العقيدة الموحدية أو بالنسبة للاثر العام على التراث الفكرى المغربى فى كتابات الاعلام المغاربة من أمثال القاضى عياض وأبى جعفر أحمد بن عطية القضاعى ، وأخيه أبى عقيل بن عطية ، وأبى جعفر عمر بن عبد الله السلمى الاغماتى ، وأبى العباس الجراوى وابن خبازة ، وابن غزلة رائد الزجل المغربى المعروف بالملحون •

ومن هذه المؤثرات الثقافية أيضا تلك المدرسة الصوفية المغربية التى قامت على غرار مدرسة الاسكندرية الصوفية على يد مؤسسها عبدالسلام بن مشيش وأبى العباس السبتى •

وظهر للمرأة المغربية دور أيضا مماثل لدور المرأة الشرقية فى الحياة الادبية حسبما ورد من تفصيل فى البحث • هذا فضلا عن التأثيرات الفنية المتبادلة •

وفى مجال الحياة الاقتصادية ظهر من البحث أهمية دور كل من الاسكندرية وتونس فى العلاقات التجارية بين الشرق والغرب عبرمسالكها البرية والبحرية • وأوضح البحث أثر الطريق البرى القادم من السودان الغربى عبر الطريق الصحراوى على أزدهار النشاط الاقتصادى وزيادة رفاهية المجتمع المغربى والمشرقى على السواء الى حد التأثير على الدورة النقدية ، وما تخلفه من أرتفاع وأنخفاض فى قيمة العملة •

ومن دراسة شكل العملة الموحدية الوارد نموذجها فى البحث ، ظهر بالفعل اختلاف فى قيمة الدينار الموحدى عن نظيره المرابطى بناقص نصف جرام (٥ر١ ج : ٢ ج) • وأظهر البحث أثر دور اليهود فى هذا الصددالذين ذهبوا منذ القرن الحادى عشر الى صهر النقود الفضية بدلا من الذهبية ، وبالرغم من ظهور الدينار الذهبى الحفصى المعروف بالتونسى والمرصود نموذجه أيضا فى البحث ، فقد ظهر لفترة الحندوس أو الفلس النحـــاس الذى سرعان ما ألغى بسبب الثورة على انخفاض قيمة العملـــة والغش فى أوزانها •

وبالنسبة للطريق التجارى البحرى ، فقد أوضح البحث الدور البارز لكل من الموانى الموحدية والمشرقية فى الدورة التجارية بحوض البحـــــر المتوسط والصلة الوثيقة لهذه الدورة بالتجارة الاوربية •

ومن خلال ما توفر لدى صاحبة البحث من مراسلات موحديـــة لم يسبق تناولها فى الدراسات العربية ، أبرز البحث تنظيم الموحدين لأسس التعامل التجارى مع أوربا عبر كتب الامان الصادرة للتجار ، وأعداد قوائم حصر التجار الاحياء منهم والاموات بهدف تسوية الحقوق وأداء ماعليهم من واجبات ، وانشاء وظيفة الوكيل لحل المشاكل المترتبة عن العقود بيـــن المغاربة والاوربيين ، فضلا عن وظائف العدول (الشهود) والدلاليـــن (الوسطاء) •، وقد أشتغل بأعمال الوساطة التجارية المسلمون والمسيحيون من مختلف الاقطار ، فكان منهم المصرى والعراقى والشـــامى والتلمسانى والطنجى والتونسى والبجاوى والجنوى والبندقى وغيرهم ممن ظهروا فى طيات البحث •و بتعدد هؤلاء المشتغلين بتلك الدورة التجارية البحريـــة المشرقية ــ المغربية ــ الاوربية ، كثرت الفنادق وتعددت الاسواق فى بلاد

الموحدين على غرار ما كان ببلدان المشرق ، كما عرفت مدنها الابواب التى تغلق ليلا بالمتاريس •

كذلك أثبت البحث مختلف السلع التجارية كما سجلتها المراسلات الموحدية السابق ذكرها • ومن هذه السلع : الجلود : الزيتون وزيته ، الكروم ، التمور ، الشمع ، الملح ، حب الفلفل ، الزنجبيل • القرفه أو الدارصينى • ملح النوشادر • الزئبق ، الخشب عموما وخشب الصنوبر خصوصا القادم من طرطوشة بالاندلس • وقدمت نصوص هذه المراسلات معلومات أخرى عن مقدار المكوس المقررة على هذه السلع تحصيلا للعشر حسب الشريعة الاسلامية وان أختلف مقداره الحقيقى فيما بين ٨ ٪ - ٢٠ ٪ من ثمن البيع • وأظهر البحث أن الاختلاف فى مقدار المكس كان يرجع الى أسباب مختلفة منها ما يتعلق بعقيدة التاجر (مسلم — نصرانى — يهودى) ومدى تقربه من السلطان ، فضلا عن نوع البضاعة التى يتاجر فيها • وعموما فقد تم تصنيف مقدار المكس على النحو التالى :

١٠ ٪ للاجانب ، ٢٫٥ ٪ للمسلم ، ٥ ٪ للذمى •

كذلك ، توصل البحث فى هذا المجال الى معرفة نوعية المواد التجارية المعفاة من المكس وهى : الذهب والفضة والرصاص والشب • كما أثبت البحث أنواع العقوبة المنصوص عليها لكل من يخالف تلك القواعدوالشروط المعلنة فى العقود التجارية • وأثبت البحث ضمن ملاحقه نص عهد الامان الصادر من هذا النص المحفوظ ضمن الاوراق الموحدية المذكورة عاليا أن الفضل فى صدور هذا العهد يرجع الى مناشدة السلطات الحفصية فى تونس السلطان المملوكى بأن يرعى مصالح التجار البيشانيين أسوة بالبنادقة • وفى هذا دليل على أهمية الدورة التجارية السابق وصفها لدى كل من الحفصيين فى تونس والمماليك فى مصر •

وبالرغم من عداء العقيدة الموحدية لليهود حسبما سبقت الاشارة ، الا أن البحث أثبت فى مجال النشاط التجارى الدور الهام الذى لعبه اليهود ولمعوا فى اتقانه كوسطاء فى علاقات الدورة التجارية تلك • وبرز من بينهم على الخصوص يهود الرهادنة فى تونس الذين سهلت صلاتهم بالبلاط الحفصى الاشتغال بنوع معين من السلع على سبيل الاحتكار ، وكذلك الاشتغال بافتكاك الاسرى ، الامر الذى در عليهم أرباحا طائلة بل وشغلوا وظائف التراجمة فى عقد المعاهدات الدبلوماسية كما حدث فى عام ١٢٦٧ م بالنسبة للكاتب موشى المعين لبلدية جنوة ترجمانا باللغة العربيـة ، كما شغلوا مناصب دبلوماسية حسبما حدث سنة ١٢٩٣ م عندما تم تعيين الطبيب ابن داوود سفيرا الى أرغونه • وبناء على توسع نفوذهم التجارى شرقا وغربا ، أمتلك هؤلاء اليهود سفنا تجارية خاصة بهم أخذت تجوب شواطىء المسلمين البحرية من المغرب غربا الى المشرق شرقا محملة ببضائع تلك البلدان بالاضافة الى تجارة أوربا •

هكذا رصد البحث فى الفصل الخامس معالم الصلات الاقتصادية بين المغرب والمشرق عبر تلك الدورة التجارية وأستند فى أثباتها أساسا وكشف ما خفى من حقائقها على المراسلات الموحدية التجارية • كذلك ذهب البحث فى الفصل الاخير الى تقصى جانب آخر غامض من معالم الصلات المغربية المشرقية هو ما يتعلق بالاساس الفقهى الذى قامت عليه أصلا الدعـوة الموحدية وفكرها • وان البحث فى هذا الاساس بالتفصيل مع صعوبتـه ، من الاهمية بمكان لتفسير أحداث الحركة التاريخية الموحدية وأحـداث علاقاتها بالدولتين الايوبية والملوكية فى المشرق • وفى هذا السبيل ذهب البحث الى تتبع أصول العقيدة الموحدية فى الفكر المغربى من ناحية والفكر المشرقى من ناحية أخرى • ومن ثم كان البحث عن هذه الاصول فى فكـر

المالكيه والشافعيه والاشعرية والسيعة والمعتزلة والخوارج ، فضلا عن ميراث الفكر الشعبى المغربى . وتوصل البحث الى حقيقة هى أن العقيدة الموحدية قد تألفت من منظومة قامت أساسا على فكر الاشعرية وأخذت من المذاهب الاخرى بنسب متفاوتة وتأثرت بنسبة أكبر من تراث هذه المذاهب فى الفكر الشعبى المغربى .

والخلاصة ، فان دراسة موضوع العلاقات المغربية والمشرقية الاسلامية كما جاء فى هذا البحث لم تكن بالامر اليسير . فكما سبق الذكر فى مقدمة البحث ، فان المعلومات المتعلقة بهذه العلاقات قليلة للغاية ومتناثرة ومتفرقة فيما هو متوفر لدينا من المصادر القليلة عن تاريخ الموحدين . كما أن هذه المعلومات تتعلق بأحداث لا تشف عن روابط ودية بقدر ماتسفر عن أكثر من وجه للتنافس والعداء القائمين بين دولة الموحدية ودول المشرق الاسلامى المعاصرة لها . ومع ذلك ، أمكن لصاحبة البحث أن تكشف فى منهاج علمى موضوعى عن كل وجوه الحركة التاريخية المتصلة بتلك العلاقات ودية كانت أم عدائية حسبما عرضت للنواحى السياسية والحربية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والفنية التى تدخل فى نطاق أحداثها .

والله ولى التوفيق


الملاحق

ملحق رقم (١)

كان من ألقاب الحفصيين لقب الخليفة ، وفيما يلى نماذج لصورة هذا اللقب حسبما وردت فى تلك المراسلات الواردة ضمن مجموعة أمارى عن الموحدين والحفصيين :

من نص الرسالة رقم ٢٥ ص ٧٥ — ٧٧ :

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على النبى الكريم
وعلى آله وسلم تسليما

« الشيخ الاجل المعظم الموقر الاسنى الارفع المكرم لنبارت فليول الفرناج .. وبعد حمد الله أهل الحمد ووليه والصلاة على نبيه وصفيه والرضى عن الامام المعصوم المهدى المعلوم المرتضى وعن كافة الخلفا الاكرمين أيمة الدين والهدا ومولا الدعا لسيدنا ومولانا أمير المؤمنين بالنصر الاعم الاعلا كتب محلكم ... » .

من نص الرسالة رقم ٢٧ ، ص ٨١ — ٨٢

بسم الله الرحمن الرحيم

« الى السيد الاجل السلطان الكبير الملك الكامل ناصر الدنيا والدين سلطان الاسلام والمسلمين ملك الدنيا والدين الى المعالى محمد بن أبى بكر بن أيوب ظهير أمير المؤمنين ... فالغرض من المولا حرس الله مدته تقليد خدماه غاية الامتنان بحفظه ورعايته ... فكلما يذكره لمولانا ... » .

من نص الرسالة رقم ٢٨ ، ص ٨٣ — ٨٥

« للشيخ الاكرم المبجل البستات أبالذ بسكونت صاحب بيش أرشده الله ووفقه شاكركم المبادر لقضاء طوايجكم عمر بن أبى بكر الصابونى

سلام عليكم وبعد حمد الله تعالى والصلاة على سيدنا محمد نبيه الكريم ورسوله المصطفى والرضا عن الامام المعصوم المهدى المعلوم المجتبى وعن الخلفاء الائمة الراشدين أئمة الهدى وصلة الدعا لسيدنا ومولانا الخليفة الامام العادل أمير المؤمنين أبو محمد عبد الله بن الخلفا الراشدين .. »

من نص الرسالة رقم ٢٩ ، ص ٨٦ — ٩٧ :

« ... هذا كتاب صلح مبارك انعقد عن اذن سيدنا ومولانا الخليفة الامام القائم بأمر الله المنصور بفضل الله أمير المؤمنين أبو يحيى زكريا بن مولانا الامير أبى العباس ابن الامرا الراشدين أيدهم الله ... » .

من نص الرسالة رقم ٣٠ ، ص ٩٨ — ١١١ :

« هذا الكتاب صلح مبارك عقده عن اذن سيدنا ومولانا الامام المستنصر بالله المنصور بفضل الله أمير المؤمنين أبو اسحق ابراهيم ابن سيدنا ومولانا الخليفة الامام المتوكل على الله المؤيد بنصر الله أمير المؤمنين المقدس المرحوم أبى يحيى أبى بكر ابن الامر الراشدين أيدهم الله ... » .

من نص الرسالة رقم ٣٢ ، ص ١١٥ — ١١٨ :

« من عبد الله المتوكل على الله أمير المؤمنين أحمد بن مولانا الامير أبى عبد الله محمد بن مولانا أمير المؤمنين المتوكل على رب العالمين أبى يحيى أبى بكر ابن الامراء الراشدين .. الى البطل الزعيم جوان دكوت صاحب بيش ... » .

من نص الرسالة رقم ٣٤ ، ص ١٢٣ — ١٣٦ :

« هذه نسخة نسخت من عقد الصلح بالحضرة العلية كتب بحبلى الجامع وهى غير مشهودة لما وفد على الحضرة العلية السامية السنية مدينة

تونس المحروسة حضرة سيدنا ومولانا الخليفة الامام الملك الهمام المرتضى ايالة الاسلام ظل الله فى أرضه القايم بنقله وفرضه المتوكل على اللـــه المؤيد بنصر الله المنصور بفضل الله الطاهر الساجد الموثر النصب فى أمره عن المسلمين والعبادة على الراحة أمير المؤمنين فخر الملوك والسلاصين المجاهد فى سبيل رب العالمين أبو فارس عبد العزيز خلد الله دولتهم ... ابن سيدنا ومولانا الخليفة الامام الملك الهمام المقدس المرحوم أبى العباس أحمد ابن سيدنا المرحوم أبا عبد الله محمد ابن سيدنا ومولانا الخليفـة الامام .. أمير المؤمنين المرحوم أبا يحيى أبا بكر ... » .

وواضح من نصوص الالقاب المذكورة عاليه أن لقبى أمير المؤمنين والخليفة غالبان على الالقاب المختلفة المستخدمة فى تلقيب الاميرأو السلطان الحفصى . فهل المقصود من هذا هو الجمع بين اللقب التراثى الموحـدى للخلافة واللقب الدنيوى السلطانى للحكم ؟ ان الاجابة على هذا التساؤل نتأكد من ظاهرة الخلط فى نفس الالقاب التى أوردها الزركشى فى تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية حسبما تفصح عنها نماذج النصوص الاتى ذكرهـا :

نصوص من واقع تاريخ الدولتين للزركشى :

ص ٣٣ : عن المستنصر ابن أبى زكرياء : « وتسمى بالامير ولم يتسمى بأمير المؤمنين الا فى يوم الاثنين الرابع والعشرين لذى الحجة من سنة خمسين وستماية وذلك لما قدمت عليه البيعة من مكة بانشاء عبد الحق ابن سبعين وقدمت عليه بيعة الشام والاندلس وتلقب بالمستنصر » .

ص ٣٣ : « .. رأى المولى المستنصر الاقتصار على لفظ الاميـر

قصوروا فتسمى بأمير المؤمنين وأمر أن يذكر ذلك فى الخطبة ويطبـــع فى الذهب » .

ص ٣٧ : « بعد وصول بيعة مكة أنشد بعض الشعراء :

أهنـــأ أمير المـــؤمنين ببيعـــــة
واهتك بالاقبـــال والاسعـــــــاد
فلقـــد حبـــاك بملكـــه رب الـــورى
فأتى يبشر بافتتـــاح بـــــــــلاد
واذا أتت أم القـــرى منقـــادة
فمـــن المبـــرة طاعـــة الاولاد » .

ص ٣٩ : « وفى سنة ثمان وستين وستمائة قرئت بيعة صاحب المغرب الاقصى الامير أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق على المولى المستنصر » .

ص ٦٦ : عن محمد أبى ضربة ابن زكرياء « .. فكانت مدة خلافته بتونس تسعة أشهر ونصف شهر » .

دولة أبى بكر يحيى بن أبراهيم

« وتولى تونس أمير المؤمنين المتوكل على الله أبو بكر ابن الامير أبى زكرياء يحيى ..... » .

ص ٧٩ : « وفى ليلة الاربعاء الثانية من رجب من السنة (٧٤٧ هـ) المذكورة توفى السلطان الخليفة أبو يحيى أبو بكر بتونس ... » .

ص ٧٩ .. « وولى بعده ولده الامير أبو حفص عمر .. بويع لــــه بالخلافة يوم الاربعاء الثانى لرجب الفرد مـــن عام سبعة وأربعيـــن وسبعمائة ... » .

ص ٩٢ : عن دولة ابراهيم ابن أبى بكر : « وجاء بـــه الى القصر وأقعده على كرسى الخلافة » .

ص ١٠١ : « فى فاتح سنة ست وستين وسبعمائة توفى الشيخ الحاجب أبو محمد عبد الله ابن نفراجين بتونس ودفن بمدرسته الكائنة بقنطــرة ابن ساكن داخل باب السويقة وحضر دفنه المولى الخليفة أبو اسحاق حتى وضع بملحده ... » .

ص ١١٤ : « وفى يوم الاربعاء ثالث شعبان من سنة ست وتسعين وسبعمائة المذكورة توفى المولى الخليفة السلطان أبو العباس أحمد بتونس بمرض سابق .. » .

« فتولى تونس وبلادها بعده ولده مولانا أمير المؤمنين أبو فارس عبد العزيز » .

ص ١١٥ : « .. وأستقل بتونس مولانا أمير المؤمنين أبو فــارس عبد العزيز وأخذ بالحزم فى أموره ... » .

ص ١١٩ « ... وفى عام ثمانية وتسعين ازداد للمولى الخليفـــة (أبو فارس) المولى الاجل أبو عبد الله محمد المنصور .. » « ... وفى هذه السنة خرج المولى أبو العباس أحمد ابن المولى أبى عبد الله محمـــد ابن المولى الخليفة أبى العباس أحمد فجاء ببيعة بجاية ... » .

ص ١٢٦ : « .. وفى عام سبعة وعشرين وثمانمائة افتتح المـــولى السلطان مدينة تلمسان ... ثم ارتحل قاصدا مدينة فاس حتى لم يبـــق بينه وبينها الا مسيرة يومين فوجـــه لـــه صاحب فاس ان البلاد بلادكم والسلطنة سلطنتكم وجميع ماتامروننا به نمتثله . فقبل السلطان أبوفارس كلامه ووجه له هدية عظيمة كافأه عليها بأكثر منها وقفل راجعا الى حضرة

تونس غانما منصورا ولحقته بيعة فاس ثم بيعة صاحب الاندلس فصارت البلاد الافريقية والمغرب الاقصى والاوسط كلها تحت نظره وفى ملكه » .

ص ١٢٨ : « وفى عشية يوم الاحد الثانى والعشرين من رجب العام المذكور (٨٣٣ هـ) مات المولى الاجل ولى عهد الخلافة أبو عبد الله محمد المنصور ابن المولى أبى فارس بوطن طرابلس وحمل الى تونس ... » .

ص ١٣١ : دولة المنتصر الحفصى حفيد أبو فارس عبد العزيز . ... وبويع لولى عهده المولى السلطان أبى عبد الله محمد المنتصر ابن الامير الشهيد أبى عبد الله محمد المنصور ابن مولانا أمير المؤمنين أبى فارس عبد العزيز ابن الخلفاء الراشدين ... وأظهر موت جده الخليفة .. وعقد على بجاية لعمه المولى أبى الحسن على ابن المولى الخليفة أبى فارس عبد العزيز وصرفه ايها .. » .

عن تكرار ألقاب الخلافة ص ١٣٤، ١٣٦، ١٣٧، ١٣٨، ١٣٩، ١٤٣ .

ص١٤٤ : « وفى أوائل عام أربعة وخمسين وثمانمائة أمر الخليفة ببناء خزانة الكتب بجامع الزيتونة ... وفى يوم السبت الموفى عشرين لربيع الثانى من عام خمسة وخمسين وثمانمائة عمل المولى السلطان عرس ولده المولى الهمام ولى عهد الخلافة أبى عبد الله محمد المسعود على ابنة عمه شقيق الخليفة المنتصر ... » .

وعن ذكر نفس الالقاب ، ص ١٤٨، ١٥٥، ١٥٧ .

ملحـــق رقم (٢)

رسالة من محمد (المهدى) بن تومرت الى أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين

من القائم بدين الله ، العامل بسنة رسول الله ، محمد بن عبد اللـه وفقـه الله .

الى المغرور بدنياه على بن يوسف .

أما بعد ، فأنا ما وجدنا لاكثركم من عهد ، وان وجدنا أكثركم لفاسقين لم تخشوا عقوبة رب العالمين ، ولم تتفكروا فيمن حولكم من الظالميـن، الذين غووا فأصبحوا نادمين ، فتبعهم الناس أجمعون فاذا هم أخسـر الخاسرين ، وقد أمرنى الله بادحاض حجة الظالمين ، ودعاء الناس الـى اليقين ، ونسأل من الله أجر المحسنين ، لا تغتروا فان المسلمين اليكم .. فلابد أن نجيش ونفوز ... لقتال من زاغ وجنف وكفر بنعمة الله ، وقد جاء فى التنزيل انكم لستم بمؤمنين بلا الاه الا الله ، وأنها كلمة تقولونها عند الخوف والتعجب ، وتارك واحدة من السنة كتاركها كلها ، ومن أجل ذلك دماؤكم حلال ، ومالكم فىء وقد بينا لكم وأوضحنا السبيل ، (وماتغنى الايات والنذور عن قوم لا يؤمنون ؟) (وسيعلم الذين ظلمـوا أى منقلب ينقلبـون) .

والسلام على من اتبع الهدى وخشى الرحمان .

كتاب الوثائق ، رقم ٨٠ ، ص ٢٣٠ . وهى رسالة غير مؤرخة ولا يعلم بالضبط متى أرسلت الى الامير على بن يوسف المراطى ، لكن من المرجح أنها أرسلت اليه قبل معركة البحيرة التى وقعت عام ٥٢٤ هـ .

ملحـــق رقم (٣)

رسالة من محمد (المهدى) بن تومرت الى جماعـة المرابطيـن بســـــوس

بسم الله الرحمـن الـرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم

من محمد بن عبد الله العربى القرسى الهاشمى الحسنى الفـاطمى المحمـدى :

الى الفئة الباغية ، والشرذمة الطاغية ، الذين طغوا فى البـلاد ، فأكثروا فيها الفساد ، الذين استنزلهم الشيطان ، وغضب عليهم الرحمان ، جماعة المثلمين الزراجنة الساكنين بسوس دمرهم الله .

أما بعد ، وجدت أكثركم فاسقين ، وقد رأيناكم عن الحق نازحين ، ولم تذكروا عقوبة رب العالمين ، اشتكى بكم الناس فاذا أنتم أخسـر الخاسرين ، لا محالة بأثرهم ماضين ، وقد أمر الله تعالى بادحاض صحبة الظالمين ، ودعائهم الى الصراط المستقيم ، ان الموحدين اليكم قادمون ، على الله متوكلون ، بأيديهم سيوف قاطعة ، ورماح نافذة سمهرية وردينية قد تقلد بها الموحدون ليقطعوا بها صولتكم كما قطعت بها صولة أصحاب بدر ، يضربون بها ويطعنون فى سبيل الله ، لابد من جيش العرب يقـوده الامر الالهى ، يفور عليكم فورة البرمة المحماة بالنار ، فويل لاهل الغرب بيدهم أشرارهم بعد ذلك ، وويل لاهل السوس وجيرانهم جزولة الكست ولمطه وأهل القبلة كافة ، وعسى أن يكون ذلك ان شاء الله فى سبع وتسعين

أو ثمان وتسعين أو تسع وتسعين ، أوله غبار ووسطه استثيار : وآخـــره عبرة كبيرة فى الروم عظيمة ، وأسأل الله العظمة ، ولا يعلم الغيب الا الله، أمر الله حتم يمتثل من خالفه يقتل ، والحمد لله رب العـــالمين كثيرا الذى بنعمه تتم الصالحات .

والسلام عليكم سلام السنة لا سلام الرضى .

كتاب الوثائق ، رقم ٨١ ، ص ٢٣٢ . رسالة غير مؤرخة أيضا ، وفيها يشبه ابن تومرت نفسه بالرسول ، وأنه سوف يقود الموحدين فى غزاته ضد المرابطين مثلما فعل الرسول فى غزوة بدر . فى هذه الرسالة وعد ووعيـــد وتهديد ، مدفوعا فى ذلك بشدة تمسكه بالحق وشدة ايمانه بالتوحيد ومرشدته السابقة الذكر .

ملحـــق رقم (٤)

رسالة من محمد (المهـدى) بن تومرت

من محمد بن عبد الله .... فعرفونا بشرح ذلك وايضاحه ، ليتبين الفاسد بفساده والصالح بصلاحه ، ولتصل منكم جماعة فيها شيـوخكم وأعيانكم النبهاء وفقهم الله ، ليستبين عندهم ما تضمنه كتابكم المذكور من تلك العلامات يبحثون عنها بحثا بالغا على أوفى الحالات ، ويعرفونا بذلك، فننظر فيما هنالك ..

والله يتوب على من تاب وأصلح وتبين ، ويعيننا جميعا على القيام بما وجب بفضله وكرمه .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

كتاب الوثائق رقم ٨٢ ، ص ٢٣٣ .

يبدو من هذه الرسالة أنها مرسلة الى شيوخ المصامدة ردا على رسالتهم الى المهدى التى لم نعثر عليها ، وكما هو ملاحظ أنها مبتورة فى بدايتها ونهايتها وهى كسابقاتها غير مؤرخه ، يستعلم فيها المهدى عن الذين يودون الدخـول فى طاعة الموحدين لكى يقـوم فيهم بعملية التمييز السابق ذكـرها فى صـلب الرسالة .

ملحـــق رقم (٥)

الرسالة [١] التى بعث بها يعقوب المنصور الموحدى الى طلبة مراكش فى ١٨ شعبان ٥٨٣ هـ يخبرهم فيها بفتح مدينة قابس

« ... فقد علمتم ما كان من الاشقياء الغربيين ، وأخوانهم فى الضلالة الميروقيين من التسحب على أرجاء هذه الجهات الافريقية وأكنافهـــا ، وشنهم الغارات بأوساطها وأطرافها ، وأجماعهم على اكتساح زروعها فى هذا العام وأنتسافها . وما سولته لهم أمانيهم الكواذب من قطعهابالحرابة وأضعافها ، فحال بينهم وبين ما أملوه من ذلك المنع الالاهى والصد ، ... وكان من صنع الله العجيب ، أن انتهينا اليها عند بلوغ زرعها الى حـــال الكمال والطيب ، فحماه الله من اختطافهم ، وصانه على أربابه من اعتدائهم والتلافهم ، وصيره رزقا ، واسعا لاحزابه المؤيدين ... وكان هؤلاءالاشقياء المتمردين ، والكفرة المتخلصون من ثوب الاسلام المتجردون ، والجبنـــاء المجردون بالخلاء وهم منفردون ، والاوباش المتظافرون ، على الحرابـــة المتعاقدون ، وقد استنزلهم الشيطان وأغواهم ، واستجرهم الطمع المهلك وأستهواهم ، وصور لهم أن لاقامع يقمعهم فاضلهم وأرداهم . ولما أذن الله تعالى بهلكهم ، وقضى بقهرهم على أيدى أوليائه المظفرين وعزكهم ، وأراحة هذه الجهات مما دهاها من زورهم وأفكهم ، عزم الموحـــدون — أعزهم الله — على النهوض اليهم الى محال قرارهم ، وغزوهم فى عقـــر دارهم ، وأستعانوا بالله تعالى على ابادتهم ومحوا آثارهم فنهضوا من تونس — كلاها الله — ودلائل نجحهم صادقة ، واعلاقهم بالفتح والتأييد

---

(١) ليفى بروفنسال ، رسائل موحدية ، رقم ٣٠ ، ص ١٨٠—١٩٠

خافقة ... وعندما أحس الاشقياء بحركة أهل التوحيد .. تحركوا مـن مواضعهم مخيلين بزورهم .... ولما وصل الموحدون ـ أعزهم الله ـ الى القيروان ـ كلاها الله ـ رأوا أن يقدموا الانذار اليهم ، ويقيموا الحجة عليهم ، ويسلكوا على سنن الشرع فى تقرير الدعوة الى الله تعالى والى رسوله وبما جاء به لديهم ، فكفروا نعمة الرفق بهم وغمطوها ، ازدروا المنة بذلك عليهم وسخطوها ، وجهلوا قدر المنحة الميسرة لهم فلم يتلقوها بالقبول ويرتبطوها ، وأعتقلوا الرسول جريا على عادة كفرهم ، وكانوا عند احتلال الموحدين ـ أعزهم الله ـ بالقيروان بجهات وادى ران ثم قصدوا قفصه ـ أعادها الله ـ مخيلين باللقاء عندها ، ومشيعين أنهم يقارعـون الموحدين ـ أعانهم الله ـ ان قصدوا قصدها ، فاقتفى الموحدون ـ أعزهم الله ـ آثارهم الى مقربة منها ، وأخذوا على طريق لم يخطر ببال الاشقياء السلوك عليها ، ولا اختلج فى صدورهم اهتـداء اليها ، فسقط فى أيديهم وأختلت أراؤهم وأضمحلت دعاويهم ، وتوفرت على الهرب الى قابس ـ والشيطان يخيل لهم الاستقلال بما قبل لهم به ولا طوق ، حتى أنتهى بهم السير الى حمة مطماطة حيث حم حمامهم ، وتصرمت أيامهم ، وتزلزلت أقدامهم ، وأستصرخوا صعاليك سليم وذؤبانهم ، وكل من وافقهم على ضلالتهم من الاعراب وأعانهم من أهل الباطل وأعوانهم ، .. فـلاذوا بالفرار ، واستسلموا لحكم الشفار ، وتخيلوا النجـاة فى تولية الادبار . فأتبعهم أولياء الله يقتلونهم فى كل غور ونجد ، ويجدلونهم فى كل ربـوة ووهدة ، ويصرعونهم حيث مايتمموا من منتحى وقصد ، ... وسيق العدد الجم من رؤوس أبطالهم وخيلهم ، والناجون منهم بجريعة الذقـن وهم الاقلون يدعون بثبورهم وويلهم ، ... والطلب لا ينسى فى أثر من بقى من حثالتهم واستيصال من اغتر بجهالتهم وانخـدع بسراب محـالهم وزور ضلالتهم ، .. وفى صبيحة الليلة التى أذل الله فى يومها الاشقياء ، وأعـز

فيها الاولياء ومنحهم الظفر عليهم والاستيلاء ، وهو يوم الخميس العاشر من شهر تاريخه ، وصل الى قابس — كلاها الله — فلحين الاطلال عليها خرج أهلها راغبين فى الامن والامان ، معلنين بكلمة التوحيد والايمان ..

وكان بقابس بنو الشقى قراقوش وأهله ، وجملة ما قسمه انتهابه وضمه حبله ، ومعهم جماعة من أوباشه الذين يعتمد عليهم ، ولا يثق بأهله وولده وماله الا اليهم ، فتحصنوا بقصبة بها منيعه الجوانب . سامية المراقب ، مستعصية على المنازل لها والمحارب ، وأجمعوا على الاستماتة فيها ، فأحرقت بهم أجناد الله من جميع جهاتها ونواحيها وأستنزلوا منها على الامن فى رقابهم ، واستقصاء كافة أموالهم وأسلابهم ، واسترقاق نسائهم وأبنائهم وعيال من شهد الوقيعة من مقتولهم وهرابهم . وحصل أهل قراقوش وبنوه وماله غنما لاولياء الله تعالى ونفلا . وملكا لطائفة الحق وخولا .. » .

ملحـــق رقم (٦)

شجرة نسب الاسرة الموحديـــــة

الموحدون أربعة عشر (مدة خلافتهم ١٤٤ سنة ، ١١ شهرا ، ٢٣ يوما)
أولهم

الامام المهدى محمد بن تومرت ٥١٥ — ٥٢٤ هـ

أبو محمد بن عبد المؤمن بن على الكومى ٥٢٤ — ٥٥٨ هـ

أبنه : أبو يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن ٥٥٨ — ٥٨٠ هـ

أبنه : أبو يوسف يعقــوب المنصــور ٥٨٠ — ٥٩٥ هـ

أبنه : أبو عبد الله محمــد النــاصر ٥٩٥ — ٦١٠ هـ

عم أبيه : أبو مالك عبد الواحد بن يوسف بن عبد المؤمن المعــروف « بالمخلوع » ٦٢٠ — ٦٢١ هـ

ابن أخيه : العادل أبو محمد عبد الله بن يعقوب المنصور المعــروف بالمقتول ، قتل خنقا فى فسقية مــاء ٦٢١ — ٦٢٤ هـ

أخوه : المأمون أبو العلاء ادريس بن يعقوب المنصور ٦٢٤—٦٢٩ هـ

ابن أخيه : المعتصم أبو زكرياء يحيى ابن محمد الناصر بن يعقوب المنصور ٦٢٤ هـ وخلع فى الحين الى قتله « قتله عرب المعقل غدرا » .

ابن أخيه : الرشيد أبو محمد عبد الواحد بن المأمون أبى العلاء ادريس « الغريق » توفى غريقا فى جوانب القصر ٦٢٩ — ٦٤٠ هـ

أخوه : السعيد أبو الحسن على بن المأمون « قتل مع والده فى احدى معارك بنى عبد الواد » . ٦٤٠ — ٦٤٦هـ

ابن عم أبيه : المرتضى أبو حفصى عمر بن السيد أبى ابراهيماسحاق ابن يوسف بن عبد المؤمن ٦٤٦ — ٦٦٥ هـ

ابن عم أبيه : أبو دبوس الواثق بالله أبو العلاء ادريس أبى عبدالله محمد بن السيد أبى حفص عمر بن عبد المؤمن . الذى انقرضت على يديه دولتهم . ٦٦٥ — ٦٦٧ هـ

أرجع الى : مجهول ، الحلل ، ص ١٥٣ . الزركشى ، تاريخ الدولتين ، ص ١٦٢—١٦٣ .

٢٥ — محمد المنتصر بن المنصور أبي العباس عبد العزيز (٨٣٧—٨٣٨هـ)
٢٦ — أبو عمرو عثمان بن محمد بن المنصور بن أبي فارس (٨٣٨—٨٩٣هـ)
٢٧ — أبو يحيى زكريا بن أبي عبد الله محمد المسعود بن أبي عمرو عثمان (٨٩٣ — ٨٩٨هـ)
٢٨ — محمد بن الحسن بن محمد المسعود (٨٩٨—٩٣١هـ)
٢٩ — الحسن بن محمد بن الحسن بن محمد المسعود (٩٣١—٩٤٠هـ)
٣٠ — أبو العباس أحمد بن الحسن بن محمد بن الحسن (٩٤١—٩٧٧هـ)
٣١ — محمد بن الحسن بن محمد بن الحسن بن محمد المسعود (٩٧٧ — ٩٨٠هـ)

— أنظر — ابن القنفذ ، الفارسية .
— أنظر أيضا — عبد اوهاب بن المنصور ، قبائل المغرب ، جا ، ص ١٦٨

ملحـــق رقم (٨)

« من أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين • أيدهم الله بنظره ، وأمدهم بمعونته — الى الطلبه والموحدين والاشياخ والكافـة بتونس — أدام الله كرامتهم بتقواه ، وأعانهم على شكر ما منحه منفضله وآتاه ، وتابع لهم السرات بترادف فتوح هذا الامر العزيز وبشراه سلام عليكم ورحمة الله وبركاته •

أما بعد فانا نحمد اليكم الله الذى لا اله الا هو ، ونشكره على آلائه ونعمه ونصلى على سيدنا محمد نبيه المصطفى ورسوله • والحمد للهالذى واتر لهذه الدعوة العلية فتوحه السنية ووالاها • وقرب لها الامال القصية وأدناها وتمم عندها نعمه الجمة ووقاها ، وأجزل عطاياها من منحهالجسيمة وسهلها وسهل لها مراماتها على أفضل ما يتهنأ متخير أن يكون وسناها ، وقضى أن يكون فى اعلاء كلمته ، واذلال أتباع الباطل وشيعته ، قصدهـا المحتسب ومسعاها ، وقرن بالتوفيق والتأييد ، وانتظام الاغراض على أتم مراد المريد مبادى مآخذها الميمنة وعقباها ، وجعل الى المآل الميســر ، والمصير المضلل المدمر ، فغبة متساقيها وعداها وأذل فئتها الخاسرة بأيــدى أوليائه المريدين وأخزاها ، وأوقفها على عاقبة هلكها ورداها ، وروى مــن دمائها المسالة قناها ، وحكم فى طلاها المذالة صوارقها الغضبة وظباها ، وكشف غماء شركهم وغيابة زورهم وافكهم بحقها الواضح وحلاها ،وأراح بنظرها السعيد ، ورأيها الموفق السديد ، كرب هذه البلاد وباراها ،وأبراها من عللها الفادحه وشفاها • وتقع بزلال المن وسلسال العدل والامــن ، غللها المبرحة ورواها والصلاة على محمد نبيه المصطفى ورسوله الاكــرم المجتبى ، مبصر الامة من عماها ، ومجلى غيهب الحيرة وبعاها ، ومرشد

الكافة الى سبيل هداها ، ومعرفها بخيبة من أوبق نفسه ودساها ، وفلاح من ظهرها بالطاعة وزكاها ، ومزهدها فى عاجلة قصير مداها ، قليل نداها ، نزير جناها، فعنصر بيد الاسترجاع والانتزاع عطاها النزر وجداها ، ومرغبها فى آجله لانفاد لرزقها ولا انقطاع لحياها ، والرضا عن الامام المعصوم ، المهدى المعلوم ، الذى أعاد ملته الحنيفية وأحياها ، وأظهرها وأبداها ، وأوضحها نقية بعد أن حجبها الجهل وغطاها ، وصيرها بينه جلية وقد كان الضلال أضمرها وأخفاها ، وحد الكافة على مصالح دينها ودنياها ، ودعاها الى ما يحييها وينجيها وهداها ، وعن صاحبه الاهدى ، وخليفته الاعدل الافقى ، سيدنا الامام أمير المؤمنين أحق البرية بخلافته العلية وأولاها ، وممشى كلمته المهدية الى غايتها الشريفة ومنتهاها ،ومرقيها فى درج النماء والعلاء الى أبعد مرقاها ، وأصعد سماها ، ومؤدى تعليماته النافعة ، ومقالاته الناظمة للخير الجامعة ، كما سمعها ورعاها ، والمناضل بالادلة الباهرة والاسنة الباترة ، كل من عاندها وأباها ، حتى استقرت فى نصابها الاكرم ومعناها ، واستمرت على منهجها الاقوم دفعناها ، ملقية أزمتها الى من يحفظ حوزتها ويحمى حماها ، والدعاء لسيدنا الامام أمير المؤمنين بن سيدنا الخليفة أمير المؤمنين دارت مقاماته الكريمة وعلاها ، ومشيد أركان مآثره العميمة ومبناها ، بدوام سعوده الصاعدة وبقيادها ، وترادف الفتوح المتناسقة ، لدعوته السامية السابقة ، موفيا على أولاها أخراها .

وهذا كتابنا اليكم — عرفكم الله من فتوح الامر العزيز ونشره ، ومحمود مقاماته فى نصرة الدين وجميل اثره ، ما يفعم أرجاءكم بطيب عونه الارج وعطره ، ويملا مسامعكم بمتعذب مسموعه الذى لا يمل وخبره ، ويزعكم شكرا يؤدى حقوق ما أولاكم من خصائص الاستناد الى طائفته

المنصورة وأثره — من منزل الموحدين — أعزهم الله — بظاهر قفصة — فتحها الله — والذى نوصيكم به تقوى الله ، والعمل بطاعته ، والاستعانة به ، والتوكل عليه ، وأن توقنوا بأن الله تعالى فى طى محاولات هذا الامر العزيز أسرارا يمحص بها عباده ؛ ويحقق رجاء من أخلص فى نيتـه فى التوكل عليه وأعتقاده ، وأحتسب فى طاعته ، وابتغاء مرضاته ، سعيـه وجهاده ، وألقى مستسلما فى يد الرضا بما اختاره الله لامره العـزيـز زمامه ومقاده ، وعلم أن الله — جلت قدرته — لا يخذل أمره ولايخلـف ميعاده ليزداد المؤمن ايمانا ، والراضى بالله ربا وبمحمد نبيا تسليما واذعانا ، ويثق بنجاز ما وعد من اظهار دعوته واعلاء كلمته ، ثقة لو كشف له الغطاء معها ما ازداد ايقانا ولا يطلب على ما ثبت منها فى روعته ، وانطوت عليه أمناء ضلوعه ، دليلا وبرهانا ، والله يجعلنا ممن اسـتدام بالشـكر الاتم ما أنعم به اسرارا واعلانا ، بحثه وجوده •

وكانت — وفقكم الله — هذه الحركة المباركة مبنية على التجرد منها لقمع المعتدين ووقم العابثين والمفسدين ، والقيام لله تعالى بما أوجب من حماية الحق ونصرة الدين فسنى الله سبحانه فيها من التيسيرات الخارقة للعادة ، المربية على أقصى الفتوح ونهاية الارادة ، والمكيفة على أوفى متخير من تأتى الآمال المصحبة المنقادة الجارية على ادلالها فى عموم الخير وانتظام السعادة ، وتعرف النماء فى كل حالة وظهور الزيارة ما شفى صدر المؤمنين، وصدق ظنون الموقنين ، وحقـق الثقة بربب العالمين ، وعـرف أن العاقبة للمتقين المحسنين • ولمـا من الله تعـالى بدمار الاعداء وتبابهم ، وقضى بعهدهم على أيدى أوليائه المؤيدين وغلابهم ، وصيرهم الى عاقبة خسرهم وسـوء مآبهـم ، وأراح هـذه الاصـقاع من اشـاباتهم الخبيثة وأوباشهم ، على ما تقدم به اليكم خطابنا ، وتضمن شرحه ارسالنا

الواردون عليكم وكتابنا ، نهض الموحدين — أعـزهم الله — من قابس — كلأها الله — آخذين على صحرائها ، وقاصدين الى البلاد الجـريدية من ورائها ، على طرق لا عهد لها بالعسـاكر ولا علم فيها لعامر ، ولا منفـذ أمامها لوارد ولا صادر ، بحيث منقطع التراب ، ومتصل القفـر اليباب ، ولا ماء ينبع فى الارض ولا يستقر من صوب السحاب ، وأن سـلكوها لمن العجائب العجاب ، وآياب هـذا الامر الميسر الطـلاب ، المذكر ببراهينه الواضحة لأولى الالباب ، المنصور اللواء الممكن الاسباب •

وعندما شارف الموحدون — أعزهم الله — الجهات المـذكورة جاءت الفتوح تبارى فى شدها ، وتنتظم لآلىء الاقطار الجريدية فى عقدها ، وتتجز لاولياء الحق وأنصاره صادق وعدها ، واستنفذت نفـزاوه وقسـطيلية — كلأهما الله من وبش الفتنة ووعدها • وألقت بلاد نفزاوة وتوزر وتقيوس والحمة ونقطة بأزمتها وتطلبت من هـذه الدعوة العليـة معـلوم منتها ، واستنزلت بتحقيق توبتها متعارف رفقها ومعهود رحمتها وخففت أنها لم تبدل دينها ولا فارقت ايمـانها ويقينها فى حالتى سكونها وفتنتها • فعمهم هذا الامر العزيز وأمنه ما مهد أرجاءهم ، وصدق فى فضل هذا الامر العظيم رجاءهم ، وعرفهم ببركة ما أمهم من الخير العميم وجاءهم • وثاروا بمن كان عندهم من الاشقياء يقتلون فريقا ويأسرون فريقا ، ويوسعونهم تشتيتا بجموعهم اللئيمة وتفريقا ، ويوردونهم بارهاق نفوسهم الخبيثة سـعيرا لا يخبو انقاده وحريقا • وكلما مر الموحدون — أعزهم الله — ببلد من هذه البلاد المذكورة — كلأها الله — أتوهم بالعدد الجم من أساراهم وبقاياهم فتقط الرفاق طلاهم ، وتنتظم الصعاد كلاهم •

وكانت بتوزر منهم جملة ذميمة فادرع بعضهم جنح الظلام وفروا من الحمام الى الجمام ، وتوغلوا فى الصحراء المهلكة كتسارد الانعـــام ، والله يجعل لهم ولمن أمهله الاجل من حثالتهم بوادر الانتقام ، ويجـــرعهم كما عود بأيدى أولياء هذا الامر العزيز أكوس الموت الزؤام ، بمنه وجوده . وتركوا أحوالهم وأموالهم ، وكافة ماتأثلوه من أثاثهم وأشقالهم ، ونفـــل الموحدون عامه أسلابهم وأنفالهم ، ومسلكهم رق أهليهم وبنيهم وعيالهم ، وأجلت بهم الغير مثلاتها ، وأرتهم العبر عجائبها وآياتها وتعس مهلهم القدر الى انتزاع أرواح الخبينة لاجلها المكتوب وميقاتها بحول الله وقوته .

وهذه البلاد الجريدية لم يكن الوصف يعرب عنصفتها ، ولا يؤدى كنة صورتها ، ولا يطلع السامع على ما يجتليه المعاين من حقيقتها وغاية كل عبارة وان بالغت التقصير على تبيين جليتها ، فحققت المشاهدة أنها اقليم متسع الاكناف ، رحب الاوساط والاطـــراف ، كثير المنافـــع والمرافـــق والالطاف ، جم الحدائق الغلب والجناب الالفاف ، وكل مدينة منه مستقلة بذاتها ، مكتفيئة بأقواتها مستغنية عن غيرها بما جمعت من ضروب غلاتها ، محتاج اليها لـــا يجلب منها من أنواع فوائدها وصنوف ثمراتها . وتوزر ـــ حاطها الله ـــ حاضرة هذا الاقليم العظيم وقطبه ، وروحه وقلبه ، ومركز دائرته الذى عليه يستدير محيطه ، وبالاستناد اليه يتمهد رحبه ، وقـــد توطدت بعودته الى هذا الامر العظيم أقطاره ، وعمرت بالامنة والهـــدنة دياره ، وطهرت أدناس الكفر من أرجائه ومحيت آثاره ، بحول الله قـــوته، وجوده ومنته .

واستمر بالموحدين ـــ أعزهم الله ـــ ســـيرهم المبـــارك من توزر ـــ حاطها الله ـــ الى قفصة ـــ أعادها الله ـــ فألفوا بها جملة ذميمة من أشقياء الاغزاز وأتباعهم قدران على قلوبهم هـــواهم ، والســـتغواهم الشيطان

واستهواهم ، وسول لهم فعالية الغلاب فوعدهم غرورا ومناهم ، فأظهروا ما عندهم من الاقتناع ، واستشعروا شعار المصارمـــة والدفاع ، واغتروا بجدارتهم السامية الارتفاع ، وهيهات أن تعز هذا الامر العزيز نسامخات البواذخ وطامحات القلاع معزم الموحدون — أعزهم الله — على منازلة هذا المعقل وحصره ، واستعانوا بالله تعالى على أمره ، وسألوه سبحانه معهود تسهيله كما عوده وبيسره • ومرامه بحول الله أيسر محاول ، وأقرب متناول، وأدنى مروم وأسهل مزاول ، بحول الله وقوته •

وفى يوم الحلول به وصل خطاب قراقوش وأرساله راغبا فى التوحيد خاضعا مادايد الاستكانة الى هذا الامر الســعيد ضارعا ، معــلما أنه أن قبلت توبته ، واجيبت رغبته ، جاء الى الموحدين — اعزهم الله — مطيعــا سامعا ، ووصلت فى غده أرسال ابى زيان ومخاطبته معرفا بركـــونه الـــى هضبة هذا الامر العظيم وركنه ، واعتلاقه بذمة أمانه وأمنة ، وايوائه الى كهفه الارقى وحصنه ، وهو زعيم من زعماء الاغزاز يضاهى قراقوش قدره، ويقاسمه فى أمره • وكان قد انتبذ عنه أنفه من مشاركته ، وعزمـــا على مصارمته ومتاركته ، واستبد بطرابلس — كلاها االه — ونواحيها ، واظهر دعوة التوحيد فيها،وصارت — والحمد لله —هذه البلاد كلها الى معهودهامن الطاعة ، والانتقام فى سلك الجماعة ، والفيئة الى فلكه هذه الدعوة العلية وأفاقت مما خامرها من الادواء وأفلتت من ســقم الفتنة المعضــل ودائها العياء • وكمل المقصود لها من تمهيد الاكناف وتوطيد الارجاء ، وتأميـــن الجهاتوسكون الدهماء،بفضل اللهذى المن والآلاءوعرفناكم— وفقكمالله—بهذه الفتوح الجمة التى عظمت قدرا ، واعجزت حمدا وشكرا ، وخرقت العوائد تسهلا ويسرا ، لتضربوا بقداح المساهمة فيها وتذيعوها فى ادانى جهاتكـــم

واقاصيها ، وتجدوا حمد مخولها — جلت قدرته — ومولیها ، وتقومـــوا بالواجب من شكر مسببها سبحانه ومسنيها والله تعالى يعينكم من ذلك على ماينكفل لكم بتضاعف نعمة عليكم وتواليها بمنه وجوده • لا رب غيره ، والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته •

كتب فى الثانى من شهر رمضان المعظم سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة(*)

(*) ليفى بروفنسال ، رسائل موحدية ، رقم ٣١ ، وهى من انشـــاء الكاتب أبى الفضل بن محشرة عن الامير يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمـــن الى طلبة تونس فى ٢ رمضان ٥٨٣ هـ يعلمهم بدخول أهل الجريد تحت طاعـــة الموحدين وبحصار مدينة قفصة . ص ١٩١—١٩٩

ملحق رقم (٩)

رسالة من الخليفة الموحدى عمر المرتضى الى البابا اينوصانت الرابع

بسـم اللـه الرحمـن الرحيـم

صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبته وسلم تسليما .

والحمـد لله وحـده

من عبد الله عمر أمير المؤمنين بن سيدنا الامير أبى ابراهيم بن أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين أيدهم الله تعالى بنصره ، وأمـدهم بمعونته الى مطاع ملوك النصرانية ، ومعظم عظماء الامة الرومية ، وقيم الملة المسيحية، ووارث رياستها الدينية ، البابه ابنه سانس أتش ، أنار الله تعالى بصيرته بتوفيقه وارشاده ، وجعل التقوى التى أمر عز وجل بها عدته لمحياه ومعاده، وأناله من سابق الهداية ما يقضى لمدى الغاية بأتم انفساحه وامتداده .
تحية كريمة نراجع بها ما تقدم من تحياتكم الواردة علينا ، ويترجم لـكم أرجها عما تعتمدكم به المبار لدينا .

أما بعد ، فانا نحمد الله الذى لا اله الا هو حمـد من علم أنه الرب الواحد ، الذى دلت على وحدانيته البراهين القاطعة والشواهد ، ونزهته العقول الراجحـة عن أن يكون له ولد أو يدعى أنه الوالد ، تعـالى الملك الرحمان عما يقول المثلث والمشبه والجاحد ، ونصلى على سيدنا محمـد ورسوله المصطفى الكريم الذى وضحت به للنجـاة المذاهب والمقاصـد ، وخرقت له بظهور المعجزات الباهرة على يديه العـوائد ، ونصر بالرعب فألقى له يد الاستسلام كل من كان يناوىء ويعاند ، وعلى آله وصـحبه الكرام الذين ازدانت بهم الحاضر والمشاهد ، ووصلت قصار صوارهم فى مواقف الحروب السواعد ، وأنجزت لهم فى استيلاء الاسلام على مشارق

الارض ومغاربها المواعد ، ونسأل الله عز وجل رضاه عن الامام المعصوم ، المهدى المعلوم ، الذى جدد به لدين الله تعالى الشباب المعاود ، وأهلت بهدايته بعد اقفارها المعاهد ، وباء بالخسران المخاتل لامر والمكابد ، وعن الخلفاء الراشدين المهتدين الذين تولى منهم اتمام بدايته الامام الراشد فالراشد ، وعلت بهم لامراء الله تعالى المراقى والمصاعد ، وعن سيدنا الامير الطاهر ابى ابراهيم بن سيدنا الخليفه أمير المؤمنين بن سيدنا الخليفة أمير المؤمنين الذى طابت منه العناصر والمحاتد ، واشتق من نبعة للخلافة قد أورق نضارة وغضارة فننها المائد ، وزهد فى الدنيا الفانية ورغب فى الاخرة الباقية فنعم الراغب والزاهد ٠

وهذا كتابنا كتب الله تعالى لنا حظوظا من رضاه تزكو وتتوفر ، واستعملناه واياكم بكل ماننتهيأ به لاحراز الفوز لديه ونتيسر ، من حضرة مراكش حرسها الله تعالى ، ودين الله عز وجل عال مسماه ، ومصعده ، والتوحيد حال بالظهور جيده ومقلده ،والسعى معمل فى ابتغاء رضا الله تعالى موفقة ومسدده ، والحمد لله رب العالمين حمد يتوالى على الالسنة تكرره وتردده ، ونستدعى به من مزيد النعماء أفضل ماوعد به تعالى من يشكره ويحمده ، والى هذا يسر الله تعالى بتوفيقة واسعادكم ، وجعل فى طاعته التى تعيد بها خلقه اصداركم وايرادكم فانه سبقت منا اليكم مراجعات عن كتبكم الموثرة الواصلة الينا ، وارسلنا نحوكم من الجواب عنها ماتممنا به بركم ووفينا ، وعرفناكم فيه أهل دينكم بالشغوف على سائر مالهم من المراتب ، فانتم عندنا لذلكم بالتكرمة الحفيلة ملحوظون ، وبالعناية الجميلة محظوظون ، ونؤكد من أسباب المواصلة لكم ماحقه أن يؤكد ، ونجدد من عهود الحفاية بكم ماشأنه أن يجدد ،ونشكر لكم ماتوالى علينا من حسن ايثاركم لجانبنا وتردد ٠

وفى سالف هذه الايام انصرف عن حضره الموحدين أعزهم اللـــه البشب(١) . الذى كان قد وصل بكتابكم الينا انصرافا لم يعده مناقبه بر واكرام ، ولم يغبه فيه اعتناء به واهتمام ؛ كما أنه فى المــدة التى قضى له فيها لدينا بالمقام، لم نزل نتعهده اثناءها بالاحسان والانعام ، وتحمــل كتابنا اليكم تعــريفا بما اختار من انصرافــه ، وتوخيا فى ما أثره من ذلك لاسعافه ، وما قصر له فى حالى مقامه ورحيله ، ولا عدل به عن حــفى البر وحفيله ، وسنى المن وجزيله ، ذهابا لتكريم اشارتكم السابقة فى حقــه ، وسلوكا به من البر على أوضح طرقه ، والله تعالى يرشد فى كل الاحوال لازكى الاعمال لديه ، وينجد من الاقوال والافعال على ما يقــرب اليــه ، بمنه ، ومتى سنح لكمأسعدكم الله تعالى بتقواه أن توجهوا لهؤلاء النصارى المستخدمين ببلاد الموحدين أعــزهم الله من ترونه برسم ما يصلحهم فى دينهم ، ويجريهم على معتاد قوانينهم ، فتخبروه من أهل العقل الراجــح والسمت الحسن ، وممن يسلك فى النزاهة على واضح السنن ، وممن يتميز فى الخدمة بالمذهب المستجاد والقصد المستحسن ، وذلكم هو الذى اذا تعين من قبلكم مستجمعا للصفات المذكورة ، وتحليا بالحلال المشكورة ، حسن فى كل ما يستخدم أثره ، وتسنى له بذلك الخبر وأوفره وأنتم تفــون بهــذا المقصود فى ما تعلمون من اختياركم متى ظهر لكم التوجيه بهذا الرسم ، لاحد ، وتعتمدون فيه أجمل معتمد ، وشكرنا لكم على ما تذهبون اليــه فى جانبنا من تمشية الاغراض ، والمذاهب ، وتختلفون فيــه من المساعــدة الصادرة منكم عن كرم الضرائب ، وتبادرون الى بذله من المكارم المناسبة لمــا لكم فى نحلتكم من الناقة المناصب ، مما نكافىء به صدق مصــادقتكم ،

---

(١) رتبة رهبانية من الكلمة الاسبانية Opispo وهو الاسقف لــوبى فرنانديثدى آين .

ونتوخى منه مالا يعدل عن موافقتكم ، جزاء لبركم بأمثاله ، واعتناء بمـا يقضى لولا تكم بدوامه واتصاله ، يحول الله تعالى وقوته ، وهـو سبحانه بيسيرنا لنيل الحسنى والزيادة من فضله ويأخذ بنا فى ديننا ودنيـانا على أقوم سبله ، ويجعلنا واياكم بما يمنحنا من التوفيق فى أول رعيل من حزب الحق وأهله ، بمنه ، وكرمه ، لا رب سواه •

وكتب فى الثـامن عشر من شهر ربيـع الاول عام ثمـانية وأربعين وستمئة •

وكتب على ظهر هذه الرسالة عنوا للموجهة اليه :

الى مطاع ملوك النصرانية ومعظم عصماء الامة الرومية وقيم الملـة المسيحية ووارث رياستها الدينية البابه ابنه سانس أنس أنار الله بصيرته بالتوفيق والارشاد ومنحه بتقواه سعادة المحيا والمعاد •

التزم الخليفة الموحدى ادريس الملقب بالمأمون (ولد عام ٥٨١هـ) — تولى فى ٦٢٤هـ ، وتوفى ٦٢٩هـ (١٢٣٢م) — بن يعقوب المنصور — لفرناندو الثالث ملك قشتالة أن يؤسس كنيسة للنصارى بمدينة مراكش اذا ما أعانه بجيش يثبت به ملكه المتزعزع بالمغرب ، ووفى ادريس المأمون بهذا الشرط بعد تغلبه على ابن أخيه يحيى المعتصم بن محمـد الناصر ودخـوله الى مراكش منتصرا يوم (الاربعاء ١٣ فبراير ١٣٢٩م) ٢٥ ربيـع الاول عام ٦٢٧هـ ، فأسس للفرسان النصارى الذين أمده بهم ملك قشتالة كنيسـة لاقامة شعائر دينهم كانت فى نفس الوقت محكمة للفصل فيما يحدث بينهم من خلاف وناديا يعقدون فيه الاجتماعات ويحيكون المؤمرات •

ومع أن هذه الكنيسة التى كانت قذى فى أعين المراكشيين وسـائر المغاربة هدمت بعد سنتين من بنائها اهتم الكرسى الرسولى فى روما بهـ

وبالجنود القشتاليين العاملين فى الجيش الموحدى ، وذهبت الامانى بهذا الكرسى الى حد الطمع فى تنصير ملوك الموحدين ورعاياهم من أهل المغرب والاندلس والصحراء ، فبدأت الاتصالات وايفاد السفارات ، وارسال القساوسة والرهبان ، وكانت بداية ذلك فى عهد البابا اينوسان الرابع (هو سينيبالدوفيينتشى ، ولد بجنوة سنة ١١٩٥م ، وتقلد منصب البابوية من سنة ١٢٤٣م الى سنة ١٢٥٤م) ، الذى بعث بالقس لويس فرنانديثدى أين الى مراكش سنة ١٢٤٦م ليكون أسقفا لها،وأرسل مع القس المذكور كتابا يهنىء فيه الخليفة السعيد بانتصاراته على خصومه ويشيد بالدور الذى قام بها المرتزقة النصارى فى تحقيق هذه الانتصارات ، ويحثه على الاستكثار منهم ، وينصحه باعتناق دين النصارى لكى يفوز على حد زعمه برضا الله ويغنم بركة الكرسى الرسولى ، كما كتب البابا رسائل الى أمراء سبتة وبجاية وتونس يوصيهم بتسهيل الاتصال بين النصارى المقيمين بمراكش وبين اخوانهم المقيمين بتلك المراسى .

ولم يطلع على نص الرسالة الى الآن ، ولكن لدينا تلك الرسالة الطويلة الصادرة عن الخليفة الموحدى عمر المرتضى بن اسحاق بن يوسف بن عبد المؤمن بن على ، مؤرخه فى ١٨ ربيع الاول سنة ٦٤٨هـ (الاثنين ٢٠ يونيو ١٢٥٠م) حملها الاسقف لويس فرنانديثدى آين السالف الذكر الى البابا اينوسان الرابع . وقد نشرت فى مجلة هسبريس المغربية ، المجلد السادس لعام ١٩٢٦ ، صفحة ٣٧ على يد الكردينال تيسران ، والاستاذ وييت . وهى مكتوبة بخط مغربى جميل ، فى أعلاه بين التصلية والحمد له والمتن علامة الخليفة وهى : « والحمد لله وحده » .

(وها هى نص الرسالة)



صورة رسالة الخليفة عمر المرتضى الموحدي الى البابا اينوصانت الرابع (وجه)

بقية رسالة الخليفة عمر المرتضى الى البابا اينوصانت الرابع (ظهر)

عنوان رسالة الخليفة عمر المرتضى الموحدي إلى البابا إينوصانت الرابع

ملحــــق رقــم (١٠)

من عبد الله بن عبد العزيز بن عبد الحق بن أبى خرســان الى الارك الجليل الاكرم أرك بيشة والمشيخة الجلة قناسلتها وقمامصتها والخاصــة والعامة من أهلها أهدا الله توفيقهم ٠٠كل الى السداد طريقهم ٠

بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد حمدا لله تعــالى بما اســتدار من سوابع نعمه والينا عليه الولاه من سوامع قسمه فان كتابنا هذا الى الارك الجليل أرك بيشة والمشيخة الجلة قناسلتها وقمامصتها والى أهل الحل منها والعقد وكافة الخاصة والعامة من أهلها بعد ونحن نهدى اليهم من السلام أعطاره ونثر عليهم دره ونذرف بذكرهم مسكه وعنبره ونحضر فيهم كل يوم محضرة لمــا انعقد قديما وحديثا من الســلاف والاحــلاف منا ومنهم من أسباب المحبة ومتقدم الصحبة والمودة التى علمت وتحققت حتى يحــادث أسنى قربه ومعلم الله سبحنه أنا لنعتد بذلك ونسلك فيه أسنى المســالك وننتهى من أحكامه وسد عصامه الى أنقد الرايات وأقصى المدارك ليرتدع به العدو وتستهر معه معاقــد الهــدو ويتجدد أواصره على تكرار العشى والغدو وقد وصلنى كتابــكم الاشرف وخطابــكم المشرف من يد الشيخ الجليل الاثير الفضيل الرئيس أبى تميم ميمون بن قليلموا ٠٠٠ لعمر الله عذوانهم ويدهم ولسانهم فوقفنا على الكتاب المبجل بعد الاكثار لموقعــه والايثار لموضعه والمسرة برو محامله اذ كان مصدره عن المشيخة الجــلة الذين وشجت بيننا وبينهم أواصر الايتلاف واستمرت منا ومنهم المحبــة الى سبى أصغى من السلاف وتلقينا ما خصــونا به من الســلام والدعاء الـــ ٠٠٠ى رحوان الله سبحنه يحدينا به على سبل القوام وقد فعل المولى

جل وعلا وأجابه وأمدنا بنصره وتمكينه وأعاننا على عدونا فى تحركه وسلوبه
حين جاء الينا بحشوده المحشودة وجنوده التى كانت عندنا للحتوف معدودة
وقد رفع عنا والخذلان يرافقه والنحوس توافقه والخيبة تجذبه وشواهد
تلك الأحوال التى عاينها منا ترعبه فالحمد لله على ما وهبه من النصر ومنحه
من الظفر الذى حاش به من القدر من جل الصدر واياه نسل دوامه ونطلب
منه تمامه لا رب غيره ولا خير الاخيرة فأما ذكره المشيخة الجـلة من أن
أمورهم كانت عندنا جارية على مرادهم وسارية مسرى اعتقـادهم وأنها
الآن حالت عن معهودها وخرجت عن قنونها فى وصول المركب الذى وصل
من الاسكندرية وما كان منا اليه بعذر يأتى هذا عند المشيخة مقبول لانا كنا
بعثنا مركبا الى الغزو فزعبه الضرورة الى دخول الاسكندرية فأكرم هنالك
وأجرى مجرى العناية وما يسعنا أن نقابل عن ذلك الاكرام الا بمقتضـاه
فوصل ذلك المركب فزودناه وباع بمـدينة تونس حماها الله ما اتفق له من
السبى الذى كان معه ورجع بأكثره وما علمنا أنه وصل بأحد من أهل بلدكم
ولو علمنا ذلك لبـذلنا فيه نفايس أموالنا وأعطينا فيـه ذخايرها اكـراما
للمشيخة الجلة ومعرفة لقدرهم ومحافظة على صحبتهم وقد سددنا هـذا
الباب ومنعنا منه ممن يتصرف الى بلدنا برقيق أو جليل من السبى هـاذ
فصل قد عقدناه مع الشيخ الرئيس أبى تميم حفظه الله • وأما أمر القبضة
التى تؤخذ من التجار وجرت بها العادة فقد هوناها وأمرنا بلطفها ورسمنا
لخدامنا أن كل تاجر من بلدكم متى وصل بسلعة ولم يتفق له معها أنه معانى
فيها مرفوع عنه الواجب واللازم فى أمرها يعيدها الى بلده على غرضـه
مراده وأمرنا ليصاير عامة تجـاركم والقيامة بهم والاهمـال بسـورهم
وحرياتهم على الاكرام والرعاية والاهتمام وتفاوضنا فى ذلك مـع الشيخ

الرئيس أبى تميم سلمه الله ولم ينزل وجها وقد أزحنا العلل ورجعنا فى رعاية حامهم واجراءتجار هم الواصلين من جهتهم على السمح الاول وعقدنا ذلك مع الشيخ الجليل الرئيس أبى تميم حرسه الله عقدا ثابتا محكما وشددناه شدا وثيقا مبريا وحملناه ما ينهيه الى المشيخة أعزها الله ويؤذنه اليهم بلسان المسافحة عند الاجتماع بهم والحديث معهم بالمواجهة ان شاء الله تعالى وكتبهم الاثيرة ومخاطبتهم الخطيرة تعر علينا وتكرم لدينا وهم أولى الناس بمواصلتها الينا ومتابعتها علينا مضمنة ما نسر به من صالح أحوالهم وينبهج عند سماعه من يحاج آمالهم ونختم هذا بالسلام الاتم الازكى عليهم وعلى صغيرهم وكبيرهم ومشروفهم وشريفهم وكتب فى آخر جمدى الاولى سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة وحسبنا الله ونعم الوكيل •

وقد تركنا لتجاركم ما يخرجون من الشب وأعفيناهم من الواجب فيه وعقدنا مع الشيخ الجليل الرئيس أبى تميم أن كل ما سوى يقع عندنا من بلدكم نحن نشتريه ونكرمه وننفذه اليكم مكرما وكذلك أيضا عقدنا معه أن كل ما سوى يقع عندكم من أهل تونس حماها الله تشترونه وتكرمونه وتنفذوه الينا ان شاء الله تعالى والقبضة التى تؤخذ من تجاركم هى بيد واحدة لا زيادة عليها تعلمناكم بذلك والسلام معاد عليكم وحسبنا الله ونعم الوكيل •

أمارى ، وثيقة رقم ١ ، ص ١—٦

ملحـــق رقـــم (١١)

بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله حق حمده

الى أمير المؤمنين أيده الله وأعز نصره معظمون مقامه وملتزمون
أعطايه أبلده أرك بشه وصاحب كرسقة وسردانية وقناسلتها وشيوخها وأهل
الحل والعقد فيها سلام كريم متصل على الحضرة العظمه ورحمت الله تعالى
وبركاته أما بعد فالحمد لله على العلم والايمان له أنه الحكيم العليم الاول
القديم الذى لا تدركه الابصار ولا تحيط به الافكار ولا تقف على كنــه
عطا ... الاخطار الموجود بكل مكان الخارج عن كل زمان كان بلا ابتــداء
الدايم بلا فناء نحمده جل وتعالى ونسأله بعزته وعظامة قدرته أن يديم
العزة الى أمير المؤمنين موفور الجملة متواصل النعمة منصور الريات منجح
الطلبات ملا الله أيامه سعدا ونجحا وواسع جنده نصرا وفتحا بمنه وطوله
وحوله وقوته كتابون اليكم أيدكم الله ونصركم من مدينة بيشة حرسها الله
أنا مركب من تجارنا وأهل قطرنا وأنظارنا أوسقنا بالقمح من جزيرة سقلية
وأقلعوا يريدون مدينة اطرابلس حماها الله فاستقدمهم الريح فى أحوازهــا
وكان المــاء قد عجزهم فنزلوا الى البر ليستقوا فلم يتركهم أهل الموضع
الا حتى بعوا منهم من القمح قليلا فلما كان فى اثر هذا وصل من مدينــة
اطرابلس غرابا معمرا من عند واليها ومقدمها وقبض على القــوم وأنهبهم
وقبض على الذى وجد فى المركب من التجار ونجا بعض منهم من العشارى
وقذفوا حتى وصلوا الى اطرابلس وهم منتسبين بصاحبنا فقبــض على
جميعهم وانه ... جميع ما وجد عندهم من قمح ومال وهم فى سجنه وتحنى

أمارى ، وثيقة رقم ٢ ، ص ٧ـ٩

أسره حتى الان فرغبتنا جميعنا الى فضل سيدنا أمير المــؤمنين أيده الله لينفذ أمره العلى بتسريحهم بجملتهم وجميع مالهم ويصرحوا على التى هيا أحسن الى أوطانهم اذ هم وسواهم من من تسلهم هذا الامر الملتزم والعهد النافذ المحكم مومنين فى أنفوسهم وأموالهم من جميع بــلاد الموحــدين لا نائبة تنوبهم ولا ضريبة تلزمهم سوى العشر المعتاد أخــذه منهم والله بعزته مجعلنا ممن وفيا بعهده وحافض على عقده بمنه وفضله •

والسلام الاعظم الاكرم على الحضرة العليا ورحمت الله تعالى •

أمير المومنين أبى يعقوب يوسف بن أمير
أمير المومنين أيد الله أمرهم وأعز نصرهم•

ملحـــق رقـــم (١٢)

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليما

كتاب أمان وتأكيد احسان أمر بكتبه عبد الرحمن بن سيدنا أبى حفص ابن سيدنا الخليفة الامام أمير المؤمنين الى جماعة تجار نصـــارى بيش هداهم الله أمن به سربهم وأعذب شربهم وأسر وحشتهم وسكن نافـــرهم أحمد مواردهم ومصادرهم وأجراهم على ما يعـــودوه من احسان سيدنا الخليفة الامام أمير المومنين أيدهم الله ووثيق عهـــدهم ومعهـــود رفعهم ومعروف عدلهم وجميل مذهبهم فى معاهديهم اجراء تاما عاما لفوايده أخذا بعوايده مقتديا بمقاصده بالغا فيه الى الغاية التى تؤكد لطالبه الثقـــة به والاستنامة له والسكون اليه بحول الله فليصلوا الى بلاد افريقية حاطهـــا الله محمولين على سنن الرعاية والعناية محوطين بكانف الكفاية والحماية ملحوظين بهذا المنزع الاوزع ، والمقصد الارشد والمذهب الاصـــوب ان شاء الله وحيث حلوا من معاقلها وســـواحلها وبرها وبحـــرها فى مســـالك تجاراتهم وترددهم بها ومتصرفاتهم لا يعـــترضهم فى شى منهـــا معترض ولا ينغضب لهم هذا الحبل المتين ولا ينفرض ان شاء الله تعالى فمن وقف عليهم من قبلهم من المسلمين أعزهم الله فليعاملهم بمقتضاه ولا يعدل عن منحاه ان شاء الله تعالى لا رب غيره ولا معبود سواه .

وبالله التوفيق .

---

(١) أمارى ، وثيقة رقم ٧ ، ص ٢٩ــ٣٠

ملحـــق رقم (١٣)

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد النبى وعلى آلـه وصحبـه وسلم تسليما

يقول شهداء هذا العقد الذى نعلمه ونشهد به أن المسطحان الذيـن أخذوا مركب الرايس مسعود بوادى مدينة تونس فى شهر شوال فى سنة ست وتسعين وخمسماية نعلم أن جميع من كان فى المراكب المذكـور انما هو من أهل مدينة تونس وباديتها وحجاج وصلوا من المغرب ولم يكن فيه من أهل الاسكندرية الا رجل واحد ولم يكن معه الا شىء يسير فهذا الذى نعلمه ونشهد به والذى أشتهد عندنا واستفاض أن المسطحات الذين أخذوا بمركب الرايس مسعود المذكور الاركليوسة والكرناطة ومعها زوج قطايع هما الذين أخذوا المركب المذكور اشتهر ذلك اشتهرا رفع به العلم نشهد بذلك من علمه وحققه وكتب شهادته بذلك لايها فى آخر شهر شعبن الم ... من سنة سبع وتسعين وخمسمائة واصلاح الاركليوسه على سى صحيح شهد بذلك كله من علمه وحق ... فى تاريخه المذكور محمد بن أبى القاسمى وحسن ابن على الترجمان وعثمان بن أبى بكر الترجمان وقاسم بن على الريعى وأحمد بن عبد الواحد الرساطى وعبد الكريم بن عبد المؤمن اللخمى الترجمان وأحمد قطران الترجمان وعبد الرحمن بن أبى الطاهر التميمى .

أمارى ، وثيقة رقم ١٢ ، ص ٤٣—٤٤

ملحـــق رقم (١٤)

بسم الله الرحمـــن الـــرحيم

الشيخ الاكرم الاجل المبرور باج اكرمه الله وأعانه على مافيهالصلاح
والرشاد محبكم الراغب فيكم الداعى الى الله تعالى بسلامتكم وجمـــع
الشمل بكم محرز القابسى الذى نعلمك به انك لما أقلعت يوم الكاينة وجرى
من قدر الله تعالى ماجرى وأقلعت من فم الوادى ومعك بيرو ككله الذى
كنت ضمنته لنا فى مايتين دينارا وعشرة دنانير ثمن ألف جلد وستماية جلد
ضاينة ودفع لنا فى ثمنها عشرة دنانير وبقى الباقى عنده والـــذى عندك
يا صديقى فى خاصة نفسك ثمن تسع ماية جلد وتسعة جلود ثمنها ثلاثـــة
وسبعون دينارا ونصف دينار وعندك أيضا ثمن تسعة قناطير صوف وهى
ثلاثون دينارا الا نصف دينار أعطيتنى خمس دنانير منها وأنت ياصديقى
ذكرك ذكر خير عندنا وأنت مشكور الاحوال عند التجار وعند من سافر
معك فلا تكن الا عند ما يظن بك من الخير ولولا جاهك عليه ما تركنـــاه
ساعة واحدة والساعة يا صديقى عندما تحب أن تسافر الى عندنا تونس
فعسى تجتمع معه وتأخذ منه الذهب الذى لى المذكور فى الاعلى ولا تتركه
ويكون صحبتك ان شاء الله فانك أنت المطلوب به ولا يعتل لك بعلة الديوان
عندنا فقد ذكر ابن قسوم ان ما بقى لى سوى ستة دنانير فالله اللـــه
يا صديقى لايكن من ذلك بد فمالك موقوف ومال غيرك فعسى تصل أنت

ومن له شيء حتى يتصفونا من أنفسهم وما تحتاج تأكيد وصيه على ذلك وأنت المشكور المثاب على ذلك والسلم على من اتبع الهدى ورحمت اللـــه وبركاتـــه .

الشيخ المكرم المبـــرور المبجـــل بـــاج البيشانى
كتب الله سلامته وجمع الشمـــل بـــــه

أمارى ، وثيقة رقم ١٤ ، ص ٤٨—٤٩

ملحـــق رقم (١٥)

بسم الله الرحمـــن الـــرحيم

الشيخان الاكرمان الاجلان المبروران باج وفرسطان البيشانيان كتب الله سلامتهما وجمع الشمل برؤيتهما صديقكما المحب فيكما الحريص على ما يقع بعرضكما ابرهيم بن خليفة الجلاد سلام على من اتبع الهدى وخشى عواقب الردى ورحمت الله وبركاته وبعد فانكما أقلعتما يوم الكانية وكان بذلك بقدر الله تعلى السابق فى حكمه ولم تنصفانى أنفسكما فى ثمن الجلد الذى أشتريته يا باج فى خاصة نفسك على يد عنمن الترجمان وعدده سبع مابة جلد وخمسون جلدا ضاينة ببيع سبعة دنانير المابة جملته ستةوخمسون وثمانية وعشرين جلدا ضاينا وقسمها مع أصحابه بننادكرك وبين نـــاط والتمن مايتان دينارا وخمسه وعشرون دينارا على يد جوان قطران وعندك يا فرسطان من قبل البحر من متاعك ستماية جلد وخمسون جلدا ثمنها ماية دينار وستة دنانير الا درهمين بقى لنا منها أربعة وستون دينارا ودرهمين وذلك على يد طب طب وأشترى كرسى من أبراهيم المذكور على يد على بن باديس وتميم ثمن المابة جلد بستة وستين دينارا ببيع ثمانية دنانير ونصف المابة ونعلمك ياكرس ، ان ابن قسوم ذكر أن مالك فى الديوان شىء وأن ثمن النحاس الذى ذكرت لعثمن الترجمان أن يعطينا منه فهو باق عند المشترى ولم يعط لنا منه شىء ونعلمك ياباج أن هذا المال ماهو متعلق الابك فلاتصل الا بالتجار الذى كانوا معك حتى تنحل منهم فماأحد يعرف التجار وانمـــا يعرفون أنت فمالكم موقوف على وجه الامانه لم يغير فيه شىء فتصلـــوا

حتى تجادا الناس فيمالكم وعليكم وعثمان المهدوى ياكرس بادر اليـــه فى ثمن النحاس فانه سافر الى الاسكندرية أعلمكم ذلك والسلم على مـــن اتبع الهدى ورحمت الله وبركاته •

الشيخان الكريمان المبروران باج وفرستان كتب
الله وسلامتهمـــا وجمـــع الشمل بهمـــا

امارى ، وثيقة رقم ١٨ ، ص ٥٧—٥٩

ملحـــق رقم (١٦)

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد النبى الكريم وعلى آلــه وصحبه وسلم أفضـــل التسليم ٠

هذا كتاب صلح مبارك انعقد عن اذن سيدنا ومولانا الخليفة الامام القايم بأمر الله المنصور بفضل الله أمير المؤمنين أبو يحيى زكريـــاء بن مولانا الامير أبى العباس ابن الأمرا الراشدين أيدهم الله بنصره وأمدهم بمعونته وخلد ملكهم وأبقى لكافة المسلمين بركتهم مع جوان فجــــول والرينر دلباينة الرسولين الوافدين على الحضرة العلية أعلى الله منارســا وجدد أنوارها تونس حرسها الله من قبل طيش دقمط دكولى النايب عن فدريك قمط دمنط فانترة فكار كمون بيش وأشياخها وكمونها وذوى الرأى منها ومن له النظر فى مصالحها وكافة أمرها منهيين الى الحضرة العليـــة أعلى الله أمرها وأجزل نصرها رغبة مرسليهما فى عقد صلح لاهــل بيس وما اليها لتجرى بمصلحة ذلك أحوالهم وتنبسط بالاسعاف به آمــالهم فأسفتهم الحضرة العلية بمطلوبهم وكتبوا لهم رضى الله عنهم هذا الصلح كتب الله لهم النصر والتمكين والفتح المبين لمدة عشرة أعوامشمسية متوالية أولها منتصف شتنبر الكاين فى شهر جمدى الاولا فى عام ثلاثة عشـــــر وسبعماية على شروط يأتى ذكرها هى :

ـــ أن يكون جميع من يصل من تجار البيشانيين وأتباعهم الىالحضره العلية مهدها الله والى جميع بلادها الداخلين تحت طاعتها وماسيفتح بعد أن شاء الله تعالى آمنين فى أنفسهم وأموالهم وحد بلادهم المصالح عليها من بلد فى البحر الكبير يسمى القرب الى بلد يسمى حفط بال ولهم فى جزر

البحر سردانية وحصنها قشتيل دقاشتر وجزيرة قرصقة وبينوزة وآلــة وكبرارة وكركونة وجلى ومنت أكرشت •

ـــ وعلى أنه لا يصل الى بلادهم الساحلية ولا الى جزرهم المذكورة جفن حربى لضررهم من الحضرة العلية مدة هذا الصلح المذكور •

ـــ وعلى أن يكون لهم فى كل بلد من البلاد الساحلية مــن البـلاد الافريقية وما اليها المعلومة بنزولهم فيها للتجار فى دواوينها فندق يختصون به لتجارتهم لا يشاركهم فى سكنه غيرهم من النصرى ويمكنوا فى كل فندق من الكنيسة التى فيه ومن مدفن لموتاهم ومن فرن يختصون به على جرى العادة المتقدمة وأن لهم دخول حمام يختصون به يوما فى الجمعة •

ـــ وأن يؤخذ منهم فيما يبيعونه من السلع العشر بكماله عند ســفر من أراد السفر منهم ومن لم يسافر منهم وأطال الاقامة أخذ منــه العشر عند انقضا ثلاثة أعوام من وصوله فعل ذلك لهم اجابة لرغبتهم •

ـــ ولا يؤخذ منهم فى جميع ما يشترونه بحضرة تونس ثمانين درهم المابة دينار وأن يؤخذ منهم من الذهب والفضة المسكوكين نصف العشر عند وصوله وما يجلبونه من ذلك غير مسكوك يدفعون فيه العشر اذا باعوه واذا لم يبيعوه يكون لهم أن يردوه من غير أن يؤخذ منهم شىء اذا تحقق ذلك وأن ما يجلبونه من الدنانير والدراهم من ضرب النصرى يجرون فيه على العوايد المتقدمة •

ـــ وأنه متى عطب لتجارهم مركب فى ساحل من السواحل الافريقية وما اليها فعلى من قرب فيه من سكان البلاد المذكورة حراستهم بغير اجارة حتى يخلصه أصحابه ولا يودون فى حمل سلعهم الا ما جرت به العادة •

— وأنهم لا يضمنون شيا كان بينهم وبين النصرى أعدايهم فى مرسى الحضرة العلية ولا يضمن لهم شىء مما كان بين أعدايهم معم •

— وأنه متى كان خصام بين مسلم ونصرانى أو بين نصرانين أجريا فيه على الحق وأن يجروا فى اجارة الوزان الذى يزن لهم سلعهم على المعتاد •

— وأن يكونوا حيث ما حلوا من السواحل الافريقية وما اليها على الاختيار فى الاقامة لقضاء مآربهم ولا يمنعوا فى اشتراء ما يحتاجون اليه من زاد ومرفق •

— وأن يكونوا فى سلعهم التى يصلون بها على اختيارهم فى انزالها أو ردها وأن لا يحدث عليهم المشتغلون بالدواوين وغيرها فى جميع البلاد المذكورة ولا التراجمة ولا أصحاب القوارب حادثا سوا ما جرت به العادة

— وأن يكون كل تاجر منهم غير ممنوع من السفر عند تخلصه فى الحضرة العلية مهدها الله فى ساير بلادها •

— وأن يكون من يصل معهم من غيرهم فى مراكبهم من التجار له مالهم وعليه ما عليهم •

— وأن لا يمنع تجارهم من البيع فى الحلقة متى طلبوا ذلك على المعتاد

— وأن سلعهم التى يصلون بها الى مراسى السلسلة ولا يمكنهم رفعها فى الفور الى فندقهم متى ثبت ضياع شىء منها فعلى حراس الموضع المذكوره غرمه لهم وأنهم متى طلبوا المحاسبة بالدواوين وفرها الله مكنوا منها ولا يوخذ منهم الا ما جرت به العادة •

— واذا حاسب بيشانى بالديوان ودفع ما وجب عليه وأخذ بـراءة التسريح بالشهادة فلا يعقل ولا يشغب عن سفره ولا يطلب باعادة ذلـك الحساب الا أن يظهر ما يوجب ذلك بحق بين ولا يوخذ منهم الا ما جرت بـه العادة •

— وأن يكون لهم ببونة حرسها الله فندق يختصون بنزولهم فيـه لا يشاركهم فيه غيرهم من النصرى وأن يجروا فيه على عوايدهم فى حضرة تونس حرسها الله وكذلك فى قابس وصفاقس وطرابلس •

— وأن لا يوخذ منهم فيما يبيعونه من المراكب عشرا الا فيما يبيعونه ممن لا صلح لـه •

— وأن كل سلعة يودون عشرها ثم تصرف عليهم فيحتملونه الى بلد غير البلد الذى عشرت فيه لا يكون عليهم فيها عشر اذا صح ذلك •

— وكذلك اذا أخذ منهم من الذهب والفضة نصف العشر أو أرادوا أن يشتروا بثمن السلعة التى دفعوا عشرها أو بما دفعوا فيه نصف العشر فلا يلزمهم شىء فى جميع ذلك لا فى الحضرة العلية ولا فى غيرها من بلادها إذ صح ذلك •

— وأن لا يوخذ من أصحاب المراكب نصف العشر الواجب عليهم فيما يشترونه بأكرية مراكبهم •

— وأنه متى احتيج الى مركب من مراكبهم لحمل عشر أو غيـره أن يوخذ من كل ثلاثة مراكب مركب بالكراء يعينة قنصلهم •

— وأنه متى عشر أحد منهم على عدد ولم يشتر به شيا ثم أراد تركه عند أحد قبيلة فلا يمنع من ذلك اذا ثبت أنه لم يتصرف فى شىء منه •

— وأن ما يبيعونه فى الحلقة بالشهادة ضمان ثمنه أن غر على الديوان وما يبيعونه على أيدى التراجمة بالشهادة فضمانه أنه على التراجمة •

— واذا باع بيشانى سلعة أو اشتراها من أحد من المشتغلين أوالتزم شراء سلعة من سلع بلاد الحضرة العلية وكتب له فى ذلك عقد مشـــــهود فلا يفسخ عليه الا أن ثبت دلسه أو ربيه أو غش •

— وأن فربيشانى أوغر برهن أو حق للجانب الكريم أو لاحد مـــن المسلمين فلا يطلب قنصل البيشانيين ولا تجارهم بذلك ان لم يكـــونـــوا ضامنين له ولا يطلب بذلك الا الجانى بنفسه •

— واذا باع بيشانى كتانا أو قطنا أو غير ذلك من السلع الموزونـــة فلا يودى فى ذلك رطلا ولا طعما للديوان ولا للتراجمة •

— واذا صرف بيشانى سلعة على نفسه فى الديوان فلا يودى عليها الا ترجمة واحدة •

— واذا وصل بيشانى بسلعة تصلح للجانب الكريم وترفع فلاتمسك الا عشرة أيام ، ويكون دفع ثمنها فى الامد المذكور أو ترد على صاحبها •

— وأن يكون لقناصلتهم يوم فى الشهر يصلون فيه الى المقام الاعلى أدام الله رفعتـــه •

— وأن يكون أيضا لقناصلتهم اجتماع مع مشتغل كل بلد ينزلون فيه يومـــا فى الشهر •

— وأنه متى خرج أحد من عماله البيتسانيين أو جزائرهم المذكـــورة وأضر باحد من أهل البلاد الافريقية أو من انضاف اليها فعلى حــــــاكمهم

وأشياخهم وقناصلتهم الانصاف من ذلك وأخذ الجانبين وقتلهم والتمكين من أموالهم •

— وعلى أنهم لا يستروون ممن يقطع على المسلمين شيا من سلع المسلمين ولا من أسراهم ومتى وجد بايديهم شيء من سلع المسلمين أخذت لهم أو أسراهم أخذ ذلك منهم بغير عوض •

— وأنهم متى طرأ بينهم خصام فلا تحكم بينهم الا قناصلتهم •

— وأنه لا يوخذ منهم فى جميع محاولتهم فى الديوان الا ما جريت به العـــادة •

— وأن تكتب من هذا الكتاب نسخة لكل بلد من بلاد الحضرة العلية الذى يتجرون فيه •

— ولا يمنع تجارهم من اشتراء السلع ممن يريدون الاشتراء منه •

— وأن لا يمنع بيشانى من اشتراء سلعة بسبب جنوى أو غير من النصرى •

— وأنه اذا اشترا أحد منهم سلعة من السلع المحاولات لا يفسخهـا أحد عليه لا المشتغل الذى باعها ولا الذى يأتى بعده اذا لم يكن فى البيع ريبة ولا دلسه ولم يكتم من الثمن المذكور شيئا •

— وأن جميع ما يشترا بالسهادة بالديوان للجانب العلى خلده الله ويكون بيد البايع عقد بالشهادة بذلك يكون الثمن لازما للديوان من غيرأن يطلب البايع بزيادة بيان •

— واذا كان لاحد منهم حق فى الديوان وعليه حق فيه وبيـــده ذلك تنفيذ حوسب مما له بما عليه •

ـــ وكذلك اذا ترتب على أحد منهم حق فى موضع من مواضع المحاولات المباركة وترتب له حق فى الموضع المذكور وكان بيده بذلك تنفيذ أقتطع ماله مما عليه •

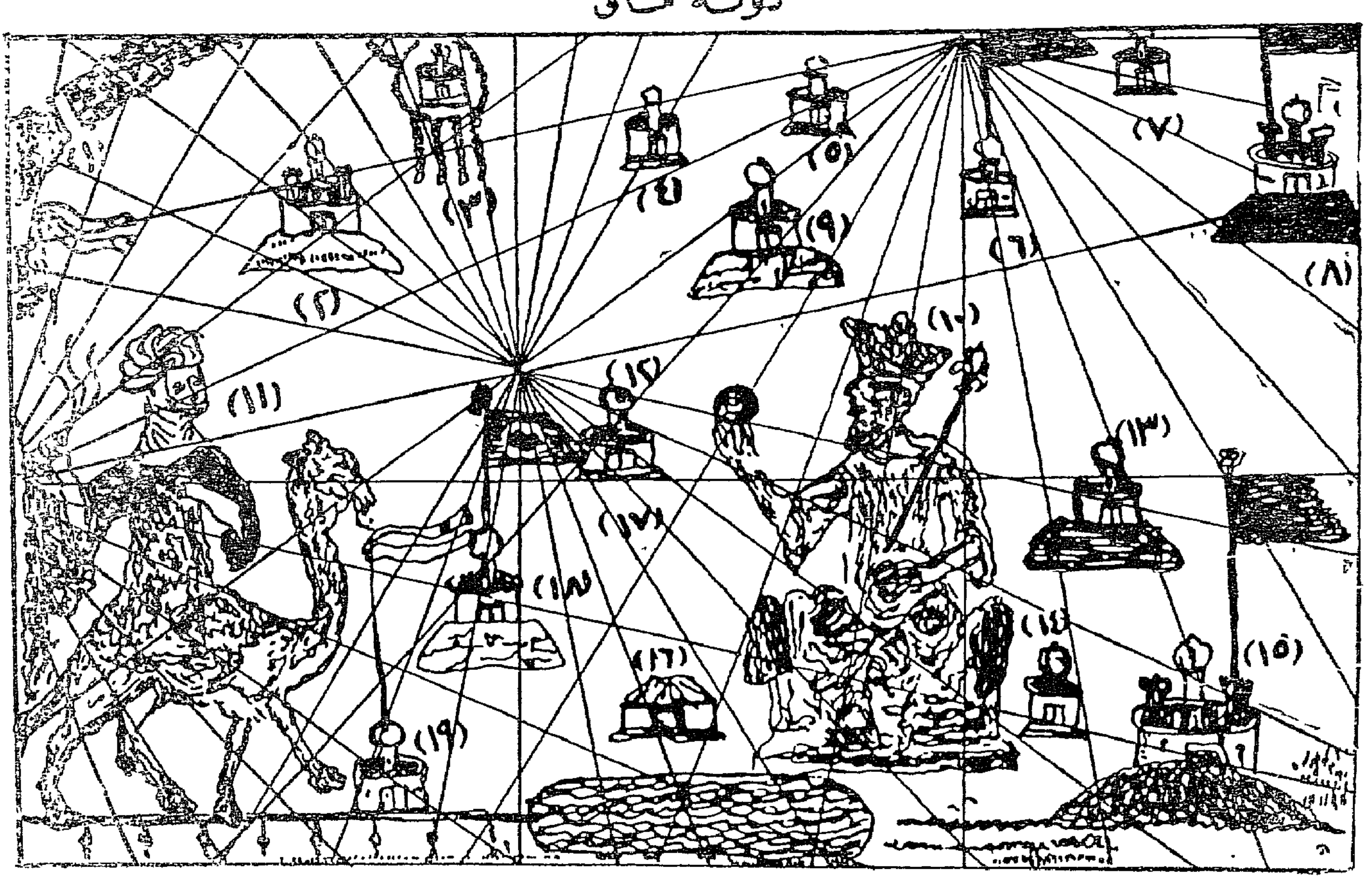
ـــ وأن يحملوا فى جميع أمورهم على البر والاكرام كغيرهم مـــن النصرى المصطلح معهم •

ـــ وعلى أن يكون كل من دخل من المسلمين الذين تحت طاعة الحضرة العلية بلدا من بلاد البيشانيين أو جزرهم أو مرسى من مراسيهم هو آمن بأمان الله تعالى فى نفسه وماله •

فشهد على اشهاد الرسولين المذكورين جوان فجول والرنيردلبانية المذكورين فى عقدهما هذا الصلح عن مرسليهما المذكورين وهما بحال الصحة والتطوع والجواز بترجمة من جرت عادته بذلك من المسلمين وحضر لعقد هذا الصلح من تجار البيشانيين القنصل كان بنجال بركان وجوان كريـــة ولام اسكر سلب لطار وكلوش دلنيال وجيك الياط وجان بنكت وجول جنكين وبان سنيلت وعلى اشهاد من تنفذ الاوامر العلية الان على يديه بالبـــاب الكريم أسماه الله وأسعده وحفظه باقضـــا ذلك وذلك بتاريخ الحـــادى والعشرين من جمادى الاولا من عام ثلاثة عشر وسبعماية وهو الموافـــق لليوم الرابع عشر من شهر شتنبر وبذلك ذلك فى آخر شه •• جمدى •• الحق عصيبى وأحمد بن اسمعيل بن أحمد الريعى •

أمارى ، وثيقة رقم ٢٩ ، ص ٨٦ــ٩٧

دولة مالي



بيانـــات الخريطـــة :

١ — وادى درعة الذى يخترق جبال أطلس ، وهو أحد طرق القوافل الى السودان •

٢ — مدينة تاكـــورام

٣ — مدينة سجلماسة

٤ — مدينة تابلبرت

٥ — مدينة أنزيـــزا

٦ — مدينة توغـــــرت

٧ — مدينة بسكـــــرة

٨ — مدينة تـــــوزور

٩ — مدينة تـــــوات

١٠ — صورة السلطان كنكن موس ، ويبدو وفى يده قطعة من الذهب يقدمها للوافد عليه فوق جمله — وتوجد عبارة مكتوبة على الخريطة خلف صورة السلطان موسى نصها : « يدعى هذا الزنجى ، موس مالى ، سيد زنوج غينيا ، وهو أثرى وأعظم ملك فى بلاد السودان ، لوفرة الذهب فى بـــلاده » •

١١ — أحد التجار من الملثمين العاملين فى التجارة بين بلاد السودان وبلاد المغرب ، وأمام صورته على الخريطة عبارة نصها : « ينتشر الملثمون فى جميع أرجاء المنطقة ، وهم الذين يضعون اللثام على أفواههم ، فلا ترى سوى أعينهم • وهم يعيشون فى خيام وعماد قوافلهم الجمال ، وفى هذه

المنطقة يوجد الحيوان المعروف باسم « اللمط » (١) ((Lemp ومن جلده تصنع الدروع المتينة .

١٢ ـ مدينه تعـــازة

١٣ ـ مدينة بـــودا

١٤ ـ مدينة جـــاو (١)

١٥ ـ مدينة ميمـــة

١٦ ـ مدينـــة تنبكت

١٧ ـ غينيـــه

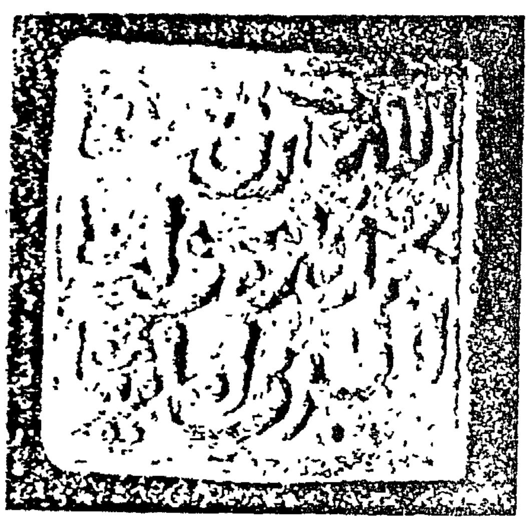
١٨ ـ الســـودان

١٩ ـ مدينة مـــالى

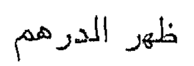
---

(١) هذا الحيوان يشبه الثور

(١) جاو عاصمة دولة سنغى الاسلامية ، وتقع على النيجر ، وتعرف فى الكتب العربية باسماء مختلفة منها : كانح ، كوغا ، كوكو ، كركر الخ .. ابن خلدون ، العبر ، ج ٥ ، ص ٤٣٤ ، ج ٦ ، ص ٢٠٠ .

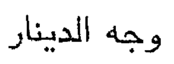


وجه الدرهم



ظهر الدرهم





وجه الدينار



ظهر الدينار

ملحـــق رقم (١٩)

بسم الله الرحمـن الـرحيم

رسم الامر الشريف العالى المولوى قانصوه

السلطان الملكى الاشرفى السيفى أعلاه الله تعالى وشرفه وأنفـــذه وصرفـــه أن سطر هذا المرسوم الشريف الى كل واقف عليه وناظر اليه فى الجنابات العالية والمجالس السامية النواب والحجاب والمباشرين والنظار والمتكلمين وأرباب الوظايف وأصحاب الادراك بثغر الاسكندرية المحروسة وغيرها من الثغور الاسلامية ، والسواحل بممالكنا الشريفة ضاعف اللـــه تعالى نعمه ، الجنابات العالية وأعز المجالس السامية يتضمن اعلامهم أن قد برزت مراسيمنا الشريفة لطايفة الفرنتين من الافرنج بالامان والاطمان والاخذ والعطا والبيــع والشرى وأن يحضروا الى الثغر الاسكندريى المحروس والى غيره من الثغور الاسلامية ، والى السواحل بممالكنـــا الشريفة ببضايع منجر ولهم الامان والاطمان والبيع والشرى والاخـــذ والعطا وعليهم أمان الله تعالى وأماننا الشريف ، فيتقدم كل واقف عليه من الجنابات والمجالس بالوصية التامة لهم وأكرامهم وأحترامهم ومعـــاملتهم بالعدل • ومنع من يتعرض لهم بسوء أو ضرر ، ولهم عادة التجار مـــن الافرنج الذين يحضروا الى ثغر الاسكندرية ولهم الامان والاطمـــان فى البيع والشرى والاخذ والعطا ، وأنهم يحضروا طيبين القلب منشرحيـــن الصدر آمنين على أنفسهم وأموالهم ومراكبهم ، واذا حضروا فى غيـــر مراكب طايفتهم يكون لهم الامان فى البر والبحر • وأن يعاملوا بالعـــدل والا يحدث حادث ولا مظلم وأن لا يوزنوا الا أسوة التجار البنادقة وهم من تجار الافرنج الذين يحضروا الى الثغر الاسكندرى فى البحر ، وذلك

على حكم ما بيدهم من المراسيم الشريفة فى أيام الملك الاشرف العبد الشهيد قايتباى سقى الله عهده صوب الرحمة والرضوان على يد قاصدهم الوزير دالصتوفا مع الوصية لهم • ومنع من يتعرض لهم بسوء أو تضرر ومن هلك من طايفة الفرنتيين عن وصية فليعمل بها من غير أن يتعرض أحد لوصيته ، واذا انكسر مركب من مراكب الفرنتيين بممالكنا الشريفة فلاأحد يتعرض الى البضاعة ولا الى شىء منهم سوى السلاح على ما جرت به العادة من تقادم السنين • واذا حضر من بلادهم قنصل فلا أحد يحكم بين طائفة الفرنتيين الا القنصل ••• قولا واحد وأمرا حازما ومراسيمنا الشريفة تؤكد عليهم فى ذلك غاية التأكيد فيحيط علمهم بذلك والله تعالى الموفق بمنه وكرمه •

ان شاء الله تعالى •

فى ثامن عشر القعدة الحرام سنة احد عشر وتسعماية [1] •

---

(١) ميشيل امارى ، رسالة رقم ٤٢ ، مؤرخة بتاريخ ١٨ ذو القعدة ٩١١ هـ / ١٢ أبريل ١٥٠٦ م ، قانصوه الغورى ، ص ٢١٤—٢١٧ .

المصادر والمراجـــع

المصادر والمراجــع

أولا ــ المصادر العربية المخطوطة :

١ ــ ابن البيذق (أبو بكر بن على الصنهاجى) :

« أقوال المهدى بن تومرت فى علم الكلام » نسخة حديثة محفوظة بدار الوثائق بالرباط ، ميكروفيلم رقم ١٠٥١ .

٢ ــ أمــارى (ميشيل) :

مجموعة رسائل تحت عنوان :

Documenti Degli Archivi R· Toscani Pubblicati par Cura Dellal Sopr-intendenza Generale Agli Archivi Medesimi,

دار الوثائق بالرباط تحت رقم $\frac{AO\ 4\quad 583}{1\quad dis}$

٣ ــ النويرى السكندرى (محمد بن قاسم) :

« الالمام بما جرت به الاحكام المقضية فى وقعة الاسكندرية » نسخة مصورة من مخطوطة دار الكتب المصرية المقيدة برقم ١٤٤٩ تاريخ،محفوظة بمكتبة كلية الاداب ، بجامعة الاسكندرية برقم ٧٣٧ م . ونسخة أخرى مصورة من مخطوطة الهند،محفوظة بمكتبة كلية الاداب جامعةالاسكندرية برقم ٧٣٨ م . ونسخة ثالثة مصورة من مخطوطة برلين ، محفوظة أيضا بمكتبة كلية الاداب جامعة الاسكندرية ، برقم ٦٦٧ م .

ثانيا ــ المصادر العربية المطبوعة :

٤ ــ ابن الابار (أبو عبد الله محمد ت ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م) :

« الحلة السيراء » تحقيق د . حسين مؤنس ، القاهرة ، ١٩٦٣ .

٥ — ...... :

« التكملة لكتاب الصلة » نشر كوديرا ، ج ٥—٦ ، ليدن ١٨٨٧ م .

٦ — ابن الاثير (على بن أحمد بن أبى الكرم ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٣ م):

« الكامل فى التاريخ » ، طبعة مصر ، ١٣٥٦ م .

٧ — ابن الاحمر (أبو الوليد اسماعيل) :

« روضة النسرين فى دولة بنى مرين » ، الرباط ١٣٨٢ هـ / ١٩٦٢ م .

٨ — الادريسى (أبو عبد الله محمد بن محمد بن الشريف الادريسى ت ٥٤٨ هـ / ١١٥٤ م) :

« صفة المغرب والاندلس مأخوذة عن كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » ، نشره دوزى ودى غويه ، ليدن ١٨٦٦ ، طبعة الجزائر ١٩٥٧ . ونسخة بعنوان صفة المغرب وأرض السودان ومصر والاندلس ، ليدن ، ١٨٩٤ م .

٩ — الاصفهانى (العمـــاد) :

« فريدة القصر وجريدة العصر » ، قسم شعراء المغرب ، ج ١ تحقيق: محمد المرزوقى ، محمد العروسى المطوى ، الجيلانى بن الحـــاج يحيى ، تونس ١٩٧٣ ، النشرة الثانية .

١٠ — ابن اياس الحنفى (محمد بن أحمد) :

« بدائع الزهور فى وقائع الدهور » ج ٢ هـ أولى ١٣١١ هـ ، ج ٣ ، ١٣٨٣ / ١٩٦٣ م القاهرة ، ج ٤ مطبعة الدولة باستانبول ، ١٩٣١ م . (تحقيق : محمد مصطفى) .

١١ — ابن بشكـــوال (خلف بـــن عبد الملك بن مسعود ت ٥٧٨ هـ / ١١٨٢ م) :

« الصلة في تاريخ أئمة الاندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم » نشر عزت العطار ٥٠–١٩٥٥ .

١٢ — البكرى (أبو عبد الله بن عبد العزيز ت ٤٨٦ هـ / ١٠٩٤ م)

« المسالك والممالك — الجزء الخاص بشمال افريقيا » ط . دى سلان ١٨٥٧ .

١٣ — ......

« المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب » بـاريس ١٩١١ . ونشره دى سلان De Ssane بعنوان :

Description de L'Afrique Septentrionale

الجزائر ١٩١١ .

١٤ — البلخى (أبو القاسم عبد الله أحمد بن محمود ت ٣١٩ هـ) :

مقالات اسلامية فى كتاب فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة ، تحقيق : فؤاد سيد ، تونس ، ١٩٧٤ .

١٥ — البيذق (أبو بكر بن على الصنهاجى) :

« أخبار المهدى بن تومرت وبدايه دولة الموحدين » . تحقيق عبد الوهاب بن منصور ، الرباط ، ١٩٧١ .

١٦ — ......

« المقتبس من كتاب الانساب فى معرفة الاصحاب » ، تحقيق ، عبد الوهاب بن منصور ، الرباط ، ١٩٧١ .

١٧ — ابن تغرى بردى (جمال الدين أبى المحاسن يوسف) :

« النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة » ج ١ — ج ١٢ ، دار الكتب المصرية ١٣٤٨ هـ / ١٩٢٩ م ، والجزء الثالث من طبعة وليم بوبر ، كاليفورنيا ١٩٣٢ م .

١٨ — الجاحظ (أبو عثمان عمر بن بحر) :
البيان والتبيين ، ج ١ ، تحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة،١٩٤٨م
١٩ — الجزنائى (أبو الحسن على) :
« كتاب زهرة الآس فى بناء مدينة فاس » ، نشره الفرد بل ، الجزائر ١٩٢٢ م.
٢٠ — جولد تسيهير :
« العقيدة والشريعة فى الاسلام » (الترجمة العربية) ، القاهرة ، ١٩٤٩ .
٢١ — ابن الجوزى (عبد الرحمن بن على ٥٩٧ هـ / ١٢٠١ م) :
« المنتظم فى تاريخ الملوك والامم » ١٠ اجزاء المطبوع منه ابتداء من القسم الثانى من الجزء الخامس الى نهاية العاشر . بعناية د . سالم الكرنكورى ولجنة خاصة فى دائرة المعارف العثمانية . حيدر أباد ، الدكن ١٣٥٧ هـ — ١٣٥٩ هـ .
٢٢ — ابن حبيب (عبد الملك) :
« أخبار فى فتح الاندلس » نشرها الدكتور محمود على مكى فى مقالـه :
Egipto y Los Origine s de la Historiografia Arabigo-Esponola
صحيفة معهد الدراسات الاسلامية فى مدريد ، المجلد الخامس ، ١٩٥٧ .
٢٣ — ابن حزم الظاهرى (أبو على بن أحمد ، ت ٤٥٦هـ — ١٠٦٤م):
« الفصل فى الملل والاهواء والنحل » ، ط مصر ١٣١٧هـ .
٢٤ — ابن حوقل (أبو القاسم محمد بن على البغدادى النصيبى ت ٣٨٠هـ — ٩٩٠م) :

« صورة الارض » ، ط دى سلان ، الجزائر ١٨٥٧م •

٢٥ — ابن خرداذبة (أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله) :

« المسالك والممالك » ، ط • دوزى ، ليدن ، ١٨٨٩م •

٢٦ — الخزرجى (على بن الحسن) :

« العقود اللؤلؤية فى تاريخ الدولة الرسولية » ، تحقيق : محمد بسيونى عسل ، القاهرة ج١ ، ١٩١١ ، ج٢ ، ١٩١٤م •

٢٧ — الخشنى (محمد بن الحارث بن أسد ، ت ٣٦٦هـ) :

« طبقات علماء افريقية » القاهرة ، ١٣٧٢هـ •

٢٨ — الخشنى (أبو عبد الله محمد) :

« قضاة قرطبة وعلماء افريقية » (من تراث الاسلام) ، تحقيق :عزت العطار الحسنى ، القاهرة ، ١٣٧٢هـ •

٢٩ — ابن الخطيب (محمد لسان الدين ، ٧٧٦هـ — ١٣٧٤م) :

« الاحاطة فى أخبار غرناطة » مجلد ١ ، تحقيق : محمد عبد الله عنان، دار المعارف ، مصر ، ١٩٥٥ •

٣٠ — ••••••••

« أعلام الاعلام فيمن بويع قبل الاسلام من ملوك الاسلام » (القسم الخاص بالاندلس) تحقيق ليفى بروفنسال ، طبعة بيروت ، ١٩٥٦ (والقسم الخاص بالمغرب) تحقيق الدكتور أحمد مختار العبادى والاستاذ محمد ابراهيم الكتانى ، الدار البيضاء ، ١٩٦٤م •

٣١ — ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد الحضرمى • ت٨٠٨هـ — ١٤٠٥م) :

« كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الاكبر » ج٦٥٣ ، القاهرة ١٢٨٤هـ • بيروت ١٩٥٩ — ١٩٦١ • دى سلان الجزائر ١٨٨١م •

٣٢ — ....

« المقدمة » القاهرة ، ١٩٥١ ، ط ، بيروت ، ١٩٥٠م .

٣٣ — ....

« التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا » تحقيق الاستاذ محمد بن تاويت الطنجى ، القاهرة ١٩٥١ .

٣٤ — ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد ، ٦٨١هـ — ١٢٨٢م) :

« وفيات الاعيان وأنباء الزمان » ٦ أجزاء ، تحقيق : محمد محيى الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٣٦٩هـ / ١٩٤٨—١٩٤٩م وأيضا طبعة بيروت ج٣ ١٩٧٠ ، ج٥ ١٩٧٧ ، ج٨ ١٩٧٢م .

٣٥ — الدباغ (عبد الرحمن محمد بن عبد الله الانصارى ، ت٦٩٦هـ):

« معالم الايمان فى معرفة أهل القيروان » ج ١—٢ ، تونس ، ١٣٢٠هـ .

٣٦ — ابن أبى دينار (أبو عبد الله محمد بن أبى القاسم الرعينى القيروانى) :

« المؤنس فى أخبار افريقية وتونس » تحقيق : محمد شمام ، الطبعة الثالثة ، تونس ١٣٨٧هـ .

٣٧ — الرقيق القيروانى (من ق ٥هـ — ٤٧٠هـ) :

« تاريخ افريقية والمغرب » — قطعة تبدأ من أواسط القرن الاول الى أواخر القرن الثانى الهجرى . تحقيق : المنجى الكعبى ، تونس١٩٦٧م.

٣٨ — ابن أبى زرع (على الفاسى) :

« كتاب الانيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس » دار المنصور للطباعة ، الرباط ، ١٩٧٣م .

٣٩ — الزركشى (أبو عبد الله محمد بن ابراهيم) :

« تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية » ، تحقيق . محمد ماضور . تونس ١٩٦٦م .

٤٠ — السراج (محمد بن محمد الاندلسى الوزير) :

« الحلل السندسية فى الاخبار الاندلسية » تحقيق . محمــد الحبيب الهيلة ، ج١ ، تونس ١٩٧٠م .

٤١ — ابن سعيد المغربى (على بن موسى) :

« المغرب فى حلى المغرب » ج١ ، تحقيق : د. شوقى ضيف . القاهرة. ١٩٥٣م .

٤٢ — الســـلاوى (أحمد بن خالد الناصرى) :

« الاستقصا لدول المغرب الاقصى » تحقيق وتعليق ولدى المؤلف : جعفر ومحمد الناصرى . الدار البيضاء ، ١٩٥٤م .

٤٣ — السيوطى (جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن أبى بكر ٩١١هـ — ١٥٠٥م) :

« بغية النحاة فى طبقات اللغويين والنحاة » تصحيح : محمد أمين . القاهرة ، ١٣٢٦هـ .

٤٤ — أبو شامة (شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسى الدمشقى ٦٦٥هـ — ١٩٤٧م) :

« كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية » تحقيق : الاستاذ محمد حلمى محمد أحمد ، القاهرة ، ١٩٦٢م .

٤٥ — الشهرستانى (محمد بن عبد الكريم — ت ٥٤٨هـ) :

« الملل والنحل » القاهرة ١٩٦٥م .

٤٦ — ابن صاحب الصلاة (عبد الملك — ٥٩٤هـ — ١١٩٨م) :

« تاريخ المن بالامامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين » • السفر الثانى • تحقيق : الاستاذ عبد الهادى التازى ، بيروت ١٩٦٤م •

٤٧ — الاصطخرى (أبو اسحاق ابراهيم بن محمد ، كان حيا فى النصف الاول من القرن ٤هـ) :

« المسالك والممالك » • تحقيق : الاستاذ محمد جابر عبد العال الحسين ، القاهرة ، ١٩٦١م •

١٩٣٩م •

٤٨ — العباس بن ابراهيم :

« الاعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الاعلام » ج٣ ، الرباط ،

٤٩ — ابن عبد الحق (صفى الدين عبد المؤمن البغدادى ٧٣٩هـ — ١٣٠٨م) :

« مراصد الاطلاع على أسماء الامكنة والبقاع » • تحقيق : الاستاذ على محمد البجاوى ، القاهرة ، ١٩٥٤م •

٥٠ — ابن عبد الحكم (عبد الرحمن بن عبد الله ت ٢٧٦هـ—٨٨٩م) :

« فتوح مصر والمغرب » تحقيق الاستاذ عبد المنعم عامر ، القاهرة ، ١٩٦١م ، مطبعة Albert Gateau بعنوان :

Conquête de L'Afrıque de Nord et L'Espagne

الجزائر ١٩٤٧ •

٥١ — ابن عذارى المراكشى (٧١٢هـ — ١٣١٢م) ·

« البيان المغرب فى أخبار المغرب » ، ٤ أجزاء ، بيروت ، ١٩٥٠ ، ج٣ تطوان ١٩٦٠م •

٥٢ — العذرى (ت ٤٧٨هـ — ٩٨٨م) :

« ترصيع الاخبار وتنويع الاثار والبستان فى غرائب البلدان والمسالك الى الممالك » ، نشر عبد العزيز الاهوانى ، مدريد ١٩٦٥م .

٥٥٣ — الغبرينى (ت ٧٠٤هـ — ١٣٠٤م) :

« عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء فى المائة السابعــة ببجاية ، تحقيق الاستاذ : رابح أحمد بونار ، الجزائر ، ١٣٨٩هـ — ١٩٧٠م .

٥٤ — عمر بن شاهنشاه الايوبى (محمد بن تقى الدين ٥٦٧—٦١٧هـ) صاحب حماه :

« مضمار الحقائق وسر الخلائق » . تحقيق د. حسن حبش القاهرة. ١٩٦٨م .

٥٥ — الغزالى (أبو حامد محمد بن محمد ٥٠٥هـ — ١١١١م) :

« كتاب فضائح الباطنية للرد عليهم » نشر وتحقيق : د. عبد الرحمن بدوى ، القاهرة ، ١٩٦٤م .

٥٦ — ابن القطان (أبو الحسن على بن محمد بن عبد الملك الكتامى الفــاسى) :

« جزء من كتاب نظم الجمان » تحقيق الدكتور محمود على مكى . منشورات كلية الاداب ، جامعة محمد الخامس بالرباط تطوان ، ١٩٦٤م .

٥٧ — القلقشندى (أبو العباس أحمد ٨٢١هـ — ١٤١٨م) :

« صبح الاعشى فى صناعة الانشا » دار الكتب ، ١٣٣٢هـ .

٥٨ — ابن القنفذ القسنطينى (أبو العباس أحمد بن حسين بن على بن الخطيب ، ت ٨١٠هـ — ١٤٠٧م) :

« الفارسية فى مبادىء الدولة الحفصيه » تحقيق وتقديم : محمــد

الشاذلى النيفر وعبد المجيد التركى ، تونس ١٩٦٨م •

٥٩ — ابن كثير الدمشقى (الحافظ عماد الدين أبو الفـدا اسماعيل ت ٧٧٤هـ — ١٣٧٢م) :

« البداية والنهايه فى التاريخ » ، ج١٢ ، مصر ، ١٣٤٨هـ •

٦٠ — المالكى (أبو بكر عبد الله بن أبى عبد الله ت فى نهاية القـرن الرابع الهجرى) :

« كتاب رياض النفوس فى طبقات علماء القيروان وافريقية » ج١ ، تحقيق الدكتور حسين مؤنس . القاهرة ، ١٩٥١م •

٦١ — المالكى (ابن الصغير — القرن ٣هـ — ٩م) :

« أخبار الائمة الرستميين » (ألفه فى تاهرت حوالى ٢٩٠هـ) نشر : موتلنسكى ، أعمال المؤتمر الرابع عشر للمستشرقين ، باريس ١٩٠٨م •

٦٢ — مجهـول :

« كتاب الاستبصار فى عجائب الامصار » لكاتب مراكشى من كتاب القرن السادس الهجرى ، تحقيق الدكتور سعد زغلول عبـد الحميـد ، الاسكندرية ، ١٩٥٨م •

٦٣ — مجهـول :

« تاريخ الدولة السعدية الدرعية التكمدارتية » • نشر جورج كولان، الرباط . ١٩٣٤م •

٦٤ — مجهـول :

« كتاب الحلل الموشية فى ذكر الاخبار المراكشية » نشره وصححه : د• س علوش • مطبوعات معهـد العلوم العليا المغـربية ، ج٦ ، الرباط ١٩٣٦ ، وتحقيق : الدكتور سهيل زكار والاسـتاذ عبـد القادر زمامة ، الرباط ١٩٧٩م •

٦٥ — ابن مرزوق (أبو الحسن الخطيب) :

نخبة من كتاب المسند الصحيح الحسن فى مآثر مولانا أبى الحسن الخطيب ، تحقيق ليفى بروفنسال ، باريس ١٩٢٥م .

٦٦ — المراكشى (محيى الدين عبد الواحد ت ٦٢٠هـ — ١٢٢٤م) :

« المعجب فى تلخيص أخبار المغرب » ، تقديم : محمد الفاسى المغرب، سلا ١٣٥٧هـ — ١٩٣٨م .

٦٧ — المسعودى (أبو الحسن على بن الحسين ٣٤٦هـ — ١٩٥٧م) :

« كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر » تحقيق الاستاذ محى الدين عبد الحميد ، القاهرة ، ١٩٥٨م .

٦٨ — المقدسى (شمس الدين مجير الدين العيلمى الحنبلى ، ت ٩٢٧هـ — ١٥٢١م) :

« أحسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم » طبعة دى خونيه ، ليدن ١٩٠٦م .

٦٩ — المقرى التلمسانى (شهاب الدين أحمد بن محمد ، ت ١٠٤١هـ — ١٦٣١م) :

« نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب » ، عشرة أجزاء ، القاهرة، ١٩٤٩م . دار الكتاب العربى ، بيروت .

٧٠ — ....

« أزهار الرياض فى أخبار عياض » . تحقيق الاستاذ مصطفى السقا ، وابراهيم الابيارى ، وعبد الحفيظ شلبى ، القاهرة ، ١٣٥٨هـ — ١٩٣٩م .

٧١ — المقريزى (تقى الدين أحمد بن على ، ت٨٤٥هـ — ١٤٤١م) :

« المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار » ٣ أجــزاء ، القاهــرة ، ١٣٢٤هـ •

٧٢ — •••••••••

« السلوك فى معرفة دول الملوك » نشر الدكتور محمد مصطفى زيادة القاهرة ١٩٣٦ م

٧٣ — ••••••

« الذهب المسبوك فيمن حج منهم الخلفاء والملوك » ، نشر الدكتور جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٥٥ م •

٧٤ — الملطى (محمد بن أحمد بن عبد الرحمن ت ٣٧٧ هـ) :

« التنبيه والرد على أهل الاهواء والبدع » القاهرة ، ١٩٤٩ م •

٧٥ — ابن مماتى (الاسعــد) :

« كتاب قوانين الدواوين » جمعه وحققه الدكتور عزيز سوريـــال عطية ، القاهرة ، ١٩٤٣ م •

٧٦ — المكناسى (أحمد بن القاضى من ٩٦٠—١٠٢٥ هـ) :

« جذوة الاقتباس فى ذكر من حل من الاعلام مدينة فاس » ، نشر دار المنصور ، الرباط ١٩٧٣ •

٧٧ — ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم ٦٩٧ هـ — ١٢٩٧ م) :

« مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب » نشر الدكتور جمـــال الدين الشيال ، القاهرة ، ١٩٥٣ ، ١٩٦٠ م •

٧٨ — ياقوت الحموى (شهاب الدين الرومى ٦٢٦ هـ — ١٢٢٩ م) :

« معجم الادباء » ج ٢ ، القاهرة ، ١٩١١ م •

ثالثا — المراجــع العربية الحديثــة :

٧٩ — أحمد (مصطفى أبو ضيف) :

« القبائل العربية فى المغرب فى عصرى الموحدين والمرينيين » رسالة ماجستير ، الاسكندرية ، ١٩٧٥ م .

٨٠ — أسماعيل (الدكتور محمود) :

« المالكيون والشيعة بافريقية ابان قيام الدولة الفاطمية » .

٨١ — ......

« المعتزلة فى المغرب حتى قيام الدولة الفاطمية » الرباط ، ١٩٧٦ م .

٨٢ — ......

« الخوارج فى بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجرى » الداو البيضاء ، ١٩٦٧ م .

٨٣ — اسماعيل سرهنك باشا :

« حقائق الاخبار عن دولة البحار ، جزءان »

٨٤ — أشباخ (يوسف) :

« تاريخ الاندلس فى عصر المرابطين والموحدين » جزءان ، تحقيق الاستاذ عبد الله عنان ، اقاهرة ، ١٩٥٨ م .

٨٥ — بدوى (الدكتور أحمد أحمد) :

« صلاح الدين الايوبى بين شعراء عصره وكتابه » القاهرة ، ١٩٦٠م

٨٦ — باجة (صالح) :

« الاباضية بالجريد فى العصور الاسلامية الاولى ، اشراف الدكتور علي الشابى ، تونس ١٩٧٦ م .

٨٧ — بالنثيا (آنخل جنثالث) :

« تاريخ الفكر الاندلسى » ترجمة الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٥٥ م .

٨٨ — بل (الفرد) :

« الفرق الاسلامية فى الشمال الافريقى » ترجمة الدكتور عبدالرحمن بدوى ، بنغازى ١٩٦٩ م ٠

٨٩ — ٠٠٠٠٠٠٠

« بغية الرواد فى ذكر ملوك بنى عبد الواد » الجزائر ، ١٩٠٣ م ٠

٩٠ — نجاة باشا :

« التجارة فى المغرب الاسلامى من القرن ٤ هـ الى ٨ هـ » ٠ تونس ، ١٩٧٦ م ٠

٩١ — ابن تاويت (محمد) ومحمد الصادق عفيفى :

« الادب المغربى » ، بيروت ١٩٦٠ م ٠

٩٢ — ٠٠٠٠٠٠

« من زوايا التاريخ المغربى » مجلة تطوان للابحاث المغربيةالاندلسية العدد ١٠ ، تطوان ، ١٩٦٥ م ٠

٩٣ — الجـــرارى (الدكتور عباس) :

« الموحدون ثورة سياسية ومذهبية » مجلة المناهل ، العدد الاول ، السنة الاولى الرباط ١٩٧٤ م ٠

٩٤ — ٠٠٠٠٠٠٠

« وحدة المغرب المذهبية خلال التاريخ » الرباط ، ١٩٧٦ م ٠

٩٥ — ٠٠٠٠٠٠

« الادب المغربى من خلال ظواهره وقضاياه » ج ١ ، الرباط ١٩٧٩ م

٩٦ — الجنحانى (الحبيب) :

« المغرب الاسلامى ، الحياة الاقتصادية والاجتماعية : القرن ٣—٤ هـ / ٩—١٠ م » تونس ١٩٧٧ م ٠

٩٧ — جنـــون (عبد الله) :

« النبوغ المغربى فى الادب العربى » ، ط ٢ ، ج ١ــ٣ ، بيــروت ١٩٦١ م .

٩٨ ــ حسن (الدكتور حسن ابراهيم) :

« تاريخ الاسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى » ط ٥ ، ج ١ . « الدولة العربية فى الشرق ومصر والمغرب والاندلس » القاهرة ، ١٩٥٩ م .

٩٩ ــ حسن (الدكتور على ابراهيم) :

« مصر فى العصور الوسطى من الفتح العربى الى الفتح العثمانى » القاهرة ، ١٩٤٧ م .

١٠٠ ــ خطاب (محمود شيت) :

« قادة الفتح المغربى العربى » ط ١ ، بيروت ، ١٩٦٦ م .

١٠١ ــ ديــــوز (محمد على) :

« تاريخ المغرب الكبير » ، ج ٣ ، القاهرة ، ١٩٦٣ م .

١٠٢ ــ الدمشـــــقى :

« محاسن التجارة » القاهرة ، ١٣١٨ هـ .

١٠٣ ــ ديمانـــد (م . س) :

« الفنون الاسلامية » ترجمة أحمد محمد عيسى ، مراجعة وتقــديم دكتور أحمد فكرى ، القاهرة ١٩٥٨ .

١٠٤ ــ زكـــار (الدكتور سهيل) :

« تاريخ العرب والاسلام » بيروت ١٩٧٥ م

١٠٥ ــ ابن زيــــدان :

« العز والصولة » نشر عبد الوهاب بن منصور ، الرباط ، ١٩٦١ م .

١٠٦ ــ سالم (الدكتور السيد عبد العزيز) :

« طارق بن زياد » مقال بدائرة معارف الشعب ، عدد ٦٧ ، القاهرة ، ١٩٥٩ م .

١٠٧ — « مرسيه » مقال بدائرة معارف الشعب ، عدد ٦١

١٠٨ — « المهدى بن تومرت » مقال بدائرة معارف الشعب رقم١٩٦٠

١٠٩ — « الفنون والصناعات بالاندلس » مقال بدائرة معارف الشعب ، عدد ٦٤ .

١١٠ — « المسجد الجامع بالقيروان وجامع الزيتونة بتونس » مقالان بكتاب بيوت الله مساجد ومعاهد ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، كتاب الشعب عدد ٧٨

١١١ — « التخطيط ومظاهر العمران فى العصور الاسلامية الوسطى» مقال بمجلة المجلة ، العدد التاسع ، سبتمبر ١٩٥٧ م .

١١٢ — « المساجد والقصور بالاندلس » القاهرة ١٩٥٨ م .

١١٣ — « أثر الفن الخلافى بقرطبة فى العمارة المسيحية بأسبانيا وفرنسا » المجلة العدد ١٤ ، ١٩٥٨ م .

١١٤ — « مسجد المدجنيين بطيطله » مقال بمجلة كلية الاداب جامعة الاسكندرية ، ١٩٥٨

١١٥ — « روائع الاثار الاسلامية بجمهورية الجزائر العربية » ، المجلة ، العدد ٣٩ ، ١٩٥٩ .

١١٦ — « المغرب الاسلامى » كتاب الشعب عدد ١٣٨—١٣٩ القاهرة ١٩٦١ م .

١١٧ « المآذن المصرية ، نظرة عامة عن أصلها وتطورها منذ الفتح العربى حتى الفتح العثمانى » القاهرة ١٩٥٩ م .

١١٨ — « تاريخ الاسكندرية وحضارتها فى العصر الاسلامى » الاسكندرية ، ١٩٦١ م .

١١٩ — « تاريخ المسلمين وآثارهم فى الاندلس » بيروت ١٩٦٢ م

١٢٠ — « طرابلس الشام فى التاريخ الاسلامى » الاسكندريـــة ، ١٩٦٧ م ٠

١٢١ — « التاريخ والمؤرخون العرب » الاسكندرية ١٩٦٧ ، ١٩٨١م

١٢٢ — « تاريخ مدينة المرية الاسلامية قاعدة اسطول الاندلس » ، بيروت ، ١٩٦٨ م ٠

١٢٣ — « تخطيط مدينة الاسكندرية وعمرانها فى العصر الاسلامى » مكتبة المدن الاسلامية ، اعدد الاول ، بيروت ١٩٦٤ م ٠

١٢٤ — « تاريخ البحرية الاســـلامية فى حـــوض البحر الابيض المتوسط » ، ج ١ ، ٢ بيروت ١٩٧١ م ٠

١٢٥ — « وسائل الدفاع الاسلامى فى العصور الوسطى » مجلـــة الجيش ، عدد ٨٢ـــ٨٣ ٠

١٢٦ — « المغرب الكبير » ج ٢ ، العصر الاسلامى دراسة تاريخية عمرانية وأثرية ، الاسكندرية ١٩٦٦ ، دار النهضة العربية بيروت ، ١٩٨١

١٢٧ — سرور (الدكتور محمد جمال الدين) :

« سياسة الفاطميين الخارجية » القاهرة ، ١٩٦٧ م ٠

١٢٨ — ٠٠٠٠٠٠

« الدولة الفاطمية فى مصر » القاهرة ، ١٩٦٦ م ٠

١٢٩ — سليم (الدكتور محمود رزق) :

« الاشرف قانصوه الغورى » ، أعلام العرب رقم ٥٢ ٠

١٣٠ — سليمان (نعيم زكى فهمى) :

« طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب أواخـــر العصور الوسطى » جامعة القاهرة ١٩٦٨ م ٠

١٣١ ــ ابن سـودة (عبد السلام عبد القادر) :
« دليل مؤرخ المغرب الاقصى » ج ١ــ٢ ، الرباط ١٩٦٥ م .
١٣٢ ــ ابن شريفة (الدكتور محمد) :
« من تاريخ الاسر المغربية ، أسرة بنى عشرة ، تطورها التاريخى ، ودورها الحضارى » مجلة تطوان ، العدد ١٠ ، ١٩٦٥ م .
١٣٣ ــ تسعيرة (الدكتور محمد عبد الهادى) :
« الاسكندرية من الفتح العربى الى نهاية العصر الفاطمى ، مقال من الكتاب الذى أصدرته غرفة الاسكندرية التجارية ، ١٩٤٩ م .
١٣٤ ــ الشيـال (الدكتور جمال الدين) :
« أعلام الاسكندرية فى العصر الاسلامى » القاهرة ١٩٦٥ م .
١٣٥ ــ ......
« مجموعة الوثائق الفاطمية » ج ١ ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٥ م
١٣٦ ــ الشيخ (الدكتور محمد محمد) :
« الجهاد المقدس ضد الصليبيين حتى سقوط الرها » الاسكندرية ، ١٩٧٢ م .
١٣٧ ــ الصبيحى (محمد) :
« انبلاج الفجر عن المسائل العشر » ، الرباط ، ١٩٤٠ م .
١٣٨ ــ طرخان (الدكتور ابراهيم على) :
« دولة مالى الاسلامية » القاهرة ، ١٩٧٣ م .
١٣٩ ــ ......
« مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة » القاهرة ، ١٩٦٠ م .
١٤٠ ــ عاشور (الدكتور سعيد عبد الفتاح) :
« قبرس والحروب الصليبية » القاهرة ١٩٥٧ م .

١٤١ — ......
« مصر فى عصر دولة المماليك البحرية » القاهرة ١٩٥٩ م .
١٤٢ — ......
« مصر فى العصور الوسطى » القاهرة ، ١٩٧٠ م .
١٤٣ — ......
« الحركة الصليبيه » جزآن ، القاهرة ١٩٦٣ م .
١٤٤ — ......
« العصر المماليكى فى مصر والشام » القاهره ١٩٦٥ م .
١٤٥ — العامرى (محمد عبد الهادى) :
« تاريخ المغرب فى سبعة قرون بين الازدهار والذبول » ، تونس ، ١٩٧٤ م .
١٤٦ — العبادى (الدكتور أحمد مختار) :
« دراسات فى تاريخ المغرب والاندلس » الاسكندرية ١٩٦٨ م .
١٤٧ — العبادى والدكتور السيد عبد العزيز سالم :
« تاريخ البحرية الاسلامية فى حوض البحر الابيض المتوسط » جزءان ، بيروت ١٩٧١ م .
١٤٨ — ......
« الصقالبة فى أسبانيا وعلاقتهم بحركة الشعوبيه » مدريد ١٩٥٣ م
١٤٩ — ......
« قيام دولة المماليك الاولى فى مصر والشام » بيروت ١٩٦٩ م .
١٥٠ — العبادى (الدكتور عبد الحميد) :
« المجمل فى تاريخ الاندلس » مصر ١٩٥٨ م .

١٥١ — ابن عبد الله (عبد العزيز) :
« معطيات الفن الاسلامى فى المغرب » مجلة المناهــل ، العدد ٣ ، الرباط ، ١٩٧٥ م .
١٥٢ — ......
« تاريخ الحضارة المغربية » الدار البيضاء ، ١٩٦٣ م .
١٥٣ — ......
« البحرية المغربية والقرصنة » مجلة تطوان ،العددان ٣ — ٤ ، ٥٨—١٩٥٩ م .
١٥٤ — ابن عبود (محمد بن عبد السلام) :
« تاريخ المغرب » ج ١ ، تطوان ، ١٩٥٧ م .
١٥٥ — عبد الحميد (الدكتور سعد زغلول) :
« الاثر المغربى والاندلسى فى المجتمع السكندرى » مجلة كلية الاداب بالاسكندرية ١٩٧٥
١٥٦ — ......
« تاريخ المغرب العربى » الاسكندرية ١٩٦٤ م .
١٥٧ — ......
« العلاقة بين صلاح الدين الايوبى وأبى يوسف يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن الموحدى » مجلة كلية الاداب بالاسكندريـــة ، ١٩٥٣ م .
١٥٨ — ......
« محمد بن تومرت وحركة التجديد فى المغرب والاندلس » بيروت ١٩٧٣ م .
١٥٩ — العدوى (الدكتور ابراهيم أحمد) :

« الاساطيل العربية فى البحر الابيض المتوسط » القاهرة ، ١٩٥٧ م

١٦٠ — ......

« الدولة الاسلامية وامبراطورية الروم » القاهرة ، ١٩٥٨ م .

١٦١ — ......

« قوات البحرية العربية فى مياه البحر المتوسط » القاهرة ١٩٦٣ م

١٦٢ — عثمـان (الاستاذ فتحى) :

« الحدود الاسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربى ، والاتصال الحضارى » ثلاثة أجزاء ،القاهرة ١٩٦٧ م .

١٦٣ — عـلام (الدكتور عبد الله على) :

« الدولة الموحدية بالمغرب فى عهد عبد المؤمن بن على » دار المعارف القاهرة ١٩٦٨ م .

١٦٤ — عنـان (الاستاذ محمد عبد الله) :

« عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والاندلس » القسم الاول والثانى ، القاهرة ١٩٦٤ م .

١٦٥ — ......

« مصر الاسلامية وتاريخ الخطط المصرية » القاهرة ، ١٩٣١ م .

١٦٦ — ابن غازى (محمد) :

« الروض الهتون فى أخبار مكناسة الزيتون » الرباط ١٩٥٢ م .

١٦٧ — الفاسى (التقـى) :

« منتخب المختار أو تاريخ علماء بغداد » نشر عباس الغزاوى بغداد ١٩٣٨ م .

١٦٨ — فهـد (الدكتور بدرى محمد) :

« تاريخ العراق فى العصر العباسى الاخير ، ٥٥٢—٦٥٦ هـ / ١١٥٧— ١٢٥٨ م » بغداد ، ١٩٧٣ م .

١٦٩ — فهمى (الدكتور عبد الرحمن) :

« فجر السكة العربية » من مجموعات متحف الفن الاسلامى القاهرة ١٩٦٥ م .

١٧٠ — ......

« صنج السكة فى فجر الاسلام » ، القاهرة ١٩٥٧ م .

١٧١ — ......

« الشارات المسيحية والرموز القبطية على السكة الاسلامية » محاضرة فى المؤتمر الثالث للاثار فى البلاد العربية بفاس ، القاهرة ١٩٦١ م

١٧٢ — ....

« النقود العربية ، ماضيها وحاضرها » المكتبة الثقافية ، عدد ١٠٣ ، القاهرة ١٩٦٤ م .

١٧٣ — الكعاك (الاستاذ عثمان) :

« العلاقة بين تونس وايران عبر التاريخ » تونس ١٩٧٢ م .

١٧٤ — لوبــون (جوستاف) :

« حضارة العرب » ترجمة : عادل زعيتر ، القاهرة ١٩٥٦ م .

١٧٥ — لــويس (أرشيبالد) :

« القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط » ، ترجمة الاستاذ أحمد عيسى ، القاهرة ١٩٦٠ م .

١٧٦ — ليفى بروفنسال (أفارست) :

« مجموعة رسائل موحدية » الرباط ١٩٤١ م .

١٧٧ — ......

« سلسلة محاضرات عامة فى أدب الاندلس وتاريخها ، القاها عامى ١٩٤٧ — ١٩٤٨ » ترجمة : الدكتور محمد عبد الهادى نسعيرة ، راجعها الدكتور عبد الحميد العبادى ، مطبوعات كلية الاداب — الاسكندرية ، ١٩٥١ م ٠

١٧٨ — ٠٠٠٠٠٠

« مؤرخو الشرفا » تعريف : عبد القادر الخلادى ، تقديم : الدكتور محمد حجى ، مجلة أرابيكا ١٩٥٦ ، مطبوعات دار المغرب للتأليف والنشر والترجمة ، سلسلة التاريخ رقم ٥ ، الرباط ١٩٧٧ م ٠

١٧٩ — ليو الافريقى (حسن بن محمد الوزان ت حوالى ١٥٤٠ م) :

تاريخ ووصف أفريقيا وأشهر ما فيها من عجائب ٠

١٨٠ — ماجـد (الدكتور عبد المنعم) :

« السجلات المستنصرية » القاهرة ١٩٥٤ م ٠

١٨١ — ٠٠٠٠٠٠

« نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر » القاهرة ١٩٥٣ م ٠

١٨٢ — ماهـر (الدكتورة سعاد) :

« البحريه فى مصر الاسلامية وآثارها الباقيه » القاهرة ١٩٦٧ م ٠

١٨٣ — محمود (الدكتور حسن أحمد) :

« قيام دولة المرابطين » القاهرة ١٩٥٧ م ٠

١٨٤ — مايـر (ل ٠ أ ٠) :

« الملابس المملوكية » ترجمة صلاح النسيتى ، مراجعة وتقديم الدكتور عبد الرحمن فهمى محمد ، القاهرة ١٩٧٢ م ٠

١٨٥ — مرزوق (الدكتور محمد عبد العزيز) :

« الفنون الزخرفية الاسلامية فى المغرب والاندلس » بيروت ١٩٧٢ م

١٨٦ ــ ملين (محمــد رشيد) :
« عصر المنصور الموحدى » الرباط ١٩٤٦ م
١٨٧ ــ مكى (الدكتور محمود على) :
« التشيع فى الاندلس » صحيفة المعهد المصرى للدراسات الاسلامية بمدريد ، المجلد الثالث ١٩٥٤ م .
١٨٨ ــ ....
« وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين » صحيفة المعهد المصرى للدراسات الاسلامية بمدريد ، المجلد السابع ، العدد ١ــ٢ ، ١٩٥٩ م .
١٨٩ ــ ......
« الزهرات المنثورة فى نكت الاخبار المأثورة » مجلة المعهد المصرى للدراسات الاسلامية بمدريد ، المجلد العشرون ، ٧٩ــ١٩٨٠ م .
١٩٠ ــ ابن منصور (عبد الوهاب) :
« قبائل المغرب » الرباط ١٩٦٨ م .
١٩١ ــ مــؤنس (الدكتور حسين) :
« مقدمة رياض النفوس للمالكى » القاهرة ١٩٥١ م .
١٩٢ ــ ....
« فتح العرب للمغرب » القاهرة ١٩٤٧ م .
١٩٣ ــ ......
« سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين وأيامهم فى الانــدلس » صحيفة المعهد المصرى للدراسات الاسلامية بمدريد المجلد الثانى ١٩٥٤ م
١٩٤ ــ ....
« فجر الاندلس » القاهرة ١٩٥٩ م .

١٩٥ — ميتز (آدم) :

« الحضارة الاسلامية » ج ١ — ٢ ، تعريب الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريدة ، القاهرة ١٩٥٧ م .

١٩٦ — نللينو (كارلو الفونسو) :

« بحوث فى المعتزلة » فصل من كتاب التراث اليونانى فى الحضارة الاسلامية ، ترجمة : الدكتور عبد الرحمن بدوى ، القاهرة ١٩٦٥ م .

رابعا — الرحلات :

١٩٧ — ابن بطوطة (محمد بن عبد الله بن محمد بن ابراهيم اللواتى الطنجى) : « تحفة النظار فى غرائب الامصار وعجائب الاسفار » تحقيق أحمد العوامرى ومحمد أحمد جاد المولى ، ج ١ — ٢ ، القاهرة ١٩٣٤ م .

١٩٨ — التجانى (أبو محمد عبد الله بن محمد — ت حوالى ٧١٧ هـ/ ١٣١٧ م) :

الرحلة . نشر حسن حسنى عبد الوهاب ، تونس ١٩٥٨ م .

١٩٩ — ابن جبير (أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير الاندلسى ٦١٤ هـ / ١٢١٧ م) :

الرحلة ، بيروت ، ١٩٦٤ م .

٢٠٠ — السبتى (القاسم بن يوسف التجيبى : ت ٧٣٠ هـ/١٣٢٩ م)
مستفاد الرحلة والاغتراب ، تحقيق عبد الحفيظ منصور ، تونس ١٩٧٥ م .

٢٠١ — ابن رشيد السبتى (محمد بن عمر ٦٧٥—٧٢١ هـ / ١٢٥٩ — ١٣٢١ م) :

« ملء العيبة فى ماجمع بطول الغيبة فى الوجهتين الكريمتين الى مكة

وطيبة » • تحقيق ، نجاح صلاح الدين القابسى ، آداب عيـــن شمس ، ١٩٧٨ م •

٢٠٢ ــ العبدرى الحيحى (أبو عبد الله محمد بن محمد) :
الرحلية المغربية ، تحقيق محمد الفاسى ، الرباط ١٩٦٨ م •

٢٠٣ ــ دائرة المعارف الاسلامية :
النشرة الفرنسية ١٩٦٢ ، ج ٢ ، فصل دينار ، بقلم :

G. Miles.

رابعــا ــ المراجــع الاوربية :

1 — Abun-Nasır "Gamil M." : A History of the Maghrib Cambrıdge, 1971.

2 — Alfred Bel; Les Banou Chanya, Paris, 1909

3 — Amedroz : Notes on Some Sufi Lives, 1912.

4 — Anonyme . Chazaouat Aroudj au Khair-ed Dın "Frade-Sanden-Rang et Davis" 2v in-80 Paris 1887.

5 — Bovill "E.W " : The Golden Trade of the Moors. London, Oxford 1970.

6 — Bourouiba "Rachid"; Ibn Tumart. S.N.E.D. Alger. 1974.

7 — ————; Abd El-Mu'min Flambeau Des Almohades. Alger,1974.

8 — Brunschvig "R" : La Bérbérie Oriental Sous Les Hafsides. 2 Tome Paris. 1940—46

9 — Cahen "CL." : Le Commerce dans le Monde Musulman a Son Apogèc, UNEF, FGEL annee 1966—1974.

10 — Curtin "Philıp. D." : The Atlantıc Slave Trade, London. 1969.

11 — Davidson "B" : - Old Africa Pedıscovered, London, 1959.

12 — ———— - Black Mother, London, 1961.

13 — Debreuil : Les Pavillons des êtats Musulmans Hespéris Tamuda, 1960.

14 — Fısher "Humphery" : The Western And Central Sudan Cambrıdge, 1970.

15 — Hartwıng Derenbourg : Omara du Yemen, Sa Vie et Son Oeuvre, Tome I, Paris, 1909.

16 — Heyed "W." : Hıstoıre du Commerce des Levant au Moyen Age Paris, 1885.

17 — Julıen "C.A." : Histoire de L'Afrique du Nord de la Conquête Arabe a 1930. Paris 1952—1959.

18 — Kuczynski, "R.R." : Population Movements. Oxford 1936.

19 — Lavoıx "H" : Catalogue des Monnaies Musulmanes de la Bibliothéque Natıonale, 3 Vols, Paris, 1887.

20 — Lean "L'Africain" · Description de L'Afrique Adrien-Maisonnenve Paris 1956

21 — Lopez "Robert S." . Medieval Trade In The Mediterranean World. Columbia, 1961

22 — Marçais "Georges" : La Berberie Musulmane et L'Orientan Moyen Age. Paris, 1946.

23 — ———, Les Arabes en Berberie du XI^e^ au XIV^e^ Siècles. Paris. 1913

24 — Massignon "Luis" : Le Maroc Dans Les Premieres Années du XVII Siècle. Paris, 1906.

25 — Oliver "Roland" & Fage "J.D " : A Short History of Africa. London, 1970.

26 — Peyrouton "Marcel" : Histoire Générale au Maghreb. Paris, 1966.

27 — Piloti "E." : L'Egypte au Commencement XV^e^ Siécle. Cairo. Univ. Fouad. 1950

28 — Pirenne "H" : Les Villes au Moyen Age. Essoi d'Histoire Economque et Sociale Bruxelles 1937.

29 — ——— . Mohamet ét Charlemagne, Paris, 1937

30 — Pliak, "A.N." : Les Rèvoltes Populaires en Egypte à L'epoque de Mamloukes et leurs Causes Economiques. R.E.I. Tome 3. Paris, 1934

31 — Rabinowitz, "L.I." : Jewish Marchant Adventures. London, 1948

32 — Raymond Mayny's : Tabbleau Geographique de L'Oues African au Moyen Age, Paris, 1961.

33 — Seligman, C.G., Races of Africa, London, 1966.

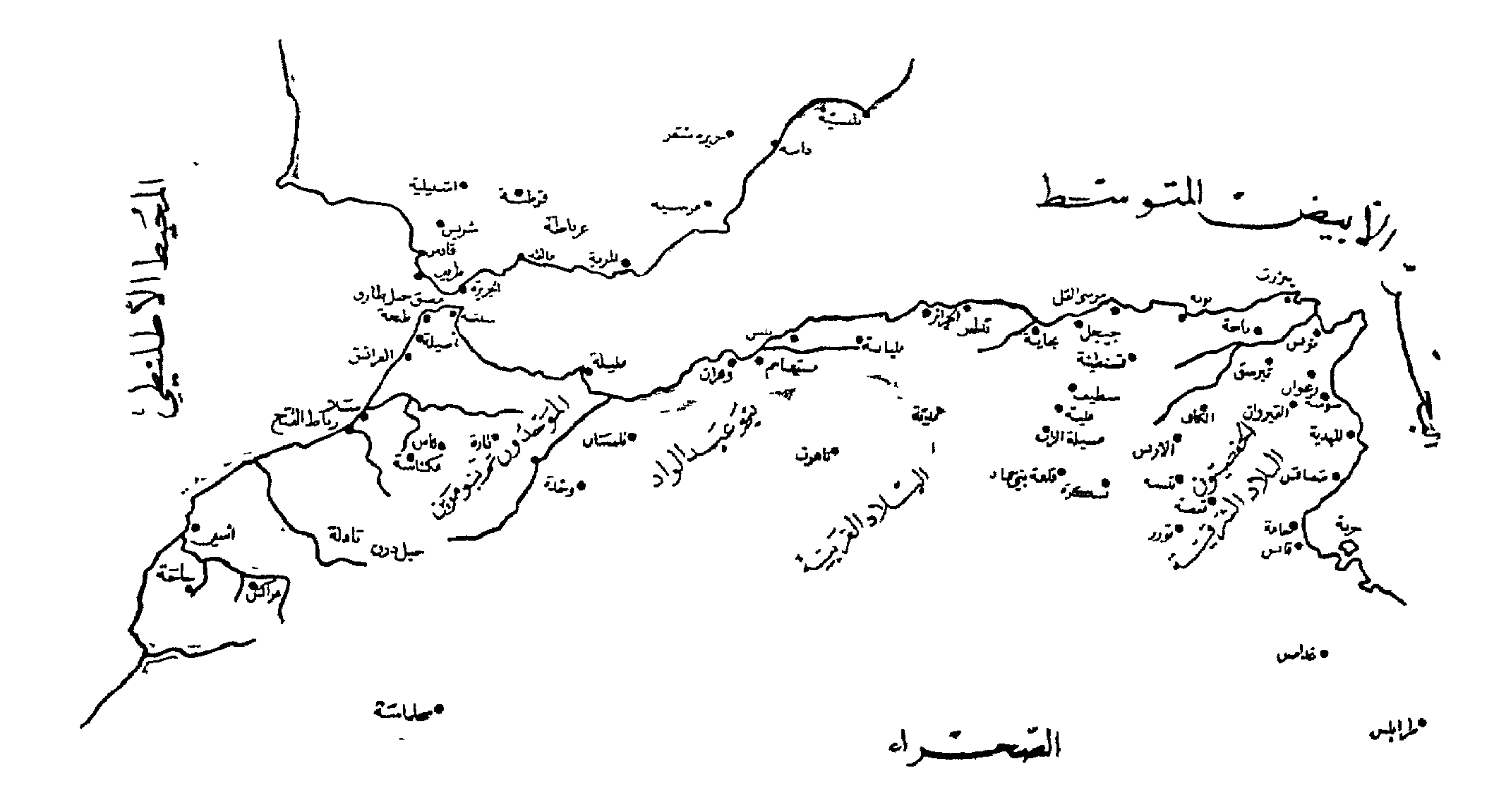
34 — Strauss, "E " Prix et Salaires à L'èpoque Mamlouke, etude sur L'etet Economique de L'Egypte et de la Syria a la fin du Moyen Age. Paris, 1949

35 — Terrassé; "H." : Histoire de Maroc, Casablanca, 1949.

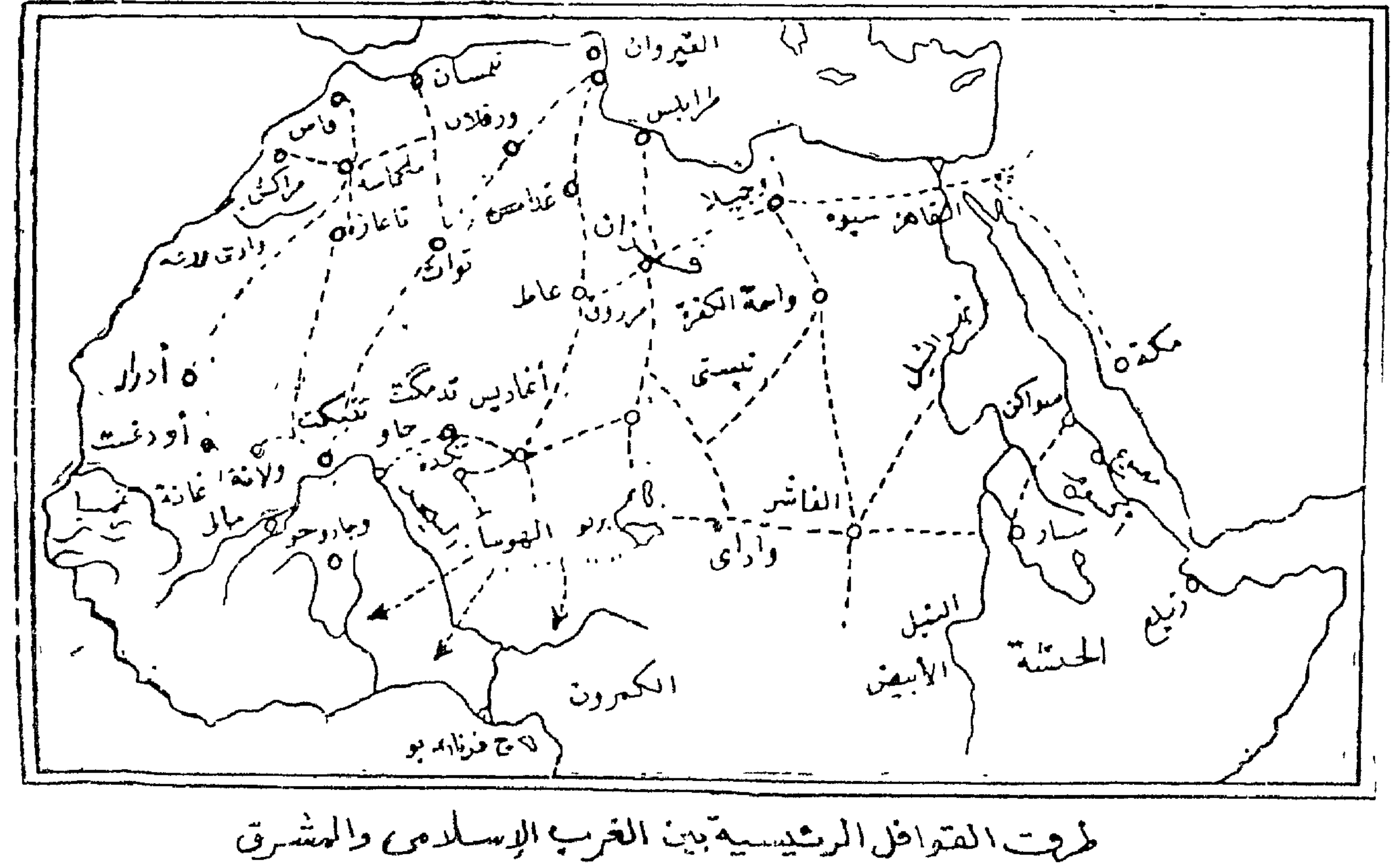
36 — Tourneau; "R.Le." : L'Occident Musulman du VIIes a la fin du XVes. Algerie 1958.

37 — Wiet Gaston : Histoire de la Nation Egyptienne, Tome IV (L'Egypte Arabe) Paris 1926.

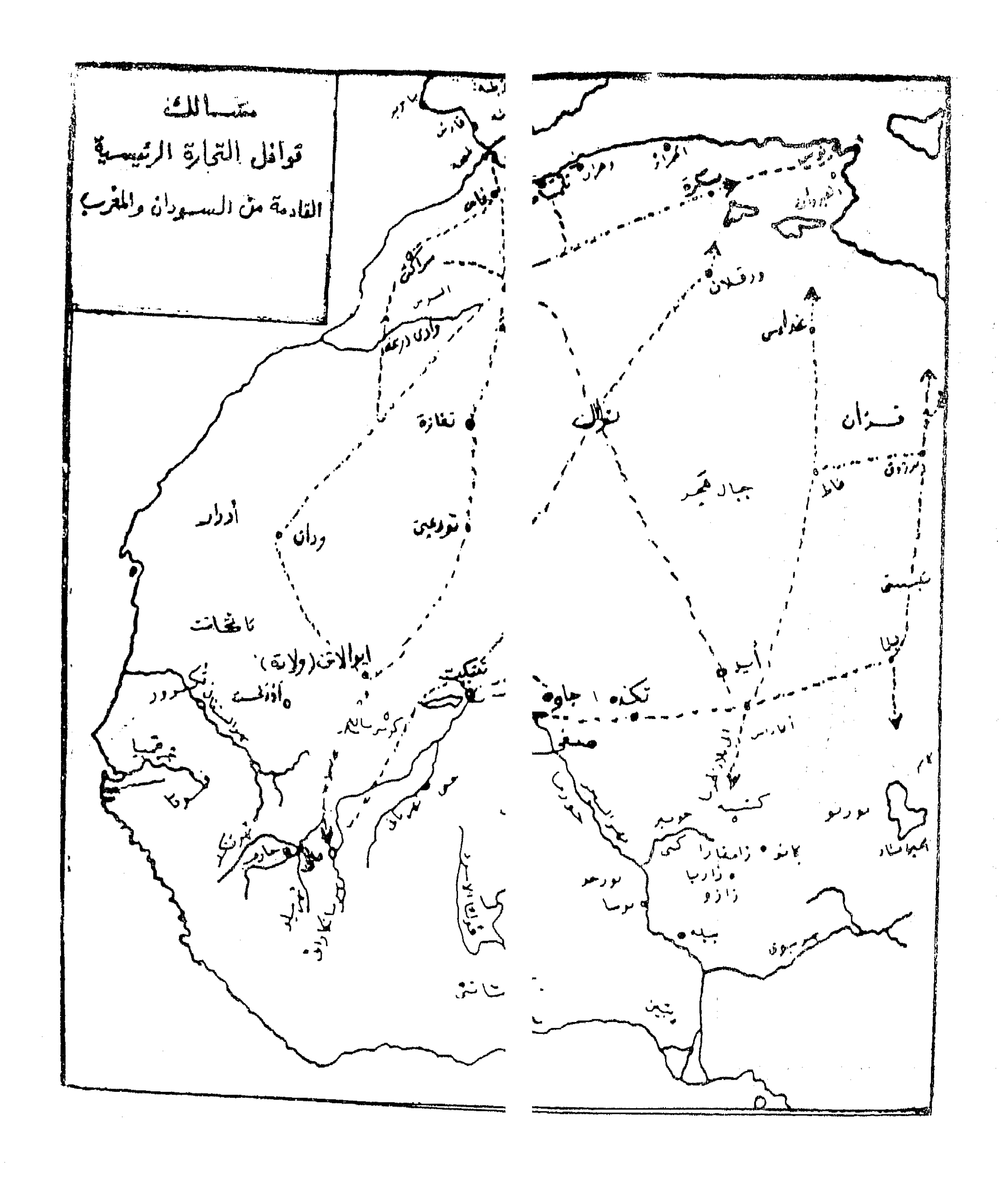
38 — Cambridge Medieval History, Tome II : Medieval Trade In The Mediterranean World Columbia 1961.



الأبيض المتوسط
المحيط الأطلنطي
الصحراء
الموحدون
بنو عبد الواد
البلاد الغربية
الحفصيون
البلاد الشرقية
تونس
بجاية
قسنطينة
الجزائر
وهران
مليلة
سبتة
طنجة
أصيلة
العرائش
رباط الفتح
سلا
فاس
مكناسة
تازة
مراكش
أسفي
تادلة
سجلماسة
تلمسان
وجدة
تاهرت
مستغانم
مليانة
سطيف
جيجل
القيروان
المهدية
سوسة
قابس
غدامس
طرابلس
شريش
اشبيلية
قرطبة
غرناطة
مالقة
المرية
مرسية
بلنسية



طرق القوافل الرئيسية بين الغرب الإسلامى والمشرق


مسالك
قوافل التجارة الرئيسية
القادمة من السودان والمغرب
تغازة
تودني
ودان
أدرار
ولاتة
تنبكت
ورقلان
غدامس
فزان
جبال هجير
مرزوق
بسكرة
كشنة
بورنو
زاريا
زازو
كانو
زامفارا

تعريف بعض المصطلحات المغربية

الحلاك : فى المغربية القديمة هو السارق .

ود الخلافة : أى أد واجبات الخلافة وتشريفات الامير ، والعبارة عامية ولا زالت مستعملة الى الان .

مولاها : صاحبها .

تطهير الصبى : ختانه ، ولا زالت مستعملة بهذا المعنى فى بعض جهات المغرب .

أساراك : مربط الخيل باللغة البربرية المغربية .

مذود : جمعها مذواد وهى مأكل الدواب وموضع علفها .

أسملس : باللغة البربرية السوسية يلت بالسمن أو الزبد وتأكله الجماعة .

الزراجنة : هى جمع زرجان وهو طائر أسود البطن أبيض الريش .

الشطب : أغصان الاشجار فى العامية المغربية .

أمزكور : هى الذرة بالشلحة (أى البربرية) .

المجسمون : كان الموحدون يلقبون المرابطين بالمجسمين ، لان محمد بن تومرت الزم فقهاءهم أثناء تناظره بالقول بالذات والمكان .

اكـــــــــــراو : مجمع باللغة البربرية •

المخــــــزن : الحكومة فى الاصطلاح الادارى المغربى القديم ، ولا زال يستخدم بنفس المعنى الى الان •

المحـــــــــلة : الجيش المستقر فى الاصطلاح العسكرى المغربى القديم ، وعكسها الحركة أى الجيش الضارب ، وقـــد تعنى المحلة مجرد الجيش •

اللسان الغـــربى : أى لغة الغرب (المغرب) وهى بالبربرية فى عرف الاندلسيين والمغاربة القدماء •

الـــــــــــرزة : يراد بها العروة التى يدخل فيها العمود (الزكروم) الذى تغلق به الابواب ، وتطلق الرزة أيضا على العمامة لاستدارتها على الرأس وما زالت للرزة دلالتاها المذكورتان الى الان •

الطاق أو الطاقة : الكوة ، النافذة الصـــغيرة وهى عربية • والطاق المصرية دار صغيرة فوقية تبنى فوق الحوانيت أو مدخل الديار ، ولعل هندستها نقلت الى المغرب من مصر فنسبت لها •

الغـــير : التغيير : أى الشر •

ضَم : أى جمــع : والكلمة تستعمك فى العامية المغربية بهــذا المعنى
ويقلب ضادها طاء (طم) •

تدرســــــنى : أى تدوسنى ، والكلمة من العــامى الفصيح •

أيفـــــرخان : جمع أفروخ ، أى الشاب القوى بالبربرية •
ويقلب ضادها طاء (طِم) •

تمت بحمــــــد الله

الفهـــرس

الموضوع	صفحة

الموضوع	صفحة

مطابـــع جـــريدة السفـــير

قرش جنيه
٧٫٥٠

١/١٢٢٥٧٧

دار المعارف — ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة
الناشر منطقه الاسكندرية ٤٢ ش سعد زغلول - ٢ ميدان التحرير (المنشية)